مجموع
رسائل الجامي
في العقيدة والسنة

تأليف
الدكتور محمد أمان بن علي الجامي

الناشر
دار ابن رجب
للطبع والنشر والتوزيع
المدينة المنورة - الحرة الشرقية - شارع الأمير
ص.ب: ٣٩٢٨

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م

دار ابن رجب

للطبع والنشر والتوزيع

المدينة المنورة. الحرة الشرقية. شارع الأعهدة

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضلّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد ألّا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً .

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تُقاته ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون .
[سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣]

يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً . [سورة النساء ، الآية : ١] .

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما .
[سورة الأحزاب ، الآيتين : ٧٠ - ٧١] .

* * *

أما بعد :-

فهذه الرسائل تعالج في الجملة مسائل في العقيدة والسنة النبويّة من حيث الدعوة إليهما والدفاع عنهما كما عالجت بعض الرسائل تاريخ العقيدة الإسلامية وسيرها في الماضي والحاضر . وقد كتبت هذه الرسائل في مناسبات مختلفة وتحت ظروف معيّنة منها :

ما كتب على شكل بحوث علمية للمشاركة في بعض المؤتمرات الإسلامية لبعض الجامعات .

ومنها ما كتب على شكل محاضرات .

ومنها ما كتب رداً على بعض الأفكار . وعلى كلٍ فهي رسائل أرجو أن تكون مفيدةً في موضوعات مختلفة وبحوثٍ علميةٍ متنوعة .

وبعد أن طبعت أكثرها ونشرت في بعض المجلات العلمية بل طبعت كلّها على شكل

رسائل مستقلة إلاّ رسالةً واحدةً وهي لا تزال مخطوطةً (العقيدة الإسلامية وتاريخها) وبعد أن نَفِدَ أكثر هذه الرسائل وقلّ وجودها في أيدي القرّاء ، بَدا لي جمعها في هذا العنوان :

(مجموع رسائل الجامي في العقيدة والسنّة)

والرسائل هي :-

١ - العقيدة الإسلامية وتاريخها .

٢ - تصحيح المفاهيم في جوانب من العقيدة .

٣ - المحاضرة الدفاعية عن السنّه المحمديةّ .

٤ - منزلة السنةّ في التشريع الإسلامي .

٥ - مشاكل الدعوة والدعاة في العصر الحديث .

٦ - العقل والنقل عند ابن رشد .

٧ - طريقة الإسلام في التربية .

٨ - سير الدعوة الإسلامية في افريقيا عبر التاريخ .

٩ - نظام الأسرة في الإسلام .

١٠ - الحكم على الشيء فرع عن تصوّره .

فأسأل الله تعالى أن ينفع بها طلّاب العلم الذين هم بحاجةٍ إلى مثل هذه الرسائل وهم صغار طلبة العلم .

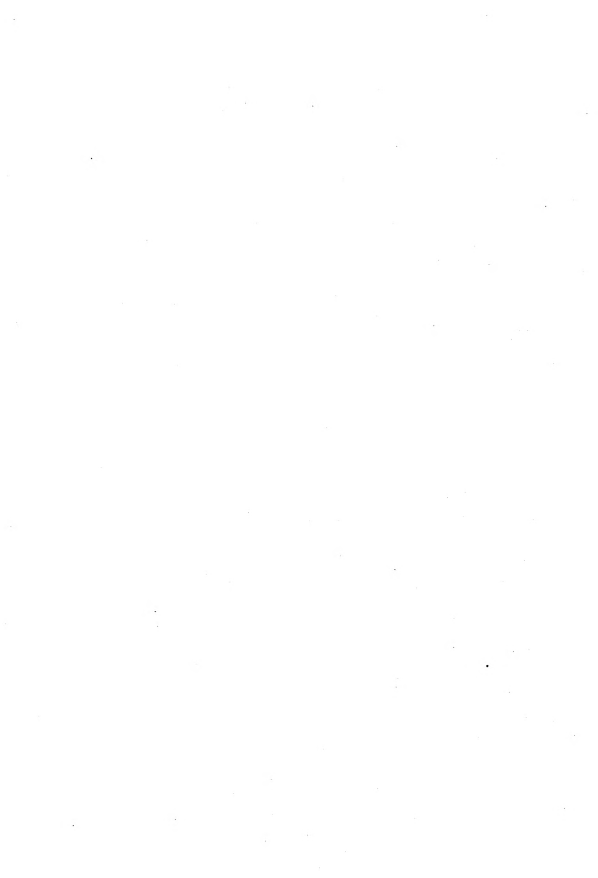
كما أسأله تعالى أن يرزقني الإخلاص لوجهه في كلّ ما أكتب بل في جميع أعمالي إنّه ولي ذلك والقادر عليه .

وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمدٍ وآله وصحبه .

* * *

الرسالة الأولى

العَقِيدة الاسلاميّة وتاريخها



بسم الله الرحمٰن الرحيم

« تقديم »

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يٰأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾[1] . **﴿ يٰأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾**[2] . **﴿ يٰأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾**[3] .

أما بعد : فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

وإن عقيدة التوحيد أساس هام لا بد منه لصحة الأعمال وقبولها عند الله ، فهي ركيزة الدين ، وبها بعث الله تعالى جميع الرسل ، فقال سبحانه : **﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾**[4] .

وقال سبحانه عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام : **﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾**[5] . وأمر سبحانه أمة محمد ﷺ أن تقتدي بإبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه فقال تعالى : **﴿ قد كانت لكم أسوة حَسَنَة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرءآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾**[6] .

---

(١) آل عمران : ١٠٢ . (٢) النساء : ١ .
(٣) الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ . (٤) الأنبياء : ٩٢ .
(٥) الزخرف : ٢٦ – ٢٨ . (٦) الممتحنة : ٤ .

ونَعَتَ سبحانه من يرغب عن ملة إبراهيم – وهي التوحيد الخالص لله جل جلاله – بالسفه ، لإعراضه عن هذه الملة ، وهي ملة من أسلم لله عز وجل ، واصطفاه الله سبحانه في الدنيا ، وكان من الصالحين في الآخرة ، فقال سبحانه : ﴿ **ومن يرغبُ عن ملة إبراهيم إلا من سَفِهَ نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أَسْلِمْ قال أسلمتُ لرب العالمين** ﴾[1] .

كما ذكر تعالى أن خليله إبراهيم وصَّى بنيه ، وكذلك يعقوبُ بالتزام ملة التوحيد – لأن الله اختار لهم هذه الملة ، ووصاهم أن لا يموتوا إلا مسلمين . فقال سبحانه ﴿ **ووصى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ يا بنيَّ إن الله اصطفى لكم الدينَ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[2] .

ثم بين سبحانه أن يعقوب عليه الصلاة والسلام سأل بنيه عندما حضره الموت عمن يعبدون من بعد موته ، فأجابوا أنهم يعبدون إلهَهُ وإلهَ آبائِه إلهاً واحداً ، وهم مسلمون له جلَّ وعلا – فقال سبحانه : ﴿ **أم كنتم شهداءَ إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبدُ إلهَكَ وإلٰهَ آبائِكَ إبراهيم وإسماعيلَ وإسحاقَ إلهاً واحداً ونحن له مسلمون** ﴾[3] .

وكذلك قال تعالى عن رسله كنوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب عليهم الصلاة والسلام أنهم دَعوا أقوامهم بقولهم ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾[4] .

وقال سبحانه عن أهل الكهف ﴿ **إنهم فتيةٌ آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السمٰوٰت والأرضِ لن ندعُوَا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً** ﴾[5] . .

والتوحيد ينقضه الشرك ، والشرك لا يغفره الله تعالى ، إذا مات صاحبه مُصِرّاً عليه ، سواء كان شركاً بالملائكة ، أو بالأنبياء ، أو بالكواكب ، أو بالأصنام ، أو ممن يزعم بعض الناس بأنهم صالحون أو أولياء من الأموات أو الأحياء – فقال

---

(١) البقرة : ١٣٠ ، ١٣١ .
(٢) البقرة : ١٣٢ . (٣) البقرة : ١٣٣ .
(٤) الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ . وهود : ٢٦ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ .
(٥) الكهف : ١٣ ، ١٤ .

سبحانه ﴿ **إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً** ﴾[1] - ويقول سبحانه : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يُشْرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً** ﴾[2] .

وقد جعل الله جزاء نقض التوحيد والتلبس بالشرك بطلان العمل في الحياة الدنيا ، يقول تعالى : ﴿ **ولو أشركوا لحبط[3] عنهم ما كانوا يعملون** ﴾[4] . ويقول سبحانه ﴿ **ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنَّ عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾[5] .

وجعل الله تعالى جزاء نقض التوحيد والشرك في الآخرة الحرمان من دخول الجنة والخلود في النار - والعياذ بالله - إذا مات العبد مصراً عليه وبلغ شركه درجة الشرك الأكبر ، إما إذا اقتصر على الشرك الأصغر أدخل النار فترة على قدر شركه ، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين الذين يأذن الله لهم ويرضاهم ، ويدخل بفضل الله الجنة -

يقول تعالى : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾[6] .

وقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله - بسنده - عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من لَقِيَ الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار » .

ولهذا أكد الله جلّ وعلّا على رسولنا محمد ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وهي ملة التوحيد واجتناب الشرك بكل ألوانه وصوره ، فقال تعالى ﴿ **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾[7] .

ولقد أخبرنا الله عزَّ وجلَّ أن المشركين وكفرة أهل الكتاب هم شر الخلق جميعاً ، وأنهم في نار جهنم خالدون ، وأن المؤمنين الموحدين هم خير الخلق جميعاً ، وأنهم في جنات عدن خالدون ، فائزون برضا الله عزَّ وجلَّ . فيقول سبحانه :

---

(١) النساء : ٤٨ . (٢) النساء : ١١٦ .
(٣) لبطل . (٤) الأنعام : ٨٨ . (٥) الزمر : ٦٥ ، ٦٦ .
(٦) المائدة : ٧٢ . (٧) النحل : ١٢٣ .

﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شرُّ البريَّة * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشِيَ ربه ﴾[1] .

ولأن الشرك بالله ظلم عظيم لقوله تعالى في وصية لقمان لابنه وهو يعظه **﴿ يا بُنيَّ لا تشركْ بالله إن الشرك لظلمٌ عظيمٌ ﴾**[2] . والقليل من الناس من ينجو منه ، والكثير منهم في غفلة من عذاب الله ، ولهذا لزم التحذير والتنفير من الشرك ، وإيقاظ الغافلين ليجتنبوه ، ويحرصوا على النجاة منه - فالله تعالى يقول : **﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون * أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتةً وهم لا يشعرون * قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾**[3] . ولذلك قيَّض الله في كل عصر ومصر طائفةً منصورةً من أمة رسوله الخاتم محمد ﷺ تقوم على بيان الحق ، وتهدي من ضل عنه ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله عزَّ وجلَّ . وقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله - بسنده - عن ثوبان رضي الله عنه حديثاً جاء في ختامه « وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبيَّ بعدي ، ولا تزال طائفةٌ من أمتي على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى » .

وحين ننظر إلى واقع المسلمين اليوم ، وقد تَخَلَّوْا عن عقيدة التوحيد التي كان عليها سلفهم الصالح رضوان الله عليهم ، نجدهم قد غزتهم أفكارٌ مسمومة من الداخل والخارج ، وعقائد زائغة رَوَّجَها مبتدعون خرافيون ، وأصحاب مصالح مادية ، وتطلعات ومطامع دنيوية ، فلبَّسُوا الحق بالباطل في جرأة قوية ، وشَوَّهُوا العقيدة الصحيحة ، وعاثوا في الأرض فساداً ، وأخذوا يقفزون من قطر إلى قطر ، حتى وقع في براثنهم عدد غير قليل خاصة من الشباب الجاهلين الغافلين ، ففسدت حياتهم ، وأفسدوا حياة غيرهم ، وعاشوا في متاهات الظلام ودياجير الضلال حيارى لا يدرون أين الطريق ؟!! .

---

(١) البينة : ٦ ، ٧ ، ٨ . (٢) لقمان : ١٣ .

(٣) يوسف : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

وقد وفق الله عالماً جليلاً هو فضيلة الشيخ الدكتور محمد أمان بن علي الجامي عميد كلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية ورئيس شعبة العقيدة بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقاً ، والمدرس بالمسجد النبوي الشريف حالياً – فبذل كل جهوده في بيان الحق من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بلسانه تارة ، وبقلمه تارة أخرى ، ليبصر الناكبين عن الصراط المستقيم ، وليهدي المتخبطين إلى تصحيح عقيدتهم بالبعد عن خرافات وبدع مقلدي الفرق التي انتسبتْ زوراً إلى الإسلام ، والتي مزقت الأمة الإسلامية وشتتت شمل أفرادها وهم جميع ، وأجَّجتْ نار الخصومة والعداوة والبغضاء بينهم . أقول : وفق الله تعالى – بفضله ومَنِّه هذا العالم الفاضل ، فأخذ ينصح محاضراً ومؤلفاً ، وكان من ضمن مؤلفاته هذا المؤلَّف القيم الذي أسماه (**العقيدة الإسلامية وتاريخها**) ، فبين فيه مضمونها وأهميتها للمسلم ، كما بين سبب انصراف الناس عنها ، وانقسامهم إلى فرق مختلفة صارت الأمة بهم شيعاً وأحزاباً ، وخالفوا أمر الله لهم أن لا يتفرقوا بإثارة التنازع فيما بينهم ، إذ قال سبحانه : ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾[1] .

وبيَّن المؤلِّف – بارك الله فيه – جُلَّ الفرق وعقائدهم التي بَعُدَتْ بها عن الإسلام ، كما بيَّن كيف كانت هذه الفرق وبَالاً على الأمة الإسلامية قديماً .

بل ولا زالت تطل برؤوسها في العصر الحديث لتعيد تاريخ الأمس بما حدث فيه من الشرور والمآسي الدامية – لا قدر الله ذلك – ثم بين المؤلِّف – جزاه الله خيراً – كيف ظهر دعاة صدق ، وعلماء حق كسروا جمود الجامدين الضالين الذي ضلوا وأضلوا ، وكشفوا عما وُورِيَ من الحق ، فاستنار بعلمهم وبيانهم من هَدَى الله ، واندثر من حَقَّتْ عليهم الضلالة . ولايزال هذا العالم بمؤلفات أخرى يتابع النصح ويوالي التوجيه والإرشاد – أدام الله عليه التوفيق – ليبصر المسلمين إلى خطر الانتماء إلى أي فرقة من فرق الضلال ، التي نسبت نفسها بهتاناً إلى الإسلام ، فقد ظهرت في هذا العصر جماعات نبشت عن أفكار تلك الفرق الزائغة ، وعدَّلت منها ما يوافق هواها وأطماعها ومصالحها ، وأخذت تدعو الجاهلين الغافلين إليها زعماً منها أنها أفكار الإسلام ، وحسبوا أنهم على شيء ؛ وظنوا أنهم أعطوا ذكاءاً ، وحصَّلوا عِلوماً

(١) الأنفال : ٤٦ .

وخبراتٍ ما نالها أحد غيرهم بلغوا بها درجات عالية في الحضارة والرقي والتقـدُّم ، والحق أنهم أُوتُوا ذَكَاءاً ولم يُؤْتَوْا زكاءاً ، وأُوتُوا علوماً ولم يُؤْتَوْا فُهُوماً ، وأُوتُوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، ﴿ **فما أغْنَى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾[1] .

وكان حصاد ما جمعوا أن أوقعهم في براثن أتباع الفرق الزائغة ، والجماعات الجاهلة الحائرة ، فانحرفوا وتطرفوا ، وجعلوا الإرهاب وترويع الآمنين بسفك الدماء ، وسلب الأموال ، وهتك الأعراض ، أظهر أساليبهم في فرض أفكارهم ، فملأوا الأقطار رُعباً ، والنفوس ذُعراً ، حتى أصبح الفرد يخشى على نفسه من أخيه ، وأمه ،أبيه ، وصاحبته وبنيه ، وعاش الأفراد في خوف وهلع مما يتوقعون ما يحل بهم من مفاجآت الغدر والنكبات .

أسأل الله تعالى أن يعيد أولئك الفارِّين – بغواية الغاوين – مرة أخرى إلى الإسلام ، ويثبت قلوبهم عليه ، ويفقههم فيه حتى يكونوا ممن يصلحون في الأرض ولا يفسدون .

كما أسأل الله جلَّ وعلا أن يبارك في المؤلِّف الجليل ، وأن يديم انطلاق لسانه بالصدق ، وسيلان قلمه بالحق ، وأن يجزيه عما يقدم خير الجزاء ، وأن يجعله خالصاً لوجه الله الكريم ، وأن يثقل به ميزان حسنات المؤلِّف يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه .

كتبه

دكتور / سعد عبد الرحمٰن ندا

أستاذ بكلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقاً

ومبعوث رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء

والدعوة والإرشاد حالياً

---

(١) الأحقاف : ٢٦ .

المدخل

* **العقيدة في اللغة :**

لهذه الكلمة عدة معانٍ في اللغة :

ومما قال أهل اللغة : « عقد الحبلَ والبيع والعهد يعقده عقداً : شدَّه » .

قال صاحب « تاج العروس » : « والذي صرح به أئمة اللغة والاشتقاق أن العقد نقيض الحل ، يقال : عقده يعقده عقداً ... » إلى أن قال : « ثم استعمل في أنـواع العقود من البيوعات وغيرها ، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم ، وفي اللسان : عقدت الحبلَ فهو معقود ، وكذا العهد ، ومنه عقدة النكاح » .

فانطلاقاً من هذه المعاني اللغوية ؛ فإن العقيدة الإسلامية هي تصميم القلب والاعتقاد الجازم الذي لا يخالطه شك في المطالب الإلهية ، والنبوات ، وأمور المعاد ، وغيرها مما يجب الإيمان به .

المطالب الإلهية :

ونعني بـ (المطالب الإلهية) : الإيمان بالله في ربـوبيته وألوهيته ، والإيمان بأسمائه وصفاته وغير ذلك مما يجب الإيمان به .

فيجب على العبد أن يؤمن بوجود الله الحقيقي الإيمان اليقينيَّ ، غير شاك بأن الله فوق جميع مخلوقاته بذاته ، كما يليق به سبحانه ، وعلى الكيفية التي لا يعلمها العباد ، إذ لا يعلم كيف هو إلا هو ، ومع ذلك لا يخلو مكان من علمه تعالى ، بل هو مع جميع مخلوقاته بعلمه وسمعه وبصره وبجميع معاني ربوبيته على الوجه الذي يليق به ، إذ ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، وهو سبحانه خالق كل شيء وحده ، ومدبر الأمور وحده ؛ إذ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، وهو بكل شيء عليم ، أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً .

فإيمان العباد بهذه المعاني من معاني الربوبية ؛أي : إفراده سبحانه في ربوبيته ؛ كما فطر العباد على ذلك ، يُلْزمهم هذا الإيمانُ أن يُفْردوه بأفعالهم كما انفرد هو بأفعاله ؛

بحيث يدعونه وحده سبحانه ، ولا يشركون به شيئاً ، بل لا يعلقون قلوبهم إلا به ، ولا يلتفتون إلى أحد سواه بالمحبة والخضوع والتذلل ، بل لا يستحق كل ذلك إلا هو سبحانه . ﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾[1] .

ويثبتون له ما أثبت لنفسه ، أو أثبته له رسوله الأمين ﷺ ، الذي أمنه على وحيه ودعوة الناس إليه وحده .

ويدخل في المطالب الإلهية الإيمان بقدر الله السابق وقضائه النافذ ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وأن ما أصاب العبد في علم الله لا يخطئه ، وما أخطأه في علمه لا يصيبه ؛ إذ لا يقع شيء في ملكه دون قدره وقضائه وفعله .

وذلك لقوله تعالى :
﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾[2] .

وقوله تعالى :
﴿ **مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾[3] .

والآيات والأحاديث في وجوب الإيمان بالقدر والقضاء كثيرة جداً كما لا يخفى ، وهذا المقدار الذي ذكرناه يكفي في الإيمان بالقدر ، مع الكف عن الخوض في أسرار الرب تعالى في قدره وقضائه وأفعاله التي لا تصدر إلا عن حكمة ؛ فكما لا يجوز السؤال عن كيفية صفاته تعالى بـ (كيف) ؛ كذلك لا يجوز السؤال عن أسرار قدره وقضائه بـ (لماذا) أو بـ (لِمَ) ؛ فلا يجوز للمؤمن أن يقول : لِمَ خلق الله هذا ، ولِمَ أعطى فلاناً ومنع فلاناً ؛ مثلاً ، بل يجب الإيمان بأنه سبحانه لا يخلق ولا يرزق ولا يعطي ولا يمنع ولا يحيي ولا يميت إلا لحكمة ، وليس ذلك لمجرد تعلق الإرادة بالمفعول كما يزعم بعض أهل الكلام ذلك (وهم الأشاعرة

(١) النحل : ١٧ .
(٢) التوبة : ٥١ .
(٣) فاطر : ٢ .

الكلابية) .

وقد ثبت عن غير واحد من السلف الصالح قولهم : « القدر سر الله ، فلا نكشفه » ؛ فالتعرض لهذا السر الإلهي مزلة الأقدام ، ومن أسباب الزيغ والضلال ؛ فليحذر كل الحذر .

ومما يدخل في المطالب الإلهية : الإيمان بملائكته جملة وتفصيلاً ؛ تصديقاً لخبر الله تعالى ، وهم جنود الله في سماواته وأرضه ، موظفون في مختلف الوظائف :
﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1] .

كما يدخل في المطالب الإلهية : الإيمان بكتبه المنزلة على رسله بالهدى ودين الحق ، وأن تلك الكتب من كلام الله تعالى حقيقة ، وأن كلام الله لا نفاد له .
﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2] .
﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَداً ﴾[3] .

وغير ذلك مما يجب الإيمان به من جزئيات هذا الباب العظيم .

*** النبوات :**

نعني بالإيمان بالنبوات : الإيمان برسل الله تعالى جملة وتفصيلاً ، والإيمان بنبينا محمد ﷺ بصفة خاصة ، وأنه خاتم الأنبياء ، وأن الأعمال لا تقبل من أحد إلا إذا جاءت موافقة لهديه ﷺ ، وأنه هو إمام المرسلين ، وسيد الناس أجمعين ، صاحب الرسالة العامة إلى جميع الثقلين الجن والإنس ، وأنه يجب تصديقه في كل ما أخبر به ، وطاعته فيما أمر به ، مع الانتهاء عمَّا نهى عنه ؛ إذ طاعته من طاعة الله ، ومعصيته من معصية الله .
﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[4] .

ومن معاني الإيمان بالرسول ألَّا يُعبَد اللهُ إلَّا بما جاء به ﷺ ، وأن يشهد له أنه

---

(١) التحريم : ٦ . (٢) لقمان : ٢٧ .
(٣) الكهف : ١٠٩ . (٤) النجم : ٣ - ٤ .

بلغ رسالة ربه كاملة دون أن يكتم منها شيئاً في نصح تام دونه كل نصح ، وأنه أمينه على وحيه ، وقد أدى تلك الأمانة على أكمل وجه .

وقد شهد له أصحابه بذلك في أعظم اجتماع تاريخي في حجة الوداع ؛ إذ سألهم الرسول سؤالاً مثيراً ، وأجابوا بجواب يثلج الصدر ويبرد القلب ، قال لهم في آخر خطبة يوم عرفة وهم في وادي عرفة بجوار عرفة ، تلك الخطبة الحافلة بكثير من التوجيهات والتعليمات النبوية الرحيمة ، ونص السؤال هكذا : « أنتم مسؤولون عني ؛ ماذا أنتم قائلون ؟ » . وكان الجواب : « نشهد أنك بلغت ونصحت » .

الله أكبر ! ما أعظمه من جواب ! ملؤه الإيمان الصادق ، فرضي الله عن أصحاب رسول الله ﷺ .

ونحن نشهد كشهادتهم : أنه ﷺ بلغ رسالة ربه ، ونصح لأمته ، فما من شيء يقربهم إلى الله إلاَّ بيَّنه لهم ودعاهم إليه ورغَّبهم فيه ، وما من شيء يبعدهم عن الله إلاَّ بيَّنه لهم ونهاهم عنه وحذرهم منه ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

هذا بالجملة ما نعنيه بالإيمان بالنبوات مع الإيمان بآيات الرسل التي تعرف عند علماء الكلام بـ (المعجزات) ، وهي أمور خارقة للعادة ، يظهرها الله على أيدي الأنبياء ؛ تصديقاً لهم وتثبيتاً .

الإيمان بالمعاد :

وأما الإيمان بأمور المعاد ؛ فنعني به : الإيمان بالبعث بعد الموت ، وإعادة الحياة الحقيقية إلى الأجساد ، وما يتبع ذلك مما يجري في عَرَصات القيامة وفي الحياة الآخرة ، بدءًا من البعث بعد الموت ، وانتهاءً إلى الجنة ونعيمها الدائم الذي لا يزول ، أو إلى النار وعذابها الدائم الذي لا ينتهي .

إذ يعيش الإنسان في هذه الحياة الدنيا وهو يكدح كدحاً سوف يلاقيه ، ولا يذهب شيء سدى ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَـٰقِيهِ ﴾[1] .

فيجب الإيمان بتلك الحياة الآخرة بكل ما فيها ، وأنها حياة حقيقية كهذه الحياة

---

(١) الانشقاق : ٦ .

الدنيا ، بل هي أكمل ؛ لأنها دائمة بإدامة الله إياها .

كما يجب الإيمان بالبرزخ الفاصل بين الحياتين ، بين الحياة الدنيا وبين الحياة الآخرة .

فالعقيدة تعني : إيمان القلب بهذه المعاني وغيرها مما يجب الإيمان به ، وهو جانب مهم من جوانب الإيمان ، وعنصر هام من عناصر الإيمان ، وهناك إيمان عملي وإيمان قولي كما هو معروف .

هذا موجز ما يجب الإيمان به من أمور المعاد .

فمجموع هذه الأمور : الإيمان بالمطالب الإلهية على ما ذكر ، والإيمان بالنبوات بالتفصيل السابق ، ثم الإيمان بأمور المعاد كما أوجزنا .

فهذا الإيمان المفصل هو العقيدة الإسلامية التي نحن بصدد الحديث عنها .

من هنا نعلم أن العقيدة هي الإيمان بالله وبما يجب لله عزَّ وجلَّ من صفات الكمال ، وتنزيهه عن النقائص وما لا يليق به ؛ كالشريك . والصاحبة ، والولد ، والوزير ، والمعين ، ومن يتصرفون معه في هذا الكون ... إلى آخر ما سبق تفصيله .

وهذا التصور الشامل والكامل - إن شاء الله - للعقيدة الإسلامية يردُّ ظن الذين يزعمون أن الاهتمام بالعقيدة ودراستها أمر ثانويٌّ ، أو نوع من ترف المعرفة ، يشتغل به أفراد من الذين لديهم نهمةٌ في المعارف الزائدة ونوافل العلوم .

فعلى هؤلاء أن يعيدوا النظر في ظنهم هذا - والظن أكذب الحديث - ، ولو أعادوا النظر وأنصفوا مع أنفسهم ؛ لأدركوا أن العقيدة - كما شرحنا قبل - علم ضروري ، لا يستغني عنه مسلم ما ، فإذا ثبت أنها الإيمان بالله وحده وبكلماته وتصديق أخباره وأخبار رسله كما أسلفنا التفصيل ؛ فلا يمكن الاستغناء عنها ؛ إلا إذا أمكن الاستغناء عن الإيمان نفسه .

إلا أن التوسع في مسائل العقيدة ، ومعرفة أنواع الشبه التي قد ترد على بعض مسائل العقيدة ، والتضلع في ذلك ، ومعرفة الفرق التي انحرفت في باب العقيدة ، والقدرة على ردِّ شبههم ؛ إن ذلك فرض كفاية ، إذا قام به بعض أفراد العلماء المتخصصين وأصحاب المواهب الخاصة ؛ فيُغني ذلك الآخرين عن الاشتغال

بالتوسع وما عطف عليه ، بحيث لا يأثمون بترك ذلك .

أما أصل العقيدة ؛ فمعرفتها فرض عين ، وأمر لا بدَّ منه لكل أحد كما قلنا ، بل هي أساس الدين ؛ فالتقصير في ذلك المقدار تقصير في الإيمان على ما تقدم . .

ولا شكَّ أن ما يجب على من تصدى لتعليم الناس وما يجب على المفتي والقاضي وكل من لهم شأن في هذا الباب غير ما يجب على عامة الناس وجمهورهم ؛ كما أوضح ذلك شيخ الإسلام في بعض كتبه رحمه الله .

وهكذا يقال في سائر العلوم الشرعية من الأحكام الفقهية وعلوم الحديث والتفسير ... وغيرها .

فعلم العقيدة أول ما يجب على كل مسلم ومسلمة ، بل هو من أوجب العلوم وأشرفها .

كيف لا وشرف العلم بشرف المعلوم ، ومعلوم هذا العلم هو الله تعالى بصفاته وأسمائه ، ومعرفة حقه تعالى الواجب على العباد ، وما يتبع ذلك من مسائل هذا الباب العظيم التي تقدم شرحها وبيانها .

ومسائل هذا الباب هي التي أرسلت الرسل من أجلها ، ولها أنزلت الكتب عليهم ، وهي خير ما اكتسبته القلوب وأفضله وأحبه وأنفعه .

فعلى أولي الألباب أن يتسابقوا في معرفة مسائل العقيدة جملة وتفصيلاً ؛ كل واحد في حدود استطاعته ؛ إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وبعد ؛ هذه هي العقيدة الإسلامية بنوع من الاختصار ؛ فأرجو ألا يكون مخلاً ، مع نبذة من مكانتها ومنزلتها . وبالله التوفيق .

* * *

تاريخ العقيدة الإسلامية

وأما تاريخ العقيدة الإسلامية ؛ فضارب في أعماق الدهور والعصور ؛ إذ ما من نبي أرسل ؛ إلا صدر دعوته بالعقيدة وجعلها زبدة رسالته .

يقول الله عزَّ وجلَّ لنبيه وخاتم رسله :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1] .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾[2] .

وهذا يعني أن الأنبياء عليهم السلام جميعهم كانوا يستفتحون دعوتهم إلى الله تعالى بإصلاح العقيدة قبل كل فضيلة يدعون إليها .

لذا نجد في سورة كهود مثلاً عدداً من الرسل عليهم السلام افتتحوا دعوتهم لأقوامهم إلى الله بالدعوة إلى العقيدة وإصلاحها وإلى معنى كلمة الإيمان وكلمة الإسلام وأصل العقيدة (لا إله إلا الله) :

بدءاً من نوح عليه السلام ، وهو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد وقوع الشرك في قومه .

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[3] .

ويقول عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾[4] . .

---

(١) الأنبياء : ٢٥ . (٢) النحل :٣٦ .

(٣) هود : ٢٥ -٢٦ . (٤) هود : ٥٠ .

وفي السياق نفسه وبالأسلوب ذاته يقول الله عزَّ وجلَّ في شأن صالح عليه السلام وقومه :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحاً قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾[1] .

ثم يواصل السياق الكريم ليقول الله فيه عن شعيب عليه السلام وقومه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾[2] .

ويقول الله تعالى في سياق آخر وفي سورة أخرى في محاجة يوسف عليه السلام لصاحبي السجن :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3] .

... هكذا يوضح كتاب الله تعالى تاريخ العقيدة الإسلامية عبر التاريخ الطويل مع أنبيائه ورسله ، وأنه قد كانت العقيدة مفتاح دعوتهم ، وذلك يعني أن الأنبياء عليهم السلام دينهم واحد ، وهو الإسلام – ﴿ **إنَ الدينَ عند الله الإسلام** ﴾ – ؛ بعقيدته وأصوله ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ، إذ جعل الله سبحانه – حكمةً منه – لكل نبي شرعةً ومنهاجاً يناسب قومه وأحوالهم وظروفهم وأزمانهم ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾[4] .

---

(١) هود : ٦١ .

(٢) هود : ٨٤ .

(٣) يوسف : ٣٩ – ٤٠ .

(٤) المائدة : ٤٨ .

فأمر العقيدة أمر ملازم للبشرية منذ أن هبط آدم أبو البشر إلى الأرض ؛ فهو ملازم للبشرية عبر تاريخها ؛ كما رأيت .

وكذلك فقد بيَّن كتاب الله بأن الله استخرج ذرية بني آدم من ظهورهم ، وذلك بعد أن استخرج ذرية آدم من صلبه ؛ كما ثبت بالسنة ، وخاطبهم جميعاً وهم في عالم الذَّرِّ ، وأشهدهم على أنفسهم بأن الله ربهم وخالقهم ، وأنه لا إله إلا هو .

قال الله عزَّ من قائل[1] :

﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ** ﴾ .

وعلى الرغم من هذه العقيدة التاريخية المُوَحَّدَة بين جميع رسل الله ؛ فقد وجدت في التاريخ فرق مختلفة في عقائدها وأصول دينها أحياناً ، ومناهجها أحياناً ، وأسلوب دعوتها أحياناً ، وهذا ما سنتناوله في الفصول الآتية .

* * *

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .

الفرق التي تكلمت في أصول الديانات

وقد تكلمت في أصول الديانات فرق مختلفة الاتجاه ، وهي تنقسم إلى قسمين :

* **القسم الأول** : وهي الفرق التي تكلمت في الديانات وهي لا تنتسب إلى ملة الإسلام ، وأهمها : ١) اليهودية . ٢) النصرانية . ٣) الدهرية . ٤) الثنوية (هم القائلون بالأصلين : النور والظلمة) . ٥) المجوسية (وهم عباد النار) . ٦) الصابئة . ٧) الهندوكية . ٨) البوذية . ٩) الزنادقة (وهم طوائف من القرامطة الباطنيين) . ١٠) الفلاسفة بجميع فرقهم (وهم عشاق الحكمة في زعمهم ؛ لأن لفظة (فيلو) معناها : محب الحكمة ، ويسمون كبارهم : الحكماء ، بينما يسمون بقية الناس : عواماً ولو كانوا أهل العلم والمعرفة) .

هذا هو اصطلاح الفلاسفة وهم قوم أنانيون كما ترى .

* **القسم الثاني** : وهي الفرق التي تكلمت في الديانات وهم ينتسبون إلى الإسلام .

إذا تحدثنا بإيجاز عن بعض الفرق التي تكلمت في الديانات وهم لا ينتسبون إلى ملة الإسلام ؛ فلنتحدث بإيجاز أيضاً عن الفرق المنتسبة إلى الإسلام .

وأما المسلمون ؛ فقد كانوا مجتمعين ومتفقين غير متفرقين في أصول دينهم ، وقد مضى عصر الصحابة وهم على ذلك ، لا يعرفون للاختلاف في العقيدة وأصول الدين معنى أبداً ، بل كانوا أمة واحدة .

روى أبو عبيد الله الحاكم عن الأوزاعي – وهو من كبار أئمة أتباع التابعين من أقران الإمام مالك بن أنس رحمهما الله : « كنا – والتابعون متوافرون – نقول : إن الله عزَّ وجلَّ فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته » .

وممن روى الإجماع على هذا المنهج : الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، والإمام ابن عبد البر رحمهما الله ، بل تفيد جميع المصادر في هذا الموضوع أن وضع العقيدة كان مستمراً على نهج موحد من عهد الصحابة إلى عهد الخليفة السابع من خلفاء بني العباس (المأمون) .

وفي هذا المعني يقول الإمام البيهقي رحمه الله تعالى : « ولم يكن من خلفاء بني أمية وبني العباس خليفة ؛ إلا على مذهب السلف ومنهاجهم ، ولما تولى المأمون الخلافة ؛ اجتمع به هؤلاء المعتزلة ، فحملوه على نفي الصفات والقول بخلق القرآن » اهـ .



ظهور الفرق

مضى عصر الصحابة الكرام عليهم رضوان الله ، وهم مجتمعون على نهج واحد ، وهو العمل بالكتاب والسنة عقيدة وشريعة ، وكذلك التابعون الذين وَرِثوا علم الصحابة .

بيد أنه قد حدث في أواخر أيام الصحابة القول بالقدر . كما ظهرت الخوارج في أيامهم ، وتشيعت الشيعة .

هذه الفرق الثلاث ظهرت في أواخر أيام الصحابة في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(١)
الخوارج أو الحرورية

تعتبر فرقة الخوارج أول فرقة ظهرت في أيام الصحابة ، وفي عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالتحديد ، بعقيدتهم الجريئة المتطرفة في الجرأة ، واتجاههم الشاذ المنفرد ، حيث اعتبروا عدم ارتكاب الكبائر أصلاً من أصول الدين والإيمان ؛ فانطلاقاً من ذلك صرَّحوا بكفر مرتكب الكبيرة كفراً بواحاً ناقلاً من الملة[1] ، كما صرحوا بجواز الخروج على الإمام ، بل كانوا يعتبرون أنه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

* **قصة خروجهم :**

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لما خرجت الخوارج أو الحرورية ؛ اجتمعوا في دار لهم أو لبعضهم في ضاحية البصرة في مكان يقال له : [الحروراء] وعددهم ستة آلاف مقاتل ، وأخذوا يتهيأون للقتال مع علي رضي الله عنه ، فطلب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من علي بن أبي طالب الإذن ليخرج إليهم ليحاورهم لعلهم يرجعون إلى

---

(١) وقد قابلت هذا الإفراط المرجئة بالتفرد في حق مرتكب الكبيرة فرأوا أنه مؤمن كامل الإيمان ، حيث زعموا أنه لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة إلى آخر عقيدتهم المعروفة .

الحق ، فقال علي لابن عباس : إني أخاف عليك . فقال ابن عباس : كلا .

ثم قال ابن عباس : فخرجت إليهم وأنا لابس أحسن ما يكون من حلل اليمن . قال أبو زميل (رواي القصة) : كان ابن عباس رجلاً جميلاً جهيراً .

يقول ابن عباس : فخرجت إليهم ، وأتيتهم وهم مجتمعون في دار لهم بالحروراء ، فسلمت عليهم ، فقالوا : مرحباً بك يا ابن عباس ؛ فما هذه الحلة ؟

قال : قلت : ما تعيبون علي ؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل ، وتلوت عليهم قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾(1) .

قالوا ما جاء بك ؟

قلت : أتيتكم من عند صحابة رسول الله ﷺ ، من المهاجرين والأنصار ؛ لأبلغكم ما يقولون ؛ فعليهم نزل القرآن ، وهم أعلم بالوحي منكم ، وفيهم أنزل ، وليس فيكم منهم أحد .

فقال بعضهم : لا تخاصموا قريشاً ؛ فإن الله تعالى يقول :

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾(2) .

قال ابن عباس : ورأيت قوماً لم أر قط أشد اجتهاداً منهم ، وجوههم من السهر ، كأن أيديهم وركبهم تثنى عليهم .

فمضى من حضره ، قال بعضهم : لنكلِّمنَّه ولننظرنَّ ما يقول .

قلت : أخبروني ماذا نقمتم على ابن عم رسول الله ﷺ وصهره والمهاجرين والأنصار ؟

قالوا : ثلاثاً .

قلت : ما هنَّ ؟

قالوا : إحداهنَّ : فإنه حكم الرجال في أمر الله ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنِ

---

(1) الأعراف : ٣٢ .

(2) الزخرف : ٥٨ .

الحُكْمُ إِلَّا للهِ ﴾[1] ، وما للرجال وما للحكم ؟!

قلت : هذه واحدة .

قالوا : وأما الأخرى ؛ فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم ؛ فلئن كان الذين قاتل كفاراً ؛ لقد حل سبيهم وغنيمتهم ، ولئن كانوا مؤمنين ؛ ما حلَّ قتالهم !

قلت : هذه ثنتان ، فما الثالثة ؟

قالوا : إنه محا نفسه من أمير المؤمنين ؛ فهو أمير الكافرين .

قلت : أعندكم سوى هذا .

قالوا : حسبنا هذا .

فقلت لهم : أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ ما يُرَدُّ به قولكم ؛ أترضون ؟!

قالوا : نعم .

فقلت لهم : أما قولكم : حكم الرجال في أمر الله ؛ فأنا أقرأ عليكم ما قد رَدَّ الله حكمه إلى الرجال في ثمن رُبْع درهم في أرنب ونحوها من الصيد ، فقال الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَاتَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾[2] .

ثم قال : وأنتم تعلمون أن الله لو شاء لحكم ولم يجعل ذلك إلى الرجال .

وفي المرأة وزوجها قال الله تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحاً يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾[3] .

فجعل حكم الرجال سنة مأمونة ، أخرجت من هذه ؟

---

(١) الأنعام : ٥٧ ، يوسف : ٤٠ - ٦٧ .
(٢) المائدة : ٩٥ . (٣) النساء : ٣٥ .

قالوا : نعم .

قال : وأما قولكم : قاتل ولم يسب ولم يغنم ؛ أتسبُون أمَّكم عائشة ، ثم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها ؟ ولئن قلتم : نعم ؛ كفرتم ، وهى أُمُّكم ، ولئن قلتم : ليست أمَّنا ؛ لقد كفرتم ؛ فإن الله يقول : ﴿ وأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ ﴾[1] ؛ فأنتم تدورون بين ضلالتين : أيهما صرتم إليها ؛ صرتم إلى ضلالة .

فنظر بعضهم إلى بعض .

قلت : أخرجت من هذه ؟

قالوا : نعم .

قال : وأما قولكم : محا نفسه من أمير المؤمنين ؛ فأنا آتيكم بمن ترضون وأريكم ، قد سمعتم أن النبي ﷺ قال لأمير المؤمنين : « اكتب يا عليُّ : هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله » ، فقال المشركون : لا والله ما نعلم أنك رسول الله ، ولو نعلم أنك رسول الله ؛ ما قاتلناك . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم إنك تعلم أني رسول الله ، اكتب يا عليُّ : هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله » ؛ فو الله لرسول الله خير من علي ، وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه .

قال ابن عباس : فرجع من القوم ألفان ، وقُتِلَ سائرهم على ضلالته .

قال الحاكم : « هذا حديث على شرط مسلم ، ولم يخرجه » اهـ .

وعلى الرغم من ذلك ؛ فقد دخل في دعوة الخوارج خلق كثير ، ورمي جماعة من أئمة الإسلام بأنهم ذهبوا مذهب الخوارج ، وعدَّ منهم غير واحد من رواة الحديث كما هو معروف عند أهله .

هكذا يفعل سوء الفهم وعدم التريث وقلة البصيرة بأهله .

وقد ظن الخوارج أنهم على شيء فيما ذهبوا إليه عندما خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقاطعوا المهاجرين والأنصار الذين نطق بهم القرآن وبه نطقوا ، وقام بهم القرآن وبه قاموا ، وهم خير هذه الأمة ، حتى حاورهم حَبْرُ الأمة وترجمان

(١) الأحزاب : ٦ .

القرآن بما رزقه الله تعالى من الفقه في الدين ، وأثبت لهم خطأهم بما ساق من الأدلة من الكتاب والسنة ؛ فقد تاب على يده عدد لا يستهان به ، ألفان من ستة آلاف مقاتل يتهيأون لخوض المعركة ، ولكن الله سلَّم ، حيث تاب الله عليهم ، فتابوا ، وهلك الباقون بعد إقامة الحجة عليهم بالأدلة التي ساقها ابن عباس رضي الله عنهما ، الذي بذل لهم من النصح والإرشاد والدعوة إلى الحق بالأسلوب الذي ذكرنا .

(٢)
الشيـعـة

الشيعة من الفرق التي ظهرت في أواخر أيام الصحابة ، وفي عهد الإمام عليٍّ رضي الله عنه بالتحديد ، والتي بدأت غلوها بحب علي بن أبي طالب والتشيع له إلى حد المبالغة ، والتي انتهت ببعضهم إلى تأليهه وعبادته ، مما حدا بعليٍّ إلى إحراق جماعة منهم بالنار ، حيث لم يجد بدّاً من ذلك ؛ إذ لم يؤثر فيهم الإنكار الشديد والمتكرر فأنشد علي في ذلك قائلاً :

لمَّا رأيت الأمر أمراً منكراً   أججت ناري ودعوت قنبرا

وقد انتهز هذه الفرصة – فرصة تشيع الشيعة والغلوّ في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه – يهودي خبيث يدعى عبد الله بن وهب بن سبأ ، وهو من اليهود الذين كانوا بصنعاء باليمن ؛ فأخذ يؤجج نار الفتنة بين المسلمين ، وأحدث القول بوصية رسول الله ﷺ لعلي بالإمامة من بعده ، وأنه خليفته على أمته بالنص ؛ كما أحدث القول بالرجعة ، أي برجعة الإمام عليٍّ رضي الله عنه بعد موته إلى الدنيا ، بل زعم أن عليّاً لم يقتل ، بل لا يزال حيّاً ، بل لا يمكن أن يموت ؛ لأنه فيه الجزء الإلهي ، وأنه هو الذي يأتي من السحاب ، فيكون الرعد صوته ... إلى آخر تلك الخرافات التي تحكيها بعض مصادر القوم ومن تأثروا بهم ، حتى عرفت هذه العقيدة عندهم بعقيدة الرجعة ، أحدثها اليهودي ابن سبأ كيداً للإسلام والمسلمين ، بعد أن ادَّعى أنه مسلم ، وأنه متشيع لآل البيت ، ومحب لهم ، وأما آل البيت الطيبون ؛ فبريئون منه ، ثم تبنَّى هذه العقيدة الفاسدة الروافض ، وابن سبأ مصدر كل عقيدة منحرفة ترددها الروافض اليوم .

هذا ؛ والكلام حول هذه الفرقة طويل الذيل ، وقد كتبت فيهم كتابات

كثيرة ، وكلها أو جلها معاصرة ؛ لذا أرى أن أكتفي بهذه الإشارة ، اكتفاء بما كتب ، حيث إني لن آتي بجديد .

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا أن الشيعة بجميع فرقها على عقيدة الاعتزال في باب الأسماء والصفات . والله أعلم

(٣)
القدرية

ومن الفرق التي ظهرت في أيام الصحابة رضوان الله عليهم القدرية .

فإذا أطلقت القدرية ؛ فالمراد بها نفاة القدر ، وهم أتباع معبد الجهني .

وقد تطلق هذه اللفظة أحياناً على الغلاة في إثبات القدر ، والذين بلغ بهم من الغلو في القدر إلى القول بأن العبد مجبور على أعماله الاختيارية ، يفعلها دون اختياره ، بل لا قدرة له على أعماله ، وهم المعروفون بالجبرية ، وقد يطلق عليهم اسم القدرية .

نادى معبد الجهني بعقيدة القدرية لأول مرة في البصرة في أواخر أيام الصحابة ، فنفى علم الله السابق وكتابه ومشيئته العامة ، وصرح بأن الله لم يعلم المقادير إلا بعد وقوعها ، فضلاً عن أن يكتبها أو يشاءها ، بل العباد يستأنفون أعمالهم من عند أنفسهم ، أي يعملونها دون علم من الله بتلك الأعمال ؛ إلا بعد أن يحدثها العباد ، فلا تعد أفعال العباد من مقدورات الله عزَّ وجلَّ ، وإنما يختلفون : هل الله قادر على مثل أعمالهم أم لا ؟ وهكذا بالغوا في نفي القدر ، كما بالغوا في إثبات قدرة العبد ، حتى جعلوه خالقاً من دون الله عزَّ وجلَّ ، حيث يستقل كل عبد بخلق أفعاله دون أن تتدخل قدرة الله في أفعاله الاختيارية .

وهذه عقيدة شاذة ومنكرة عقلاً وشرعاً ومنطقاً ، وهي فكرة دخيلة ؛ لأن معبداً الجهني الذي أظهرها إنما أخذها من شخص مجهول يقال له : أبو يونس الأساوري ، فتبناها معبد وعظمت به الفتنة في البصرة وما جاورها ؛ فعذَّبه الحجاج بن يوسف الثقفي بأمر من عبد الملك بن مروان الأموي ، وكان ذلك سنة ثمانين من الهجرة .

* موقف بعض الصحابة الذين حضروا هذه البدعة[1] :

ولما ظهرت بدعة القدرية ؛ بادر علماء السلف من الصحابة والتابعين إلى إنكار بدعة القدرية ، والتحذير منها ، والتبرؤ منها ومن أهلها ، وذموها ، وبينوا للناس خطورتها على الإيمان بالله تعالى ؛ لأن الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، ومن كفر بالقدر ؛ فقد نقض توحيده .

هذا ، وذكرت بعض مصادر التاريخ والسير أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما لما بلغته مقالة معبد الجهني ؛ تبرأ منه ومن قولته المنكرة ، وأعلن ذلك للناس ، ونقل مثل ذلك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، بل تمنى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن لو تمكن من أحد منهم ، حتى يُدخِل رقبته في يده ، فيدقها حتى الموت ، أو يجدع أنفه على الأقل ، وكان يومئذ قد عمي ، كلُّ ذلك غيرةً منه على دين الله وعلى عقيدة المسلمين التي أخذت – لأول مرة – تتعرض للأفكار الشاذة .

وقد وردت آثار وأحاديث مرفوعة في ذم القدرية وأنهم مجوس هذه الأمة[2] ، بل هم أسوأ حالاً وأردأ ، حيث يثبتون خالقين كثيرين ؛ إذ كل عبد من الجن والإنس والملائكة يخلق أفعال نفسه الاختيارية في زعمهم الفاسد .

والقدرية بالمفهوم المعاكس – الجبرية – تجعل العبد مجبوراً ومدفوعاً إلى الأعمال من خير أو شر ، ثم يجازى خيراً أو شراً ، وهي ضلالة أخرى .

والصواب وسط بينهما ، وهو ما عليه أهل السنة والجماعة ، وهو أنه لا خالق إلا الله ؛ فالعبد وأعماله مخلوقات لله ، والعبد يأتي عمله باختياره ، ويذرها باختياره ، وهذا سر التكليف ومناط الجزاء خيراً أو شراً ، والعلم عند الله ، والمسألة مبسوطة في موضع آخر .

---

(١) استقينا هذه المعلومات من « الخطط المقريزية » وغيرها من المصادر (ص ٣٥٦ وما بعدها) .

(٢) راجع « شرح الطحاوية » (ص ٤٦٣ ط . المكتب الإسلامي) تحقيق الألباني .

(٤)
الجهمية

وبعد عصر الصحابة ، في أوائل المئة الثانية ، حدث مذهب الجهمية .

وأول من أحدثه هو الجعد بن درهم ، حيث سمع منه لأول مرة في الإسلام القول بأن الله [لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً] .

فأفتى علماء التابعين بكفره ؛ لتكذيبه كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، فطورد حتى قبض عليه ، ثم أخذ إلى مصلَّى العيد يوم عيد الأضحى ، فذبح في المصلَّى على رؤوس الأشهاد ؛ ليكون عبرة لغيره ، مِمَّن تسوِّل له نفسه مثل قوله ، حيث خطب خطبة العيد أمير العراق والمشرق خالد القسري ، وقال في آخر خطبته رحمه الله : « أيها الناس ! ضحوا ، تقبل الله ضحايكم ؛ فإني مضحٌّ بالجعد بن درهم ؛ لأنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً » ، ثم أمر بذبحه فذبح ، وكان ذلك بإجماع من علماء السلف ، فجزى الله خالداً القسري وعلماء التابعين خير الجزاء على صنيعهم الناصح .

وقبل أن يهلك الجعد أخذ عنه هذه العقيدة جهم بن صفوان ، فأظهرها ودعا إليها حتى انتشرت ، ولذا أضيفت إليه دون الأول ، فقيل : العقيدة الجهمية .

وإذا أردنا أن نعرف سند هذه العقيدة الجهمية ؛ فإن جعداً أخذها عن أبان بن سمعان عن طالوت ابن أخت لبيدٍ الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ .

هذا سندها كما ذكر غير واحد من أهل العلم .

ومن هنا تعلم أن الجهمية يهودية السند كما رأيت ؛ فكيف يطيب المسلم نفساً أن يدين بعقيدة ينتهي سندها إلى اليهود ؟!

وعلى كلٍّ ؛ فإن جهماً قد أخذ يدعو إليها ويناظر دونها ، حتى عظمت به الفتنة ، وأخذ يشكك كثيراً من الناس في صفات الله تعالى ؛ إذ كان ينفي جميع صفات الكمال – وصفات الله كلها كمال – جملةً وتفصيلاً ، فأوهم الناس أن إثبات الصفات يتنافى والتنزيه ، وأورد على الناس شبهات مشككة .

كأن يقول : إن إثبات الصفات والأسماء لله تعالى إنما يعني تعدد القدماء ولا قديم إلا الله .

وجواب هذه الشبهة : أن الله قديم بأسمائه وصفاته ، وصفات الله وأسماؤه ملازمة لذاته سبحانه ولا تنفك عنه ، ولا يسمى هذا تعدد القدماء ، وإنما ذلك لو قيل : إن هناك ذاتاً أو ذواتٍ غير الله ، وهي قديمة قدم الله تعالى ؛ فَلْيُفْطَنْ لذَلك .

وتعتبر فتنة الجهمية في باب الأسماء والصفات أول فتنة عرفت في تاريخ العقيدة ؛ إذ كانت فتنة القدرية في نفسِ القَدَرِ فقط ، دون خوض في الصفات ؛ بيد أنها انضمت إلى عقيدة المعتزلة أخيراً ، وكانت فتنة الخوارج في باب أسماء الإيمان في أول أمرها ، وإن كانوا قد اعتزلوا أخيراً ، وفتنة الشيعة في الغلو في آل البيت في أول الأمر ، ثم تأثروا بعقيدة المعتزلة أيضاً ، كل ذلك أيام نشاط المعتزلة في عهد المأمون العباسي ؛ كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى .

وأما بدعة الجهمية وفتنتها ؛ فقد أنكرها علماء أهل السنة أشد الإنكار ، وضللوا أهلها ، وحذروا الناس من مجالستهم ، بل عابوا على من جالسهم ، وكتبوا في الرد عليهم كتباً ورسائل ، وهي معروفة لدى طلاب العلم .

ومما ينبغي التنويه به أن الجهمية وإن كانت في الأصل اسماً أو لقباً للعقيدة التي دعا إليها جهم وأتباعه ؛ إلا أن علماء السلف أطلقوا هذا اللقب فيما بعد على كل من ينفي صفات الله تعالى أو بعضها ، فيطلق هذا اللقب على المعتزلي والأشعري ومن شابههما في نفي صفات الله كلها أو بعضها .

(٥)
المعتزلة

وبينما أهل السنة في مكافحة التجهُّم والتحذير منه ؛ حدثت فتنة أخرى قريبة من فتنة الجهمية ، وهي عقيدة الاعتزال .

وقد حدثت عقيدة الاعتزال في أيام الإمام الحسن البصري التابعي المعروف ؛ إذ كان واصل بن عطاء زعيم الاعتزال من جلساء الإمام الحسن ، ولكنه اختلف معه في مسائلٍ في العقيدة ، فاعتزل مجلسه في المسجد الذي يدرس فيه الحسن ، ولم يذهب

بعيداً عن المسجد ، وباعتزاله مجلس الحسن ؛ اعتزل المسلمين في عقيدتهم ، وأطلق عليه وعلى أتباعه أنهم معتزلة .

وتذكر بعض المصادر أسباباً أخرى لهذه التسمية ، ولا منافاة بين تلك الأسباب ، ولا طائل من ذكرها وتعدادها(١) .

فزعمت المعتزلة أنهم يثبتون أسماء الله تعالى مع نفي صفاته سبحانه ، ولكن دون أن تدل على معانيها ، وهو إثبات لا ينفعهم شيئاً ، بل هم متناقضون في هذا الإثبات الصوري ، فإذا كان إثبات الصفات يؤدي إلى تعدد القدماء على حد زعمهم إن قيل إن صفاته قديمة قدم الذات ، أو يؤدي إلى القول بحلول الحوادث بذات الله تعالى إن قيل إنها حادثة ؛ فهلا لزم هذا المحظور من إثبات الأسماء كما لزم من إثبات الصفات ؟! أو هلَّا انتظم هناك ما انتظم هنا ؟! لأن الباب واحدٌ .

هكذا يتورط في التناقض كل من يتبع هواه واستحسان عقله القاصر أو عقول الشيوخ معرضاً عن كتاب الله المبين وسنة رسوله الأمين ﷺ .

فالكتاب والسنة يثبتان صفات الله تعالى على ما يليق بالله عزَّ وجلَّ ، وعقول المعتزلة تأبى وتنفي !

﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾(٢) .

وقد انفردت المعتزلة بتطوير مذهبها دون سائر الطوائف ، حيث زعموا وجوب التزام الأصول الخمسة التي ابتدعوها ، والتي ما أنزل الله بها من سلطان ، ولكن ؛ بعد أن أطلقوا عليها ألقاباً مقبولة عند سماعها قبل أن يعرف تفسيرها .

الأصول الخمسة عند المعتزلة :

فلنورد أسماء تلك الأصول المبتدعة التي أشرنا إليها ، والتي عارضوا بها أصول الإيمان عند أهل السنة .

الأصل الأول : التوحيد :

ومعناه عندهم نفي الصفات كما هو مفصل فيما بعد . بل وقد تقدم طرف من

---

(١) راجع لذلك « ضحى الإسلام » لأحمد أمين . (٢) البقرة : ١٤٠ .

عقيدتهم .

الأصل الثاني : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

فاستباحوا بناءً على الأصل الأول الفاسد في معناه الخوض في أعراض صحابة رسول الله ﷺ ، والتعرض والخوض فيما جرى بينهم من الأمور الاجتهادية التي سببت الخلاف بينهم ، بل ربما أدت إلى القتال أحياناً ، ولقد كان موقف أهل السنة في هذا المقام – بل في كل مقام – شريفاً ونزيهاً ومنصفاً ، حيث لم ينحازوا إلى جهة أو وجهة معينة بالهوى كما فعل غيرهم ، بل قالوا قولتهم المشهورة : « وحيث صان الله رماحنا من دمائهم ؛ فيجب علينا أن نصون ألسنتنا وأقلامنا من أعراضهم » ، بل إنما كان قولهم :

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[1] .

وفي هذا المعنى يقول أحمد بن رسلان الشافعي في منظومته المعروفة بـ (الزبد) :

وما جَرَى بَيْنَ الصِّحابِ نَسْكُتُ عَنْهُ وأَجْرَ الاجْتِهادِ نُثْـبِتُ

هذا ؛ وقد استباح المعتزلة بناء على أصلهم ذلك الخروج على الأئمة كما فعلت الخوارج من قبل ، بل هما طائفتان متقاربتان في بعض أفكارهما كما لا يخفى .

ومما ينبغي التنبيه عليه أن هذه المسألة من المسائل التي وافقت فيها الأشاعرة أهل السنة ، وهي مسائل معدودة ؛ كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

* **الأصل الثالث : القول بالمنزلة بين المنزلتين :**

في مرتكب الكبيرة أي أنه يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر ، وهي منزلة وهمية ، لا وجود لها في الواقع ؛ لأن القسمة ثنائية : إما كفر وإما إيمان ، ولا واسطة بينهما ؛ فمرتكب الكبيرة مؤمن ناقص الإيمان ، ويوصف بأنه فاسق ، ولكنه لا يزال في دائرة الإيمان ، وقد صح عن النبي ﷺ قوله : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ، فلو كان مرتكب الكبيرة كافراً ؛ لما نفعته شفاعة الشافعين ؛ حيث يقول الله

---

(١) الحشر : ١٠ .

تعالى في شأن الكفار :

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴾[1] .

هذا كله في أحكام الدنيا ، وأما في الآخرة ؛ فإنهم يزعمون أن مرتكب الكبيرة الذي مات قبل التوبة ؛ يدخل النار في زعمهم خالداً مخلداً فيها مع الكفار .

وهذه نقطة اتفاق بينهم وبين الخوارج ، فيكون الاختلاف بينهم صوريّاً فقط .

فبناء على هذا الزعم نفوا شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر مخالفين النصوص الصحيحة التي أشرنا إلى بعضها آنفاً .

إنه لموقف جريء وجائر كما ترى ، وهو داخل في الحكم بغير ما أنزل الله ، وذلك كفر ؛ كما نطق به الكتاب :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[2] .

* **الأصل الرابع : العدل (ما أحسن هذا الاسم وما أسوأ المسمى) :**

ومعناه عندهم وجوب الاعتقاد بأنه يجب على الله عزَّ وجلَّ فعل الأصلح فالأصلح للعباد ؛ بحيث لو لم يفعل ذلك ؛ يكون ظالماً ، وهي جرأة أخرى كالتي قبلها ، أو هي أسوأ .

الأصل الخامس : وجوب تنفيذ الوعد والوعيد :

فيزعمون أنه يجب على الله أن يثيب المطيع كما وعد ، وأن يعاقب العاصي كما أوعد ، وهم من جهلهم أو تجاهلهم لا يفرقون بين خلف الوعد وتأخير الوعيد .

فليس للعباد حقٌّ واجبٌ عليه ولا سعيٌ لديه ضائعٌ
إن عُذبوا فبعدله أو نُعِّمُوا فبفضله وهو الكريم الواسعُ

فتأخير الوعيد وعدم مؤاخذة المسيء بالإساءة مع القدرة كرم ومنة .

وأما إيفاء الوعد بإكرام أوليائه في دار كرامته وأحياناً في هذه الدار نفسها ؛ فتفضل وإحسان من الله على عباده .

---

(١) المدثر : ٤٨ .

(٢) المائدة : ٤٤ .

فليس على الله شيء واجب ، هذا هو الذي عليه أهل السنة قديماً وحديثاً ؛ لأن الإيجاب معناه الإلزام ، فمن الذي يلزم الله تعالى بشيء ؟!

وهي حقائق لا تخفى على أهل البصيرة ، بل لا يجهلها إلا من اعتزل ملة المسلمين واتبع غير سبيل المؤمنين وجادل بالهوى ، فيصدق عليه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾[1]

وفي ذلك الوقت – أي : في المئة الثالثة من الهجرة النبوية – تتعاقب الفتن على المسلمين ، فبينما هم في فتنة هوجاء ؛ تفاجئهم أخرى فتشتد وطأتها ؛ إذ تظهر فتنة تلو الأخرى .

فظهرت المعتزلة والناس يعانون فتنة الجهمية وإلحادهم ويقاومونها ، ظهرت المعتزلة وهي أشد تأثيراً من غيرها ؛ إذ أصبحت مذهباً رسمياً أو شبه رسمي ، فرفعت صوتها بنفي الصفات دون أدنى تحفظ ، وبالقول بخلق القرآن ، فاستخدمت الجدل المنطقي والأسلوب الفلسفي في دعوتها ، فاستطاعت أن تشوش على الناس ، مع ما قام به أئمة المسلمين من المقاومة المشكورة ، والتنفير والتحذير من مجالسة أهلها ، كما فعلوا من قبل مع الجهمية كما تقدم ، فقابلتهم المشبهة بالقول بالتشبيه ؛ ليكون ردّاً لتعطيلهم ، وهم الكرامية وغيرهم ، فشبهوا الله بخلقه في ذاته وصفاته ، فزعموا أنهم يريدون بذلك الردّ على نفاة الصفات ، وهو باطل ؛ لأنه من باب ردِّ الباطل بباطل مثله ، فوقع الناس في الشبه كمستغيث من الرمضاء بالنار .

المحنة التاريخية

تحدثنا فيما أسلفنا عن تأثير المعتزلة في جميع الطوائف الموجودة آنذاك ؛ إذ تبنَّتْها كثير من الطوائف عقيدةً لها ، كما رأينا ، بل أوضحنا سبب ذلك ؛ إذ كان الخليفة المأمون داعية لها بكل ما لديه من قوة وسلطة .

فلنتحدث الآن تحت هذا العنوان عن تلك الفتنة المتطرفة التي عرفت في التاريخ باسم (محنة خلق القرآن) بإيجاز دون إطناب ؛ خشية الإملال .

وملخص هذه الفتنة : أن جماعة متطرفة من المعتزلة تمكنت – كما أسلفنا – من

(١) الحج : ٨ ، لقمان : ٢٠ .

الخليفة المأمون بن هارون الرشيد ، حتى أزاغوه عن المنهج السلفي الذي كان عليه الخلفاء من قبله – الأمويون والعباسيون – ، وأوقعوه في باطل من العقيدة ، فزينوا له القول بخلق القرآن ونفْي صفات الله والخوض في جميع المطالب الإلهية معتمداً على عقله ومتبعاً هواه بكل جرأة ، معرضاً عن نصوص الكتاب والسنة ، بل مستخفّاً بها ، وزاعماً أنها لا تفيد العلم ، بل محارباً لها ، وهي بدعة لم تُعرف في الخلفاء الذين من قبله ؛ كما تقدم .

يقول الإمام البيهقي في هذا المعنى : « ولم يكن في خلفاء بني أمية وبني العباس خليفة إلا على مذهب السلف ومنهاجهم ، فلما تولى المأمون الخلافة ؛ اجتمع به هؤلاء المعتزلة ، فحملوه على نفي الصفات والقول بخلق القرآن » اهـ كما تقدم .

وكل الذين تحدثوا عن المحنة يتفقون على أن الخليفة المأمون أُتي من قبل بطانة السوء من كبار المعتزلة فيما تورط فيه وحمل الناس عليه بالقوة دون فتح لباب الحوار الحرّ والأخذ والردِّ والمناقشة الهادفة ؛ كما هو المتوقع في مثل هذه المسائل العلمية والفكرية ، بل نصب المأمون نفسه داعية لا يرد له قول ولا يعصى له أمر .

وفي حدود سنة ثمانية عشرة ومئتين كتب المأمون إلى نائبه والي بغداد إسحاق ابن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن !

هكذا ! بهذه الجرأة ! ودون مقدمة أو تمهيد ! ولم يسع الوالي إلا الامتثال ، فجمع عدداً من العلماء من أئمة الحديث والقضاة والفقهاء ، فعرض عليهم كتاب الخليفة ، وبلَّغهم رغبته ، ودعاهم إلى القول بخلق القرآن ، مع نفي صفات الله ، وأنه تعالى لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً .

فامتنع العلماء امتناعاً مطلقاً عن هذا الأمر العظيم ، فأخذ يهددهم بالضرب – وهم علماء الأمة – ، ويقطع المرتبات بالنسبة لمن لهم مرتبات من الدولة ، فاختلفوا : منهم من أظهر الموافقة ظاهراً ومكرهاً وقلبه مطمئن بالإيمان إن شاء الله ، ومنهم من أصرَّ على الامتناع ، وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، الذي وقف عند قوله ، وثبت على عقيدته ، ولم يؤثر فيه التعذيب والتنكيل ، ولم تأخذ بقلبه تلك الفتنة ، بل لم يبال سلطان الخليفة وقوته وتهديدات واليه إسحاق بن إبراهيم .

تذكر بعض مصادر التاريخ أن الخليفة المأمون توفي بطرطوس قبل أن يصل إليه الإمام أحمد وهو محمول إليه ، ولما توفي الخليفة ؛ رُدَّ الإمام إلى بغداد ، ثم تولى الامتحان والتعذيب المعتصم بالله (الخليفة الثامن) ؛ إذ أصبح القول بخلق القرآن والدعوة إلى ذلك جزءاً من سياسة الدولة العباسية في هذا العهد ، يرثه اللاحق من السابق ، ثم استمر الوضع هكذا أيام الواثق بالله . وهو الخليفة التاسع من خلفاء بني العباس ، وبانتهائه انتهت الفتنة الهوجاء .

وبقي الإمام أحمد بعد الخلفاء الثلاثة – خلفاء الاعتزال – الذين ماتت معهم المحنة ؛ إذ تولى الخلافة بعد الواثق بالله المتوكل ، فأعلن رفع المحنة ، فشرع الإمام أحمد في نشر السنة التي عذب من أجلها وفي سبيلها ، فرفع صوته بنصوص الصفات من جديد بعد أن كانت مهجورة وممنوع ذكرها ؛ إذ أتى الله بالفرج .

وهكذا انتهت تلك الفتنة التي عرفت بـ (المحنة) ، فجدَّد الإمام أحمد دعوته السلفية التي عرفت بعد ذلك بـ (الحنبلية) نسبةً إليه رحمه الله وتقبَّل منه جهاده وتجديده ، ولذا لقبه أهل عصره (ناصر السنة وقامع البدعة) ، وعرف بعد ذلك بإمام أهل السنة والجماعة ، وحق له ذلك .

وبمناسبة انتشار آراء أهل البدع التي تحاول التشنيع على أهل السنة ؛ إذ ترميهم بالتشبيه والتجسيم ، أو أنهم مفوضة التفويض المطلق ؛ بهذه المناسبة ولهذا السبب صرح الإمام أحمد تصريحات أوضح فيها موقفه وموقف جميع أهل السنة من نصوص الصفات ، وذلك فيما يرويه ابنهُ عبد الله بن أحمد .

إذ يقول رحمه الله ورضي عنه : « هذه الأحاديث نرويها كما جاءت » .

ويقول أيضاً : « إن ما يرجع إلى عالم الغيب لا ينبغي الخوض فيه ، وإنما نفوِّض أمره إلى الله » .

ويعني بالتفويض قطعاً تفويض الكيفية والكنه وحقائق الصفات لا تفويض المعنى ، وهو أمر لا يختلف فيه اثنان من أهل السنة والجماعة قديماً وحديثاً .

ومن كلامه رحمه الله : « من صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة إرجاء ما غاب عنه من الأمور إلى الله » كما جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ : « إن أهل

الجنة يرون ربهم عزَّ وجلَّ » ، فيصدقها ، ولا يضرب لها الأمثال .

وأحاديث الرؤية التي أشار إليها الإمام أحمد هنا قد بلغت التواتر ؛ فليرجع في ذلك إلى كتاب « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » للعلامة ابن القيم .

نصيحة الإمام أحمد لأهل السنة

بعد تلك التجربة الطويلة مع المعتزلة والامتحانات المريرة التي خرج منها الإمام أحمد بنجاح دونه كل النجاح ، وقد خبرهم وما ينطوون عليه ، وإن تظاهروا – فيما يبدو للناس أحياناً – بالانتصار للسنة ؛ كما هو شأن الأشاعرة الكلابيين .

يقول الإمام أحمد وهو يخاطب أهل السنة والجماعة : « لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبُّوا عن السنة » ؛ أي : وإن تظاهروا بذلك . أو حصل منهم ذلك أحياناً بالنسبة لبعض النصوص التي آمنو بها ؛ لموافقتها لما عندهم أو لهواهم .

وينطبق هذا الوصف على الأشاعرة الكلابيين تمام الانطباق كما أسلفنا .

فقه النصيحة

هذه النصيحة من الإمام أحمد نصيحة إمام خبير بصير نازل القوم حتى خبرهم وخبر عقيدتهم وانحرافها ، وإن تظاهر بعضهم أحياناً بالانتصار للسنة والدفاع عنها والذبِّ عن الحق ، على الرغم من ذلك كله ؛ فلا ينبغي تصديقهم وإعطاء الثقة لهم ، حتى يحكموا بأن تلك العقيدة هي العقيدة الصحيحة ، ويعلنوا التوبة علناً ؛ كما أعلن أبو الحسن الأشعري التوبة عن الكلابية ، وأعلن رجوعه إلى منهج السلف الذي جدَّده إمام أهل السنة والجماعة أحمد بنُ حنبل رحمة الله عليه ، حيث يقول الأشعري رحمه الله : « قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا عزَّ وجلَّ ، وسنة نبينا ﷺ ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نَضَّر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ؛ لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به المبتدعين وزيغ الزائغين وشكّ الشاكّين ؛ فرحمة الله عليه من إمام

مقدَّم ، وجليل معظم ، وكبير مفخم ، وعلى جميع أئمة المسلمين »[1] اهـ .

وكما رجع أو ندم كبار أتباعه على خوضهم في علم الكلام في آخر حياتهم ؛ مثل : إمام الحرمين ، ووالد إمام الحرمين ، والرازي ، والشهرستاني ، والغزالي .

وموقفهم الأخير من علم الكلام معروف لدى طلاب العلم ، وما انتهى إليه أمرهم من الحيرة والاضطراب والندم والبكاء ، حيث بكى بعضهم بكاء الثكلى .

وأما من أصـرَّ على العقيدة الأشعرية الكلابية ، ثم ادَّعى الانتصار للسنة ؛ فلا سماع لدعواه ، بل هو متناقض .

فانطلاقاً من هذا المفهوم ؛ كان الإمام أحمد ينهى أصحابه عن مجالسة الحارث المحاسبي ، الذي يخلط بين التصوف وعلم الكلام . علماً بأنه كثيراً ما يوافق أهل السنة في بعض الصفات ؛ مثل صفة العلو لله تعالى واستوائه على عرشه ؛ كما نقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في « الفتوى الحموية الكبرى » .

ونصيحة الإمام هذه تشير إلى الدرجة الثالثة من درجات إنكار المنكر وإزالته ، تلكم الدرجات التي دلّ عليها قوله ﷺ : « من رأى منكم منكراً ؛ فليغيره بيده ، فإن لم يستطع ؛ فبلسانه ، فإن لم يستطع ؛ فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ، أخرجه مسلم وأحمد .

وإذا راجعنا تاريخ سلفنا ؛ نجد أنهم قد قاموا أو قامت كل مجموعة منهم بما في وسعها من إنكار المنكر وإزالته :

حيث نجد بعض الخلفاء والأمراء الصالحين يزيلون المنكر بأيديهم .

فقد رأينا أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه يشدِّد الإنكار على غلاة الشيعة الذين غلوا فيه إلى درجة التأليه ، إلى أن اضطر إلى إحراقهم بالنار ؛ كما تقدم ؛ فالقصَّة معروفة لدى طلَّاب العلم .

كما رأينا عبد الملك بن مروان الأموي يأمر الحجاج بتعذيب معبد الجهني لإنكاره القدر ، فصلبه الحجاج [بحجاجيته] القوية المعروفة .

---

(١) راجع لذلك « الإبانة في أصول الدين » لأبي الحسن الأشعري (ص ٥٢ ، ط . الجامعة الإسلامية بالمدينة) .

ثم رأينا كيف طاردوا جعد بن درهم حتى قبضوا عليه فذبحوه في مصلّى العيد على رؤوس الأشهاد ، كأنه كبش يُضَحَّى به ؛ لبدعته المعروفة ؛ إذ سُمِعَ منه ما لم يُسمع من أحد من قبله في الإسلام ، حيث صرح بأن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، فَنَفَّذَ فيه القتل أمير من أمرائهم الصالحين خالد القسري .

وأخيراً ؛ قتلوا جهم بن صفوان الذي أخذ بدعة جعدٍ ، فقام بنشرها ، حيث نسبت إليه البدعة ، فقيل : الجهمية ، ولا يقال : جعدية .

هكذا كان موقف السلف في إنكار المنكر وإزالته بأيديهم رحمهم الله ؛ فهذه هي الدرجة الأولى والشعبة الكبرى في إزالته ، وهي درجة يملكها كل من له سلطة يتمكن معها من إزالة المنكر بالقوة ، وتتعين في حقهم ، ولو لم يقوموا بها ؛ أثموا . والله المستعان .

أما الدرجة الثانية ؛ فهي إنكار المنكر باللسان والقلم ، فيشمل ذلك استنكار المنكر ، والتحذير منه ، وبيان قبحه وعاقبته الوخيمة إن سكت عنه ، والوعظ والإرشاد والتذكير والتنفير عن إثبات المنكر وارتكابه .

وقد قام سلفنا بكل ذلك على أكمل وجه ، ومن ذلك ما ثبت عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، حيث أعلن براءته من القدرية عندما قيل له : إن هناك قوماً ينكرون القدر السابق ، فأعلن براءته من صاحب المنكر .

وهذا النوع من إنكار المنكر باللسان كما تقدم ، ولا يملك ابن عمر غير ذلك ؛ لأنه ليس بذي سلطة حتى يزيل المنكر بيده .

ومن ذلك أيضاً ما فعله عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، حيث أعلن استنكاره ، بل قد همَّ بإزالة المنكر لو استطاع ، إذ تمنى لو تمكن من القدري ، حتى تقع رقبته في يده ليدقها بيده حتى الموت ، أو يجدع أنفه على الأقل ؛ لأنه كان قد عَمِيَ يومئذٍ كما تقدم .

فرضي الله عن ابن عباس ، ونرجو الله أن يكتب له أجر من همَّ بحسنة ولم يعملها إذ منعه مانع ، علماً بأنه ليس بذي سلطة حتى يلزمه إزالة المنكر بيده على ما تقدم ، وقد قام بما يمكنه ، وهو إنكاره بلسانه رحمه الله .

هذا وإن الذين قاموا بهذه الدرجة من أئمة السلف كثيرون جدّاً .

١ – منهم : الإمام أبو حنيفة النعمان ، حيث صرح بكفر من نفى صفة علو الله على خلقة واستوائه على عرشه بآيات من القرآن الكريم ؛ كقوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[1] .
وقوله تعالى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] .

وغير ما ذكر من أدلة العلو والاستواء .

٢ – ومنهم : الإمام أبو يوسف صاحب أبي حنيفة ، الذي أُثِر عنه قوله : إن من اشتغل بعلم الكلام ، وطلب المعرفة من جهته ؛ فقد تزندق .

٣ – ومنهم : الإمام مالك بن أنس ، إمام دار الهجرة ؛ إذ يقول : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل ؛ تركنا لجدله ما جاء به جبريل إلى محمد ﷺ .

٤ – ومنهم ؛ الإمام الشافعي الذي أفتى في أهل الكلام لقاء اشتغالهم بالكلام معرضين عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بتلك الفتوى المعروفة ؛ إذ قال : حكمي في أهل الكلام : أن يحملوا على الحمر الأهلية ، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ، فيعلن أن هذا جزاء من أعرض عن كتاب الله واشتغل بعلم الكلام .

فهؤلاء كلهم أنكروا المنكر كما ترى بألسنتهم بعبارات صريحة وأساليب مختلفة ، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير مايجزى به المصلحين والعلماء العاملين .

وبعد ؛ يتضح من هذا العرض السريع لمواقف سلفنا من المنكر ومن النماذج الحية التي سقناها أنهم لم يدَّخروا وسعاً في إنكار المنكر ومحاولة إزالته بكل ما هو ممكن – كما رأيت – بدرجاته الثلاث .

وأخيراً ؛ هذا هو الإمام أحمد يوجه نصيحته الغالية إلى أهل السنة عامةً ، وإلى طلّاب العلم خاصةً ، بعدم مجالسة أهل الكلام والمتصوفة وجميع أهل البدع المعروفين ببدعتهم .

فعلى طلّاب العلم في هذا العصر ، وقد ظهر التساهل أو عدم المبالاة في مجالسة

(١) طه : ٥ .
(٢) الملك : ١٦ .

أهل البدع ومجاملتهم : أن يعيدوا النظر في موقفهم المتساهل الذي يدل على ضعف الغيرة وعدم المبالاة بالمنكر والبدع ؛ عملًا بنصيحة إمام أهل السنة وقامع البدع الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ورضي عنه ، وأن يختاروا لأنفسهم من يجلسون إليهم من الأساتذة والمشايخ الذي يرضون عقيدتهم وأخلاقهم وصدق تمسُّكهم للسنة ؛ ليطلبوا العلم على أيديهم ؛ فليحذروا المبتدعة من أهل الكلام والمتصوفة ، ومن الروافض ، وغيرهم ؛ خشية أن يتأثروا ببدعتهم ، فتفسد عقيدتهم ، وهم لا يزالون غير ناضجين

ولا يختلف اثنان في أن للأستاذ تأثيراً ملموساً في تلميذه إذا لازمه مدة طويلة ، وأقل ما يصاب به الطالب الذي يطلب العلم على أيدي المبتدعة أن تخرج من قلبه كراهة البدع والمعاصي والمخالفات ، ويفقد واجب الحب في الله والبغض في الله ، ولا يبالي جالس سنيّاً أو مبتدعاً ، وإنما الحكم عنده لما يظنه مصلحة للدعوة ، يدور معه حيث دار ، والله المستعان ، وذلك من علامات مرض القلب الذي يؤدي إلى نوع من النفاق عياذاً بالله .

هذا بإيجاز ما يستفاد من هذه النصيحة الغالية من إمام عظيم مجرب رحمه الله .

نماذج من أسئلة الامتحان

قبل أن أترك الحديث عن الإمام أحمد ومحنته ومسألة خلق القرآن التاريخية أستحسن أن أورد نماذج من أسئلة الامتحان التي وجهت للإمام تحت التهديد في أثناء التعذيب ؛ ليتصور القارىء كيفية تلك المحنة ، ولو بعض التصور :

حيث يسأل والي بغداد ويجيب الإمام :

إسحاق بن إبراهيم : ما تقول في القرآن ؟

الإمام أحمد : هو كلام الله .

إسحاق : أمخلوق هو ؟

الإمام أحمد : هو كلام الله لا أزيد على هذا .

إسحاق : ما معنى : ﴿ **إن الله سميع بصير** ﴾ .

الإمام أحمد : هو كما وصف نفسه .

هذا بالاختصار ، ومن أراد التفصيل ؛ فليرجع إلى المظان ، وهي كثيرة وبالله التوفيق .

(٦)
القرامطة

ومن الطوائف الضّالة : القرامطة ، التي ظهرت في أثناء نشاط الفرق .

القرامطة الباطنية متفرعة من الروافض ، ظهرت القرامطة أول ما ظهرت بالكوفة ، ثم انتشرت في العراق والشام وغيرهما من البلدان المجاورة ، فصرَّحوا بتأويل – تحريف – الشريعة كلها ، وأنها ليست على ظاهرها ، بل لا بدَّ من صرف ظواهرها !

وهكذا تتابعت الفتن والبدع في هذا الوقت ، ولكنَّ الذي جعل مذهب المعتزلة يشتهر ويقوى حتى تأثرت به أكثر الطوائف والفرق هو ما حصل من مؤازرة قوية ورسمية ، حيث أثرت المعتزلة على فكر الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد ، فتبنّى المذهب ، ودعا إليه ، ثم تبعه بعد موته الخليفة الثامن المعتصم بالله ، ثم الواثق بالله ، وهو تاسعهم .

وقد كان المأمون شغوفاً بكثرة الاطّلاع على العلوم القديمة من فلسفة الأمم السابقة ، فترجمت له كتب كثيرة من تلك العلوم ، فبادرت المعتزلة إلى دراستها ، وتأثرت بها ، ثم انتهزت فرصة شغف الخليفة بالمعرفة والمدارسة ، فقربوا منه ، بل تمكنوا منه ، وتملّقوا له ، حتى صاروا من بطانته والمقربين إليه ، فزيَّنوا له القول بخلق القرآن ونَفْي الصفات ، مستخدمين الفلسفة التي جلبها هو ، فكثرت كتب الفلسفة في أيدي الناس ، وأقبلت جميع الطوائف عليها من الجهمية والمعتزلة والرافضة والقرامطة وغيرهم ، وانجرَّ من ذلك على الإسلام والمسلمين ما لا يوصف من البلاء والضلال والبدع .

وهكذا انتشر مذهب الاعتزال بين الطوائف ، حتى إن الشيعة اتخذت مذهب الاعتزال عقيدةً لها مع تشيعهم ، ولذا ؛ تجد أن جميع فرق الشيعة تدين بعقيدة

المعتزلة ، بل ذهب إلى الاعتزال كثير من الفقهاء ، على اختلاف مذاهبهم الفقهية ، وأكثرهم من الحنفية[1] .

(٧)
الأشعرية الكُلابية

إن الحديث عن الأشعرية يتطلب الحديث أولاً عن أبي الحسن الأشعري ، ولذا نقول :

كان أبو الحسن يعيش في العراق ، وتربى في حجْر إمام معتزلي ، هو محمد بن عبد الوهاب الجبائي ، وهو زوج أمه ، وهو المعروف بأبي علي الجبائي ، وتعلم عليه ، ولازمه عدة أعوام ؛ كما تفيد مصادر التاريخ وكتب التراجم ، حتى صار إماماً في الاعتزال .

فناظر شيخه في مسائل علم الكلام ، واختلف معه في بعض تلك المسائل ؛ كالقول بوجوب فعل الأصلح على الله للعباد وغيرها من المسائل ، فظهر له بطلان مذهب الاعتزال ، فتركه .

ثم سلك مذهب أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب بعد النظر فيه والتفكير الطويل ؛ إذ رآه خيراً من مذهب الاعتزال نوعاً ما ؛ لأنه يثبت بعض صفات الله تعالى ، وهي الصفات العقلية ، ثم إن ابن كُلاَّب لا يقول بوجوب شيء على الله ؛ فنهج على منواله ، واعتقد عقيدته في باب الأسماء والصفات والقدر ، وأثبت أن العقل لا يثبت ولا يوجب المعارف قبل الشرع ، وأن العلوم وإن حصلت بالعقل ولكنها لا تجب إلاَّ بالشرع ، وأن الله لا يجب عليه شيء كما تقدم ، بل إن أنعم الله ؛ فبفضله ، وإن عذّب ؛ فبعدله ؛ كما هو مذهب أهل الحق ، وهم السلف ، وأن النبوات من الجائزات العقلية والواجبات الشرعية ... إلى غير ذلك من المسائل التي خالف فيها شيخه الجبائيَّ .

لهذا أو لغيره من الأسباب اختار أبو الحسن مذهب ابن كلاب ؛ إلا أن شهرة الأشعري غلبت على ابن كلاب ، حتى قيل : مذهب الأشعري ؛ بدل أن يقال :

---

(١) استقينا هذه المعلومات من « الخطط المقريزية » وغيرها من المصادر التاريخية .

مذهب الكلابي ؛ فليفهم هذا جيداً ؛ لأنه مهم .

عقيدته في الطور الثاني وأسباب انتشارها :

ذكرنا فيما أسلفنا أن أبا الحسن الأشعري عاش معتزليّاً فترة طويلة تقدر بنحو أربعين عاماً ، ثم تاب لأسباب كثيرة بتوفيق الله تعالى ، وقد أشرنا إلى بعضها ، وطوينا البعض الآخر خشية الإطالة .

فإذا كان أبو الحسن قد ترك مذهبه الأول لأسباب ظهرت له ؛ فلا بدَّ له من عقيدة يدين بها في صفات الله تعالى خاصة ، وفي كل ما يجب الإيمان به عامة .

لذا مال أبو الحسن إلى مذهب ابن كلاب كما تقدم ، فأخذ يدعو إليه ، حتى مال إليه خلق كثير لما رأوا أنه خصم للمعتزلة ، وداعية قويُّ الشخصية ، وله تأثير ملموس ، وهذه المرحلة هي طوره الثاني .

وفي هذا الطور خاصم الأشعري المعتزلة النفاة والمشبهة المجسمة معاً ، الذين شبهوا الله بخلقه في ذاته وصفاته ؛ كالكرامية وغيرهم ؛ إلا أنه لم يصل بعد إلى منهج السلف الذي ينشده ويسعى إليه جادّاً ، والذي انتهى إليه أخيراً في طوره الثالث ، بل لا يزال في طوره الثاني الذي يعتبر برزخاً فاصلاً بين مذهبه الأول ومذهبه الأخير ، ولكنَّ موقفه الحازم ونشاطه ضد المعتزلة جعل صيته يطير ويظهر مكانته العلمية وغيرته الشديدة ، حتى لا يكاد أن يذكر صاحب المذهب الأصيل ابن كلاب .

وقد تبعه على مذهبه الجديد الكلابي جماعة من الفقهاء ؛ مثل القاضي أبي بكر الباقلاني المالكي ، والشهرستاني صاحب « الملل » ، والإمام الرازي الطبيب ، والإمام الغزالي ، ووالد إمام الحرمين ، وإمام الحرمين نفسه .. وغيرهم ، وأكثرهم من فقهاء الشافعية ، فنصروا مذهبه الجديد وناظروا دونه وجادلوا من أجله ، بل ألَّفوا فيه كتباً كثيرة ، فانتشر المذهب انتشاراً واسعاً في العراق ، حيث مقر الإمام ، في حدود سنة ثمانين وثلاثمائة من الهجرة (٣٨٠ هـ) ، ثم انتقل إلى الشام .

ولما مَلَكَ السلطان الناصر صلاح الدين بنُ أيوب ديار مصر ؛ انتقل معه مذهب الأشعري ؛ لأن صلاح الدين هو وقاضيه صدر الدين بن درباس كانا على مذهب الإمام الأشعري ، وقد اعتنقاه في الشام عندما كانا بدمشق في خدمة السلطان العادل ابن زنكي ، بل قد حفظ الملك صلاح الدين في صباه كتاباً في العقيدة الأشعرية ألفه

له قطب الدين النيسابوري ، فصار يُحفِّظ هذه العقيدة صغار أولاده ؛ فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البَنانَ على مذهب الأشعري ، بل كانوا لا يعرفون غيره .

واستمر الوضع على ذلك أيام ملوك الأيوبيين جميعهم ، ثم في أيام مواليهم ملوك الأتراك .

وحصل أن سافر أثناء ذلك من العراق أحد رحالات المغرب ، وهو أبو عبد الله محمد بن تومرت ، فأخذ العقيدة الأشعرية الكلابية هذه عن أبي حامد الغزالي ، فلما عاد إلى بلده المغرب ؛ أقام في المَصَامِدَةِ – اسم مكان هناك – يفقههم ويعلمهم العقيدة الأشعرية ، بل وضع لهم كتاباً في العقيدة نفسها ، فتلقاها الناس بالقبول والاستحسان .

ثم توفي التومرتي الذي حمل إليهم العقيدة ، فَخَلَفَهُ من بعده عبد المؤمن بن علي القيسي ، ولُقِّبَ القيسي هذا بـ (أمير المؤمنين) ، فتغلب على مماليك المغرب هو وأولاده بعد فترة من الزمن ، وسمَّوا أنفسهم (الموحدين) ، وهم حملة العقيدة الأشعرية التومرتية التي جاءتهم من العراق ، فتمسكوا بها بشدة ، بل دعوا إليها الناس ، بل ألزموها الناس قسراً ، حتى استباحوا دم من خالف عقيدة التومرتي ؛ إذ هو عندهم الإمام المعلوم والمهدي المعصوم ؛ كما قال المقريزي .

يقول تقي الدين المقريزي في « خططه » وهو يتحدث عن هذا الموقف المتطرف للموحدين : « فكم أراقوا دماء خلائق لا يحصيها إلا الله الذي خلقها سبحانه بسبب تلك العقيدة التومرتية » اهـ .

ومما يلاحظ أن ذلك التشدد ممن سموا أنفسهم موحدين ، ذلك التشدد الذي وصل إلى هذه الدرجة كما رأينا ، وأن تلك الحماقة الممقوتة ليست لأجل العقيدة الأشعرية ، وليست لكون العقيدة الجديدة هذه لأبي الحسن الأشعري ، بل لأنها لتومرت الذي اعتبروه الإمام المعلوم والمهدي المعصوم على ما تقدم من كلام المقريزي .

فهذه الأمور مجتمعة هي من أسباب انتشار العقيدة الأشعرية واشتهارها هذه الشهرة في الأقطار الإسلامية ، حتى جهل غيرها من المذاهب .

ومن أهم تلك الأسباب كما لاحظتم الحماقة التومرتية التي استباحت دماء كل من خالف عقيدة تومرت ، وهي حماقة ما سجل التاريخ مثلها فيما نعلم .

وهكذا خلا الميدان لأبي حمدان[1] ، وهكذا لعبت الأشعرية الكلابية ذلك البعد الخطير ، على حين ضعف وتشتت من السلفيين ؛ كما سنعلم قريباً إن شاء الله تعالى ؛ لأنها نشطت ذلك النشاط ، مستغلة تلك الظروف المختلفة التي أسلفناها ، وقد وقع ذلك قبل أن يستعيد السلفيون قوتهم ونشاطهم في الدعوة ، بعد خروجهم من معركتهم التي دامت فترة غير قصيرة مع المعتزلة وأقطابها ، وقد خرجوا منها منهكي القوى ، وهم في حالة تشتت هنا وهناك .

ولكن الوضع لم يستمر على ما هو عليه دون أن يقيض الله من يجدد للناس عقيدتهم ويدافع عنها ، وصدق الله إذ يقول :

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[2] .

وهذا ما نريد أن نتحدث عنه في العنوان الآتي الذي قد يبدو غريباً لأول وهلة .

كسر الجمود

سبق أن ذكرنا أن جميع الفرق الكلامية عكفت على دراسة الفلسفة في عهد المأمون العباسي بتشجيع منه ؛ بل بتحريض شديد منه ، وما يتبع الفلسفة – كالمنطق مثلاً – ، حتى صار للفلسفة شأن – وأيُّ شأن – عند جميع طبقات الناس على اختلاف مشاربهم ، بسبب ذلك التشجيع القوي من الخليفة .

وفي تلك الفترة الحرجة ظهر عالم سلفي يدرس تلك العلوم الجديدة – أو الاصطلاحات الجديدة على الأصح – كما يدرسها غيره من الناس ، ولكنه كان يدرسها في صمت تام ، حتى تبحر في جميع تلك الاصطلاحات الكلامية والفلسفية ، مع تمكنه التام من العلوم الإسلامية عقيدة وشريعة ، ومن علوم القرآن والحديث بصفة خاصة ، ومن فروع اللغة العربية كذلك ، ألا وهو تقي الدين بن تيميَّة الحرَّاني الدمشقي .

---

(١) « الخطط المقريزية » بتصرف .

(٢) البقرة : ٢٥١ .

ولكن الفرق بينه وبين غيره من تلك الفرق المشار إليها أنهم كانوا يدرسونها على أنها علوم مقصودة لذاتها ، وأنها من العلوم النافعة التي يحتاج إليها الناس لمعرفة دينهم ومعرفة ما يجب لله وما يستحيل عليه سبحانه ، ولذلك أطلقوا عليها أصول الدين ، أو التوحيد ، أو العقيدة الإسلامية ... وهي أسماءٌ سمَّوْها هم ومشايخهم ما أنزل الله بها من سلطان ، وإلاَّ ؛ فأين علم الكلام من أصول الدين والعقيدة الإسلامية ، بل النسبة بينهما التباين البيِّن كما لا يخفى .

وأما شيخ الإسلام ؛ فقد درسها لغرض خاص ، درسها ليعرف سبيل المجرمين كما عرف سبيل المؤمنين ، ومن باب :

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا للشـ ـرِّ لكـن لِتَوَقِّيهِ
وَمَنْ لم يَعْـرِفِ الشَّرَّ مِنَ الخَيرِ يَقَعْ فِيهِ

فمعرفة السبيلين معاً أمر له أهمية قصوى كما لا يخفى على الفطن ، وقد تحدث في هذه المسألة حديثاً عظيماً مستفيضاً ينبغي لطالب العلم الاطلاع عليه العلّامة ابن القيم رحمه الله في بعض كتبه[1] .

وقد استخدم شيخ الإسلام تلك الاصطلاحات في الدفاع عن الإسلام وعقيدته بلغة القوم المهاجمين للعقيدة وبما يعقلون من الأسلوب ، حيث خرج على الناس فجأة ، وهو جندي مسلح بسلاح عصره ، ومدرب على جميع الأسلحة المستخدمة في الميدان ، ويجيد استخدامها على قدر الحاجة ، فعمل شيخ الإسلام في سبيل تجديد منهج السلف ، وتنشيط حركة الدعوة ، عملاً يستحق أن يطلق عليه بلغة العصر (كسر الجمود) ؛ لأنه ظهر بدمشق على حين غفلة من طوائف أهل الكلام وجميع أهل البدع ، وصدع بالحق ؛ كما سيحدثنا عنه بعض المؤرخين ، وأعلن الانتصار لمنهج السلف ، فهاجم الأشاعرة الكلابية والمعتزلة والروافض والمتصوفة والمتفقهة المتعصبة .

وقد قام الإمام بهذا الجهاد بعد فترة عصيبة مرت على السلفيين ومنهجهم وهم يعيشون متفرقين في زوايا العالم غرباء ؛ فقد انصرف جمهور الناس عن منهجهم إلى علم الكلام بعد أن سموه عقيدة كما تقدم ، وليس للسلفيين صوت يسمع قبل ظهور

---

(١) وللإطّلاع عليه راجع : « الفوائد » لابن القيم .

هذا الإمام ، حتى جُهِلَتْ حقيقة منهج السلف وعقيدتهم ، فأخذ الناس في الخوض على غير هدى في تفسير منهج السلف ، بعيدين عن الحقيقة ؛ بين قائل : إنه التفويض المطلق ، وإن السلف ما كانوا يفهمون معاني نصوص الصفات ، وقائل : إنهم مشبهة مجسمة .

فظهر شيخ الإسلام ليصحح مفهوم العقيدة السلفية التي أصبحت غريبة ولكسر ذلك الجمود في سير الدعوة السلفية التي وقف في سبيل سيرها عوائق متنوعة من علم الكلام الذي أفسد القلوب بالاضطراب والشكوك ، والتصوف الذي ردَّ الناس إلى ما يشبه الجاهلية الأولى في باب العبادة والعادات والتقاليد والسواليف الموروثة ؛ فجزى الله ذلك الإمام عن الإسلام والمسلمين خير ما يجزى به المصلحين المخلصين .

وفي هذا المعنى يتحدث تقي الدين المقريزي مستعرضاً أسباب انتشار العقيدة الكلابية واشتهارها وخفوت صوت الحق في تلك الفترة الحرجة فيقول :

« فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب تستبيح دماء من خالف عقيدة ابن تومرت ؛ إذ هو عندهم الإمام المعلوم والمهدي المعصوم ... » .

إلى أن قال : « هذا هو السبب في انتشار مذهب الأشعري وانتشاره في أمصار الإسلام ، بحيث نسي غيره وجهل ، حتى لم يبق اليوم – يعني وقته سنة ٨٤٥ هـ – مذهب يخالفه ؛ إلا أن يكون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله عنه ؛ فإنهم كانوا على ما كان عليه السلف ، لا يرون تأويل ما ورد من الصفات ... إلى أن كان بعد السبعمائة من الهجرة ، اشتهر بدمشق وأعمالها تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ، فتصدى للانتصار لمذهب السلف ، وبالغ في الردِّ على الأشاعرة ، وصدع بالنكير عليهم وعلى الصوفية والرافضة ، فافترق الناس فيه فريقان :

١ – فريق يبدعه ويضلله وينتقد عليه إثبات الصفات ومسائل أخرى ، منها ما له سلف فيه ، ومنها ما زعموا أنه خرق فيه الإجماع ولم يكن له فيه سلف ، وكانت له ولهم خطوب كثيرة ، وحسابه وحسابهم على الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

٢ – فريق يقتدي به ، ويعول على أقواله ، ويعمل برأيه ، ويرى أنه شيخ الإسلام ، وأجلُّ حُفاظ أهل الملة الإسلامية ، وله إلى وقتنا هذا[١] عدَّة أتباع في الشام وقليل بمصر »[٢] اهـ .

وبعد ؛ لا ينبغي أن يغيب عن البال أن السلفيين قد خاضوا مع خصومهم المعتزلة معركة حامية الوطيس قبل أن توجد الأشعرية ، وكانت المعتزلة – كما تقدم وكما يعلم الجميع – عقيدة دولة قوية كانت تدعو إليها بقوة سلطانها ، ومع ذلك ؛ فإن السلفيين قد قاوموها ، ووقفوا في وجه تلك القوة ؛ ممثلين في إمامهم إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ؛ لذلك أطلقوا عليهم أنهم حنابلة ؛ نسبة إلى الإمام أحمد بن حنبل .

فدعوى الأشاعرة أنهم هم وحدهم الذين قاوموا المعتزلة وخاصموهم هي دعوى تنقصها البينة ، وكل دعوى لا تدعمها البينة ؛ فلا سماع لها ، علماً بأن الأشعرية الكلابية قد تتفق مع المعتزلة في بعض المسائل ؛ كما لا يخفى على طلاب العلم ، ومن أبرز تلك المسائل ما يتعلق بصفة الكلام ، حيث يتفق كل من المعتزلة والأشاعرة على أن الكلام اللفظي مخلوق ، ثم يختلفون في إثبات الكلام النفسي ، فتثبته الأشاعرة وتنفيه المعتزلة (المسألة معلومة في موضعها) .

جهاد شيخ الإسلام

هكذا يوجز تقي الدين المقريزي ظهور شيخ الإسلام المفاجيء .

وفور ظهوره اجتمعت الفرق الموجودة على محاربته ، فحاربهم كلهم وحده ، مستعيناً بالله وحده ، ومُلْجِئاً ظهره إليه سبحانه ، فناظر الفلاسفة فأفحمهم ، وناظر المنطقيين فأسكتهم وألقمهم حجراً ، وناظر علماء الكلام على اختلاف منازلهم ومذاهبهم فحيرهم فانقلبوا حائرين لا يدرون ماذا يفعلون ، وخاصم المتفقهة المتعصبة ، فذبذبهم ، فباتوا متردِّدين ، وناقش المتصوفة وأسيادهم جماعة وحدة الوجود ، فجهَّلهم ، فلم يسعهم جميعاً إلا اللجوء إلى أسلوب المغلوبين العاجزين ، الذين يريدون الانتقام من الخصم الغالب بأي ثمن وبأي أسلوب ، فتقدموا إلى السلطة

(١) يشير تقي الدين المقريزي إلى وقته ، وقد توفي رحمه الله سنة (٨٤٥ هـ) .
(٢) « الخطط المقريزية » .

يشكون ، مستخدمين أسلوباً فرعونياً لإثارة الشعور : إلى متى السكوت ؟! إنه خالف الإجماع ، وسفهنا جميعاً ، وجاء بدين جديد ... إلى متى السكوت والحالة ما وصفنا ؟! إنه [يريد أن يبدل ديننا أو أن يظهر في الأرض الفساد ؟] أسلوب فرعوني مكرر .

من هنا دخلت حياة شيخ الإسلام مرحلة جديدة : سجن ، ونفي ، وتهديد ، بيد أن ذلك كله لم يؤثر في عمل الشيخ ؛ فالتدريس مستمر ، ينفي من دمشق إلى القاهرة ، فيتربع الشيخ على كرسي التدريس لينثر درراً من المسائل العلمية ، فيلتف حوله طلاب العلم ، فيفيدون منه العلم أحكاماً وعقيدة ، فيتضابق الوشاة من الطوائف ، فيتحركون بالشكوى وطلب النفي أو السجن ، فيسجن الشيخ ، فيتحول السجن مدرسة ومسجداً وخلوة ، فيستغيث الوشاة بالسلطة ، فينفى الشيخ إلى دمشق ، فيحيي المساجد بالعلم والمذاكرة ، فترتفع أصوات الحاقدين بالشكوى ، فينقل الشيخ إلى خلوته في قلعة دمشق ... وهكذا دواليك ؛ نفي وسجن وتدريس وفتوى وتأليف ... هكذا قضى شيخ الإسلام حياته كلها في خدمة الإسلام والمسلمين ، وإن كان أكثر الناس لا يدركون هذه الحقيقة .

وفي هذا المعنى يتحدث عنه تلميذه ووارث علمه ومنصبه في الدعوة والإصلاح العلامة ابن القيم رحمه الله ؛ حيث يقول : « ابتلي الشيخ من علماء السوء كما ابتلي غيره من الصالحين ، وما محنة إمامه المجاهد العظيم أحمد بن حنبل إلا مثال لما تبتلى به العقول المصلحة ، ولكنه يصبر ويحتسب ، بل يعد السجن نعمة من الله عنده » .

ثم قال ابن القيم : « يقول شيخ الإسلام في ورقة كتبها من السجن : ونحن في نعم عظيمة لا تحصى ولا تعد ، الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه » .

ثم قال بعد كلام طويل : « كل ما يقضيه الله فيه الخير والرحمة والحكمة » .

فيقول الشيخ عبارته المشهورة : « إن في الدنيا جنة ؛ من لم يدخلها ؛ لم يدخل جنة الآخرة »[1] .

---

(١) وهي جنة الرضى بقدر الله وقضائه ، بل جنة محبة الله والأنس به سبحانه والشوق إليه ؛ فهذه المعاني جنة ينعم فيها العبد في الدنيا ، حتى يكون مؤهلاً لدخول جنة الآخرة . ومما أثر عن شيخ الإسلام في هذا المعنى قوله – رحمه الله – : ماذا يفعل الأعداء ؟ أنا جنتي معي . سجني خلوة ، ونفي سياحة ، وقتلي شهادة . أو كما قال رحمه الله تعالى فقد رويناه بالمعنى .

ثم يقول : « ما يصنع أعدائي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحت فهي معي لا تفارقني ، أنا سجني خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة » .

يقول العلامة ابن القيم بعد نقل هذه العبارة المثيرة لمن كان له قلب حي : « لا يقول مثل هذا القول إلا عظماء الرجال ، الذين لا يهمهم ما يلاقون من سجن أو قتل أو نفي في سبيل ما يعتقدون » .

« ثم يقول : ما أقلهم ! حقّاً ما أقلهم ! بل هم اليوم أقل ، هل يوجدون ؟! » . والله المستعان

مغالطة النفاة في لقب التشبيه والتجسيم

بالغ النفاة في نفي صفات الله ، حتى سمَّوا ذلك توحيداً كما تقدم ، ثم أخذوا يبالغون في التشنيع ، فأطلقوا على من يثبت الصفات أنه مشبه ومجسم ، وهم يعلمون لولا المغالطة أن الأقسام العقلية ثلاثة :

١ – إثبات الصفات .

٢ – تعطيل الصفات .

٣ – التشبيه .

فالتعطيل نتيجة المبالغة في التنزيه على غير هدى ، والتشبيه نتيجة المبالغة في الإثبات على غير هدى ، وأما الإثبات ؛ فهو الوضع الثابت ، وهو الحق ، فالحق دائماً هو الوضع الثابت ، والباطل هو الأمر الطارىء ، يأتي مخالفاً للثوابت .

ولتحقيق الحق ، ووضعه في موضعه الثابت ، وبيان الباطل ، لابدَّ لنا من مناقشة هذه المغالطة .

وإذا استقرأنا كتاب الله والسنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ وآثار سلف الأمة ، وتتبعنا واقع الناس في كل زمان ومكان ؛ نجد المشبهة فريقين لا ثالث لهما :

الفريق الأول : مشبهة الخالق تعالى بخلقه في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله ؛ كأتباع هشام بن حكم وغيرهم ، الذين يقولون : إن الله تعالى على هيئة كذا وكذا ،

بل يقولون – في وقاحة وصلف – : إنه تعالى على هيئة الشاب الحسن ! هكذا يفعل الهوى بأهله ، و « إذا لم تستح ؛ فاصنع ما شئت » ، ويقولون في صفات الله : إنها كصفات خلقه ؛ إذ لا يعقل خلاف ذلك في زعمهم .

فإذا قيل في باب الأسماء والصفات : المشبهة ؛ فهم المرادون لدى أهل العلم والمعرفة ، ولا يوجد لهم اليوم بحمد الله تعالى مذهب قائم له كيانه ودعاته كالفرق الأخرى ، وذلك تخفيف من الله سبحانه وتعالى ، وهو العليم الحكيم .

وأما اعتقاد الذين يعتقدون أو يغالطون أن كل من أثبت لله تعالى صفاته الواردة في كتابه أو في سنة رسوله على ظاهرها اللائق بالله تعالى فهو مشبه ومجسم ؛ فهذا اعتقاد فاسد وظن سيء ؛ لأن القسمة ثلاثية كما تقدم : إثبات ، وتعطيل ، وتشبيه .

وتفصيل ذلك معلوم لدى طلّاب العلم ، والحق واحد لا يتعدد ، وواضح لا يلتبس على من طلبه من مظانه ، وهو كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ، وهو أبلج ، ولكنَّ الباطل لجلج ، ولو اطرد الباب ، فأطلق على كل من أثبت صفات الله : أنه مشبه ومجسم ؛ لأدَّى ذلك إلى الحكم على سادة الأمة وخيرها من الصحابة والتابعين أنهم مشبهة ومجسمة ؛ لأنهم يثبتون صفات الله دون أدنى توقُّف ، في ضوء الآيات والأحاديث الواردة ، وليس ذلك بضارهم شيئاً ؛ لأن الألقاب لا تغير الحقائق،والاصطلاحات إنما تخص أهلها ، ولا تلزم غيرهم .

فلفظ الجسم يختلف فيه الناس دائماً كما هو شأن كل الألفاظ المصطلحة ، والنفاة قد يريدون بالجسم كل ما يوصف بالصفات ، ويرى بالأبصار ، ويتكلم بكلام ، ويبصر ببصر ، هذه المعاني ثابتة لله تعالى على الوجه الذي يليق به كما تقدم ، دون أن يشركه أحد في حقائق صفاته وخصائصها ولوازمها ، وإن حصل الاشتراك بين صفاته تعالى وصفات خلقه في المطلق الكلي الذهني الذي لا وجود له في الخارج ؛ مثاله : علم مطلق غير مضاف لا إلى الخالق ولا إلى المخلوق ، ولا يختلف العقلاء في أن المطلق الكلي لا وجود له إلّا في الذهن ، والذهن قد يتصور المستحيلات ؛ لأنه حرٌّ في خيالاته ، وأما الموجود في الخارج ؛ فلا يوجد إلا مختصّاً معيناً .

لذلك نقول : بعد إضافة صفة الخالق إلى الخالق سبحانه ، وإضافة صفة المخلوق إلى المخلوق ، لا يوجد اشتراك بين صفة الخالق وصفة المخلوق ، بل صفة الخالق كما

يليق به ، وصفة المخلوق كما يناسبه ويناسب حدوثه ، وهذا أمر في غاية الوضوح عند أصحاب هذا الشأن ؛ فليفهم جيّداً ؛ لأنه مهم جدّاً ، ومن ثبتت عنده هذه الحقيقة ؛ استراح وأراح ، وقبل ذلك ؛ فهو قلق دائماً ، فلا يذوق برد اليقين .

فانطلاقاً مما قررنا ؛ فإننا لا ننفي صفات الله عنه ؛ خشية أن تطلق علينا المعطلة أننا مشبهة ومجسمة ، وهل نَسُبُّ أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم لئلا تطلق علينا الروافض بأننا نواصب ؟! بل نحب أصحاب رسول الله جميعاً ، ونترضى عنهم ؛ دون أن نفرق بين أحد منهم ، بل هل ننفي القدر ونكذب به لئلا تصفنا القدرية بالجبر ؟!

كلا ، وكما أسلفنا : إن الاصطلاحات لا تغير حقائق الأمور في جوهرها .

وما ألطف كلام العلامة ابن القيم في هذا المعنى وما أصدقه ؛ إذ يقول في قوة وشجاعة :

« ولا نرد ما أخبر به الصادق عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله ؛ لتسمية أعداء الحديث وأهله لنا حشوية ، ولا نجحد صفات خالقنا وعلوه على خلقه واستواءه على عرشه لتسمية الفرعونية المعطلة من يثبت ذلك مجسماً مشبهاً » .

ثم يقول رحمه الله :

« فَإِنْ كَانَ تَجْسيماً ثُبوتُ اسْتِوائِه ... عَلى عَرْشِهِ إنِّي إذاً لَمُجَسِّمُ
وإِنْ كانَ تَشْبيهاً ثُبُوتُ صِفاتِهِ ... فَمِنْ ذَلِكَ التَّشْبيه لا أتَكَتَّمُ
وإِنْ كانَ تَنْزيهاً جُحُودُ اسْتِوائِهِ ... وأوصافِهِ أو كَونِهِ يَتَكَلَّمُ
فَعَنْ ذلِكَ التَّنزيهِ نَزَّهْتُ ربَّنا ... بِتوفيقِهِ واللهُ أعْلى وأعْظَمُ »

ثم يقول العلامة ابن القيم رحمه الله : « رحمة الله على الإمام الشافعي حيث فتح للناس هذا الباب في قوله :

أيا راكباً قِفْ بالمُحَصَّبِ مِنْ مِنى ... واهْتِفْ بقاعِدِ خيفِها والنَّاهض
إنْ كانَ رَفْضاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلانِ أنّي رافِضي »[1]

(١) راجع : « مختصر الصواعق المرسلة » لابن القيم .

وهذا الأسلوب الذي استخدمه العلامة ابن القيم ، وسمَّاه باباً فتحه الإمام الشافعي للناس ، لو تتبعناه ووقفنا عنده لنطبقه على دعاة اليوم ؛ لوجدناهم مختلفين : دعاة أوذوا في سبيل الله كما أوذي الأولون في بيان الحق والنصح للعباد في عقيدتهم وعبادتهم وأخلاقهم وأحكامهم وسياساتهم ، حتى لقبوا بألقاب تنفر الناس منهم ؛ من وهابية ، وأصحاب الدين الجديد ، والمذهب الخامس ... وغير ذلك من أنواع التنفير ، وكان ذلك في أول بدء الدعوة ، ولكنهم صبروا وتجلدوا حتى نصرهم الله وسارت الدعوة على أيديهم سيراً حسناً ولا تزال ، فرجع الذين كانوا أعداء للدعوة أنصاراً لها ، وتغير الوضع تماماً .

فأذكر على سبيل المثال قصة واقعية لداعية تخرج من الجامعة الإسلامية ، فذهب ليعمل في بعض دول إفريقية ، ولا يزال يعمل ، وقد زرته في مقر عمله ، ولقد كان هذا الداعية قوياً في علمه ومعرفته ، وله اطِّلاع جيد في علم الحديث والتفسير والعقيدة ، وكان فيما يبدو لي صادقاً في عقيدته وتمسكه ، هكذا أظن ، ولا أزكيه على الله تعالى ، وهو سبحانه أعلم بنا وبه ، وكان الداعية يجلس لطلاب العلم في منزله المتواضع وفي المسجد الذي يصلي فيه علاوة على عمله في المدرسة ؛ يعلمهم ويفقههم ، ولما اشتهر في البلد ، وانصرف إليه طلاب العلم ؛ تضايق الصوفية – وأكره الناس عند الصوفية دائماً طلاب العلم ؛ لأن مشايخ الصوفية يعيشون على الزيارات والهدايا وتسخير الناس بالشعوذات ودعوى الكرامات وإقامة حفلات الموالد وغير ذلك من الطرق الملتوية في حياتهم – ، فثاروا ضد الداعية المذكور ، فأخذوا يؤذونه في نفسه ، وقد يلقون الأذى على بابه ليلاً وفي طريقه إلى المسجد ، ويعللون ذلك بأنه تعرض لأسباب معيشتهم ، ونال من مكانتهم ، فتقدموا بالشكوى إلى حاكم البلدة – وهو مسيحي – فتدخل حفاظاً على الأمن كما يقولون ، فحضر الداعية وخصومه من مشايخ الصوفية لدى الحاكم ، فعرضت القضية ، فسأل الحاكم المشايخ : ماذا يشكون منه ؟ فأرادوا أن يهوِّلوا الأمر ، فقالوا : هذا الشيخ جاءنا بدين جديد يخالف ديننا وعقيدتنا ، ونحن أصحاب الطرق الصوفية المعروفون ، وما تعرض لنا أحد قبله . فقال لهم الحاكم المسيحي : أين تعلمتم أنتم التعليم الإسلامي ؟ قالوا : تعلمنا هنا في بلدنا ومن بعض البلدان المجاورة لنا ! ثم قال لهم : من أين جاءكم هذا الشيخ بالدين الجديد كما قلتم ؟ قالوا : جاءنا من السعودية . ثم قال الحاكم للداعية

يا شيخ ! أين درست أنت ؟ قال الداعية : درست في مكة المكرمة والمدينة المنورة – ولقد كان الداعية طالباً في مدرسة دار الحديث المكية قبل افتتاح الجامعة الإسلامية ، ثم التحق بالجامعة ، فتخرج فيها من كلية الشريعة – . فقال له : هل لديك شهادة ؟ قال : نعم ، لديَّ شهادة جامعية من الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية . قال الحاكم للمشايخ : أنتم أمركم غريب ! أليس أصل دينكم من السعودية من مكة والمدينة ؟ قالوا : بلى . قال : كيف تعادون عالماً يحمل شهادة جامعية في الإسلام من مدينة رسولكم ، وقد جاءكم من حيث جاءكم أصل دينكم ؟! فأخذ يوبِّخهم بما يستحقون ، فقال لهم مما قال : إنه رجل مسيحي ؛ لا يعرف الإسلام إلاَّ بالجملة ، ولكنه بحكم أنه متعلم تعلماً عصريّاً ، يدرك أن مشايخ الطرق قد تكون لديهم بعض الخرافات التي لا أصل لها ، كالتي عند القساوسة القدماء المسيحيين ، الذي يرددون بعض طقوسات لا أصل لها في المسيحية ؛ كالخرافات التي عند بعض المسلمين كما هو ملاحظ . ثم قال لهم : إنه هو وزملاؤه عندما رجعوا من أوربا حيث تعلموا وجدوا لدى القساوسة القدماء أشياء لا أصل لها في المسيحية وأخشى أن يكون مثل تلك الأشياء لدى مشايخ الصوفية ، وأما صاحبكم ؛ فتعلم ولديه شهادة علمية ؛ فعليكم أن تتعلموا عليه إن شئتم ، وإلاَّ ؛ فلا تتعرضوا له بعد اليوم بالأذى . فانهزم مشايخ الطرق ، وانتصر الحق وصاحب الحق على يد حاكم مسيحيٍ نصراً عزيزاً غير متوقع .

من هنا ارتفع صوت الحق في تلك المدينة وما جاورها ، بل قد صار لتلك القضية صدى في أنحاء البلاد ، هكذا ظهر الحق وزهق الباطل .

« إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . هكذا قال رسول الله ﷺ .

الله أكبر ؛ إنه لرسول الله حقاً .

ولقد كان لموقف الحاكم المسيحي وأسلوب مناقشته أثر كبير في انتشار الدعوة السلفية وهزيمة الصوفية أو خفوت صوتهم على الأقل في بعض أنحاء تلك الجمهورية التي يعمل فيها ذلك الداعية ، فتعتبر الجمهورية المشار إليها من أبرز الدول الإفريقية في نشاط الدعوة[1] إلى الله في هذا الوقت ، ولديَّ أمثلة أخرى من هذا النوع ، ولكن ؛

(١) الجمهورية المشار إليها هي جمهورية كينيا ، وأما المدينة المذكورة ؛ فهي مدينة (قاريسا) .

أرى الاكتفاء بهذا المثال ، وهو دليل حي على أن العاقبة للمتقين ، وأن مع العسر يسراً ؛ كما أخبر الله سبحانه ، وأن الحق يعلو في العاقبة ولا يعلى عليه وأن الفجر لا بد أن يطلع وإن طال الليل ، فما على الدعاة إلى الله إلاَّ أن يتسلحوا بسلاح العلم ، ثم يوطنوا أنفسهم بالصبر وتحمل الأذى في سبيل الله ، مع الصدق مع الله والإخلاص له سبحانه ، والعاقبة لهم ؛ لأن العاقبة للمتقين ، و ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِن مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً** ﴾ ؛ إذ لن يغلب عسر يسرين !!

وإن كان يوجد صنف آخر من الدعاة ، الذين لم يحالفهم التوفيق ، الذين حاولوا التحبب إلى القوم الذين جاؤوا لدعوتهم وهدايتهم ، وحاولوا مداهنة مشايخ الطرق بدعوى استعمال الحكمة واللين في زعمهم ، ولكن هذا الصنف قليل بالنسبة للدعاة الموفقين الناجحين الذين مثلنا لهم بمثال واحد ، وبالله التوفيق .

وشبابنا الذين يتهيأون للدعوة إلى الله على بصيرة ، والذين يسلحون أنفسهم بسلاح العلم والمعرفة استعداداً للعمل الإسلامي الواعي السلفي :

* عليهم **أولاً** : أن يجدُّوا في التحصيل ، وأن يكثروا من النظر في كتب السنة وكتب العقيدة ومباحث الإيمان ، مع النظر في بعض فروع اللغة العربية .

* **ثانياً** : عليهم أن يدرسوا سير الدعاة والمصلحين قديماً وحديثاً ؛ لينحو نحوهم ويسيروا على منوالهم ويتأسوا بهم في أسلوب دعوتهم وصبرهم وعدم تأثرهم بالألقاب المنفرة التي يقصد بها أعداء الدعوة التشنيع عليهم وتنفير الناس من قبول دعوتهم .

* **ثالثاً** : عليهم أن يبتعدوا عن الانتماء إلى جماعة معينة ، أو حركة معينة ، تدعي العمل للإسلام فيما يبدوا للناس ولها مقاصد أخرى .

ولا ينبغي لطالب العلم أن ينصب نفسه داعية لتلك الحركات والجماعات على حسابها وباسمها وتحت نظمها ولوائحها الخاصة موافقة للسنة أو مخالفة ، وهو لم ينضج بعد علمه وعقله ، ومثل هذا الانتماء من العراقيل المعوقة في سبيل تحصيل العلم النافع الخالص لله وحده سبحانه ، وهذه (الانتماءات) من الأمور التي تفسد القلوب ، وتقضي على معنى الحب في الله والبغض في الله ، وهو معنى يجب أن يسود بين المسلمين .

* رابعاً : فليجاهد طالب العلم نفسه لحملها على الإخلاص لله ومراقبته ، وعلى عدم التطلع إلى مدح الناس وثنائهم عليه والتماس رضاهم ؛ لأن في ذلك غضب الله وسخطه ؛ بموافقتهم على ما هم عليه من البدع والخرافات ؛ بدعوى استعمال الحكمة ؛ كما يزعم بعض الناس ، وليس ذلك من الحكمة في شيء ؛ لأن الحكمة باختصار وضع اللين في موضعه ، ووضع الشدة في موضعها .

ولا ينبغي أن يغيب عن بال طالب العلم والداعية أن الذي مَدْحُه زين وذمُّه شين هو الله وحده ، وأما مدح المخلوق فلا ينفعك ، وذمه لا يضرك ؛ فماذا أنت طالبٌ بمداهنتك وتملقك إذاً ؟!

فلنعد إلى صلب الحديث بعد هذا الاستطراد .

وأما الفريق الثاني من المشبهة ؛ فهم الذين يشبهون المخلوق بالخالق عزَّ وجلَّ ، والذين يمنحون سادتهم ومشايخهم كثيراً من صفات الله عزَّ وجلَّ ، أدركوا ذلك أو لم يدركوا ؛ كالذين يعتقدون أن الشيخ المربي العارف بالله – على حد تعبيرهم – يعلم الغيب وما تخفي صدور المريدين والدراويشة الكادحين في خدمته ؛ اتباعاً لتعاليم تصدرها [مشيخة الصوفية] قديماً وحديثاً ، والتي منها : على المريد أن يحفظ خواطر نفسه وخلجات ضميره في حضرة الشيخ المربي ؛ لئلا يطلع الشيخ على تلك الخواطر في نفسه ، فيهلك المريد ، أو يحرم الترقي على الأقل ؛ إذ لا يحصل شيء من الخير والترقي وغيره إلا بواسطة الشيخ المربي في دين الصوفية ؛ كما يعلم الدارس .

وهناك عندهم كلام يجري مجرى الأمثال ، وهو قولهم : « فليكن المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل ؛ فاقد الإرادة والحركة ؛ إلا بتحريك الشيخ المربي فيما يهواه » .

وهذا من ضمن التعليمات التي تصدرها [مشيخة الصوفية] وهي تعليمات وثنية ، تدعو إلى عبادة غير الله كما ترى ، حيث يجعلون الشيخ المربي عالماً بكل شيء ، قادراً على كل شيء ، وهو قادر على التصرف في الكون ، وخصوصاً بعد وفاته ؛ لأنه في حياته قد تشغله الخدمة – على حد تعبيرهم (يعنون : العبادة) – ، وأما بعد وفاته ؛ فقد تفرغ لنفع مريديه ، والتصرف في شؤونهم ، وجلب الخير لهم ، ودفع الضرِّ عنهم !!

إنها أقبح من وثنية المشركين الأولين :

﴿ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾[1] .

وهي عقيدة تحملها كتبهم ويعتقدها أتباعهم والمؤمنون بهم والمتعاطفون معهم .

وهذا النوع من التشبيه ، وإن كان لا يدرك كثير من الناس أنه تشبيه ؛ ولكنه في واقعه تشبيه خطير وكفر بالله ورسوله وبكتابه الذي يقول الله فيه :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[2] .

وهذا التشبيه هو دين المتصوفه الغلاة ، الذين يصل بهم الغلو أحياناً إلى القول بالحلول ، بل بوحدة الوجود ، فيمثل هذه الملة من سموه محيي الدين بن عربي الطائي ، رئيس وحدة الوجود ، الذي يقول فيه بعض أهل العلم : إن كفره أشد وأقبح من كفر قريش قبل الإسلام .

وهو القائل : ليس في الجبة إلا الله !

وهو القائل :

وما الكَلْبُ والخِنْزيرُ إلاَّ إلهُنا وما اللهُ إلاَّ راهِبٌ في كَنيسَة

وله أتباع من الصوفية ، ويشبهه في كفره هذا ابن الفارض ، وابن عجيبة ، وابن سبعين ، والحلاج ، وأمثالهم في الإلحاد[3] .

وإمعاناً منهم في الكفر والبعد عن حقيقة الدين يلقبون كبراءهم بهذه الألقاب التي تنبيء عن الشرك عند نطقها أو سماعها :

١ - الغوث الأعظم .

---

(١) الكهف : ٥ .

(٢) النحل : ٦٥ .

(٣) ومن أراد الاطلاع على هذه الملة بالتفصيل ؛ فلينظر في كتاب : « فصوص الحكم » ، و « الفتوحات المكية » ، وكلاهما لابن عربي الطائي . ولمعرفة ما أشرنا إليه راجع : « هذه هي الصوفية » للشيخ عبد الرحمن الوكيل ، و « مصرع التصوف » للبقاعي ، وهذا الأخير من علماء القرن السابع الهجري .

٢ – القطب ، أو قطب الزمان .

٣ – الأوتاد .

... وغير ذلك من الألقاب .

وبعد هذا الاستطراد الطويل الذي أردنا به إيضاح بعض المسائل نعود إلى الحديث عن شيخ الإسلام الذي كنا نتحدث عن جهاده وتجديده .

وفاة شيخ الإسلام رحمه الله

بعد ذلك الجهاد الطويل والتضحية المريرة توفي شيخ الإسلام في السجن في قلعة دمشق ؛ أي في خلوته ؛ كما سماها هو رحمه الله ، حيث يتجرد فيها لعبادة ربه ومناجاته وتلاوة كلامه وتدبره ، بعد أن ترك للقراء مكتبة عظيمة ، قد عجز الساعون في حصرها عن معرفة محتوياتها بصورة قاطعة ؛ إذ لا تزال مؤلفات الشيخ مبعثرة هنا وهناك ، وموزعة في العالم ، وما جمعه [الشيخ عبد الرحمٰن بن قاسم] في تلك المجموعة العظيمة إنما هو جزء من تلك المكتبة ، وقد عالج الشيخ رحمه الله في جلِّ مؤلفاته موضوع العقيدة والدفاع عنها .

ويكفي مثالاً لذلك أن نذكر أبرز تلك الكتب من تلك المكتبة ؛ منها :

١ – « منهاج السنة » .

٢ – « درء التعارض بين العقل والنقل » .

٣ – « كتاب الإيمان » .

٤ – وبعض المجلدات في مجموع ابن قاسم وغيرها .

هذا وقد ورَّث الشيخ علمه ومنصبه في الدعوة إلى الله والدفاع عن العقيدة تلميذه الفذّ فريد وقته ابن قيِّم الجوزية ، فقام الوارث على التركة خير قيام ؛ عرف لها حقّها ، وهو أمين عليها ، فلم يأل جهداً في أداء الأمانة بالانتصار لمنهج السلف ؛ إذ كتب في الدفاع عن العقيدة السلفية كتباً ورسائل ، سلك فيها مسلك شيخه في إنكار المنكر وبيان الحق بالأدلة ، ثم سجن كما سجن شيخه ، بل توفي شيخ الإسلام والعلامة ابن القيم في السجن في قلعة دمشق .

ويعتبر نشاط ابن القيم في الدعوة والاصلاح امتداداً لجهاد شيخه ؛ فقد ناله من الأذى جزء مما نال شيخه ؛ إذ لا بدَّ لكل مصلح من الأذى والابتلاء ؛ لأنهم يعملون على منهج الأنبياء ، فأشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، ولكنه سبحانه رحمة منه ولطفاً بالعباد يبتليهم على حسب إيمانهم قوة وضعفاً ، فمن كان في إيمانه قوة وصلابة ؛ اشتد بلاؤه ، ومن كان في إيمانه رقة وضعف ؛ خفف عنه ؛ كما صحَّ بذلك حديث عن النبي ﷺ[1] .

وبعد وفاة شيخ الإسلام رحمه الله ؛ انفرد في الميدان العلامة ابن القيم ، وحمل لواء الدعوة والإصلاح ، وواصل المسيرة بالدعوة ، فرأى أنه قد حان الوقت للهجوم المباشر بدل الدفاع عند نقطة الحدود ؛ لأن الاكتفاء بالدفاع المجرد قد يشعر بالضعف ، فهاجم الجاهلية بأنواعها في عقر دارها ، فكتب في ذلك كتباً هجومية ميدانية هاجم فيها الخصوم في قوة المؤمن ، فأزعجهم وزلْزَل أقدامهم ، وأوقعهم في حيرة . منها :

١ - « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » .

٢ - « اجتماع الجيوش الإسلامية في غزو المعطلة والجهمية » .

وأنت ترى أن اسميْ الكتابين وما احتويا عليه من العلم والأسلوب المستخدم فيهما ؛ كل ذلك ينبىء أن العلَّامة المجاهد لا يرى الوقوف عند مجرد الدفاع كما أسلفت ، بل لا بدَّ من عمل ميداني يشعر بالقوة والعزة والشجاعة .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

هكذا يكون الداعية إذا كان متجرداً لله ومنقطعاً إليه سبحانه وصادقاً معه وهو سبحانه عليم بذات الصدور .

هكذا واصل مسيرته في تجديد القرن السابع الهجري ، وهو امتداد لتجديد القرن الهجري الذي قام به الإمام الشيباني .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجه ، ولفظه : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، ويبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلباً ؛ اشتدَّ بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ؛ ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » . « الجامع الصغير » .

(٢) المنافقون : ٨ .

استمرار الدعوة والمعارضة
(تجديد القرن الثاني عشر الهجري)

عاشت الأمة الإسلامية على آثار الأمطار الغزيرة – وإن كانت متقطعة – التي هطلت على أرض الإسلام في فترات متلاحقة ؛ بدءاً من عهد الشيباني ، فَرَوِيَتْ الأرض ، فأمسكت الماء ، فانتفع به من أراد الله به خيراً من عباده .

وكلما طغت الجاهلية في صورة أو بجميع صورها محاولة تغيير مفهوم الإسلام وإخفاء معالمه ، وضاق بذلك صدر كل من يهمه أمر الإسلام وله اهتمام بشؤون المسلمين ، ودعت الحاجة إلى التجديد ونفض الغبار عن وجه الحق ؛ عند ذلك يقيض الله لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها ، حتى ينقشع سحاب الجهل والجاهلية ؛ ليظهر وجه الإسلام مشرقاً ، فيعمل به من أراد له خيراً بفقهٍ وفهمٍ سليم ، « ومن يرد الله به خيراً ؛ يفقهه في الدين » .

ففي القرن الثاني عشر الهجري لاحظ الداعية المجاهد الإمام محمد بن عبد الوهاب أن عاصفة هوجاء عصفت بشدة على عقيدة الإسلام وشريعته ؛ لتغير معالمه ، وتنقل الأشياء من أماكنها ، وترمي بها حيثما وقعت ، فتغيرت بسبب ذلك مفاهيم كثيرة ، فالتبس الأمر على الناس في أبواب كثيرة ومسائل عديدة ، وحدثت في الإسلام بدع ليست من الإسلام في شيء .

فرأى الشاب الداعية أنه لا بدَّ من إعداد العدَّة للقيام بالتجديد وإعادة الأمور إلى وضعها الصحيح على ما كانت عليه قبل العاصفة ، ورأى فيما رأى أنه لا بدَّ من الازدياد من العلم والمعرفة وسعة الاطِّلاع والاتصال بالعالم المعاصر ومعرفة الأوضاع العامة للعالم الإسلامي ، فقرر الخروج في رحلة علمية طويلة قد تشمل بعض البلدان العربية ، وقد كان قبل يدرس ويتفقه على والده الشيخ عبد الوهاب ، وقد كان والده قاضياً معروفاً في بلدة [العيينة] ، درس عليه الفقه وشيئاً من التفسير والحديث ، وفي الوقت نفسه كان يكثر من النظر في كتب الإمامين المجددين العملاقين : الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وقد أفاد منها ، بل تأثر بها كثيراً جدّاً .

ثم بدأ تلك الرحلة بداية مباركة موفقة ، حيث بدأ بالمسجدين الشريفين

المباركين ، خرج حاجّاً إلى مكة المكرمة ، فحج البيت ، ثم أتى المدينة النبوية ، فزار مسجد رسول الله ﷺ ، ثم سلم على أكرم الدعاة إلى الله نبينا محمد بن عبد الله ﷺ وعلى صاحبيه ، ثم أخذ يتصل بعلماء المدينة النبوية آنذاك ؛ ليطلب العلم على أيديهم .

١ - ومن العلماء الموجودين في المدينة آنذاك وطلب الشاب الداعية العلم على أيديهم الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف آل سيف ، وهو في الأصل من أهل المجمعة بنجد ، فلازمه الشيخ محمد بن عبد الوهاب ملازمة ، فتفقه على يده ، فرأى الشيخ ابن سيف في الشاب ابن عبد الوهاب النبل والذكاء النادر ، فتفرس فيه الخير ، وأحبه ، واعتنى به كثيراً ، وبذل جهده في تعليمه .

أدرك ابن سيف أن الطالب الشاب يتألم مما يرى من الأمور الجاهلية المنتشرة هنا وهناك من الغلو في الصالحين وعبادتهم ، ومما عليه أهل نجد آنذاك من عقائد باطلة وعادات جاهلية ، فازداد الشيخ ابن سيف حبّاً له وتقديراً ؛ إذ ربط بينهما أقوى رابط ، وهو العقيدة السليمة .

فقدمه الشيخ ابن سيف لبعض علماء المدينة ؛ مثل :

٢ - الشيخ محمد السندي .

٣ - والشيخ علي الداغستاني .

٤ - والشيخ إسماعيل العجلوني .

٥ - والشيخ عبد اللطيف الإحسائي .

وغيرهم .

وأخبرهم الشيخ بما يكنه الشاب في نفسه من تضايقه الشديد من تلك الجاهلية المتنوعة من أنواع البدع والشرك بنوعيه ، ورغبته في الإصلاح لو استطاع .

وعلى كلٍّ ؛ صبر الشاب على مواصلة الدراسة في المدينة ، فحضر على بعض من ذكرنا من الشيوخ ، ولقد كان تركيزه في دراسته على علم الحديث ، وعند عزمه على السفر ومغادرة المدينة ؛ أخذ إجازة علمية من بعض مشايخه الذين حضر عليهم ، وفي مقدمتهم الشيخ ابن سيف ، فأجازه في « صحيح البخاري » ، و « مسند الإمام

الشافعي » ، و « السنن الأربعة » ، وغيرها من كتب الحديث ؛ كما تذكر بعض المصادر .

فغادر الشيخ المدينة إلى البصرة ، معرجاً على بلده نجد ، فأقام بالبصرة فترة من الزمن ، يطلب العلم على بعض علماء البصرة ، وفي مقدمتهم الشيخ محمد المجموعي ، وقد استفاد من هذا الشيخ كثيراً في فروع اللغة العربية والحديث ، فأدرك الشيخ المجموعي – وهو يدرس عليه – أن ابن عبد الوهاب ليس طالباً عاديّاً ، بل يتهيأ لأمر عظيم ، يتهيأ للقيام بالدعوة الإسلامية الشاملة والإصلاح العام ، إصلاح العقيدة وإصلاح الأحكام ؛ ليكون الإسلام هو الحاكم وحده بدل العادات والسواليف والتقاليد والقوانين الأخرى ، إصلاح السياسة في ضوء الإسلام ، إصلاح الأخلاق ... وهكذا ؛ لأن الإسلام هو المؤهَّل وحده للإصلاح ، ولا صلاح ولا إصلاح إلاَّ بالإسلام ، وأما الذين يزعمون في هذه الأيام أنهم يريدون إصلاح المجتمع وتهيئته لقبول الإسلام ، ثم يطبقون عليهم أحكام الإسلام فيما بعد ؛ فهذا تخدير للأعصاب ؛ لتنام الناس ولا تتحرك فتطالب بتطبيق الشريعة ، وإلاَّ ؛ فبأي شيء يصلحون أولاً قبل الإسلام ؟! وهل الرسول الكريم سيد المصلحين بدأ إصلاح ذلك المجتمع الجاهلي بشيء غير الإسلام ؟! ثم طبق عليه شريعة الإسلام . وما هو ذلك الشيء ؟ لا شيء بل بدأ الإسلام بأصوله ثم فروعه وأحكامه ، (فخير الهدي هدي محمد ﷺ) .

فأخذ الداعية ابن عبد الوهاب يجدُّ في طلب العلم والتحصيل ، ومع ذلك أخذ في محاولة الإصلاح المستطاع ، فشرع يكتب الرسائل في الدعوة ، وينشرها بين الناس ، ويباحث الناس ، ويفصل ، ويبين ، فصار دائم الحركة الإصلاحية المستطاعة له ، وخصوصاً في أيام وجوده بالبصرة ، في أواخر أيام التحصيل .

تذكر بعض المصادر أن رحلة الشيخ شملت بعد المدينة الشام والعراق ، وأخذ العلم على مشاهير تلك البلاد ؛ كابن سيف والسندي بالمدينة ، والمجموعي بالعراق ، والشيخ عبد اللطيف بالأحساء ، ثم عاد إلى بلده .

عودة الشيخ إلى نجد للدعوة والإصلاح

وبعد هذه الرحلة العلمية الموفقة التي استفاد خلالها فوائد جمَّة ، عاد الشيخ إلى

بلده بعد أن ازداد العلم والمعرفة ، وبعد أن درس أحوال المسلمين في عدة بلدان ، وأدرك حاجة المسلمين الماسة إلى الإصلاح العام من جديد ، والتصحيح الجذري الفوري لعقيدتهم نحو ربهم ومعبودهم ، وتصحيح موقفهم من سنة نبيهم الذي بعث لهدايتهم ، والذي يسألون عنه في قبورهم ، وموقفهم من كتاب ربهم الذي هجروه ؛ إذ لا يرجعون إليه لمعرفة عقيدتهم وأحكام دينهم .

بل أدرك الشيخ وتأكد أثناء جولته تلك في البلدان التي زارها ومما شاهده في وطنه نجد أن الأمة بحاجة إلى القضاء على تلك الفوضى التي تعيشها ؛ فلا بدَّ لها أن تنتهي ؛ لتتبدل بحياة إسلامية صحيحة وشاملة لجميع نواحي الحياة .

وانطلاقاً من هذا الإدراك ؛ صمم الشيخ على القيام بالدعوة الإصلاحية العامة – كما أشرنا قبل – مستعيناً بالله وحده في بلده حريملاء ، بمحاولة تصحيح العقيدة ، وأنكر على العوام تعلقهم بغير الله وصرف العبادة أو بعض أنواعها لغير الله ؛ مثل النذر ، والذبح ، والخوف ، والرجاء ... مما هو منتشر في البلد آنذاك .

وقد كان إنكار مثل هذه الأشياء جديداً وغريباً هناك ؛ لذَلك قوبلت الدعوة في أول الأمر بالإنكار والردِّ والجدال .

يقول بعض الكتاب وهو يصف الشيخ عندما بدأ بدعوته الناس إلى توحيد الله وموقفهم منه : « حقّاً إن الموقف دقيق وحرج ، يحتاج إلى شجاعة ماضية ، وإلى إيمان لا يبالي صاحبه بالأذى في سبيل إرضاء الله وإرضاء الحق الذي اقتنع به ، وسبيل إنقاذ البشرية المعذبة ، كما يحتاج إلى عدة كاملة من قوة اللسان وإصابة البرهان ؛ ليواجه ما يجابه من شبهات واعتراضات لا بدَّ منها ، ثم إلى مؤازر قوي يحمي ظهره ويدافع عن دعوته »[1] .

والموقف كما وصفه الكاتب حرج جدّاً ، إلا أن الله ثبت الشيخ المجدد على الدعوة ؛ رغم كل تلك العقبات والصعوبات التي واجهت الدعوة في بدايتها وحاولت إيقافها ؛ سواء من الداخل كما كان من أسرته قبل أن يتبينوا الحق ، أو من الخارج كما كان من بعض أصحاب الأهواء ، ولكن الله سلَّم ..

---

(١) ابن حجر : ترجمة محمد بن عبد الوهاب ص ٢١ ، طبعة الجامعة الإسلامية المدينة المنورة .

ولم تقف الدعوة منذ بدأت لحظة واحدة ، بل من حسن إلى أحسن في نشاطها وآثارها .

وتذكر بعض المصادر أن والده الشيخ عبد الوهاب كان ممن نازعه في أول الأمر ، وكذلك أخوه سليمان بن عبد الوهاب ، وأخيراً ؛ قنعا بصحة الدعوة ورجعا إلى الحق .

وفي أثناء انشغال الشيخ بالدعوة – ولم يكثر أنصاره بعد – حاول بعض السفهاء أن يقتلوا الشيخ في حريملاء ، فغادر الشيخ تلك البلدة إلى بلده ومسقط رأسه (العيينة) فواصل الدعوة والإصلاح هناك ، حيث آزره أمير العيينة آنذاك عثمان بن حمد بن معمَّر ، الذي رحب بالدعوة في أول الأمر ، بعد أن شرح له الشيخ دعوته ، وأنها دعوة قائمة على العمل بالكتاب والسنة ، وأنها تعني أول ما تعني تطهير العقيدة والأخلاق ، وتصحيح الأحكام ، حتى يكون كتاب الله هو المرجع للأحكام ، مفسراً بالسنة المطهرة ، وأن القائمين بهذه الدعوة لا يريدون إلاَّ وجه الله والثواب في الدار الأخرة من الله وحده ، فوافق الأمير على مواصلة المؤازرة .

ونشطت الدعوة ، فأخذ الشيخ في الإصلاح العملي ، فأمر بقطع بعض الأشجار التي كان الناس يتعلقون بها ، بل ويعبدونها ويعظمونها ، وهدم قبة كانت على قبر [زيد بن الخطاب] ، كل ذلك بمساعدة الأمير عثمان .

وأخيراً ؛ أقام الشيخ الحد على امرأة اعترفت بالزنى عدة مرات أمامه ، بعد أن تأكد من صحة عقلها ورغبتها في التطهير . وبعد هذه الواقعة اشتهر أمر الشيخ ، وذاع صيته في كل مكان ، في نجد وما جاورها ، حتى كاتب بعض الأمراء الذين كانت لهم مكانة عند ابن معمَّر وبينهم مصالح متبادلة يستنكرون الواقعة (إقامة الحد) ، فطلبوا منه التخلي عن الشيخ ، بل طلبوا إخراجه من بلده .

فأخرج الشيخ من العيينة إلى الدرعية سنة ١١٥٨ هـ ، فنزل على رجل من أعيان البلد – كما تقول بعض المصادر – ، وهو عبد الرحمٰن بن سويلم ، فأقام عنده أياماً ، حتى علم به أمير الدرعية الأمير محمد بن سعود ، فجاءه مع بعض إخوانه وأتباعه ، فزاروا الشيخ ، فدعاهم إلى التمسك بعقيدة التوحيد الخالص . وبين لهم أن التوحيد هو الذي بعث الله الرسل من أجله ، وأنه قد ضعف اليوم في قلوب بعض

الناس ، وتلا عليهم آيات من القرآن ، ودعا الله للأمير محمد بن سعود ، راجياً من الله أن يكون إماماً يجتمع عليه المسلمون بعد ذلك التفرق والتشتت ، وأن تكون السيادة والملك له ولذريته من بعده .

فشرح الله صدر الأمير محمد بن سعود ، فقبل الدعوة ، وأحبَّ الشيخ وبشَّره بالنصر والوقوف معه على من خالفه في دعوته وإصلاحه ووقف في طريقه ، وتعاهدا على المضي في الدعوة مهما كانت الظروف ، فنشطت الدعوة أكثر من ذي قبل .

حيث بدأت في بلدة حريملاء على ضعف ، ولقد كان الشيخ يخاف على نفسه وعلى دعوته ، حتى خرج منها إلى العيينة في وضع مُتَخَفٍّ ، إلا أنه أُخْرج منها كما أسلفنا ، بعد أن تعرضت الدعوة لهزة عنيفة عندما بدأ الشيخ في التطبيق العملي وتأتي مرحلة الدرعية ، وهي المرحلة الثالثة والثابتة .

هكذا كانت سنة الله في المجددين المصلحين : خوف ، وإزعاج ، وإخراج ، ثم نصر ، وثبات ، وازدهار ، ولا تزال كذلك ، ولن تزال :

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[1] .

ولنقرأ هنا وعد الله ؛ إذ يقول سبحانه :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۞ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[2] .

مرحلة الدرعية

من هنا دخل العمل مرحلة جديدة ، دعوة جادة آمنة ؛ إذ شرع الشيخ المجاهد يدعو ويصلح ويعلم ويصحح ، والمؤازر يتابع سير الدعوة ويحمي ظهرها بسيفه ، حتى ظهرت الدعوة ، وظهر أمر الشيخ ، فأخذت الوفود تفد على مركز الدعوة (الدرعية) حتى ندم الأمير ابنُ معمَّرٍ على إخراج الشيخ ، فجاء إلى الشيخ ليستسمحه ، فسامحه الشيخ .

---

(١) الفتح : ٢٣ .
(٢) الحج : ٤٠ – ٤١ .

من هنا أقبل الناس على العلم والعبادة والجهاد في جوٍّ هادىء وآمن ، يؤمر فيه بالمعروف ، وينهى فيه عن المنكر ، ويعز فيه أهل طاعة الله من العلماء وطلاب العلم ، ويذل فيه أهل العناد والفساد .

ثم رأى الشيخ أنه لا يكفي أن يقف عند الإصلاح المحلي في الدرعية وما جاورها ، بل لا بدَّ من السير بالدعوة إلى الإمام ؛ فلا بدَّ من التبليغ بجميع الوسائل المتاحة له ، فأخذ الشيخ يراسل الرؤساء والأمراء والقضاة في المنطقة ، فمنهم من هداهم الله ، فأطاع ، فرجع إلى الحق ، فصار من أنصار الحق وأنصار دعاة الحق ، وهم الكثيرون ، ومنهم من عاند ، وسخر من الدعوة ، وركب رأسه ، وتلك سنة الله كما علمنا في تاريخ الدعوة والدعاة .

بدء التعليم الجاد والتأليف

فأخذ الشيخ بجانب ذلك التعليم والتدريب الجاد يؤلف كتباً ورسائل ، أكثرها في توحيد العبادة ، الذي يرى الشيخ أن حاجة الناس إليه أمس من حاجتهم إلى أي علم آخر ، وهو الواقع ، بل لم يكتف الشيخ بالتأليف ، بل بدأ يحاول القضاء على تلك الشائعة التي تسبق الدعوة إلى كل مكان ، فجعل يعالج تلك الشائعة المغرضة بإصدار رسائل متنوعة ترسل إلى الخارج ، تبين موقف الشيخ ودعوته من الأئمة الأربعة ، وأنه موقف احترام وتقدير لهم ، وليس موقف منافس لهم ، ولا استخفاف بمذاهبهم ؛ كما يشيع خصوم الدعوة .

أجل ؛ أثبت الشيخ بما كتب وبثَّ بين الناس أنه لم يأت بما يخالف ما عليه أئمة الهدى من الأئمة الأربعة وغيرهم – وهم كثيرون – من الدعوة إلى التمسك بكتاب الله وتحكيمه بين الناس والتحريض على التمسك بهدي رسول الله ﷺ وعدم تقديم قول أحدٍ على قول رسول الله ﷺ ؛ لأنه رسول الله ؛ فكيف يقدم قول إنسان عادي على قول رسول مرسل من الله عزَّ وجلَّ ؟!

ومما دعا إليه الأئمة الأربعة وكبار أصحابهم عدم التقليد الأعمى ، وهو عنوان مهم في دعوة كل مصلح ، وقد أطبق الأئمة على ذلك ؛ حرصاً منهم على تجريد المتابعة لرسول الله ﷺ ، وكذلك فعل كل مصلح بعدهم ؛ كالإمام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية ، يعلم ذلك كل من نظر في كتبهم ومؤلفاتهم ، وهو من

الأمور التي قام بتجديدها مجدد القرن الثاني عشر .

وقد بثَّ الشيخ عدة رسائل لبيان موقفه ومنهجه في دعوته ؛ منها رسالة في القدر والقضاء ، ورسالة في بيان موقفه من أصحاب رسول الله ﷺ ، وموقفه من نصوص الصفات في الكتاب والسنة من إمرارها كما جاءت على منهج السلف ، وأنه ليس له منهج آخر مخالف لمنهج السلف ، وقد وصلت تلك الرسائل إلى أقطار كثيرة ، يريد الشيخ من بثها وإرسالها أن يعرف الناس دعوته وعقيدته على الحقيقة والواقع ، وقد سجلت أكثر تلك الرسائل في كثير من تراجمه .

وأستحسن هنا أن أنقل رسالة واحدة من تلك الرسائل ، وهي التي تعالج موضوع الصفات ، وتبين عقيدته ، أنقلها بنصها ؛ لأن ذلك أبلغ في المراد ، وأوقع في النفوس .

يقول الشيخ بعد الديباجة المعتادة والتسمية والصلاة والسلام على خير الأنام محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام :نص الرسالة :

الذي نعتقده وندين به هو مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان من الأئمة الأربعة وأصحابهم رضي الله عنهم ، وهو الإيمان بآيات الصفات وأحاديثها ، والإقرار بها ، وإمرارها كما جاءت ؛ من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل .

قال الله تعالى :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً ﴾(١) .

وقد رضي الله لأصحاب نبيه ومن تبعهم بإحسان الإيمان ، فعلم قطعاً أنهم المراد بالآية الكريمة .

قال الله تعالى :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٢) .

---

(١) النساء : ١١٥ . (٢) التوبة : ١٠٠ .

وقال تعالى :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[1] .

فثبت بالكتاب أن من اتبع سبيلهم ؛ فهو على الحق ، ومن خالفهم ؛ فهو على الباطل ، فمن سبيلهم في الاعتقاد : الإيمان بصفات الله وأسمائه ، التي وصف بها نفسه في كتابه وتنزيله ، أو على لسان رسوله ﷺ ؛ من غير زيادة عليها ، ولا نقصان فيها ، ولا تجاوز لها ، ولا تفسير ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها ، ولا تشبيه بصفات المخلوقين ، بل أمروها كما جاءت ، وردوا علمها إلى قائلها ، ومعناها إلى المتكلم بها ، وأخذ ذلك الآخر عن الأول ، ووصى بعضهم بعضاً بحسن الاتباع ، وحذرونا من اتباع طريق أهل البدع والاختلاف ، الذين قال الله فيهم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾[2] .

وقال :

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3] .

والدليل على أن مذهبهم ما ذكرنا : أنهم نقلوا إلينا القرآن العظيم ، وأخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ نقل مصدق لها ، مؤمن ، قابل لها ، غير مرتاب فيها ، ولا شاك في صدق قائلها ، ولم يؤولوا ما يتعلق بالصفات منها ، ولم يشبهوا بصفات المخلوقين ؛ إذ لو فعلوا شيئاً من ذلك ؛ لنقل عنهم ، بل زَجَروا من سأل عن المتشابه ، وبالغوا في كفِّه ؛ تارة بالقول العنيف ، وتارة بالضرب .

ولما سئل مالك رحمه الله عن الاستواء ؛ أجاب بمقالته المشهورة وأمر بإخراج الرجل ، وهذا الجواب من مالك في الاستواء شاف كاف في جميع الصفات ؛ مثل النزول والمجيء واليد والوجه ... وغيرها ، فيقال في النزول : النزول معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ... وهكذا يقال في سائر الصفات ، وهي بمثابة الاستواء الوارد به الكتاب والسنة .

---

(1) الفتح : ١٨ .

(2) الأنعام : ١٥٩ .   (3) آل عمران : ١٠٥ .

(٥)

وثبت عن الربيع بن سليمان ؛ قال : سألت الشافعي رضي الله عنه عن صفات الله تعالى فقال : « حرام على العقول أن تمثل الله ، وعلى الأوهام أن تحده ، وعلى الظنون أن تقطع ، وعلى النفوس أن تفكر ، وعلى الضمائر أن تتعمق ، وعلى الخواطر أن تحيط ، وعلى العقول أن تعقل ؛ إلا ما وصف به نفسه على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام » . اهـ .

وثبت عن إسماعيل بن عبد الرحمٰن الصابوني : أنه قال : « إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة يصفون ربهم بصفاته التي نطق بها كتابه ، وشهد له بها رسوله ﷺ ، على ما وردت به الأخبار الصحاح ، ونقلته العدول الثقات ، ولا يعتقدون بها تشبيهاً بصفات خلقه ، ولا يكيفونها تكييف المشبهة ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه تحريف المعتزلة والجهمية ، وقد أعاذ الله أهل السنة من التحريف والتكييف ، ومنَّ عليهم بالتفهيم والتعريف ، حتى سلكوا سبيل التوحيد والتنزيه ، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه ، واكتفوا في نفي النقائص بقوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] .

وبقوله :

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[2] .

وثبت عن الحميدي شيخ البخاري وغيره من أئمة الحديث : أنه قال : « أصول السنة ... (فذكر منها أشياء ، وقال :) ما نطق به القرآن والحديث ؛ مثل :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾[3] .

ومثل : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[4] .

وما أشبه هذا من القرآن والحديث ؛ لا نرده ولا نفسره ، ونقف على ما وقف عليه القرآن والسنة ، ونقول : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[5] .

---

(١) الشورى : ١١ . (٢) الإخلاص : ٣ - ٤ .
(٣) المائدة : ٦٤ . (٤) الزمر : ٦٧ .
(٣) طه : ٥ .

ومن زعم غير هذا ؛ فهو جهميٌّ .

فمذهب السلف رحمة الله عليهم : إثبات الصفات ، وإجراؤها على ظاهرها ، ونفي الكيفية عنها ؛ لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، كما أن إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ولا تشبيه ، وكذلك الصفات ، وعلى هذا مضى السلف كلهم » اهـ .

ولو ذهبنا نذكر ما اطَّلعنا عليه من كلام السلف في ذلك ؛ لطال الكلام جدّاً .

فمن كان قصده الحق وإظهار الصواب ؛ اكتفى بما قدمنا ، ومن كان قصده الجدال والقيل والقال ؛ لم يزده التطويل إلا الخروج عن سواء السبيل ، والله الموفق » اهـ .

وما سردناه نص رسالة الشيخ في عقيدته في الصفات والأسماء ، وهي واحدة من تلك الرسائل التي كان الشيخ قد أرسلها إلى الأقطار والأمصار ، يشرح فيها عقيدته ودعوته وتجديده .

وفي هذه الرسالة أثبت الشيخ أن من عقيدة الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان : الإيمان بصفات الله تعالى كما جاءت ، دون محاولة إدراك الكيفية ، ودون تجاوز للقرآن والحديث .

هذه طريقة الإمام أحمد بن حنبل ومنهجه ؛ حيث يقول : « لا يتجاوز الكتاب والسنة في باب الصفات » أو عبارة قريبة من هذه .

وقد أثبت الشيخ ابن عبد الوهاب في هذه الرسالة مذهب السلف ، وأقام الدليل على ذلك ؛ إذ يقول رحمه الله : « والدليل على مذهب ما ذكرنا أنهم نقلوا إلينا القرآن العظيم وأخبار رسول الله ﷺ نقل مصدق لها مؤمن بها قابل لها غير مرتاب فيها ولا شاكٍّ في صدق قائلها ، ولم يؤولوا ما يتعلق بالصفات منها ... » إلى آخر ما ورد في الرسالة المذكورة .

وهو استدلال دقيق كما ترى ، وهذه طريقة علماء السلف قديماً وحديثاً في إثبات أقوالهم بالأدلّة ، وهو المنطق السليم المقبول لدى العقلاء ، لا الجدل العقيم الذي لا ينتج .

ولقد كانت دعوة الشيخ دعوة تساير الواقع ، ولا تضرب في الخيال الباطل ، ولا تميل إلى استعمال الأسلوب المخدر ، ولكنها تشخص الداء ، وتضع الدواء على الداء ، وربما اضطرت إلى عملية البتر ؛ بصرف النظر عن الألم المؤقت الذي قد يؤذي المريض ، ولكن العاقبة تبقى دائماً محمودة - على عكس الأسلوب الذي يوهم المرضى أنهم ليسوا بمرضى ولكنهم في غاية الصحة - ؛ لأنها تصارح المرضى بمرضهم ، وتسعى في علاجه والوصول إلى الصحة والعافية ؛ دون أن تلهيهم بالطموحات السياسية الكاذبة .

وبذلك تراها تركز على محاربة أنواع من التقاليد المتبعة في المنطقة ، وهي مجموعة من الوثنيات : دعوة غير الله ، والاستغاثة بغيره ، والذبح والنذر والتوسل المبتدع ، وشد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة ، والبناء على القبور وكسوتها وإسراجها والعكوف عند الأضرحة ؛ لأن بعضها شرك ظاهر ، وبعضها من وسائل الشرك ، والنهي عنها من باب سد الذرائع ، وهو باب مهم في الفقه الإسلامي كما يعلم طلاب العلم .

هل تأثرت الدعوة بوفاة المجدد والمؤازر

توفي الإمام محمد بن سعود مؤازر الدعوة السلفية والمجاهد دونها سنة ١١٧٩ هـ ، ثم الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦ هـ ؛ رحمهما الله .

فهل يا ترى ماتت الدعوة بموتهما ، أو تأثرت ، أم أنها استمرت ؟!

مما ينبغي التفطن له أنك لو راجعت التاريخ ؛ تجد الحقيقة الآتية ولا محالة : أيما دعوة يقوم بها مصلح أو مجدد ، إذا كان منشؤها مجرد اجتهاد ذو فكر بشري يحاول الإصلاح والتجديد ؛ فإنها تموت أو تضعف على الأقل بموت صاحب الفكرة ومنشىء الحركة .

وهناك دعوة لا تموت بموت الداعية المسؤول عنها .

فإذاً ؛ لا بدَّ لنا من معرفة الفرق بين الدعوة التي تموت بموت صاحبها والدعوة التي تبقى بعده ، بل تسير ولا تقف ، ولبيان ذلك نقول : هما دعوتان :

١ - دعوة أنشأها مفكر ما بعد أن فكر وقد خطط ووضع شروطاً يرى أنه

لا بدَّ منها لنجاح دعوته ؛ بصرف النظر : هل هي موافقة للسنة أو مخالفة لها ؟! كما يضع لها لوائح داخلية تسير عليها الدعوة ، وتلتزم بها ، حيث يرى أن دعوته تخدم الأمة أو تخدم جماعة من الناس تؤمن بها ، ثم تسعى في إقناع الناس بفكرته وصلاحيتها وبيان أهدافها والدعاية لها ، متتبعة جماعة من الناس ، فيكوِّنُ حزباً يتحزبون له وينصرونه .

فلا يخلو الأمر لاستمرارية هذه الدعوة أو عدم استمراريتها بعد موت صاحبها من إحدى حالتين :

* **الحالة الأولى** : أن يموت صاحب الفكرة رئيس الدعوة قبل أن يرى له من يَخْلُفُه ويقود الدعوة من بعده ؛ ففي هذه الحالة تموت الدعوة فور موت صاحبها لا محالة ، وهي قضية مسلمة عقلاً ، وعلى هذا تجري نواميس الحياة ، بصرف النظر عن الأمور الخارقة للعادة .

* **الحالة الثانية** : أن يموت صاحب الفكرة ، وقد وُجِدَ من يخلفه ، وهو مؤهل للقيادة ، ومتفاعل مع الدعوة ؛ ففي هذه الحالة قد تبقى الدعوة فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر ، ولكنها تتلاشى مع الزمن وتتأثر وتفقد قيمتها ثم تختفي ، والتاريخ خير شاهد على ما ذكرت ؛ لأن أساسها فكرة رجل وتخطيط بشري ، والمفكر المخطط قد مات وانتهى ، إذاً ؛ لا بدَّ أن تنتهي ولا محالة .

والشواهد كثيرة في واقع العالم المعاصر ، ولا حاجة لسردها ، بل المستحسن إجمالها .

٢ – أما الدعوة الثانية ؛ فدعوة قام بها مصلح مجدد ، بَيْدَ أن معنى التجديد ها هنا يختلف عن معناه في الدعوة الأولى ؛ فالدعوة الأولى – كما قلنا – أساسها فكر بشري ، وهي تحاول أن تدعي أن تأتي بجديد ، وربما تأتي بجديد فعلاً ، قد يقبل وقد يرفض ، وعلى كلٍّ ؛ هي محاولة بشرية لا صلة لها بالوحي . وأما الدعوة الثانية ؛ فأساسها دين إسلامي ثابت وقائم بالفعل ، ولكن صاحبها لاحظ أن المسلمين هجروا تعاليم الإسلام أو بعضها ؛ إذ رآهم هجروا كتاب ربهم وأهملوا سنة نبيهم ، فلم يعد القرآن مرجعاً لهم في عقيدتهم وفي عباداتهم ومعاملاتهم وغير ذلك ، ولم تكن السنة ذات قيمة لديهم ، فدعاهم إلى العودة إلى الإسلام ؛ ليفهموه كما فهمه سلفهم ،

ويفسروه كما فعل الأولون من المسلمين ، ويطبقوا أحكامه ، ويعتقدوا عقيدته .

وهذا معنى التجديد بالنسبة للدعوة الثانية ، إذاً ؛ ليست هي فكرة بشرية ، ولكنها تجديد للشريعة الإسلامية وعقيدتها ، وإصلاح ما فسد من أمور الدين ؛ فمثل هذه الدعوة سوف تبقى بعد موت المجدد .

فدعوة ابن عبد الوهاب من هذا النوع الثاني ، - كما ترى - ، ولهذا فإنها لم تمت بموت مؤازرها أولاً ، ثم موت مجددها المصلح ثانياً ؛ فالدعوة الإسلامية باقية وستبقى - بإذن الله - ما بقي الإسلام الذي هو أساسها ، حتى يرفع الله كتاب الإسلام من الأرض عندما يأذن الله بانتهاء الدنيا .

ولما توفي الإمام المجدد ، وقبله الإمام المؤازر ؛ تسلم قيادة الدعوة رجال أمناء ؛ دعوة ومؤازرةً وتأييداً أو دفاعاً عنها ، وهم علماء آل الشيخ وتلامذتهم ، وملوك وأمراء آل سعود ، واستمرت الدعوة في سيرها ، تفتح البلاد وقلوب العباد ، ولا تزال تسير سيراً حسناً وحثيثاً ، حتى بلغت اليوم أماكن ما كان يظن أنها تصلها في عرض الدنيا وطولها ، وستواصل سيرها بإذن الله وتوفيقه ، ولا يضرها من خالفها ، حتى تزحزح جميع تلك الأفكار المعارضة لها ، ليظهر نور التوحيد الخالص ، وتحكم الشريعة أرجاء الدنيا ؛ لأن العاقبة للمتقين .

وأصحاب هذه الدعوة لا يفترون إن شاء الله ، بل يعملون ويبلغون ، وكلهم أملٌ بل يقينٌ بالنصر والظهور والبقاء ، إيماناً منهم بأخبار الصادق المصدوق محمد رسول الله ﷺ ، الذي بشر دعاة الحق وأصحاب العقيدة الحقة بالنصر والظهور ، وعدم تأثير المخالفين فيهم وفي دعوتهم ، مهما حاولوا خذلانهم ؛ إذ يقول ﷺ :

« لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

ولفظ مسلم من حديث جابر : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون ، على الحق ظاهرين ، إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم : تعال صل بنا ، فيقول : لا ؛ إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمةً أكرم الله بها هذه الأمة » .

وفي حديث أبي هريرة عن ابن ماجه : « لا تزال طائفة من أمتي قوَّامة على أمر الله ، لا يضرها من خالفها » .

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند الحاكم : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » .

ويُعد هذا علماً من أعلام النبوة لرسول الهدى محمد ﷺ .

وقد جمع أهل العلم بين هذه الأحاديث وبين الحديث القائل – وهو صحيح – : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق » ؛ بأن المراد بهذه الغاية (حتى) ؛ أي : قرب قيام الساعة ، وذلك حيث تأتي الريح فتقبض روح كل مؤمن ، وهو المراد بأمر الله هنا . هكذا قالوا ، وهو صنيع حسن وتوفيق موفق إن شاء الله .

* * *

آثار الدعوة السلفية في البلاد السعودية

وهذه الدعوة السلفية المباركة لها آثار محلية في الديار السعودية ، وهي ملموسة لمس اليد لكل من يعيش في هذا البلد مواطناً أو وافداً على السواء ، ولها آثار خارجية ليست أقل وضوحاً من الآثار المحلية .

أما الآثار المحلية ؛ فيمكن أن نوجزها في فقرتين :

١ - الفقرة الأولى ومن أبرزها وأعمِّها نفعاً للبلاد والعباد : قيام دولة إسلامية سلفية في قلب الجزيرة العربية [الحكومة السعودية] التي أعلنت أن دستورها القرآن الكريم ، وحكمت شريعة الإسلام فعلاً ، وليس مجرد دعوى ، وحافظت على المقدسات الإسلامية : مكة المكرمة ، والمدينة النبوية ، حتى مكنها الله في الأرض ، فأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، فمنحها الله من التوفيق والسداد والمنعة والمهابة ما لم يمنح غيرها ، فتمتع المجتمع السعودي بما لا يَتَمتعُ به أيُّ مجتمع آخر من نعمة الأمن والاستقرار والرفاهية في الحياة ، كلُّ ذلك بفضل الله تعالى ومنِّه وكرمه وهو المنعم المتفضل ، ثم بفضل تحكيم شريعة الإسلام والتمسك بالعقيدة الإسلامية السلفية والدفاع عنها ومؤازرتها وتشجيع القائمين بها ، وهو أمر ملموس لمس اليد ، لا يحتاج إلى دليل كما قلت ، فنسأل الله التوفيق للجميع ، ولنشكر الله على هذه النعمة ، لتدوم ؛ فقيد النعم الشكر ، ومن أسباب زوالها الكفران ، أو مقابلتها بالمعاصي والإعراض عن الله وعن تعاليم دينه عمليّاً .

ومجرد الدعوى لا يجدي عند الله تعالى ؛ لأنه سبحانه عليم بذات الصدور ، ولا تنطلي عليه الأمور والتصريحات الجوفاء والهتافات التي تملأ الأجواء ، ولنكن صادقين مع الله العليم بذات الصدور .

وبعد ؛ ثم أواصل كلامي فأقول : ولم توجد في العالم المعاصر دعوة إسلامية قامت على منهجها دولة إسلامية غير دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ولعل الله علم - وهو العليم الخبير - من الإمامين - ابن سعود وابن عبد الوهاب - الصدق والإخلاص له سبحانه في عملهما ، والله لا يقبل إلا العمل الخالص له ، فحقق الله على أيديهما للأمة السعودية هذا الخير ، ثم بارك الله لهما في ذريتهما ، حتى

واصلت المسيرة ؛ فها هي الآثار تتحدث بنفسها .

هكذا تجسدت الدعوة السلفية المباركة في قيام الدولة السعودية في قلب الجزيرة العربية ؛ لتكون ملجأ لكل مسلم مضطهد في دينه في أي أرض ، ولله الحمد وحده والمنة .

٢ - وأما الفقرة الثانية من آثار الدعوة المباركة ؛ فتتجسد في المنهج الدراسي المتبع في السعودية ، فقد التزمت جهات التعليم في السعودية أن يكون المنهج المقرر بالنسبة للمواد الدينية هو المنهج السلفيّ في جميع المراحل ، بدءاً من المرحلة الابتدائية ، وانتهاءاً إلى الدراسات العليا .

فالشاب السعودي يبدأ في دراسة العقيدة على المنهج السلفي من السنة الأولى الابتدائية ، ثم يواصل دراسة العقيدة والشريعة الإسلامية على المنهج نفسه بتوسع مطرد ومتفاوت إلى درجة الدكتوراه ، كما ينهج هذا المنهج نفسه الطلاب الوافدون من خارج البلاد للدراسة في الجامعات الإسلامية السعودية ، ليتخرجوا على ذلك المنهج السلفي ، ثم يعودوا إلى بلادهم ، لينذروا أقوامهم إذا رجعوا إليهم ، ويدعوهم إلى المنهج الذي درسوه ، الذي أصبح غريباً لدى الكثيرين ، وهم قد درسوه وآمنوا به ، فلا يوجد في الجامعات الإسلامية السعودية ولن يوجد إن شاء الله منهج منافس يزاحم المنهج السلفي كما أشرنا سابقاً ، وذلك من ثمرات جهاد ذلك الإمام السلفي المصلح الذي قضى على كل بدعة محدثة في الدين .

فإذاً ؛ يعتبر بحق المنهج السلفي من أعظم آثار تلك الدعوة المباركة .

ومما يحرص عليه المربون دائماً أن يكون المنهج صالحاً ، ثم يكون المعلم صالحاً . فإذا كان المنهج صالحاً والمعلم صالحاً واعياً ، وعضواً نافعاً في المجتمع ؛ فالمجتمع الذي يتألف من مثل هؤلاء الشباب الصالحين ، الذين درسوا ذلك المنهج الصالح ، وتخرجوا على أيدي الرجال الصالحين ؛ هو المجتمع المسلم حقّاً ، الذي يفهم معنى الإسلام ، ويعتني بالإسلام ، ولا يبغي به بدلاً ، ولا يرضى سواه ، بل يرضى بالله ربّاً ، وبالإسلام - بمفهومه الصحيح - ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيّاً ورسولاً وقدوة وإماماً .

فإذا تحققت هذه المعاني بإذن الله ، يكون الفضل لله ثم للمصلح المجدد الذي دعا

الناس إلى هذا الخير وذلك الهدى ، فيكون له أجر كل من عمل بالمنهج الذي دعا إليه وبيَّنه للناس ، ولا ينقص من أجور العاملين به شيء من الأجر ، هكذا بشّر الصادق الأمين محمد رسول الله ﷺ دعاة الحق الذين يحاولون رد الناس إلى الجادة بدل [بُنيَّات الطريق] المضللة ؛ إذ يقول ﷺ : « من دعا إلى هدى ؛ فله أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيامة » ، ويقول ﷺ : « الدَّال على الخير كفاعله » .

فتصديقاً لهذا الخبر الصادق من نبي الله ﷺ نرجو أن يكون له ولمن آزره وساعده على الدعوة مثل أجر من عمل بهذا المنهج السلفي الصالح بعده ؛ إذ تعتبر حجر الأساس لما يتمتع به اليوم المجتمع السعودي من سلامة العقيدة وتحكيم الشريعة والاستقامة على الدين ، وما يتمتع به الطلاب السعوديون والطلاب الوافدون على بعض الجامعات الإسلامية السعودية من دراسة ذلك المنهج الصالح البريء هو إنقاذ لهم من تلك السموم التي دُسَّت في كثير من المناهج الدراسية في كثير من الجامعات ودور التعليم في العالم المعاصر ، من آراء أهل الكلام والفلسفة وشطحات الصوفية وغيرها من أنواع الإلحاد .

فجزى الله محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود خير ما يجزى به الدعاة الصالحين ، وتقبَّل منهما عملهما ؛ إنه جواد كريم .



آثار الدعوة السلفية في العالم المعاصر

إن هَذه الدعوة المباركة تعتبر – كما قال بعض المستشرقين – : [الشعلة الأولى لليقظة الإسلامية الحديثة في العالم الإسلامي كله] ، هكذا صرح بعض المستشرقين ، والخير ما شهدت به الأعداء .

حقّاً ؛ إنها الشعلة الحديثة للصحوة الإسلامية ولليقظة الواعية التي تنتهج منهج السلف الصالح ، والذي ينحصر فيه كل خير وكل فضيلة ، وهذا الاتباع أو التمسك بمنهج الرعيل الأول هو سر البركة ، ولذلك تجد آثارها ظاهرة اليوم في جميع قارات العالم تقريباً ، وبصفة خاصة في القارة الإفريقية ، التي انتشرت فيها المدارس السلفية بشكل يلفت النظر ، وقد فتحت لها فيها آفاقاً واسعة ، فتلك المدارس المنتشرة هنا وهناك تدرس المنهج المتبع في السعودية نَفسَه ، وهو المنهج السلفي الذي سبق أن تحدثنا عنه ، وكذلك الحال في القارة الهندية ، حيث توجد في بعض ولايات الهند وفي باكستان مدارس وبعض الجامعات الأهلية تدرس المنهج نفسه في المواد الدينية .

وقد كثر في العالم المعاصر من ينهجون المنهج السلفي ، مؤمنين به ، داعين إليه ، يعرفون في القارة الهندية بـ (السلفيين) ، وبـ (أهل الحديث) ، وفي بعض الدول العربية وغيرها يعرفون بـ (أنصار السنة المحمدية) ؛ كمصر ، والسودان ، والصومال ، وتايلاند ، ويعرفون في الشام بـ (السلفيين) ، وكلهم يُنادون بالعودة إلى الإسلام عقيدة وأحكاماً بمفهومه الصحيح ، وأن يُهْجَرَ علم الكلام الذي حال بين الناس وبين فهم العقيدة الصحيحة التي كان عليها الرعيل الأول ، ويستبعد من المنهج الدراسي في جميع المراحل ، ويستبدل به المنهج السلفي الذي مصدره كتاب الله وسنة رسول الله ، ﷺ الذي لا يعرف عند السلف غيره .

وللجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض موقف كريم وعمل صالح ونشاط مشكور في انتشار العقيدة السلفية في تلك المناطق النائية في إفريقية وشرق آسيا والقارة الهندية وفي كثير من الدول العربية ، يتمثل ذلك في الطلاب الوافدين على هاتين الجامعتين من تلك الأقطار ، فيتخرجون منهما كل عام بأعداد متفاوتة ؛ ليرجعوا إلى بلادهم ؛ لينذروا أقوامهم ، ولينشروا

فيهم العقيدة السلفية السليمة ، فنسأل الله للقائمين عليهما مزيد التوفيق والإخلاص لله سبحانه .

وأخيراً ؛ فإن العقيدة الإسلامية السلفية لا تزال تسير كما أسلفنا سيراً حثيثاً وهادئاً ، وهي في تقدم مطرد ، ولا يكاد يرجع عنها من دخل فيها رغبة عنها إذا عرفها على حقيقتها : سماؤها تمطر دون بروق أو رعود مزعجة ، بل تمطر (ديماً) ذلك المطر الذي ينزل في هدوء تام ويدوم ، ولكنه لا يجرح الأرض ولا يحفرها ، بل يروي الأرض حتى تخصب وتنبت وتعطي خيراتها .

وأصحاب هذه العقيدة لا يحملون الطبول معهم حين يعملون في نشرها وحين يبلّغون ، وإنما يعرف عملهم بنتائجه وثمراته ، ويصدق على هذه العقيدة وسيرها قول القائل :

مالي بِمِثْلِ سَيْرِكِ المُتَمَهِّلِ　　　تَمْشي رُوَيداً وتأتِي بِالأوَّلِ

هذا ؛ ونسأل الله تعالى التوفيق والإخلاص ، إنه خير مسؤول وأكرم معط ، وصلّى الله وسلّم وبارك على رسول الهدى ونبي الرحمه محمد وآله وصحبه .

وكان الفراغ من إعدادها ليلة الأربعاء
٧ / ٧ / ١٤٠٩ هـ

* * *

بسم الله الرحمٰن الرحيم

« خاتـمـة »

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه .

وبعد :

فإن العبرة في التأليف ليس بالكمّ العدديّ في السطور والصفحات ، وإنما العبرة فيه بالكيف المتقَن الذي يُجلّي الحق ويثبّته ، ويمحو الباطل ويزهقه .

وكم من مؤلفات نُمِّقَتْ فيها العبارات ، واختيرتْ لها قوارع الكلمات ، فإذا قرأها العاقل الفَطِن ، شعر منذ البداية بمَلَلٍ ، ولم يخرج من قراءته بشيء له أدنى فائدة ، وإن خرج بشيء منها ، خرج بما يملأ الصدر غثياناً ، ويكاد يصيح منها بملء فيه : يا ليتني لم أقرأ هذه السطور الهَازِلَة .

أما المؤلفات التي لا تكلف فيها ، بل تجيء عباراتها عفو الخاطر دون تعمد تنميق أو تزويق ، ابتغاء بيان الحق ساطعاً يُبدِّدُ به ظلام الباطل ، فإن العاقل اللبيب إذا قرأها لم يشعر منها بأي ملل ، بل يميل إلى الاستزادة من القراءة فيها عاكفاً حتى يأتي عليها إن أمكنه في جلسة واحدة .

ولو أن المسلم قرأ هذا المؤلف (العقيدة الإسلامية وتاريخها) الذي ألفه فضيلة الشيخ الدكتور / محمد أمان بن علي الجامي ، في أناةٍ وتروٍّ ، لما مَلَّ من قراءته ، ولعلم منه حقيقة التوحيد ، وأفكار الفرق التي نسَبَتْ نفسها إلى الإسلام زوراً ، وخطورتها وأثرها السيىء في بلبلة العقول وإمراض القلوب .

ولو علم المسلم ذلك لنبذ تلك الفرق ، وحارب أفكارها ومن اعتنقها ، ولعرف طريق الحق فسار فيه لا يبغي على أحدٍ مسلماً كان أو غير مسلم ، لأن الباغي يرتد بغيه على نفسه ، فالله تعالى يقول ﴿ **يـأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع**

الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾[1] .

أقول : لو قرأ المسلم هذا المؤلَّف مُترويًّا ، لنال خيراً كثيراً ، إذ يسارع إلى تصحيح عقيدته ، ويحرص على بقائها صحيحةً خالصةً لله تعالى ، ويصلح ما بينه وبين الله من عبادات ، ويصلح ما بينه وبين الناس من معاملات ، ويصلح ما بينه وبين نفسه فلا يظلمها بتعريضها لعقاب الله في الدنيا والآخرة .

ومن عجيب الأمر أنه في هذا العصر ظهرت على ساحة الأقطار الإسلامية – كما أسلفتُ في تقديم هذا المؤلف – موجات عنف وإرهاب إجرامية عاتية ، تقوم عليها شرذمة فاجرة جُلُّهم من الشباب الضائع ، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، وأخذوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، ويستبيحون دماء الناس ، وأموالهم ، وأعراضهم بغْياً ، وعَدْواً ، ويدمرون ، ويخربون ، ويهلكون الحرث والنسل ، ويزعمون الفقه في الدين ، والتميز في العقيدة ، وأفئدتهم مما يزعمون هواء ، لأنهم جهلة أميون في دينهم ، لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ ، وإن هم إلا يظنون . فويلٌ لهم مما جَنَتْ أيديهم ،وويل لهم مما يكسبون .

ألا أيها الشباب في كل قطر إسلامي : لا تنبشوا قبور الفرق التي نَسَبَنْ نفسها إلى الإسلام زوراً وبهتاناً ، لأنها ماتت من قديم ، وقُبِرتْ ، وأُهِيلَ عليها التراب ، فلا تبعثوها من جديد لتُحيوا أفكارها الذميمة في صورة أسماء جديدة تتستر وراء الإسلام ، والإسلام منها جميعاً براء ، فتسمموا قلوبكم ، وتشوهوا فِطرَتكم ، وتحولوا حياتكم إلى ضلالٍ وسُعُر .

ألا أيها الشباب : ارجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتعلموا منهما عقيدة التوحيد الخالص على ما بيَّن لنا علماء السلف الصالح – رضوان الله عليهم – في مؤلفاتهم بياناً صادقاً ، ومنها هذا المؤلَّف الطيب ، حتى تعودوا – وأقرانكم – إلى حظيرة الإسلام ، وتحيا بكم الأمة ، وترتبط قلوب أبنائها ، وتصير كالجسد الواحد ، وتتجلى وحدتها كما قال تعالى : ﴿ **وإنَّ هذه أمتُكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاتقون** ﴾[2] .

---

(١) يونس : ٢٣ .

(٢) المؤمنون : ٥٢ .

أسأل الله الكريم ، ربَّ العرش العظيم ، أن يديم على المؤلِّف طلاقة لسانه بالصدق ، وسيلان قلمه بالحق ، وأن ينفع به كل من قرأه وسمعه ، وأن يجزي المؤلف خير ما يجزي به الصادقين المخلصين .

كما أسأله تعالى أن يوفقنا جميعاً لما يحب ويرضى ، إنه سبحانه على هذا قدير ، وبإجابته جدير .

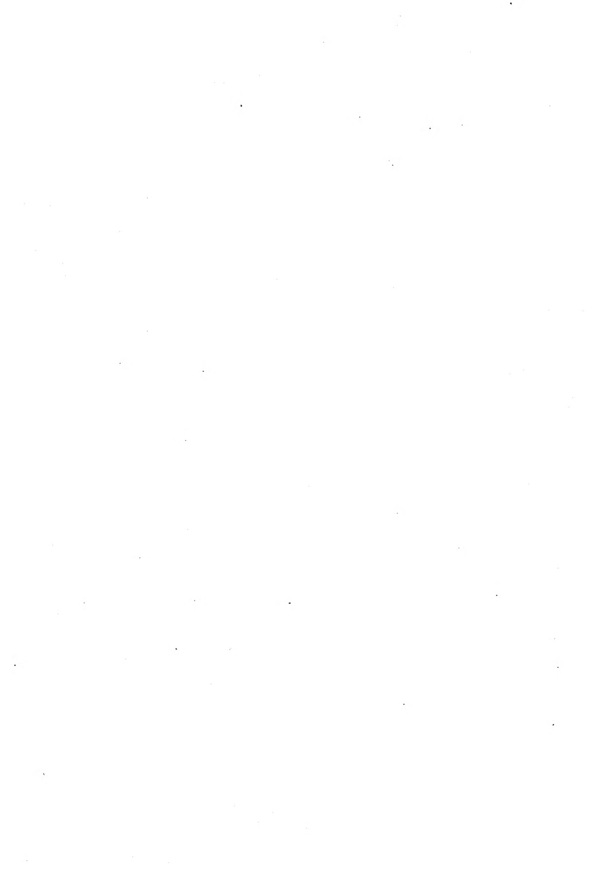
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه .

في شهر صفر ١٤١٤ هـ .

كتبه

دكتور / سعد عبد الرحمٰن ندا



الرسالة الثانية

تصحيح المفاهيم

في جوانب من العقيدة



أحمد الله رب العالمين وأصلي وأسلم على سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله الطيبين وصحابته أجمعين .

« تصحيح المفاهيم في جوانب من العبادة والصفات » .

إن كل دارس لأحوال المسلمين يرى العجب إذ يرى فيهم اختلافاً كثيراً .. يختلفون فيما يعتقدون نحو ربهم وخالقهم .. يختلفون في عبادته في أسمائه وصفاته . يختلفون في سلوكهم وسيرهم إلى الله . يختلفون في القرآن الذي نزل لهدايتهم ورحمة لهم ونوراً .. بل إنهم يختلفون في تصور دينهم وإسلامهم أحياناً .

وسوف أختار لحديثي هذه المرة النقاط الآتية وأقتصر عليها بالبحث رجاء أن تقدر لى كرة أخرى إلى هذا الموضوع ذاته لأتحدث عن بقية النقاط . وأما النقاط التي اخترتها هذه المرة فهي :

١ – العبادة .

٢ – التوسل .

٣ – مبحث الصفات .

٤ – القرآن الكريم .

وقع اختياري على هذه النقاط لكثرة اختلاف الناس فيها ولأن تصحيح الأخطاء فيها وتخفيف حدة الاختلاف حولها مما يقرب تلك القلوب المتنافرة بعضها من بعض حتى يتم للجماعة الإسلامية التفاهم فيما بينها وتصحيح أخطائها فيما عدا ذلك وكأني على يقين من أن المسلمين لا تتقارب وجهات نظرهم الدينية طالما هم على هذه المفاهيم الخاطئة في هذه النقاط التي سوف أتناولها بالبحث .

* * *

أولاً : العبادة

عبادة الله تعالى هي أول نداء نادى به كل رسول في قومه :

﴿ **اعبدوا الله مالكم منْ إله غيره** ﴾ [1] وهي أول موضوع وأهم موضوع لكل كتاب أنزل .

﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[2] .

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[3] . وهي مهمة الفرد والجماعة في هذه الحياة ومن أجلها خلقوا ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[4] العبادة التي هذه مكانتها يخطىء في مفهومها كثير من المسلمين . وقد تستغرب هذا القول أيها المستمع الكريم . ولك أن تستغرب ولكن سرعان ما يتبين لك صحة ما قلت بعد شيء من الإيضاح إن حالفك التوفيق والإنصاف . والإنصاف من الإيمان .

تعريف العبادة :

العبادة في اللغة هي الخضوع والتذلل يقال : طريق معبد إذا كان مذللا مسلوكاً .

وأما في الشرع فقد عرفها بعض أهل العلم بقوله : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، وعرفها الإمام ابن تيمية بتعريف موجز وجامع ومانع إذ يقول : العبادة غاية الذل مع غاية الحب ، وبعد هذا التعريف يتضح أن للعبادة أفقاً رحباً ودائرة واسعة .

فالصلاة والزكاة والصيام والحج والخشية وحفظ الأمانة وصدق الحديث والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم وحب الله ورسوله ﷺ والتقرب إلى الله بأنواع القربات كالذبح والنذر والتوكل

---

(١) الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ . (٢) النحل : ٣٦ .
(٣) الأنبياء : ٢٥ . (٤) الذاريات : ٥٦ .

عليه والاكتفاء به وكيلاً وولياً والتحاكم إليه والرجوع والرد إليه عند التنازع كل أولئك عبادة . وقصد غير الله بهذه الأنواع وأمثالها وعدم توجيهها إلى الله وعدم الاكتفاء به وبشرعه يعني عبادة غير الله وتسميتها بعد ذلك بأسماء غير العبادة كمحبة الصالحين مثلاً بالنسبة لبعض الخصال لا يغير من جوهر الحقيقة شيئاً .

ومن الأخطاء الشائعة في صفوف المسلمين اليوم أن كل جماعة من المسلمين بل كل فرد منهم أحياناً يحاول أن يأخذ من الإسلام الجانب الذي يستحسنه ويستسيغه تاركاً الجوانب الأخرى من الإسلام ويرى أن هذا الجانب الذي اختاره يكفيه ليكون مسلماً ويغنيه عن الجوانب الأخرى من الإسلام والعبادة ، فمثلاً لو أن إنساناً ما أو جماعة ما تمسكت بالإسلام في الجانب السلوكي والخلقي أو في إخلاص العبادة لله وحده بحيث لا تدعو غير الله ولا تتقرب بالذبح والنذر مثلاً لغير الله ولكنها لا تكتفي بالأحكام الإسلامية في الجانب الاقتصادي والسياسي بل ترى أنه لا بد من تطبيق القوانين الأجنبية في هذا الجانب شرقية كانت القوانين أو غربية أو وضعية محلية فهل يقبل الإسلام مثل هذا التصرف وهذه الحرية في الاختيار ؟ والجواب . لا .

بل قد استنكر القرآن هذا الموقف استنكاراً واعتبره كفراً .. ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزيٌ في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون** ﴾[1] . لأن ذلك يعني عدم الاكتفاء بالله رباً ومعبوداً وحاكماً وحده . وبالإسلام ديناً ومنهاجاً وحده ، وبمحمد رسولاً وإماماً وقدوة وحده عليه الصلاة والسلام . ولا يصح إسلام المرء حتى يكون عبداً مستلسماً لمولاه فى كل أمر راضياً لحكمه وقضائه فى جميع جوانب حياته في عقيدته في معاملته مع الناس في أخلاقه في اقتصاده في سياسته في حياته ومماته ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له** ﴾[2] . ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾[3] وهذه المعاني كلها هي مضمون قول المسلم أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . وهي معنى قوله أيضاً « رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولا »[4] .

---

(١) البقرة : ٨٥ . (٢) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ (٣) النساء : ٦٥ .

(٤) جزء من الحديث الصحيح أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

ومن التناقض الغريب أن يقول المسلم كلمة الإسلام بلسانه ثم ينقضها إما بفعله أو بقوله أو ببعض تصرفاته ، وذلك راجع في الغالب إلى أنه يقول الكلمة تقليداً وعادة لا عن فهم لمعناها فيقع في خطأ في معنى العبادة وخطأ في مفهوم الشرك وعبادة غير الله وهو حال أغلب المسلمين في العصر الحديث وللأسف – فجمهور المسلمين بحاجة ماسة إلى أن يفهموا معنى كلمة التوحيد من جديد لئلا تلتفت قلوبهم إلى غير خالقها وبارئها في كل شيء لأن الكلمة تعني أن تكون العبودية لله وحده لا إله إلا هو ولا رب سواه ولا حاكم غيره وقد فهم المشركون من أهل مكة ما تعني هذه الكلمة وأدركوا خطورتها على آلهتهم فرفضوا التلفظ بها بل قاوموها وعادوا لأجلها رسول الهدى محمداً عليه الصلاة والسلام ، بعد أن كانوا يقدرونه جيداً ويصفونه بالأمانة وصدق اللهجة والعقل والنبل والعبقرية وكان كل ذلك قبل أن يدعوهم إلى دعوته الجديدة التي حجر زاويتها كلمة التوحيد . وقف القوم هذا الموقف لأنهم تأكدوا أن الكلمة تعني ثورة ضد كل من يعبد وما يعبد من دون الله ويفزع إليه عند الحاجة ويتقرب إليه وذلك دينهم الذي ورثوه من الآباء والأجداد .

إنهم أدركوا أن الكلمة تعني ألا تخضع القلوب ولا تعنو الوجوه إلا للحي القيوم ، أما آلهتهم فالكلمة حرب عليها وتحاول أن تصرف الناس عنها لتوجههم وجهة أخرى جديدة وسليمة ومأمونة العاقبة . هذا ما أدركته الجاهلية الأولى من الكلمة وقد وقع ما كانوا يتوقعونه ، ففوجئوا بانقلاب تاريخي في صفوفهم وبهزة غريبة في نفوسهم وبهزيمة منكرة في داخلهم وإن كانوا يضمرونها ويحاولون إخفاءها – وتحقيق ذلك يوم أن أكرم الله من شاء من عباده واقتنعوا بكلمة التوحيد وقالوها عن فهم واقتناع ، قالوها وهم صادقون وجادون حتى أصبح الذين كانو أشد عداوة لدعوة التوحيد أصبحوا أشد تحمساً لها وأنشط في الدعوة إليها والمحبة من أجلها والعداوة في سبيلها . فالكلمة لها سر عجيب إذا فهمت حقا وهي السلاح الماضي بل هي أخطر على الجاهلية والوثنية ورواسبها من كل سلاح ، وهي السلاح الذي يفقده اليوم الجندي المسلم في الغالب بعد أن سلح بأحدث الأسلحة ولكن هذه الأسلحة الحديثة سوف لا يكون لها مفعول يذكر قبل أن يسلح الجندي المسلم بهذا السلاح الروحي سلاح الإيمان ، سلاح العقيدة ، ويفهم الإسلام الذي يجاهد لأجله . ولا سبيل إلى ذلك الفهم إلا بفهم معنى كلمة الإسلام على ضوء ما شرحناه .

وقد سجل التاريخ ما فعلته هذه الكلمة في قلوب المشركين في صدر الإسلام في مكة بعد الاقتناع بها طبعاً ، فهذا عمر بن الخطاب بينما هو في ثورة ضد الإسلام ودعوة التوحيد إذا به تتمكن منه الكلمة فتصيبه في سويداء قلبه وتقضي على تلك الثورة الجاهلية وتخرج أثرها من قلبه فينقلب عمر مجاهداً إسلامياً ويحل محل الجاهلية نور لا إله إلا الله ويفعل في نفس الرجل فعله العجيب فيخرج عمر على الناس بوجه آخر وبلهجة أخرى وبثورة أخرى لا تقف عند حد .

تحول سريع وخطير ومفاجىء حزنت عليه الجاهلية وخافت من أمره بل بقيت مكة ذاتها حزينة وقلقة منذ تحول عمر رضى الله عنه وانتقاله من صف الجاهلية إلى صف الإسلام . ومنذ أن قلب عمر للجاهلية ظهر المجن بقيت مكة حزينة إلى أن شرح الله صدرها للإسلام فأصبحت دار إسلام .

أيها الإخوة هذه كلمة التوحيد وتلكم آثارها إذا فهمت ، وقد فهمها قوم فسعدوا بها وسادوا بها العالم ودانت لهم الدنيا ولهم أجرهم عند ربهم في الآخرة لأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وبعد : فما أحوجنا اليوم إلى عمر ، نعم إلى عمر لمقاومة جاهلية القرن العشرين ووثنيته ، ما أحوج المسلمين إلى الصديق للقضاء على ردة هذا القرن وهي « ردة ولا أبا بكر لها .. وقضية ولا أبا حسن لها ردة الإلحاد والمادية ردة الميوعة والشيوعية ومشتقاتها ، حقاً نحن بحاجة إلى صراحة عمر وشجاعة عمر وقوته ، وإلى لين أبي بكر وحزمه وثباته وشجاعته وعزيمته الماضية التي سجلها التاريخ في حروب الردة ويوم تنفيذ جيش أسامة ، نحن بحاجة إلى هذه الخصال لنحمل الناس من جديد على دراسة الإسلام وفهمه حق الفهم حتى تثمر تلك الدراسة الإيمان واليقين والثقة بالله والاكتفاء به رباً معبوداً وحاكماً ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ ؟[1] .

وبذلك نستطيع أن نصحح للناس هذا الخطأ الخطير في مفهوم كلمة التوحيد ليرجع المسلمون إلى دينهم من جديد وليقيموا حياة إسلامية كأطهر حياة وأنظفها على وجه الأرض . حياة التوحيد الخالص والعبادة لله وحده ، حياة العدالة والحق ، حياة الإخاء في الله والمحبة فيه ، حياة علم ومعرفة ، حياة تسودها المحبة والتعاون والتآزر

(١) الزمر : ٣٦ .

بين الجماعة الإسلامية . حياة ينعم فيها الإنسان بالأنس بربه ومولاه وولي نعمه .

ومثل هذه الحياة التي ننشدها يستحيل أن تتحقق وتقوم قبل تحقيق التوحيد بأوسع معناه وأصدقه وقبل تعميق العقيدة والإيمان في النفوس . بل كل من يحاول إقامة حياة إسلامية كاملة دون القيود التي ذكرناها فإنما يضرب الحديد البارد وينفخ في الرماد ويستمطر سحابة الصيف وأنى لها الماء ويحسب السراب ماء .

وصدق الإمام مالك رحمه الله إذ يقول : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » . ومعلوم أن الذي صلُح أول هذه الأمة وسعدوا به في الدنيا وسادوا به العالم هو فهمهم حقيقة هذا الدين في تحقيق التوحيد وتطبيق الشريعة كاملة غير مجزأة وإشاعة العدل في الدنيا وْعدم التخبط في عبادة الله ودينه وشريعته .

وهذا البحث يجرنا إلى الخوض في الحديث عن الخطأ الشائع في صفوف جمهور المسلمين في باب التوسل وهي النقطة الثانية في حديثنا إذ نلاحظ أن كثيراً من المسلمين يخطئون في مفهوم التوسل ويخرجون بالكلمة عن معناها الذي هو التقرب إلى الله من حيث لا يشعرون ويطلقونها على العبادة المحضة التي لا تليق إلا بالله عزَّ وجلَّ وحده .



ثانياً : التوســـل

ولعل سبب الخطأ في هذه النقطة بالذات راجع إلى جهل كثير من الناس لغة الصحابة وعرفهم واستعمالهم .

ولنستوضح الأمر فلنسمع ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عام الرمادة وهو العام الذي أصيب فيه المسلمون بالقحط والجفاف في عهد عمر ، فجمع عمر الناس للاستسقاء ثم قال : « اللهم إنا كنا إذا أجْدَبْنَا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا فالآن نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا ثم طلب من العباس أن يدعو الله فقام العباس فدعا الله تعالى فسقاهم الله »[1] والشاهد من القصة قول عمر : « كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا » فياترى ماذا يعني عمر بقوله « كنا نتوسل إليك » ؟ .

هذا هو السؤال الذى يقتضيه المقام ، وهو السؤال الذي يدور في رأس كل مستمع تقريباً ويكاد أن ينطق به كل لسان وينبغي أن يكون نص السؤال هكذا ؛ كيف كانوا يتوسلون به في حياته ؟ ولماذا عدلوا عن التوسل به بعد وفاته إلى التوسل بغيره ؟ وبالإجابة على هذين السؤالين يزول كل إشكال ويتضح وجه الصواب إن شاء الله لطلاب الحق فنقول مستعينين بالله ؛ التوسل الذي عناه عمر رضي الله عنه هو الذي وضحه حديث أنس بن مالك خادم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والحديث في الصحيحين ولفظه هكذا ؛ إن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة من باب كان نحو دار القضاء ورسول الله قائم يخطب فاستقبل رسول الله عليه الصلاة والسلام قائماً ثم قال :

يارسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا . قال : فرفع رسول الله يده ثم قال : « اللهم أغثنا اللهم أغثنا » . ثلاثاً . قال أنس : « والله مانرى في السماء من سحاب ولا قزعة وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار قال فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت » قال أنس : « والله ما رأينا الشمس سبتاً أي أسبوعاً » قال أنس : « ثم دخل رجل من ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الاستسقاء باب رقم (٢) وحديث رقم (١٠١٠) وفضائل أصحاب النبي صلى الله ﷺ باب رقم (١١) وحديث رقم (٣٧١٠) .

الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله قائم فاستقبله قائماً فقال يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يمسكها عنا » قال أنس : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر فا نقلعت وخرجنا نمشي في الشمس »[1] .

قال شريك راوي الحديث فسألت أنس بن مالك أهو الرجل الأول قال لا أدري . هذا مثال من أمثلة توسلهم برسول الرحمة في حياته عليه الصلاة والسلام . وهناك مثال آخر ما تضمنته قصة الأعمى المشهورة وملخصها هكذا :

جاء رجل أعمى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فطلب منه أن يدعو الله له ليرد عليه بصره ، فخيره النبي بين أن يصبر على عماه وهو خير له وبين أن يدعو الله له فقال الأعمى بل ادع الله فأمره النبي عليه الصلاة والسلام أن يتوضأ فيصلي ركعتين ثم يدعو بالألفاظ التالية : « اللهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا رسول الله يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي . اللهم شفعه في وشفعني فيه »[2] . هذه قصة الأعمى ؛ فأجاب الله دعوة نبيه كما أجاب دعوة الصحابي المسكين وحقق أمنيته فرد عليه بصره العزيز .

ففي كلتا الواقعتين آية من آيات النبوة لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام كما لا يخفى ، وإلى هذا النوع من التوسل بالنبي عليه الصلاة والسلام في حياته أشار عمر في عام الرمادة بقوله : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك »[3] وقد عرفنا كيف كانوا يتوسلون به عليه السلام يطلبون منه الدعاء يطلبون منه أن يدعو الله لهم ليغيثهم ، يطلبون منه فيدعو الله لهم ليرد الله بصر من فقد بصره والله على كل شيء قدير وحده . وربما أمر النبي عليه الصلاة والسلام من طلب منه الدعاء أن يتضرع إلى الله ليجيب الله دعوة نبيه له عليه الصلاة والسلام إذا توجه به إلى ربه وطلب منه الشفاعة كما يظهر ذلك جلياً في قصة الأعمى وعلى كلٍ فالمدعوُّ هو الله ، والمرجو هو الله

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح الاستسقاء باب رقم (٦) ، (٧) ، (٩) وأخرجه أيضاً مسلم في الصحيح الاستسقاء حديث رقم (٨) والنسائي في السنن الاستسقاء باب رقم (١٠) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث عثمان بن ضيف رضي الله تعالى عنه ص ١٣٨ / ٤ وأخرجه الترمذي في جامعه كتاب الدعوات باب رقم ١١٨ بإسناد صحيح من هذا الوجه .

(٣) أخرجه البخاري وقد مضى .

الذي يغيث العباد وينزل الغيث هو وحده والله الذي يجيب دعوة المضطر ويرد البصر على من فقد بصره ، هو الله وحده لا شريك له ولكن النبي يدعو ويشفع وكذلك ورثته من العلماء والصالحين .

ومن هاتين الواقعتين ومن هذا السياق نعلم أن جمهور المسلمين جهلوا لغة الصحابة في معنى التوسل واستعمالهم فغيروا الحقائق فغلوا في الصالحين فدعوهم من دون الله واستغاثوا بهم ثم قالوا إنما نتوسل بهم بل قالوا هذه من محبة الله جهلاً منهم أو تجاهلاً ولعلنا لا نختلف في وجه خطأ هذا الاتجاه بعد أن عرفنا معنى التوسل في الحديثين السابقين .

ومن المعلوم ضرورة أن الأسماء لا تغير الحقائق فالخمر خمر طالما تسكر ولو سميت ماء عذباً أو لبنا خالصاً سائغاً للشاربين أو عسلاً مصفى . فالدعاء والاستغاثة والذبيحة والنذر عبادة ولو سماها أهلها توسلاً أو تبركاً أو محبة للصالحين .

وهكذا يتم الجواب على السؤال الأول القائل ؛ كيف كانوا يتوسلون بالنبي عليه الصلاة والسلام في حياته لننتقل إلى الجواب على السؤال الثاني وهو لماذا عدلوا عن التوسل به بعد وفاته فصاروا يتوسل بعضهم ببعض ؟ كما رأينا ذلك في قصة عام الرمادة ؟

وملخص الجواب على هذا السؤال كما لآتي :

أولاً : ورُود السؤال بهذه الكيفية وبهذه الصيغة يدل على تصور معنى التوسل في لغة الصحابة وعرفهم كما قلنا آنفا .

ولو كان السائل تصور معنى التوسل بالنبي في قول عمر السابق الذكر لأراح نفسه وأراحنا معه وهو طلب الدعاء منه عليه الصلاة والسلام وأن ليس في إمكان أي أحد أن يذهب إلى الرسول بعد وفاته ليشكو إليه حاله من القحط والمرض وذهاب البصر ليدعو الله كما كان يفعل ذلك في حياته في الدنيا لأن الحياة البرزخية التي انتقل إليها رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يعلم حقيقتها إلا الله . ولذا عدلوا عن التوسل به أي عن طلب الدعاء منه إلى طلب الدعاء بعضهم من بعض كما فعل عمر رضي الله عنه مع عم النبي عباس بن عبد المطلب ، ولأن التوسل لم يكن بجاهه وكرامته ومنزلته عند الله كما زعم بعض الناس ، ولو كان الصحابة يعلمون أو يعتقدون أن التوسل إنما

هو بجاهه ومنزلته وكرامته على الله لما عدلوا عنه لأن جاهه ومنزلته وكرامته على الله لم ينقص من ذلك شيء بوفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى . بل هو أعظم جاهاً من كليم الله موسى عليه السلام الذي قال الله في حقه ﴿ **وكان عند الله وجيها** ﴾[1] ومن عيسى روح الله وكلمته المذكور في قوله تعالى : ﴿ **وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين** ﴾[2]. وغيرهما من أنبياء الله ورسله لأنه عليه الصلاة والسلام سيدهم وأفضلهم على الإطلاق وإمامهم وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « أنا سيد الناس يوم القيامة » ، وقال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »[3] .

ولكن الله لم يجعل جاه أحد من خلقه سبباً لقضاء الحاجات وكشف الكربات وإجابة الدعاء ولا يكون سبباً لهذه المعاني وغيرها إلا ما جعله الشارع ودل عليه العباد .

هذا هو السر الذي جهله كثير من الناس وتجاهله الآخرون تحت تأثير الهوى والتقاليد ، حتى وجهوا صريح العبادة لله لعباده باسم التوسل وأحيوا بذلك حياة الجاهلية من حيث لا يعلمون والله المستعان . إذ لا معنى لقول القائل : « اللهم أجب دعوتي لأن فلاناً رجل ذو جاه عندك وذو منزلة وكرامة » .

لأنه لا علاقة بين جاهه وإجابة دعاء هذا القائل لأن جاهه ليس من عمله وإنما يتوسل الإنسان بعمل نفسه أو بدعاء غيره ، والصواب في هذه النقطة أن يقول المتوسل : « اللهم إني أدعوك وأتوسل إليك بإيماني بنبيك محمد ومحبتي له واتباعي لسنته عليه الصلاة والسلام ، لأن الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام ومحبته واتباع سنته من أعظم الأعمال وأوجهها وأنفعها عند الله . ومن توسل إلى الله ودعا الله بهذه الأعمال فقد توسل إليه بأحب الأعمال وأعظمها عند الله .

ومن الخطأ – أحسبه متعمداً – أن يظن بأن منكر التوسل بالجاه هو منكر للجاه نفسه – ما أسوأه من ظن هذا – إذ بين الإنكارين فرق كبير وبون شاسع ، فإنكار التوسل بالجاه إنكار للبدعة وإنكار البدع شعبة من شعب الإيمان ، لأنه من باب إنكار المنكر . وأما إنكار جاهه عليه الصلاة والسلام فشعبة من شعب الكفر ،

---

(١) سورة الأحزاب : ٦٩ .   (٢) سوره آل عمران : ٤٥

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده في مسند أبي بكر رضي الله تعالى عنه ٥ / ١ . وفي مسند ابن عباس ٢٨١ / ١ . والترمذي ، وابن ماجه في سننهما .

انظر المسند أيضاً ٢٩٥ / ١ ، ٢ / ٣ ، ١٤٤ / ٣ ، ١٣٧ / ٥ ، ١٣٨ / ٥ ، ٣٩٣ / ٥ .

لأن إنكار جاهه عليه الصلاة والسلام ، ومنزلته على الله يعني انتقاصه عليه الصلاة والسلام وذلك ردة عن الإسلام – عياذاً بالله – لأنه يتنافى والإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام . ذلك الإيمان الذي يعبر عنه حبه وتوقيره واتباع سننه ، إذ يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »[1] .

وقد سلك هذا المسلك كثير من المغرضين وأعلنوا للعامة الأغمار أن الذين ينكرون التوسل بجاه النبي إنما يفعلون ذلك لأنهم يكرهون النبي عليه الصلاة والسلام . ما أعظمها من فرية – وهي مغالطة ساخرة ورخيصة يترفع عنها كل مسلم منصف يخاف الله ويراقبه ويحاسب كلامه وأعماله . وإنما يتورط في هذه الفرية ويهبط إلى هذا المستوى بعض المغرضين الذين يضحكون على عقول العوام غاشين غير ناصحين ويفسرون لهم محبة الرسول بالاستغاثة به ودعائه من دون الله أو مع الله . والتوسل بجاهه وإقامة المولد له عليه الصلاة والسلام تلبيساً منهم على العوام وكتماناً للحق ؛ وهذا الصنف من الناس هم حجر عثرة في سبيل الدعوة والدعاة هداهم الله وألهمهم رشدهم . ومما يزيد المقام وضوحاً ويقطع دابر تلك الأوهام التي لا تزال عالقة بأذهان بعض العوام وأشباه العوام من أن الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو للناس بعد موته ويتوسل به بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى . مما يقطع دابر هذه الأوهام ، حديث رواه البخاري في صحيحه كتاب المَرضى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ذات مرة وهي مريضة : « وارأساه فقال رسول الله ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعو لك » أي « إن مت وأنا حي سأستغفر لك »[2] . ذلكم هو لفظ الحديث وهذا معناه واضحاً جلياً وبه فسر الحافظ ابن حجر ثم ساق رواية أخرى توضح معنى الحديث أكثر فأكثر وملخصها هكذا « أما يرضيكِ لو مُتِ قبلي حتى أكفنكِ وأصلي عليكِ وأدفنكِ وأدعو لكِ » ومفهوم الحديث : « أما لو مُتُ أنا قبلك فليس في إمكاني أن أفعل كل ذلك » . وهذا معنى لا يختلف فيه اثنان من طلاب الحق اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .

---

(١) ، خ الإيمان ٨ . م الإيمان ٧٠ . ن الإيمان ١٩ . جه مقدمة (٩) و ى الرقاق ٢٩ .

(٢) أخرجه خ الأحكام باب رقم ٥١ . والمرضي باب (١٦) حديث رقم ٥٦٦٦ . انظر الفتح ١٢٣ – ١٢٦ / ١٠ .

ثم إن عدول الصحابة عن التوسل به بعد وفاته يدل أيضاً على أن التوسل به لم يكن بالذات . إذ لو كان كذلك لما عدلوا عنه لأن جسده الشريف لم يزل ولن يزال محفوظاً في قبره إلى يوم البعث لأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسد الأنبياء كما ثبت ذلك عن رسول الله عليه الصلاة والسلام عند الترمذي وغيره »[1] .

الوسيلة في القرآن الكريم

إذا تبينا خطأ مفهوم التوسل عند جمهور المسلمين وتبينا قبل ذلك المعنى الصحيح له تسوقنا المناسبة لنعرف معنى الوسيلة في القرآن الكريم .

الوسيلة في القرآن الكريم بمعنى التقرب إلى الله بالإيمان والعمل الصالح يقول الله تعالى آمراً للمؤمنين ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة** ﴾[2] أي اطلبوا القرب منه . وإنما يكون ذلك بالإيمان بالله وعدم الالتجاء إلى غيره فيما لا يقدر عليه غير المليك المقتدر . كرد البصر وإعطاء الولد وإنزال المطر .

ويقول الحق جلَّ وعلا في وصف عباده الصالحين الذين قد يعبدهم بعض الناس من دون الله – وهم براء منهم – كالملائكة والمسيح يقول الله في وصفهم :

﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً** ﴾[3] . فالآية الكريمة تقول لأولئك الغلاة في الصالحين الذين تدعونهم من دون الله عباد أمثالكم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا يدفعون عن أنفسهم ضراً فضلاً عن أن يفعلوا ذلك لغيرهم بل هم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه لأن عذابه لا يأمنه إلا الخاسرون . وكان المفروض والصواب أن تتقربوا إلى الله الذي يتقرب إليه هؤلاء الصالحون لأنكم عبيد مثلهم لله الواحد القهار أما دعوتكم للصالحين والفزع إليهم عند الحاجة دون الله فخطأ وضلال وظلم .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٨ / ٤ بإسناد صحيح وذلك من حديث أوس بن أبي أوس رضي الله عنه ومن هذا الوجه د . ون . جه والدارمي في سننهم .

(٢) المائدة : ٣٥ . (٣) الإسراء : ٥٧ .

إطلاقات التوسل

وقد ثبت بالاستقراء أن التوسل يطلق ويستعمل في المعاني التالية :

أولاً : طلب الدعاء من الحي الصالح .

ثانياً : التقرب إلى الله بالإيمان والعمل الصالح والتقوى .

ثالثاً : دعاء العبد ربه بالأعمال الصالحة الخالصة لله ، ودعاؤه بأسمائه الحسنى .

أما النوع الأول والثاني فقد سبق الحديث عنهما .

وأما الثالث فأستحسن أن أذكر لبيانه قصة أصحاب الغار وهي معروفة وعظيمة ومضمونها كالآتي :

إن ثلاثة ممن كانوا قبلنا انطلقوا في سفرهم حتى أواهم المبيت إلى غار ، فدخلوا الغار ، فانحدرت صخرة عظيمة فسدت عليهم الغار ، فوقعوا في حيرة لا توصف ، فتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون ؟ فاتفقوا على أنه لا ينجيهم مما هم فيه إلا أن يدعوا الله بأعمالهم الصالحة الخالصة لوجه الله سبحانه . هكذا هدوا إلى الطيب من القول وإلى الصواب من العمل فقال أحدهم : إنه كان له أبوان شيخان كبيران وكان يقوم بالإحسان إليهما وبرهما كأحسن ولد ، ومن بره لهما أنه كان لا يتناول عشاءه قبلهما هو وأولاده وكان عشاؤهم حليب الإبل ، وكان يأتي إليهما بطعامهما في وقت مناسب . وفي ذات ليلة نأى به طلب الشجر لإبله وجاء بعشائهما في وقت متأخر من الليل فوجدهما قد ناما ، فكره أن يوقظهما خشية أن يكدر عليهما نومهما ، كما كره أن يتناول هو وأولاده من الحليب المهيأ لهما شيئاً فبات واقفاً على رأسهما إلى أن أصبح الصبح .

فقال الرجل متوسلاً إلى الله بهذا العمل الصالح : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فنزلت الصخرة قليلاً غير أنهم لا يستطيعون الخروج – ولكن قوى أملهم في الخروج نوعاً ما .

وأما الثاني فتوسل إلى الله بالعفة والخوف من الله وبصلة الرحم وملخص قصته :

أنه كانت له ابنة عم وكان يحبها كأشد ما يحب الرجل امرأة فراودها فامتنعت ورفضت طلبه لأنها عفيفة إلى أن ألجأتها الحاجة إليه فقدم لها مبلغاً من المال يقدر بمائة وعشرين ديناراً كمساعدة لها وسداً لحاجتها فطلب منها طلبه بعد هذا الإحسان وألح في الطلب طبعاً فوافقت على تنفيذ رغبته تحت الحاجة والاضطرار ونفسها غير مطمئنة بالمعصية فمكنته من نفسها فقعد منها مقعد الرجل من المرأة فقالت مذكرة : يا عبد الله اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه .

فذكرته فتذكر وخوفته من الله فخاف .. فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين .. فقام من مقعده ذلكم من فوره مالكاً نفسه قاهراً شهوته وهواه فجعل الهوى يجره إلى أسفل ليهوى ويهلك .

إن الهوى لهوى الهوان بعينه وصريع كل هوى صريع هوان

بينما الخوف من الله يجذبه إلى أعلا ليرتفع ويعلو ويقرب من الله فغلب ثانيهما أولهما ولله الحمد ، فسلم الرجل والحمد لله على سلامته ، فقام وهو مرتاح النفس قرير العين فلم يرجع في المبلغ الذي قدمه لا بنة عمه بل تركه لها كصلة رحم .

فقال الرجل في الغار اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فنزلت قليلاً إلا أنهم لا يستطيعون الخروج أيضاً ولكن أملهم صار أقوى من ذى قبل .

وأما الثالث فقد عمل عنده أجراء فأخذ كل أجير أجرته وذهب إلا واحداً منهم فترك أجرته وذهب ، وبعد مدة طويلة جاء فقال له : أعطني أجرتي فقال له بكل هدوء إن ما تراه من الإبل والبقر والغنم من أجرتك لأني نميت لك أجرتك لما طال غيابك فلك كل ماتراه ، ولم يصدقه بل قال له لا تستهزىء بي يا عبد الله فقال له لست مستهزئاً وإنما الواقع ما قلته لك فسق ما لك فأخذ ما له كله ولم يترك منه شيئاً .

فقال الرجل وهو يتوسل إلى الله بحفظ الأمانة اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فنزلت الصخرة فخرجوا يمشون »[1] .

(١) أخرجه في ثلاث مواضع البيوع باب ٩٨ . انظر الفتح ٤٠٨ - ٤٠٩ / ٤ وأيضاً الأنبياء باب ٥٣ . الإجارة (١٢) .

أيها الإخوة المستمعون هذا ملخص قصة أصحاب الغار ، فالقصة تحمل معنيين عظيمين .

أولهما : مشروعية التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة وهو المعنى الذي من أجله سقت القصة هنا .

وثانيهما : فضل إخلاص العمل لله وحده لأن الأعمال الثلاثة أو الأربعة التي شملتها القصة لو لم تكن خالصة لله لما تقبلها الله ولما أجاب دعوة أصحابها عند الشدة فالإخلاص هو السبب في نجاة العبد ونجاحه في الأولى والأخرى .

هكذا يثبت بالاستقراء أن التوسل في الإسلام لا يخرج عن هذه الأنواع الثلاثة . وأما دعاء الله بأسمائه الحسنى فيدخل في النوع الثالث أو يعتبر نوعاً رابعاً والعلم عند الله .

فعلى جمهور المسلمين أن يعيدوا النظر في ذلكم المفهوم الخاطىء الشائع بينهم في معنى التوسل وليس هو من التوسل في شيء بل إن ذلك عبادة محضة وعليهم أن يدرسوا ما كان عليه سلفهم من الصحابة والتابعين في هذا الباب ونحوه ليفهموا فهمهم ويتأسوا بهم في عملهم لأنهم خير هذه الأمة بشهادة النبي عليه الصلاة والسلام ، لهم إذ يقول عليه الصلاة والسلام : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »[1] . أو كما قال عليه الصلاة والسلام وقد صدق من قال :

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في اتباع من خلف

هكذا ننتهي من النقطة الثانية لننتقل إلى النقطة الثالثة التي كثرت فيها المفاهيم الخاطئة وهي مبحث الصفات .

* * *

(١) أخرجه في الشهادات (٩) فضائل أصحاب النبي ﷺ (١) الرقاق (٧) الأيمان (١٠) (٢٧) . وفي الفتن ٤٥ . الشهادات (٤) المناقب (٥٦) جه الأحكام (٢٧) والإمام أحمد في مسنده ٣٧٨ / ١ وكلهم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه انظر المسند أيضاً ٤١٧ / ١ . ٤٣٤ / ١ . ٤٤٢ / ١ . ٢٢٨ / ٢ . ٤١٠ / ٢ . ٤٧٩ / ٢ . و ٢٦٧ / ٤ . ٢٧٦ / ٤ . ٤٢٧ / ٤ . ٤٣٦ / ٤ . ٤٤٠ / ٤ . ٣٥٠ / ٥ .

ثالثاً : مبحث الصفات

إن كثيراً من المسلمين الذين لم يدرسوا الإسلام وهم ينتسبون إليه يؤمنون بالله . لكنه إيمان إجمالي وضحل جداً لا يثبت أمام أدنى شبهة ولا يحتمل السؤال عن الله ولا عن رسوله عليه الصلاة والسلام ، وهذا الموقف لا يثير العجب كثيراً لأن صاحبه جاهل لم يدرس الإسلام ولم يتفقه في الدين وإن كان خطؤه هذا لا يغتفر مثله في حق أي مسلم إذ لا يجوز لمسلم أن يجهل هذا الجهل ولكن المؤسف جداً أو المدهش كثيراً أن يدرس الإنسان الإسلام ويصرف كل عمره في دراسة الإسلام ثم يخرج إلى المجتمع من تلك الدراسة الطويلة بنتيجة هي الجهل بربه جهلاً مركباً إذ يجهل أنه جاهل وربما تربع على كرسي التدريس والتعليم لينشر الجهل والمفاهيم الخاطئة بين الناس فيما يعتقدون نحو ربهم ودينهم فبدلاً من أن ينشر العلم والمعرفة والهدى إذ به يبعدهم عن الله بدل أن يقربهم من الله فيقول مثلاً وهو يريد أن يعرف الناس بالله وبصفاته . فالله لا يوصف بالرحمة ولا المحبة وليس هو فوق العرش ولا تحته ولا يمينه ولا يساره ولا يوصف بالرضا ولا بالغضب إلى آخر الأساليب الكثيرة التي يقشعر جلد المؤمن عند سماعها والتي لا تتضمن إثبات كمال بل مضمونها تكذيب الكتاب والسنة من حيث لا يعلم هذا المتخبط . وهي جرأة لا تقف عند حد ولا تعرف معنى لتقدير الله حق قدره .

فالواجب الذي هو مقتضى الإيمان بالله وبكتابه ورسوله ألا يخوض في صفات الله بغير علم ولا يتحدث عن الله إلا بإذن الله وعلى ضوء بيان رسول الله لأنه لا يصف الله أعلم من الله ولا يصف الله من خلقه أعلم من رسوله الذي اختاره واصطفاه وأذن له ليتحدث عنه وعن صفاته بل كلفه ببيان كتابه الذي هو مصدر صفاته بقوله : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾[1] . والصفات التي سردتها قد جاء ذكرها في الكتاب والسنة كقوله تعالى : ﴿ **الرحمٰن على العرش استوىٰ** ﴾[2] الآية : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾[3] الآية : ﴿ **وجاء ربك والملك صفاً صفا** ﴾[4] الآية

(١) النحل : ٤٤ . (٢) طه : ٥ . (٣) فاطر : ١٠ . (٤) الفجر : ٢٢ .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله كتب في كتاب وهو عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي أو غلبت غضبي »[1] أو كما قال عليه الصلاة والسلام إلى غير ذلك من النصوص التي لا تخضع في الغالب الكثير للتأويل بوجه ما قد تلاها رسول الله ﷺ على أصحابه وتلاها أصحابه على التابعين وهكذا ولم يستشكلوا شيئاً منها ولم يتعرضوا لها بالتأويل ، بل آمنوا بها وقالوا بالإجماع الذي لم يشذ عنه فرد منهم إن نصوص الصفات تمر كما جاءت دون تأويل أو اعتقاد تشبيه مع إثبات ما دلت عليه على الحقيقة التي تليق بالله سبحانه ، هذا هو موقف كل إمام من أئمة المسلمين المشهود لهم بالأمانة كالأئمة الأربعة وغيرهم كما سنسمع نصوصاً قريباً إن شاء الله .

أما المخالفون لطريقة السلف ومنهجهم والذين تخرجوا على منهج أهل الكلام والواقعون في مخالفة إجماع الصحابة والتابعين فقد انشقوا على أنفسهم . منهم من ينفي جميع صفات الله تعالى دون أن يثبت له صفة واحدة على كثرة ورودها في نصوص الكتاب والسنة . ومنهم من يتصرف في صفات الله كما يشاء وكما يملي عليه عقله فيفرق بين الصفات فيرى وجوب تأويل بعضها وجوباً عقلياً على حد زعمه تأويلها : فيرى مثلاً وجوب تأويل الصفات الخبرية كلها كالمجيء والنزول والاستواء على العرش وصفة المحبة والرحمة في الوقت الذي يرى إثبات صفة السمع والبصر والعلم مثلاً على ظاهرها كما يليق بالله مع تنزيه الله عن مشابهة خلقه .

والذي يؤخذ على هذا الفريق التناقض البين وعدم الوضوح في عقيدتهم الذي يوحي أن لعقيدتهم ظاهراً وباطناً ، ويظهر ذلك جلياً في مسألة القول بخلق القرآن حيث لا يرون بأساً في القول بخلق القرآن في مقام التعليم للبيان الواقع على حد زعمهم ، لأن القرآن ليس بكلام الله حقيقة في زعمهم وإنما يقال إنه كلام الله مجازاً لأنه دال على كلام الله الحقيقي كما يزعمون وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله قريباً في مبحث القرآن الكريم .

ومن مظاهر ذلك إعلانهم أيضاً عن عقيدتهم أنها عقيدة أهل السنة والجماعة ثم مخالفتهم للجماعة في كثير من المواقف ومن ذلك تفريقهم بين الصفات المماثلة دون

---

(١) أنحرجه في التوحيد ٥٥ . وبدء الخلق (١) وفي التوبة حديث رقم ١٤ – ١٦ جه الزهد ٣٥ . والإمام أحمد في مسنده ٢٤٢ / ٢ كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عه أنظر المسند أيضاً ٢٥٨ / ٢ . ٢٦٠ / ٢ . ٢١٣ / ٢ . ٣٥٨ / ٢ . ٣٨١ / ٢ . ٤٣٣ / ٢ . ٤٦٦ / ٢ .

مبرر عقلي أو شرعي كما تقدمت الإشارة آنفاً . وهذا التخبط والتناقض والتفريق بين الصفات التي جمع الله ذكرها والاتصاف بها في كتابه أو على لسان رسوله . هذا التخبط يدل على أن هذا الصنف من الناس ليسوا على يقين في إيمانهم بكتاب ربهم وما جاء فيه من الصفات والأسماء وغيرهما بما يتعلق بالمطالب الإلهية إذ لا يتم الإيمان الحق إلا بالتصديق الجازم الذي لا يخالطه شك مدعماً بالطاعة والانقياد والتسليم لله ولرسوله .

وقد صدق الإمام الطحاوي إذ يقول : « لا يثبت الإسلام إلا على قدم الاستسلام » ويقول الحسن البصري : « ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل » .

أما القول على الله بغير علم ، والتدخل في اختيار الصفات لله ، وأما الحديث عن الله وعن أسمائه وصفاته بغير إذن من الله والتخبط في المطالب الإلهية على غير هدى من الله بل على ما تقتضيه قواعد أهل الكلام وفلسفتهم وأذواقهم ، كل أولئك ينافي الإيمان أما أصله أو كماله على حسب ما يقوم بالقلوب وعلى اختلاف ظروف النفاة وأحوالهم من وجود شبهة أو عدمها .

وأحب أن أنبه هنا على قاعدة متبعة عند هذا الصنف ولا يكادون يختلفون فيها وتعتبر مادة قانون عندهم يجب تطبيقها أو آية قرآنية عند غيرهم لا يجوز مخالفتها .

وهي مضمون البيت الآتي :

وكل نص أوهم التشبيها أَوِّلْه أو فوض ورمْ تنزيها

ومضمون هذا البيت أنه يوجد في الكتاب والسنة نصوص توهم تشبيه الخالق تعالى بخلقه ولم يبين الرسول تلك النصوص علماً بأنه مكلف بالبيان ولم يفهمها سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين على وجهها وصوابها بل ولم يفطنوا لها ولما فيها من الإيهام حتى جاء أصحاب هذه القاعدة وأرباب هذا القانون بعد انقراض القرون المفضلة ليبينوا للناس ما هو الحق في صفات الله تعالى وأسمائه وفي كلامه بالذات .

هذا هو مضمون القاعدة السالفة الذكر .

وهل يقول هذا عاقل يعرف ما يقول ؟ ما لم يكن مريض القلب مضطرب

العقيدة .

وهل يتهم أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام بهذه التهمة من في قلبه حب الإسلام وأهله . ثم إن القاعدة تعطي مطلق الحرية لمن يتلو تلك النصوص بين أن يحرفها ويسمي ذلك تأويلاً يجعل النصوص تتفق مع العقل - على حد زعمه - أو يعرض عنها ويتجاهلها ويسمى ذلك تفويضاً يفعل ذلك كله تطبيقاً للقاعدة واتباعاً للقانون ومما ينبغي التنبيه عليه هنا أن التفويض نوعان :

النوع الأول : تفويض الكيفية والحقيقة وهو علم استأثر الله به فلا يجوز للعباد أن يخوضوا فيه كما قلنا سابقاً أو أن يبحثوا عن الكنه والكيفية لأنهم آمنوا بالله قبل أن يبحثوا عن حقيقة ذاته وكيفية ذاته إيمان تسليم ، فيجب أن يكون إيمانهم بصفاته كذلك إيمان تسليم لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحذوا حذوه وهذا المعنى هو الذي عناه الإمام مالك بقوله : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة » وقد رأيت أيها المستمع الكريم أنَّ الإمام مالكا أثبت معنى الاستواء الذي يدل عليه اللفظ بوضعه ثم فوض كيفية الاستواء إلى علمه سبحانه وهو مجهول بالنسبة للعباد .

وما قاله الإمام مالك في صفة الاستواء يقال مثله في سائر صفات الله تعالى لأن الكلام في بعض الصفات كالكلام في البعض الآخر إذا ما ثبت لأحد المثلين للآخر كما هو معلوم .

وأما النوع الثاني : فهو تفويض المعنى ومعناه الحقيقي هو الإعراض عن النصوص وعدم تدبرها بل تجاهلها قصداً وهذا - كما ترى - يصادم قوله تعالى :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[1] وقوله تعالى : **﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا ﴾**[2] .

ومما يعاب على أصحاب هذا النوع من التفويض التناقض والتصرف الشخصي في نصوص الكتاب والسنة . والجرأة الجريئة - إن صح التعبير - على الله فكيف جاز أن نفهم أو كيف قدرنا أن نفهم معنى العلم والقدرة والسمع والبصر مثلاً بينما

(١) محمد : ٢٤ . (٢) النساء : ٨٢ .

لا يجوز لنا أولا نقدر أن نفهم معنى ﴿ **وجاء ربك** ﴾ « ينزل ربنا » ومعنى المحبة والرحمة والاستواء على العرش ؟ .

وهو تصرف لا مبرر له اللهم إلا التقليد – قالوا فقلنا ، أوَلوا فأوَلنا وفوضوا ففوضنا ، لماذا ؟ لست أدري وهو موقف لا يحل لمسلم أن يقفه في دينه في أصوله أو فروعه ، هذا هو المفروض . والله المستعان .

ثم إن المدهش أن يسمى هذا التصرف عقيدة أهل السنة والجماعة ، فيا ترى من هم الجماعة ؟ وما هي السنة ؟ إذا أطلقت الجماعة إنما يراد بها الجماعة الأولى جماعة الصحابة . أما السنة فهي طريقة رسول الله التي جاء بها من عند الله . فهل الجماعة كانت تتصرف مثل هذا التصرف في صفات الله ؟ وهل في السنة ما يشير إلى مثل هذا ؟ فطبعاً لا . وإنما هي مغالطة سافرة أو جهل مبين .

وقد علمنا علم اليقين أن هذه الطريقة الجهنمية تخالف ما كان عليه أصحاب رسول الله . والحق طبعاً ينحصر فيما كانوا عليه فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

وبمثل هذا التخبط وهذه الدعوى العارية عن الحقيقة دعوى التنزيه التي هي في الحقيقة إما تعطيل أو إعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بمثل هذه الدعوى حال علماء الكلام بين المسلمين وبين عقيدتهم النظيفة البعيدة والبريئة عن التشبيه والتعطيل – وبمثل هذا التلبيس أبعدوا شبابنا عن حقيقة دينهم الحق فأخذ جمهور المسلمين يلتمسون الهدى في غير كتاب الله في بطون كتب أطلق عليها أصول الدين الإسلامي .

وهي في الواقع لا من أصول الدين الإسلامي ولا فروعه .

ويحاولون بذلك أن يعرفوا ربهم عن غير طريق رسول الله ﷺ ، وطبيعي أن من التمس الهدى في غير كتاب الله أضله الله كما في الأثر المروي عن علي رضي الله عنه .

« بيان مذهب السلف في هذه النقطة وذكر بعض أقوالهم »

وأما مذهب السلف في هذا الباب فواضح جداً كشأنه في كل باب وهو وسط بين التشبيه والتعطيل وهو تسليم كامل لله ولرسوله وإيمان بنصوص الصفات من

الكتاب والسنة وعدم التعرض لها بالتأويل بل إمرارها كما جاءت بحيث تكون تلاوتها تفسرها ولا يحاولون إدراك حقيقتها وكيفيتها لأن ذلك علم استأثر الله به ولا توهم عندهم تشبيها ولا تجسيما بل هي تدل على الحقائق التي تليق بالله وحده إذ ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[1] . ﴿ **ولا يحيطون به علما** ﴾[2] . ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[3] ﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾[4] كانوا ينزهون الله على ضوء هذه النصوص ولا يكادون يفهمون من الإثبات التشبيه ولا من التنزيه التعطيل ، هذه هي القاعدة عندهم للتنزيه . إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل . فلنسمع الآن طائفة من أقوال بعضهم :

١ – قال الإمام الأوزاعي : كنا – والتابعون متوافرون – نقول إن الله تعالى ذكره فوق عرشه . ونؤمن بما وردت به السنة من الصفات . نقل هذا التصريح عن الأوزاعي : البيهقي في الأسماء والصفات ، وهذا التصريح من الأوزاعي يعني الإجماع إجماع التابعين المبني على إجماع الصحابة المستند إلى صريح الكتاب وصحيح السنة .

والإمام الأوزاعي أحد الأئمة الأربعة الذين كانوا في عصر تابع التابعين وهم مالك بن أنس بالحجاز ، والأوزاعي بالشام ، والليث بن سعد بمصر ، والثوري بالعراق ، وذكر الأوزاعي هذا الاجماع عندما ظهر جهم بن صفوان منكراً كون الله تعالى فوق عرشه ونافياً لجميع صفات الرب تعالى ، ذكر الإمام هذا الاجماع ليعرف الناس أن ما نادى به جهم بن صفوان مخالف لما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، ولئلا ينطلي على العامة من المسلمين دعواه أن ما ذهب إليه مؤيد بالبراهين العقلية القاطعة وهي في الواقع وهميات خيالية لا حقيقة لها ، إذ العقل السليم لا يخالف ما جاء به النص الصريح بوجه كما هو معروف عند أرباب العقل .

٢ – سئل الإمام الزهري ومكحول عن تفسير أحاديث الصفات فقالوا : أمروها كما جاءت . وروى مثل هذا الجواب عن الإمام مالك والثوري والليث فقالوا جميعاً في أحاديث الصفات أمروها كما جاءت بلا كيف ، والزهري ومكحول من أعلم التابعين . وأما الأوزاعي ومالك والليث والثوري فمن أئمة الدنيا في عصر تابع التابعين . فكيف يسع مسلماً أن يترك طريقة أئمة المسلمين ويتبع غير سبيل المؤمنين

---

(١) الشورى : ١١ . (٢) طه : ١١٠ . (٣) الإخلاص : ٤ . (٤) مريم : ٦٥ .

الذين أعرضوا عن كتاب الله وذكره واتبعوا أهواءهم ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾ . (القصص : ٥٠)

وهم أهل الكلام الذين يقول في حقهم الإمام الشافعي : حكمي في أهل الكلام أن يطاف بهم في القبائل والعشائر ويضربوا بالجريد والنعال ويقال هذا جزاء من ترك كتاب الله واتبع علم الكلام . وما أروع قول الإمام مالك إذ يقول : « أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد عليه الصلاة والسلام لجدل هؤلاء » .

وبعد فلو أن مسألة من المسائل الفقهية الفرعية نالت مثل هذا الاتفاق العظيم من الأئمة الأعلام دون أن يشذ عنهم أحد اعتبرت مسألة إجماعية وعيب على من يخالف هذا الإجماع أشد عيب ، بل قامت الدنيا في وجهه وقعدت صارخة أن فلانا شذ عن جماعة المسلمين وخرق إجماعهم إلى آخر العبارات التقليدية المعروفة وآخر الشريط المحفوظ .

فكيف يسوغ لمسلم إذاً أن يخالف جماعة المسلمين وأئمتهم الذين سبق ذكرهم في هذا الباب الخطير باب صفات الرب وأسمائه ، وهو باب توقيفي كيف يقدم على ذلك لمجرد اتباع فلسفة أهل الكلام وهي مخالفة لما نطق به الكتاب وصحت به السنة وأجمعت عليه الأمة .

ولم يقف هذا المتحذلق عند حد المخالفة بل اتهم سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وهم سند هذا الدين واتهمهم بعدم الفهم التام ، بل اتهم كتاب الله بأنه ربما اشتمل على ما لا يليق بالله حتى يقوم بتحقيقه علماء أهل الكلام والفلسفة الذين يميزون بين ما يليق به بأذواقهم الخاصة وعقولهم النيرة حتى يعرف الناس بواسطتهم مراد الله من كلامه . سبحانك هذا بهتان عظيم .

وفي واقع الأمر أن النص الصحيح لا يفهم منه ما لا يليق بالله ولا يدل بظاهره على الباطل كالتشبيه والتجسيم ولا يجوز اعتقاد ذلك بل يعني ذلك كفراً وفسوقاً وعصياناً وظلماً . ولو كان القرآن كما زعموا لما كان نوراً وهدى ورحمة وروحاً وشفاءً لما في الصدور . ولما كان الرسول الذي جاء به هادياً إلى الله وسراجاً منيراً ورحمة للعالمين ، ولكن الفهم السقيم قد يظن ما زعموا وأكثر مما زعموا والظن

لا يغني من الحق شيئاً .

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفَتُهُ من الفهم السقيم

وما كدت أنتهي من كتابة هذه النقطة إلا وأنا أحس بأن هناك همسات متلاحقة ستقول : يا هذا لماذا تتعب نفسك وتضيع أوقاتك بنبش قبور علماء أهل الكلام وقد أفضوا إلى ما قدموا وليس لهم وجود اليوم وكأنك تتحدث عن العظام وهي رميم . لمن تقول ؟ ومن تعاتب ؟ وللإجابة على هذه الهمسات نحتاج إلى شيء من البسط والإيضاح وقد أجريت استقراء سريعاً فتأكدت أن هذا العتاب يصدر من فريقين :

أما الأول : ففريق ساذج مقلد يكرر ما يقوله الفريق الثاني الذي سيأتي بيانه . وهذا الفريق ينقصه عدم تصوره الحقيقة على ما هي عليه فهو معذور عندي بجهله فعليه أن يدرس الموضوع لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره .

وأما الفريق الثاني : فهو فريق يتجاهل الواقع لحاجة في نفسه فهو يعلم من نعني بأهل الكلام ، يعلم أننا إذا تحدثنا عن أهل الكلام وتناقضاتهم إنما نعني المعتزلة والأشعرية ويعلم أن كتب هؤلاء منتشرة في مكتبات المسلمين وفي أيدي طلاب العلم في كثير من الجهات وفي مقدمتها كتاب الكشاف للزمخشري المعتزلي وحاشية الدسوقي على متن السنوسية وحاشية الباجوري عليه أيضاً وأشباهها من كتب الأشعرية .

وإذا كان مؤلفو هذه الكتب قد صاروا تحت الأرض فكتبهم لا تزال موجودة على وجه الأرض في أيدي الناس وهي تدرس في كثير من المعاهد والجامعات في أكثر الأقطار الإسلامية مع ما فيها من الأخطاء المخالفة لصريح القرآن وصريح السنة وهذا المعنى هو الذي حملنا على القول بأن الفريق الثاني متجاهل ومغالط هداه الله ، وكان الواجب أن ينصف هذا الفريق – والإنصاف من الإيمان – بعد أن اتضح له الصواب .

نعم كان من الواجب أن يعلن عن الحق ليتبع ، فالحق أحق أن يتبع ، ويعلن عن الباطل ليعرف ويتجنب فالواجب أن يفعل ذلك بدل المغالطة خشية أن يدخل تحت وعيد كاتمي العلم الذين يلبسون الحق بالباطل يقول الله جلَّ ذكره : ﴿ **لم تلبسون**

الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾[1] الآية . مخاطباً لأهل الكتاب ومعاتباً لهم : أقول هذا لأنتقل إلى النقطة الرابعة والأخيرة وهي حول المفهوم الخاطىء نحو القرآن الكريم . .

* * *

(١) آل عمران : ٧١ .

رابعاً : القرآن الكريم

القرآن الكريم عبارة عن رسالة بعثها الله إلى أهل الأرض من الجن والإنس بعد أن ضمنها كل ما فيه سعادتهم في الآخرة وسيادتهم وعزتهم في الدنيا إن طبقوها وهي مشتملة أيضاً على بيان ما سبب سخط الله عليهم إن تعرضوا له - واختار الله لهذه الرسالة رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .. اختار لها رسوله محمداً ﷺ ليقوم بتلاوتها عليهم وبيانها وشرحها بعد أن أعدَّهُ إعداداً خاصاً فأدَّبه وأحسن تأديبه ، ورباه بعناية خاصة ، وطبعه على النزاهة وحب الخير منذ طفولته وجنبه كل أمر يشين الإنسان ويشار إليه بسببه ببنان الانتقاص والازدراء بل جبله منذ خلقه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم . كان يرى منذ كان صغيراً في سنه كبيراً وعظيماً في سلوكه وعقله ونبله وعبقريته ، هكذا تربى رسول الهدى وصاحب الرسالة ﷺ إلى أن بلغ مبلغ الرجال وبلغ أربعين سنة أو قارب ، بلغ هذا المبلغ وقومه ينظرون إليه بعين التقدير والإجلال . وفي هذا النبي المعظم أنزل الله رسالته ، وعلى يد هذا النبي المعد ذلكم الإعداد بعث الله رسالته إلى عباده ليتلو الذي أنزل إليهم ، وكان صلى الله عليه وسلم غاية في الذكاء والفطنة ودقة الفهم ، كما كان غاية في البلاغة والفصاحة ، وأما في حب الخير للعباد والنصح لهم والرحمة بعباد الله فحدث ولا حرج . فقرأ عليهم الرسالة وبلغهم مضمونها وقد يكون في الرسالة أحياناً نوع من الإجمال فيقوم بشرحها وتفصيل الإجمال ويفسره وذلك كمبحث الصلاة والزكاة مثلاً . وقد حضر قراءة الرسالة حين نزولها وشرحها وتفسير مجملها نخبة ممتازة من هذه الأمة اختارها الله لصحبة نبيه وليخلفوه من بعده ليواصلوا المسيرة فحضروا قراءة الرسالة ودرسوها وفهموها حق الفهم وكانوا يقفون عند عشر آيات ليقرؤوها ويعملوا بها هكذا كانوا يدرسون الرسالة بهذه العناية .

ولفهم الدرس أسباب عديدة وقد توفرت كلها لدى هؤلاء النخبة :

أولاً : المعلم الصالح القدير على التفهيم وهو صاحب الرسالة نفسه رسول الله ﷺ .

ثانياً : المادة وهي الرسالة التي جاءت من عند العليم الحكيم الذي يعلم منهم كل شيء يعلم ما يصلح لمعاشهم ومعادهم وما يطرأ على حياتهم ويتجدد من أمرهم ، ولذا جاءت الرسالة واضحة ومرنة وميسرة . ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾[1] الآية . جاءت رسالته سلسة الأسلوب بريئة من التعقيد اللفظي والمعنوي والمعلم من عرفناه . فهذان السببان من أهم الأسباب لفهم الدرس وتوفر السببين المذكورين . وساعد أيضاً على تطبيقهم الرسالة في حياتهم اليومية بل على التفاني في تطبيقها . فتعلموا من الرسالة التوحيد وتجريد العبادة لله فوحدوه على رغم الجو الجاهلي وجردوا له العبادة والحاكمية ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾[2] الآية . فتعلموا معنى الأخوة فتأخوا فصدقوا فيها ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[3] . وبالجملة فقد فهموا أن القرآن كتاب توحيد وعقيدة ومبحث إيمان وكتاب الدنيا والآخرة .

هكذا فهموا القرآن وتلوه حق تلاوته ، قاموا به فقام بهم ، و نطقوا به فنطق بهم . وسجل لهم ذكراً جميلاً . هذا هو القرآن الذي يقول الله تعالى لنبيه في حقه : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾[4] .

ويقول الحق أيضاً في شأن القرآن وأهله ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾[5] هكذا نزل القرآن وهكذا فهم أول ما نزل وهكذا كان موقف سلف هذه الأمة من القرآن . ثم ماذا ؟ ثم خلف من بعدهم خلف اختلفوا في الكتاب اختلافاً كثيراً نتج منه أن فقد القرآن مكانته التي كان يتمتع بها عند خير الناس بعد الأنبياء أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام وأتباعهم ، فرأينا طائفة من أهل الكلام وهم معدودون من أمة القرآن قد وصل بهم الاستخفاف بالقرآن إلى حد أن زعموا أن دلالة القرآن ظنية لا تفيد اليقين وأن الدلالة العقلية هي القطعية المفيدة لليقين . ولو تعارضاً ، قدمت الأدلة العقلية لأنها يقينية ودلالة القرآن ظنية . وهذا هو موقف جد خطير على إيمان المرء كما ترون . وهل بعد هذا من إيمان ؟ بل هذا رجوع بالناس إلى ما كان عليه الأمر قبل نزول القرآن إلى الوقت الذي كانوا يتحاكمون فيه إلى الطاغوت من العادات والعقل والتقاليد الموروثة . وبناء على

---

(١) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ . (٢) يوسف : ٤٠ ، ٦٧ . (٣) الحجرات : ١٠.
(٤) المائدة :٤٨ . (٥) الزخرف : ٤٤ .

القاعدة التي ذكرناها قرر علماء الكلام أنه لا يستدل بنصوص الكتاب والسنة على صفات الله تعالى إلا حين توافق البراهين العقلية القطعية – على حد زعمهم – وأخيراً قرروا أن القرآن ليس بكلام الله حقيقة وإنما هو دال على كلام الله أو عبارة عنه أو ترجمة له وهذه هي المسألة التي امتحن فيها كثير من علماء المسلمين في عهد المأمون العباسي كما هو معروف لدى الجميع وعذب من أجلها إمام ثقيل الوزن من أئمة المسلمين الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله وهي بعينها مدونة اليوم في كتب القوم وتدرس للشباب السذج الذين لم يتفهموا في دينهم بعد .

بينما نرى هذا الجفاء عند أهل الكلام نرى طائفة أخرى تعزل القرآن عنزلاً عن حياة الناس وإنما هو كتاب يتلى في بعض المناسبات . حزن أو فرح ولا حظ فيه للأحياء أكثر من تلاوته وترى بجانب ذلك طائفة من الساسة تقف من القرآن موقف المجامل – المجاملة غير المحبة وغير الإيمان طبعاً – فلا بأس عندهم أن يتلى في بعض المناسبات الرسمية ويستشهد به في بعض المقام إن دعت الحاجة إليه .

ويسجل في الإذاعة إذا كان المقرىء حسن الصوت بحيث يحمل المستمع على الطرب ثم انتهى كل شيء وكأنه نزل لهذا الغرض نفسه . وأما أن يقرأ للتدبر واستنباط الأحكام منه – وأما أن تساس الأمة على ضوئه وتحت ظلاله ويتخذ دستوراً صالحاً للعصر الحديث كما كان صالحاً للعصور الخالية فهذا أمر لم يدر بخلدهم قط . وبعد هذا كله هل يصح أو نصدق إذا قلنا نحن أمة القرآن ؟ أين القرآن منا وأين نحن من القرآن بل أين حياتنا من القرآن وأين القرآن من حياتنا ؟؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وبعد فضروري أن ينتج من هذه المفاهيم الخاطئة التي تحدثنا عنها خطأ أكبر وأخطر ألا وهو الخطأ في مفهوم الإسلام نفسه ، فمن الناس من يفهم الإسلام فهماً محدوداً جداً . يفهم أنه صلاة وصيام وحج وزكاة وغيرها مما في معنى هذه العبادات بقطع النظر عن كيفية أدائها هل تؤدى على الوجه المطلوب أو المألوف عادة وتقليداً ؟ كل ذلك ليس بمهم . بل المهم أن تؤدي تحت هذه الأسماء شكلياً ثم لا شيء .

هذا هو مفهوم الإسلام عند جمهور المسلمين . ويفهم البعض الآخر أنه يكفيه لنيل لقب (مسلم) أن يحمل شهادة ميلاد تنص أن دينه « الإسلام » وكفى ولو لم يكن وراء ذلك شيء من أعمال الإسلام وواجباته بل لو لم يكن وراء ذلك حبة

خردل من إيمان – ويفهم بعض الساسة أنه يكفي لكونه مسلماً أن ينص القانون المتبع في بلده أن دين الدولة « الإسلام » هكذا بين قوسين ، وكفى أما كونه يحكم بما أنزل الله ، بغير ما أنزل الله ، وهل يحرم ما حرم الله ويحل ما أحل الله أو يعكس ؟ وهل يتبع شريعة الله ويطبقها على حياته وحياة رعيته أو يشرع لنفسه ولرعيته تشريعاً جديداً كما يريد ويهوى . كل ذلك ليس في الحسبان بل كل ذلك لا يضر إسلامه فهو مسلم لا محالة ، هذا جانب من الفلسفة الجديدة في مفهوم الإسلام اليوم وتعني هذه الفلسفة الحرية المطلقة وعدم التقيد بمفهوم معين في مفهوم الإسلام ، بل لكل فرد أو لكل جماعة أن تتصور الإسلام وتفهم وتعرف وتحدد كما تشاء وتريد . وليس لأحد حق الاعتراض تقديراً لحرية الفهم ولأن كل مفهوم أو تصور صحيح . ومن نتائج هذه الفلسفة ما نراه في مجتمعنا الإسلامي من هذه التجزئة للإسلام إن صح التعبير – بحيث يرى في كل مكان أو عند كل جامعة جزء من الإسلام أو شعبة منه – وقد تصغر هذه الأجزاء أو تكبر على حسب التفاوت في الاختيار ودقته ، ولا تكاد ترى الإسلام كاملاً غير مجزأ في مكان واحد أو عند جماعة معينة . وهذه الأجزاء نفسها متصرف فيها عند الأداء والتنفيذ تحت تأثير البيئة والهوى ، هذا ما آل إليه أمر الإسلام يا أيها المسلمون . وهذا ما انتهى إليه مفهوم الإسلام يا أيها المفكرون والمصلحون . وهذا مفهوم الإسلام في الفلسفة الجديدة يا شباب المسلمين . بعد أن كان مفهومه الاستسلام الكامل والانقياد التام لشريعة الله . الشريعة التي تضمنت كل أسباب السيادة والعزة في الدنيا وأسباب السعادة في الآخرة ، إن عملوا بها ، والله المستعان .

وأخيراً ما رأي المصلحين في هذا الموقف الخطير ؟ وهل فكر المفكرون الإسلاميون في الحلول التي تنقذ الموقف والحالة ما وصفنا ؟ .

فنرجو لهم التوفيق ليصلوا إلى النتائج النافعة في تفكيرهم وسعيهم – وإذا كان لا بد لي من رأي أو اقتراح لإنقاذ الموقف وتصحيح المفاهيم فليس أمامنا إلا سبيل واحد في نظري وهو التربية . التربية وحدها – تربية الشباب تربية إسلامية بعيدة عن الجاهلية بجميع صورها . التربية التي يسبقها التخطيط بكل دقة حتى نتمكن من إنشاء جيل جديد ينشأ على فهم الإسلام فهماً صحيحاً وتصور الحياة وفهم جيد لمعنى الحياة الجاهلية .

نريد لعلاج مشكلتنا وإنقاذ الموقف المتدهور جيلاً جديداً يؤمن بالكتاب كله ويتصور الإسلام برمته قبل أن يجزأ ثم يعمل جاداً وصادقاً ومخلصاً لا يخاف في الله لومة لائم ولا مخالفة مخالف طالما هو على الدرب .

ولكن ليس مثل هذا العمل عملاً يتم بين عشية وضحاها . بل لا بد لنا من زمن طويل كاف للتخطيط . ولا بد من صبر طويل وجميل لأن مدة الانحراف كانت طويلة جداً فلا بد من زمن مماثل لمدة الانحراف أو أطول منها تحت عمل دائب العمل الذي يتم تحت إشراف خبراء ومفكرين إسلاميين .

ومن أهم الوسائل في هذا الصدد ما يلي :

أولاً : إصلاح المناهج التعليمية في كل بلد إسلامي إصلاحاً جذرياً شاملاً يجعل تلك المناهج متقاربة إن لم تكن موحدة – ومن أهم أنواع إصلاحها اعتبار المواد الدينية أساسية ويتوسع في دراستها في جميع المراحل . وأن يعتبر الرسوب فيها رسوباً في جميع المواد المقررة وخصوصاً مادة التفسير والحديث وأصولهما – ومادة التوحيد والفقه بالأدلة والسيرة النبيوية مع دراسة الأفكار الهدامة المعاصرة بتوسع .

ثانياً : إصلاح أجهزة الإعلام حتى تصبح نافعة وصالحة لاستخدامها في الإصلاح والتبليغ والتوعية العامة .

فإصلاح المناهج وأجهزة الإعلام يضمنان لنا صلاح شبابنا بإذن الله ويقربان المصلحين من درب الإصلاح والتحول من الحياة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية المنشودة .

ثالثاً : أن يأخذ علماؤنا الأمر بالجدية ويهتموا بأمر الشباب اهتماماً جديا بدل هذا الإهمال الملاحظ وبدل هذه السلبية الملموسة ويكون ذلك الاهمال على ضوء « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا »[1] .

فاليوم الذي تتوفر لنا فيه هذه الوسائل الثلاثة : إصلاح المناهج ، وإصلاح أجهزة الإعلام ، واستعداد علمائنا للإصلاح والدور القيادي وتقديرهم عظم المسئولية وثقل الأمانة يوم أن يتم ذلك كله يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وهدايته

(١) أخرجه خ المغازي ٦٠ والأحكام ٢٢ . الدارمي المقدمة ٢٤ كلهم من حديث أبي بردة رضي الله تعالى عنه .

وتوفيقه وما التوفيق إلا بالله .

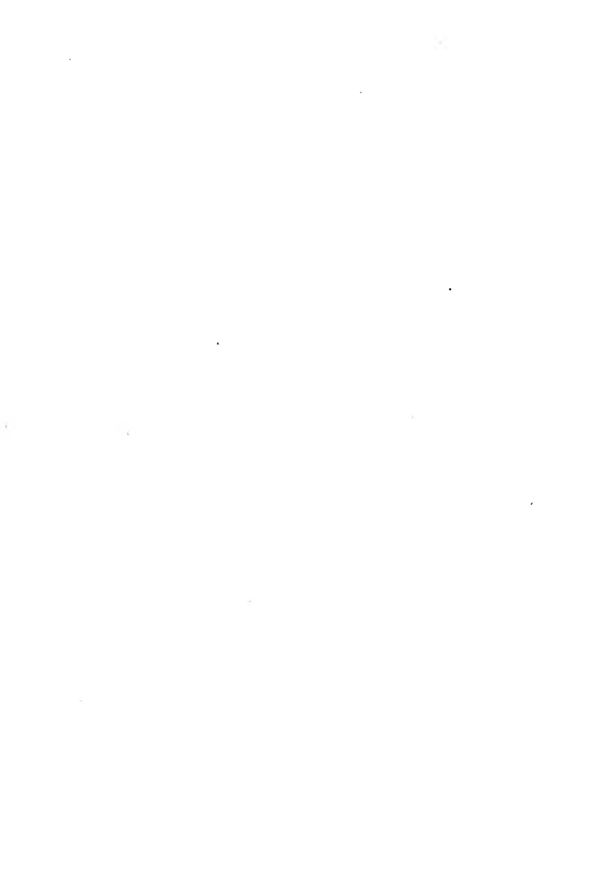
وذلك يعني تحولاً جديداً في حياة الأمة الإسلامية وذلك يعني الانتقال من حياة الجاهلية بصورها وألوانها وألقابها إلى حياة الإيمان ، حياة العمل والجد ، حياة العلم والمعرفة ، حياة الطاعة لله والأنس به والرضا بشرعه ، حياة العزة والكرامة ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾[1] .

وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه محمد وآله وصحبه .



(١) المنافقون : ٨ .

ملحق
لإكمال المحاضرة الأولى



مـقدمـة (*)

سبق لي أن تحدثت تحت هذا العنوان في موسم المحاضرات لعام ٩٤ – ٩٥ هـ وتناولت بالحديث النقاط التالية :

١ – العبادة .

٢ – التوسل .

٣ – مبحث الصفات .

٤ – القرآن الكريم .

ووعدت بأني سوف أعود فاتحدث مرة أخرى تحت العنوان ذاته إن شاء الله ، فها أنا أعود إلى العنوان بمشيئة الله تنفيذا للوعد المذكور وأختار هذه المرة النقاط الآتية :

١ – الأولياء والكرامات .

٢ – الشفاعة .

٣ – السنة النبوية .

والذي دفعني إلى الحديث في تصحيح المفاهيم هذه المرة والمرة التي قبلها هو إدراكي التام ما عليه عامة المسلمين – كما يدرك غيري – من تصورات بعيدة عن حقيقة الإسلام في الموضوعات المذكورة وغيرها في جوانب من الإسلام حتى صار البون شاسعاً بينهم وبين المنهج المحمدي الذي أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « تركتكم على بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك »[1] وعلى الرغم من هذا التوجيه النبوي المتضمن للإنذار ، فقد زاغ جمهور المسلمين عن المنهج فصاروا يعملون خارج المنهج في جوانب كثيرة ، مغيرين بذلك مفاهيم وتصورات كثيرة ،

(*) محاضرة الموسم الثقافي لعام ٩٧ – ٩٨ هـ – تصحيح المفاهيم في جوانب من العقيدة .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٢٦ / ٤ وذلك من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه بإسناد حسن وكذا جه المقدمة (١) . (٦) .

فجياة المسلمين اليوم أقرب إلى الجاهلية التي قبل مبعث النبي ﷺ منها إلى الحياة الإسلامية مما جعل حياتهم مغايرة لحياة الرعيل الأول من الصحابة والتابعين الذين أخذوا تلكم المعاني من صاحب الشريعة مباشرة أو بسند عال ، ولعل سر ذلك انصراف الناس عن دراسة مصادر الإسلام الأصلية وتسرب كثير من عادات وتقاليد غير إسلامية إلى صفوف المسلمين ، كالهندوكية والبوذية والثقافة اليونانية . وهذا التركيب المزجي خلف صفوف المسلمين ربيبة مدللة ومضللة في الوقت ذاته أطلق عليها « الصوفية » ، وكنتيجة حتمية لوجودها كثر المحترفون باسم الدين بعد أن لقبوا أنفسهم برجال السلوك فسلكوا بأتباعهم غير سبيل المؤمنين وصنفوا أنفسهم كالآتي :

العارفون بالله . والأقطاب والأوتاد .

أيها الإخوة لا نعلم أن المسلمين ابتلوا ببلية أو أصيبوا بمصيبة أعظم وأخطر من مصيبة الصوفية إذ من بابهم دخلت على المسلمين تصورات أجنبية ومفاهيم غريبة لا عهد للمسلمين بها في ماضيهم ، بل هي باب لكل بدعة دخلت على عبادة المسلمين وعقائدهم التي منها هذه التصورات الطارئة على المعاني ، أو النقاط التي سوف أتناولها بالبحث في هذه العجالة محاولاً بيان التصور الصحيح ، لعلي أكون أديت بذلك بعض ما يجب أداؤه من واجب النصح لعامة المسلمين لأني لا أريد بمحاضرتي هذه أداء واجب الموسم الثقافي للجامعة فحسب ، بل أرجو أن تصل هذه المحاضرة يوماً ما إلى أيدي من تعنيهم وتتحدث عنهم وعن سوء فهمهم فتصحح لهم تصوراتهم تلك بإذن الله في هذه الجوانب .

والله أسأل وبمحبة رسوله أتوسل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم ، إنه خير مسؤول وأكرم مجيب .

وبعد هذه المقدمة التي أرجو ألا تكون مملة نأخذ في الحديث عن النقاط الثلاث التي اخترتها لحديثي هذه المرة على النحو التالي :

أولاً : الأوليـاء :

الأولياء جمع ولي . والولي من تولى الله أمره وخصه بعنايته لصلاحه لأن الله

يتولى الصالحين ويحب المؤمنين ويدافع عنهم ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا** ﴾[1] وفي الحديث القدسي « من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب »[2] .

ويعتبر الصلاح والتقوى من العناصر الأساسية في الولاية ومن مستلزماتها : العلم ونعني بالعلم معرفة الله بأسمائه وصفاته وآلائه جملة وتفصيلاً ومعرفة شرعه الذي جاء به رسوله المصطفى ونبيه المرتضى عليه الصلاة والسلام وقد تولى القرآن الكريم تعريف الأولياء بما لا يترك مجالاً للتردد أو التساؤل أو التوقف : ﴿ **ومن أصدق من الله حديثا** ﴾[3] إذ يقول الله عزَّ من قائل : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾[4] ويقول أيضاً : ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾[5] وقد حصر القرآن – كما ترى – الأولياء فيمن يتصفون بصفة التقوى . والتقوى تستلزم العلم والمعرفة – كما قلنا – لأن حقيقة التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات خوفاً من عذاب الله وسخطه وتطلعاً إلى رضائه وجنته وكرامته ، ولا يتم ذلك إلا بالفقه في الدين . فالخير كله في الفقه في الدين ، كما أن الشر كله في الجهل بالدين والإعراض عنه . يقول الرسول الكريم في هذا المعنى : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »[6] ولا يخفى على طالب علم المفهوم المخالف للحديث . وهو أن مَنْ لم يرزق الفقه في الدين قد فاته الخير . وماذا بعد الخير إلا الشر ؟ .

هكذا بين الكتاب والسنة صفات أولياء الرحمٰن التي منها : العلم والمعرفة والإصلاح والتقوى . وذلك يعني أن الأولياء هم العلماء العاملون والفقهاء المبرزون ، حملة كتاب الله المتبعون لسنة نبيه عليه الصلاة والسلام لنخلص إلى القول بأن الله لم يتخذ ولياً جاهلاً يجهل دينه وما جاء به نبيه عليه الصلاة والسلام لنقضي بذلك على الزغم الشائع بين كثير من الناس أن الأولياء هم أولئك الجهال المخادعون من الكهنة والمشعوذين من السحرة أحياناً الذين يسحرون أعين الناس ثم يتظاهرون

---

(١) سورة الحج : ٣٨ .

(٢) أخرجه في الرقاق ٣٨ . وابن ماجه في الفتن ١٦ وذلك من حديث معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه .

(٣) النساء : ٨٧ . (٤) يونس : ٦٣ . (٥) الأنفال : ٣٤ .

(٦) أخرجه في العلم (١٠) الخمس (٧) الاعتصام (١٠) الإمارة (١٧٥) الزكاة ٩٨ . ١٠٠ . ت العلم (٤) جه المقدمة (١٧) الدارمي المقدمة ٢٤ . الرقاق : (١) ط : القدر ٨ . أحمد في مسنده ٣٠٦ / ١ كلهم من حديث معاوية رضي الله تعالى عنه وابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

بفعل أشياء مثيرة ، وهم في الواقع لم يفعلوا شيئاً . وكثير من أولئكم الكهنة يستخدمون الشياطين أو على الأصح تستخدمهم الشياطين لتوحي إليهم ، وقد تأتي لهم بأموال مسروقة فتظن العامة أنهم من أولياء الرحمٰن وما يخبرون به أو ما يأتي إليهم من الأموال من قبيل الكرامات وأني لهم الكرامة ؟ بل الإهانة أولى بهم . حقاً إنهم مهانون إذ حرموا ولاية الله والأنس به ووقعوا في أسر عدو الله الشيطان فأصبحوا أولياءه ﴿ **ومن يهن الله فما له من مكرم** ﴾[1] .

والذي أريد أن أصل إليه أنه لا تلازم بين الولاية وبين ظهور الأمور الخارقة للعادة . وفي هذا المعنى يحكي عن الإمام الشافعي رحمه الله قوله : « لو رأيتم رجلاً يطير في الهواء . أو يمشي على الماء لا تقبلوا منه دعوى الولاية حتى تعرضوا أعماله على الكتاب والسنة » أو كلام هذا معناه . يعني الإمام الشافعي رحمه الله أن ظهور الأمور الخارقة للعادة ليس من مستلزمات الولاية بل قد تظهر تلك الأمور على أيدي كثير من أولياء الرحمٰن لأنها ليست من صنع الأولياء . وإنما هي من فعل الرب تعالى الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . وقد تظهر تلك الأمور على أيدي أناس غير صالحين كما سبقت الإشارة إلى هذا المعنى وكما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله مفصلاً .

وبالجملة فإن من رزق الفقه في الدين يدرك تماماً أن باب الولاية أوسع مما يظنه كثير من العوام وأشباه العوام الذين ضيقوا مفهوم الولاية بل غيروه فحصروا الولاية في بيوت معينة أو أشخاص معينين . يتظاهرون بالدروشة ، وخفة العقل ، ومبادىء الجنون أحياناً ، ويهذون هذياناً وربما أخبروا الناس عن مكان الضالة وعن بعض الحوادث التي تقع في أماكن بعيدة عن أماكن وجودهم بواسطة شياطينهم التي تنقل إليهم الأخبار من أماكن بعيدة صادقة أو كاذبة . هذا مفهوم الولاية عندهم ولا يخفى وجه خطأ هذا المفهوم . وقد استغل القوم جهل العوام فأثبتوا لأنفسهم منصباً وراثياً يرثه الأبناء عن الآباء فينتقل إلى الأبناء بطريقة أوتوماتيكية (تلقائية) لأن القاعدة تقول كل من كان أبوه ولياً لا بد أن يكون ولياً ولا محالة . لأن الولاية عندهم غير مقيدة بقيود مكتسبة كالعلم والصلاح والتقوى . بل إن واقعهم على العكس من ذلك إذ يتصفون بالجهل والجرأة على الله والخروج على شرعه والابتداع في دينه وكراهة أوليائه وأهل طاعته من العلماء العاملين والدعاة الغيورين .

(١) الحج : ١٨ .

أقسام الأولياء :

يتضح لنا مما تقدم أن الأولياء ينقسمون إلى قسمين :

١ – أولياء الرحمٰن الذين تقدم الحديث عنهم وتولى القرآن تعريفهم . وهم الذين تولى الله أمرهم ووفقهم وتفضل عليهم بالكرامات التي من أعظم أنواعها : معرفة الحق واتباعه والاستقامة عليه الاستقامة التي تنتهي بالعبد إلى دار الكرامة (الجنة) نسأل الله من فضله .

٢ – أولياء الشيطان الذين وثقوا صلتهم بالشيطان ونظموا معه حياتهم بعد أن قطعوا صلتهم بالله أو ضعفت على الأقل إذ لا يقع العبد في ولاية الشيطان وحزبه مع قوة صلته بربه أبداً . والله المستعان .

وكما أن أولياء الرحمٰن تتفاوت درجاتهم عند الله . كذلك يتفاوت أولياء الشيطان في بعدهم عن الله . وذلك أمر معروف بحيث لا يحتاج إلى دليل .

الأمور الخارقة للعادة على أيدي أولياء الشيطان :

وقد أوضحنا فيما تقدم ألا ملازمة بين الولاية وبين الأمور الخارقة للعادة وأنها قد تظهر على أيدي غير الصالحين . وبقي أن نعرف حقيقة تلك الأمور . فهي تنقسم إلى قسمين من حيث الحقيقة والكنه :

١ – قسم يجريه الرب سبحانه وتعالى على أيديهم استدراجاً يستدرجهم بها ليزدادوا إثماً على إثمهم عقوبة لهم على جريمتهم جريمة عبادة الشيطان وطاعته واتخاذه ولياً من دون الله . يستدرجهم من حيث لا يعلمون ويملي لهم ومن يراها أنها من الكرامات فهو إما جاهل أو متجاهل مغالط لحاجة في نفسه .

٢ – **القسم الثاني** : ما يجري على أيدي بعضهم من قبيل السحر . وقد أثبتت التجربة أن كثيراً من الدجالين مهرة في السحر فكثيراً ما يسحرون أعين الناس فيقوم أحدهم بأعمال غريبة ومثيرة وخارجة على المعتاد والقانون المتبع في حياة الناس مثل أن يلقي بنفسه في النار ثم يخرج منها قبل أن تحرقه أو تصيبه بأي أذى في جسمه . ومثل أن يتناول جمرة فيأكلها كما يأكل ثمرة حلوة والناس ينظرون إليه فيندهشون . أو يمشي على خيط دقيق ممدود بين عمودين مثلاً وغير ذلك من الأعمال التي يعرفها كل

من يعرف القوم . وهو في واقع الأمر لم يعمل شيئاً من تلك الأعمال بل كان علي حالته العادية إلا أنه سحر أعين الحاضرين فيخيل إليهم من سحره أنه يفعل شيئاً وأنه يطير أو يذبح نفسه أو يذبح ولده وكل ذلك لم يقع ولا بعضه .

فالطائفة الأولى المستدرجة والأخرى السحرة وهم المعروفون عند السذج من عامة المسلمين أنهم أصحاب الكرامات . ولما أدرك القوم أنه قد انطلى على العوام باطلهم هذا لفرط جهل العوام وبعدهم عن الثقافة الإسلامية ، استغلوا فيهم هذا الجهل وتلك السذاجة ، فاتخذوا الولاية المزعومة باباً من أبواب الدجل فكما يطور أهل العلم معلوماتهم ، وأرباب المهن والصناعات مهنهم وصناعتهم حتى ينتجوا أحدث المصنوعات ؛ كذلك يطور هؤلاء الأولياء دجلهم وخداعهم ليطير صيتهم وتزداد شهرتهم فيرتفع بذلك دجلهم . وهذا الدجل هو الغاية عند القوم من دعوى الولاية والكرامة ومن الخداع المتطور .

ومن أحدث أساليبهم المتطورة في هذا العصر أن زعم بعضهم أن هذه التكاليف الشرعية من امتثال المأمورات واجتناب المنهيات أمور مؤقتة ولها حد تنتهي إليه ثم تسقط . وزعم هذا الزاعم أنه قد وصل تلك المنزلة فسقطت عنه جميع الواجبات وأبيحت له جميع المحرمات بحيث لا يقال في حقه هذا حرام أو حلال . أو هذا واجب وهذا مستحب . وهو يحاول بذلك أن يقتفي أثر رئيس الملاحدة وقطب وحدة الوجود ابن عربي الطائي وشاعر تلك الملة ابن الفارض ويحذو حذوهما . وتبدو الفكرة جديدة ومتطورة لدى كثير من الناس لغرابتها ، ولما أدخل عليها من بعض الزخرفة والزركشة حتى ظهرت الفكرة كأنها فكرة حديثة وهي في أصلها فكرة قديمة قدم كفر وحدة الوجود التي منشؤها تعطيل الصفات علي طريقة الجهمية المعروفة وهي فكرة يؤمن بها كل صوفي – وللأسف – ويسعى لها بأنواع من المجاهدة في زعمهم وهو سر انتقادنا للصوفية وشطحاتهم . وما يؤخذ عليهم كثير جداً لو وسعنا التعداد . ولا يشك كل من له أدنى فقه في الدين أن فكرة وحدة الوجود ملة مغايرة للإسلام وآخر التطورات التي علمناها في هذا الخصوص دعوى محمود محمد طـه السوداني حيث زعم أن تلك الفكرة الإلحادية التي يدعوا إليها هي مضمون الرسالة الثانية من الرسالتين المحمديتين على حد زعمه ، حيث زعم أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث برسالتين اثنين .

أما الرسالة الأولى فقد بلغها . وأما الثانية فلم يبلغها ، ويعلل ذلك بقوله : إن القوم الذين بعث فيهم رسول الله أول ما بعث ليسوا على استعداد لفهمها والعمل بها لأن مستواهم العقلي لا يؤهلهم لفهمها . أما الآن وقد نضجت العقول وتقدم الفكر البشري قد آن الأوان للدعوة إليها والعمل بها إلى آخر تلك الجعجعة – المثيرة للضحك والبكاء في وقت واحد . نعم إنها تثير الضحك إذا نظرت إليها ككلام ساقط ليس له أي قيمة علمية وإنما هو هذيان لا ينطلي على العقلاء ، ومثيرة للبكاء حيث وصلنا نحن المسلمين إلى هذا المستوى من البرودة وضعف الغيرة على شريعة الله يتلاعب بها أمثال محمود ولا يجد رادعاً يوقفه عند حده بل لا توجد غضبة إسلامية يحسب لها حساب في المجالات الرسمية . والله المستعان .

ولعل بعض الحضور يحسب أنني أتحدث عن أساطير الأولين . وليس الأمر كذلك بل إن صاحب هذه الدعوة حي يرزق بمقربة منا في السودان – كما قلت آنفاً ولا يزال – يعمل جاداً لهدم الرسالة الأولى وليقيم على أنقاضها الرسالة الثانية المزعومة – لو استطاع سبيلا – وفي الواقع أن الرجل مدع للنبوة ولكنه لم يستطع التصريح بها خشية أن يغضب الشعب السوداني غضبة إسلامية فتكون نهاية له . لكنه لدهائه ولباقته استطاع أن يتظاهر بمظهر المصلح المجدد : علماً بأنه ليس لديه أي جديد بل تنحصر فكرته في عقيدة وحدة الوجود التي يرأسها ابن عربي الطائي الملقب بمحيي الدين مع عاشقهم المعروف بابن الفارض ومن يدور في فلكهما – كما سبق أن أشرت – مع محاولة السير مع الوادي حيثما توجه ، شرق أم غرب كعادة المحترفين باسم الدين أو التجديد .

والمسألة في الأصل – كما قلت – نتيجة حتمية لعقيدة غلاة الجهمية الذين يعطلون جميع صفات الرب تعالى وأسمائه حتى لا يبقى هناك إلا ذات مجردة عن جميع الصفات والأسماء التي لا يتصور لها وجود في الخارج أي خارج الذهن وإنما يتصوره الذهن كما يتصور المحال والأمور الخيالية ، وهذه العقيدة هي التي أفضت بالقوم إلى القول بالحلول والاتحاد ليتحقق وجود الله خارج الأذهان حَالاً في مخلوقاته ومتحداً معهم . هذا منشأ الحلول والاتحاد الذي هو آخر منزلة تنتهي إليها الصوفية ولها يسعون وفيها يتنافس المتنافسون منهم . وهذه الفكرة كفر باتفاق المسلمين لأنها – تجعل الرب سبحانه حالاً في مخلوقاته . بل يرى شارح الطحاوية أن فكرة الحلول

والاتحاد أقبح من كفر النصارى لأن النصارى خصوا الحلول بالمسيح وهؤلاء عمموا جميع المخلوقات وقديماً قال زعيمهم ابن عربي :

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما الله إلا راهب في كنيسة

هذا ما ينتهي إليه أولياء الشيطان وما قبل هذه المنزلة وسائل مفضية إلى هذه الغاية وما أرخصها من غاية وما أقبحها من كفر . وهو داء لا علاج له إلا آخر العلاج وآخر العلاج الكي . فلا يردع هذا الإلحاد إلا قوة السلطان لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولكن أين قوة السلطان اليوم ؟؟ !! إلا ما شاء الله .

الكرامـات :

إذا كنا تحدثنا عن الأولياء وصفاتهم وأقسامهم واستطردنا إلى بعض تصرفات أولياء الشيطان التي يظنها بعض الناس أنها من الكرامات وبينا أنها لا علاقة لها بالكرامة ؛ إذا كنا قد تحدثنا هذا الحديث فلنتحدث الآن عن الكرامات وعن موقف الناس منها ، بل قد استطردنا لمفهوم الكرامة لدى أتباع أولياء الشيطان وبينا تصورهم الخاطىء . فلنحصر بحثنا هنا في كرامات أولياء الرحمٰن وتحقيق القول في ذلك بتوفيق الله .

موقف المعتزلة من كرامات الأولياء :

انقسم الناس في مسألة كرامات أولياء الرحمٰن إلى قسمين : ناف ومثبت وعرفت المعتزلة من بين الطوائف المنتسبة إلى الإسلام بنفي كرامات الأولياء بدعوى أن إثباتها يوقع في لبس إذ تلتبس الكرامة بمعجزة الأنبياء ، وليس لديهم أي دليل أو شبه دليل سوى هذه الدعوى وهي دعوى كما ترى لا تنهض لمقاومة النصوص الصريحة التي سيأتي ذكرها إن شاء الله . وقد ناقشهم كثير من أئمة الهدى الذين عرفوا بمناضلة أهل البدع والهوى وفي مقدمتهم الإمام ابن تيمية في كتابه « الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان » وكتاب « النبوات » . كما ناقشهم الإمام الشوكاني في بعض رسائله مثل رسالته التي سماها « بحث في الاستدلال على ثبوت كرامات الأولياء » ومن أراد الاطلاع على شبههم ودحضها فليراجع تلك المراجع .

موقف أهل السنة من كرامات الأولياء :

أما أهل السنة فقد أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء اعتماداً على النصوص التي سنذكرها إن شاء الله ، وفي الإمكان سرد كلامهم والوقائع التي ذكروها ولكني أرى الاكتفاء بما جاء في كتاب ربنا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد نضيف إلى آيات الكتاب ما صح عنه عليه الصلاة والسلام في السنة المطهرة فنكتفي بذلك لأن فيهما الغنية لمستغن ، وقد قص الله علينا في كتابه العزيز عن صالحي المؤمنين الذين لم يكونوا أنبياء وكراماتهم المتنوعة . فلنستمع إلى هذا النموذج من كراماتهم :

(أ) قصة أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم وثبتوا على إيمانهم وسط تلك البيئة الكافرة بعيدين عن المداهنة وقد قص القرآن علينا قصتهم البطولية إذ يقول الله عزَّ من قائل : ﴿ **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا** ﴾ إلى أن قال وهو يصفهم بالإيمان والهدى والثبات : ﴿ **نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا** ﴾[1] .

فطبيعي أن هذا ليس موقف أناس عاديين ولكن الله أكرمهم بالإيمان والثبات على الهدى فصارحوا جبابرة قومهم : بأنهم لا يدعون مع الله أحداً وهو إعلان بالكفر بآلهة قومهم مع الثبات على الإيمان بالله وحده وهذه كرامة وأي كرامة .

(ب) قصة مريم التي حكاها القرآن إذ يقول الرب تعالى : ﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا** ﴾[2] إلى آخر الآية يقول في موضع آخر : ﴿ **وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا** ﴾[3] .

(جـ) قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة وهم في الغار . وقصتهم معروفة لدى جمهور الحاضرين وهم أولئك الذين خرجوا في سفر ما ولما أدركهم الليل دخلوا – غاراً في الجبل ليبيتوا فيه وفي أثناء الليل سقطت صخرة عظيمة من عل فسدت عليهم باب الغار فوقعوا في حيرة من أمرهم فتشاوروا فقرروا أنه لا ينجيهم مما

---

(١) الكهف : ٩ ، ١٣ ، ١٤ . (٢) آل عمران : ٣٧ .
(٣) مريم : ٢٥ .

هم فيه إلا الالتجاء إلى الله فيدعونه بالأعمال الصالحة التي عملوها مخلصين له فتوسل أحدهم إلى الله ببر الوالدين إذ كان له أبوان شيخان كبيران وكان يحسن إليهما ويبرهما كأحسن ولد . ومن بره بهما كان لا يتناول عشاءه قبلهما هو وأولاده وكان عشاؤهم حليب الإبل ومن عاداته أنه يقدم لهما عشاءهما في وقت مناسب ، وفي ذات ليلة نأى به طلب الشجر لإبله ، وجاء بعشائهما في وقت متأخر من الليل فوجدهما قد ناما فكره أن يوقظهما خشية أن يقطع عليهما نومهما فيعكر راحتهما كما لم يستحسن أن يتناول عشاءه قبلهما هو وأولاده فظل واقفاً على رأسهما رجاء أن يستيقظا في أثناء الليل ولم يستيقظا إلى أن أصبح الصبح وهو واقف والحليب في يده . فتذكر هذا العمل فدعى الله به فأكرمه الله وأجاب دعوته فنزلت الصخرة قليلاً حتى دخل لهم الهواء فطمعوا في الخروج .

وأما الآخر فتوسل إلى الله بعفته والخوف من الله وملخص قصته أنه كانت له ابنة عم وكان يحبها كأشد ما يحب الرجل امرأة . فراودها فامتنعت ورفضت طلبه إلى أن ألجأتها الحاجة إليه فقدم لها مبلغاً من المال يقدر بمائة وعشرين ديناراً نقريباً مساعدة لها وسداً لحاجتها فأعاد المراودة بعد هذا الإحسان — فطالما استعبد الإحسان إنساناً — وألح في طلبه طبعاً وأخيراً وافقت على تحقيق رغبته تحت إلحاحه وتأثير الإحسان ونفسها غير مطمئنة بالمعصية فمكنته من نفسها فقعد منها مقعد الرجل من المرأة فصرخت في وجهه قائلة : « اتق الله يا عبد الله لا تفض الخاتم إلا بحقه »[1] — تعني — إلا بنكاح وبطريقة شرعية . هكذا ذكرته بالله فتذكر لأنه مؤمن . ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾[2] فقام من مقعده ذلكم فوراً مالكا نفسه قاهراً شهوته وهواه وهو موقف صعب كما ترون .

هذا ملخص قصة صاحب العفة فقال وهو في الغار اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فأجاب الله دعوته وأكرمه بكرامته فنزلت الصخرة مرة أخرى بيد أنهم لا يقدرون على الخروج . ولكن أملهم صار أقوى في الخروج من ذى قبل ولا شك .

وأما الثالث : فتوسل إلى الله بحفظ الأمانة إذ عمل عنده أجراء كثيرون فأخذ

(١) سبق تخريجه في موضوع إطلاقات التوسل ص ٢٥ .
(٢) الذاريات : ٥٥ .

كل أجير أجرته فذهب إلا واحداً منهم فترك أجرته وبعد مدة طويلة جاء فطلب أجرته فقال له : إن كل ماتراه من الإبل والبقر والغنم من أجرتك لأني نميتها لك لما طال غيابك خشية أن تضيع . ولم يصدقه بل قال لا تستهزىء بي ياعبد الله فقال له لست مستهزئاً بك وإنما الواقع ما قلته فسق ما لك فأخيراً أخذ أمانته بنمائها وزيادتها .

فقال الذي حفظ الأمانة وهو يتوسل إلى الله بعمله هذا اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فأجاب الله دعوته وأكرمه بإخلاصه وصدقه فنزلت الصخرة فخرجوا يمشون .. وهذا ملخص قصة الثلاثة[1] .

ومما يدل على ثبوت الكرامات من السنة – قوله عليه الصلاة والسلام « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره »[2] . وقصة أسيد بن حضير وعباد بن بشر الأنصاريين وملخصها « أنهما كانا عند النبي عليه الصلاة والسلام ؛ في ليلة ظلماء فلما خرجا أضاءت عصا أحدهما فمشيا في ضوئها فلما افترق بهما الطريق أضاءت عصا الآخر فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله والقصة في صحيح البخاري في كتاب مناقب الأنصار[3] وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة عند البخاري في فضائل الصحابة « لقد كان فيمن قبلكم من الأمم أناس محدثون فإن يكن في أمتي أحد منهم فإنه عمر » وفي لفظ « لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر »[4] .

واكتفى بهذا المقدار من نصوص الكتاب والسنة التي تثبت دون شك كرامات الأولياء وهناك نصوص أخرى كثيرة مرفوعة أو موقوفة وكلها تثبت لكثير من الصحابه رضوان الله عليهم من كرامات أكرمهم الله بها ، ومن راجع كتب الحديث وكتب السير يرى الشيء الكثير من الوقائع في هذا المعنى ، وإذا كان كذلك فلا حاجة بنا إلى سـ د قصص أو روايات لإثبات كرامات الأولياء من أقوال التابعين

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري في الصحيح كتاب البيوع باب ٩٨ .

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب البر حديث رقم ١٣٨ ، وكتاب الجنة حديث رقم ٤٨ .

(٣) أخرجه البخاري مناقب الأنصار باب رقم ١٣ أنظر الفتح ١٢٤ / ٧ وأخرجه أحمد في مسنده ١٢٨ / ٣ . ١٩٠ / ٣ . ٢٧٢ / ٣ .

(٤) أخرجه خ فضائل الصحابة باب ٦ وحديث رقم ٣٦٨٩ .

وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم الناس هذا ليقيني الذي لا يخالطه شك بأنكم أكثر تطلعاً إلى سماع النصوص منكم إلى سماع القصص والحكايات والروايات وهو موقف محمود تغبطون فيه ولله الحمد والمنة .

وبعد لعلي وصلت بهذه المحاولة إلى بيان التصور الصحيح في مسألة الأولياء وكراماتهم على ضوء الكتاب والسنة كي يتبين الحق من الباطل والحق أبلج والباطل لجلج وهو وسط بين التفريط والإفراط .

الموقف السليم من الأولياء

إذا كنا قد تحدثنا عن الأولياء والكرامات وأثبتنا الولاية بشكل واضح ودعمنا حديثنا بنصوص الكتاب والسنة . ثم أثبتنا الكرامات كذلك إثباتاً يعتمدعلى الكتاب والسنة ، وقبل أن أجيب على هذا التساؤل أستحسن أن أوضح السبب المثير لهذا التساؤل . وذلك هو موقف جمهور المسلمين المحزن من الأولياء وهو الغلو في الصالحين الذي يصل أحياناً إلى حد العبادة ، بدعوى المحبة والتقدير ، ومن يذهب إلى تلك الأضرحة المنتشرة في أكثر عواصم المسلمين ومدنهم يرى عدداً كبيراً من المسلمين مغتكفين عند تلك الأضرحة ليتبركوا بها أو بأصحابها وربما وصل هذا التبرك إلى حد الطواف بالضريح بل إلى حد السجود على عتبة باب الضريح والأدهى والأمر أن يجد هذا السادن الذي يسجد لغير الله ولا يلهج لسانه إلا بذكر الضريح من يفتي له بجواز ذلك وأنه ليس من باب الشرك ، وإنما هو من باب محبة الصالحين أو التوسل بهم . وهذا المفتى أو الفتان على الأصح معدود من علماء المسلمين المشار إليهم ، والله المستعان وإليه المشتكى .

إنه لموقف خطير ! : العامي يقع في عبادة غير الله جهلاً ، والعالم يفتي بجواز ذلك ويجد له تفسيراً وتأويلاً وتخريجاً ، وخطورته تأتي من حيث أصبح الولي نداً لله في هذا التصور وشريكاً له في استحقاق العبادة باسم المحبة أو التبرك بفتوى ممن ينتسبون إلى العلم ويجهلون حق الله على عباد الله ، أعود فأقول : هذا الموقف وهذا التصور الذي يسود صفوف العوام وأشباه العوام هو الذي أثار تساؤلي .

ما هو الموقف السليم من الأولياء ؟؟!!

فأما الجواب عليه : أن الموقف السليم هو عدم الغلو فيهم مع عدم الجفاء

والاستخفاف بهم وإيذائهم . بل الواجب محبتهم في الله وموالاتهم ولك أن تطلب منهم الدعاء في حياتهم ويسمى الاستشفاع بهم ، أو التوسل بهم . ويجب أن نفرق بين محبتهم في الله ومحبتهم مع الله ، فمحبتهم في الله عمل صالح ، وأما محبتهم مع الله فعمل غير صالح بل هو بريد الشرك أو الشرك ذاته . ويختلف ذلك باختلاف ما يقوم بقلب العبد . وسر التخبط لدى كثير من المسلمين والخلط في عبادتهم هو عدم التفريق بين الحقوق مما جعلهم يصرفون كثيراً من حقوق الله على العباد للعباد أنفسهم .

الحقوق الثلاثة

إن الدارس لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والفاهم لمعنى كلمة التوحيد حق فهمها يستطيع أن يستنتج الحقوق الثلاثة التي يأتي شرحها ، ومعرفة تلكم الحقوق تحدد للعبد طريق السير إلى الله والدعوة إليه على بصيرة قبل أن يخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، ويخرج عن الصراط المستقيم ويتخبط في بنيات الطريق .

١ – حق الله على عباده وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً في عبادته وذلك بعد تصور مفهوم العبادة بأوسع نطاقها . وقد وجه النبي عليه الصلاة والسلام سؤالاً إلى معاذ ذات مرة هكذا : « يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ » ولم يسع معاذاً إلا أن يقول : الله ورسوله أعلم فقال النبي عليه الصلاة والسلام – بعد أن أثار انتباهه ولعلها المقصود من السؤال – قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً »[1] الحديث ، وهو معنى قولنا أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له .

٢ – حق الرسول على أتباعه الذي يؤخذ من قولهم أشهد أن محمداً رسول الله وحقيقة ذلك محبة رسول الله عليه الصلاة والسلام المحبة الصادقة التي تثمر الطاعة والاتباع وعبادة الله بما جاء به فقط . وهو المعنى الذي يشير إليه الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده والناس أجمعين »[2] .

---

(١) أخرجه خ اللباس ١٠١ . الجهاد ٤٦ . الاستئذان (٣٠) الرقاق (٣٧) التوحيد (١) م الإيمان ٤٨ – ٥١ . ت : الإيمان ١٨ ، جه الزهد ٣٥ . والإمام أحمد في مسنده ٣٠٩ / ٢ . ٢٦٠ / ٣ .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٠ في باب التوسل وهو حديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه والدارمي =

٣ – حقوق عباد الله الصالحين تلك الحقوق التي نستطيع أن نستنتجها من قوله عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[١] وقوله عليه الصلاة والسلام « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا »[٢] الحديث وقوله عليه الصلاة والسلام « ومن عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب »[٣] . وغير ذلك من النصوص الكثيرة .

فمعرفة هذه الحقوق ، ثم إعطاء كل ذي حق حقه أمر له أهميته ولا سيما حق الله على عباده ، تجب العناية به علماً وعملاً لأنه الغاية التي من أجلها خلق الإنسان والتقصير في هذه الغاية ذنب لا يغتفر إلا لمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً .

وهذا التقصير واقع من كثير من المسلمين – مع الأسف الشديد – وهو سر اختيارنا لهذه النقطة ضمن النقاط الثلاث . رجاء أن ننبه إلى هذا الخلط الشائع بين جمهور المسلمين من إدخال بعض الحقوق في بعض . بل وصرف كثير من حقوق رب العالمين لعباد الله الصالحين بدعوى محبتهم كنتيجة لهذا التقصير . والله المستعان .

ثانياً : الشفاعة :

فلفظ الشفاعة من الألفاظ التي تغير مفهومها عما كان عليه في عرف الصحابة ولغتهم : استشفع أو توسل بفلان أي طلب منه الدعاء لتقتضي حاجته عند الله من إنزال المطر أو دفع الضر أو جلب المنفعة ، فالاستشفاع بالنبي عليه الصلاة والسلام في حياته أو التوسل به هو طلب الدعاء منه ، وهذا أمر لا نزاع فيه لدى الصحابة وأتباعهم . وقد كان الصحابة يستشفعون به في عدة مناسبات ، مثل مناسبة القحط ليغيثهم الله بدعائه عليه الصلاة والسلام. وقد يأتي إليه من فقد بصره فيطلب منه الدعاء ليرد الله بصره فيدعو له ، النبي عليه الصلاة والسلام ويأمر الأعمى أن يدعو الله ليجيب الله دعاء نبيه له فيفعل الأعمى ما أمر به فيرد الله له بصره بدعائه عليه

= في مسنده .

(١) أخرجه خ الإيمان (٧) م الإيمان ٧١ ، ٧٢ . ت القيامة ٥٩ ن : الإيمان ١٩ ، ٣٣ ، جه المقدمة (٩) الدارمي الرقاق ٢٩ أحمد في مسنده : ١٧٦ / ٣ كلهم من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه م : الإيمان ٩٤ ، د : الأدب ١٣١ ، ت : الاستئذان (١) القيامة ٥٦ ، جه : المقدمة (٩) الأدب (١١) أحمد في مسنده ١٦٥ / ١ من حديث الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه .

(٣) سبق تخريجه ص ٤٧ أخرجه خ وجه .

الصلاة والسلام وشفاعته وشفاعة الأعمى معاً . وقصة الأعمى معروفة لدى طلاب العلم[1] .

وقد كان الأعرابي يأتي إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو يخطب خطبة الجمعة فيقول : يارسول الله انقطعت السبل وهلكت الأموال فادْعُ الله يغيثنا ، فيرفع رسول الرحمة ﷺ يديه إلى السماء فيدعو الله فيغيثهم الله[2] ، هذا وغيره يسمى شفاعة ويسمى توسلاً .

وقد تغير هذا المفهوم لدى كثير من الناس فترى أحدهم يدعو رسول الله عليه الصلاة والسلام أو يدعو عبداً صالحاً يطلب منه ما لا يطلب إلا من الحي القيوم سبحانه وتعالى كأن يطلب منه شفاء مريضه ... أو يطلب منه نزول المطر ... أو يطلب منه الولد إلى غير ذلك من المطالب .

وإذا قيل له في ذلك قال : هذا استشفاع أو توسل أو هذه محبة الصالحين فلنقارن بين المفهومين : الأعرابي يذهبَ إلى رسول الله في مسجده فيطلب منه الدعاء ، فيقول في طلبه ادع الله يغيثنا والأعمى يتكلف الذهاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام فيطلب منه الدعاء ليرد الله له بصره[3] .

أما اليوم : قد نرى من يجلس في منزله أينما كان منزله فيطلب نزول المطر أو رد الضالة أو غلبة العدو وما إلى ذلك من المطالب فيقول في طلبه أغثني يا رسول الله أغثني يا جيلاني ، المدد يا حسين ، إلى غير ذلك من العبارات الوثنية التي صارت مألوفة لدى جماهير المسلمين وللأسف الشديد فهذا يخطىء لأنه : .

أولاً : لا يكلف نفسه بالذهاب إلى من يشفع به أو يتوسل به .

ثانياً : يوجه الطلب للمخلوق دون الخالق ، ثم يسمى هذا الطلب توسلاً أو استشفاعاً ولو حاولت توجيهه اتهمت بأنك لا تحب الصالحين وتنكر التوسل بهم بل

---

(١) سبق تخريجه أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٣٨ / ٤ والترمذي في جامعه كتاب الدعوات ١١٨ بإسناد صحيح . أنظر ص ١٦ .

(٢) سبق تخريجه ص ١٦ أخرجه خ ومسلم والنسائي .

(٣) سبق تخريجه ص ١٦ أخرجه أحمد في مسنده ١٢٨ / ٤ . والترمذي في جامعة كتاب العوات ١١٨ .

ولا تحب رسول الله ﷺ إلى آخر تلك العبارات التقليدية التي يرددها علماء السوء ومقلدوهم الذين حالوا بينهم وبين المفهوم الصحيح في كثير من المعاني الإسلامية . عاملهم الله بما يستحقون ! .

كم استغلوا جهل الناس وسذاجتهم وطيبة نفوسهم فصاروا لهم حجر عثرة في سبيل فهم الإسلام .

المفهوم الصحيح للشفاعة :

نعود فنقول : لا نزاع بين جمهور الأئمة من أهل السنة أنه يجوز أن يستشفع بالنبي عليه الصلاة والسلام في الدنيا في حياته كما سبق أن أشرنا إلى قصة الأعرابي وهي في صحيح مسلم[1] وقصة الأعمى المعروفة عند أهل السنن كما يشفع عليه الصلاة والسلام يوم القيامة لأهل الكبائر من أمته الذين استوجبوا النار ليدخلوا الجنة بشفاعته عليه الصلاة والسلام ، ولم ينكر هذه الشفاعة إلا الخوارج والمعتزلة بناء على أصلهم المعروف من أن صاحب الكبيرة مخلد في النار مع الكفار . وهو أصل باطل مصادم للنصوص كما لا يخفى ، ومن أعظم الشفاعة لرسول الله عليه الصلاة والسلام شفاعته لأهل المحشر حين يعتذر آدم أبو البشر وجميع أولي العزم من الرسل ويقول كل واحد منهم نفسي نفسي ، إن الله قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله : نفسي نفسي في ذلك الموقف الرهيب يتقدم أهل المحشر إلى سيد ولد آدم محمد عليه الصلاة والسلام فيطلبون منه الشفاعة عند الله ، فيقول عليه الصلاة والسلام : أنا لها فيسجد تحت عرش الرحمٰن سجدة طويلة يثني فيها على الله ثناء ويحمده حمداً كثيراً ويفتح الله عليه من الثناء ما لا يعلمه قبل ذلك كما صح عنه عليه الصلاة والسلام في أحاديث الشفاعة ثم يقال له يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع[2] . وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام عند مسلم وأبي دواد قوله : « أنا أول شافع وأول مشفع وأول من ينشق عنه القبر »[3] .

وله ﷺ : أنواع من الشفاعات في الآخرة كما ذكرنا أن له أنواعاً من الشفاعات

---

(١) سبق تخريجه : أخرجه خ ومسلم .

(٢) أخرجه خ بسياق طويل كتاب الأنبياء (٣) وتفسير سورة (١٧) ومسلم الإيمان ٣٢٧ . و ت :القيامة ١٠ .

(٣) أخرجه مسلم الفضائل (٣) .

في الدنيا ، ومعنى الشفاعة في كلتا الدارين لا يخرج عما ذكرنا من أنه طلب الدعاء ويلتقي معنى التوسل والشفاعة عند هذا المعنى بالذات كما اتضح ،مما يؤيد ما ذكرنا أن أصحاب رسول الله الذين رأيناهم يستشفعون برسول الله في حياته : رأيناهم مرة أخرى قد عدلوا عن التوسل أو الاستشفاع به عليه الصلاة والسلام بعد وفاته فجعلوا يتوسل بعضهم ببعض ويستشفع بعضهم ببعض : ففي عام الرمادة أصيب أهل المدينة بجفاف فجمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه المسلمين في صعيد واحد في المدينة فقال : « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا والآن نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا ، فطلب من العباس عم النبي ﷺ الدعاء فدعا الله فأغاثهم الله »[1] .

وهكذا فعل معاوية بن أبي سفيان مع الأسود بن يزيد عندما أصيب المسلمون في الشام بالقحط ، جمع الناس ، فطلب من الأسود بن يزيد أن يدعو الله فدعا الله تعالى . فأجاب دعاءَه فأغاثهم الله تعالى ولو كان معنى التوسل عندهم - كما يظن هؤلاء العوام وأشباههم من الذهاب إلى قبور الصالحين أو المراد بالتوسل بالصالحين التوسل بذواتهم - لما عدلوا عنه عليه الصلاة والسلام بل لذهبوا إلى قبره فدعوا الله عند قبره أو توسلوا بذاته لأن جسده الطاهر لا يزال في قبره لأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسام الأنبياء كما صح ذلك عنه عليه الصلاة والسلام[2] .

فعدولهم رضوان الله عليهم عنه واستشفاع بعضهم ببعض يؤيد ما قررنا من أن معنى الاستشفاع أو التوسل هو طلب الدعاء من الحي الصالح . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في صدد حديثه في هذا المعنى : « يقول العلماء يستحب أن يستسقى بأهل الدين والصلاح . وإذا كان بأهل بيت الرسول فهو أحسن »[3] .

كأن شيخ الإسلام يشير إلى صنيع عمر مع العباس عم النبي عليه الصلاة والسلام حيث استسقى به لأنه عم النبي عليه الصلاة والسلام وكان سر اختياره كونه من أهل بيت الرسول ﷺ .

---

(١) سبق تخريجه ص ١٥ أخرجه خ الاستسقاء باب (٣) وحديث رقم ١٠١٠ وفضائل أصحاب النبي ﷺ باب رقم ١١ وحديث رقم ٣٧١٠ .

(٢) سبق تخريجه ص ٢١ أخرجه أحمد في مسنده ص ٨ ج ٤ بإسناد صحيح ودون وجه الراوي .

(٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة .

وبعد :

فلو درس المسلمون حياة الصحابة وعرفهم واصطلاحهم بل ولغتهم ثم حاولوا أن يطبقوا حياتهم على حياة أولئك السادة لساعدهم ذلك على تصور هذه المعاني التي ساءت فيها مفاهيمهم وأخذوا يخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً ويتخبطون في عباداتهم وجميع أعمالهم لأن القوم قد باشروا الوحي وأخذوا الإسلام غضاً طريا عن صاحب الرسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

ولا يخالطنا أدنى شك في أن الصحابة رضي الله عنهم فهموا هذا الدين فهما لا مزيد عليه وانحصر الحق فيما فهموه ثم لا يخالطنا أدنى شك بأنهم بلغوه لمن بعدهم كما فهموا ، وهكذا الذين يلونهم ثم الذين يلونهم بالجملة إلى آخر القرون المفضلة الذين شهد لهم بالخيرية الصادق المصدوق محمد عليه الصلاة والسلام حيث يقول : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث[1] وأخيراً طرأ على المفاهيم والتصورات ما طرأ فساءت المفاهيم وتغيرت التصورات وحدثت تصورات لا وجود لها عند المسلمين الأولين في عهد الوحي وفي الذين يلونهم ليصدق قوله عليه الصلاة والسلام : « ما من عام إلا والذي بعده شر منه »[2] . والله المستعان .

ولعل المستمع الكريم استطاع أن يسايرني فيما أردت من بيان المفهوم الصحيح والمفهوم الخاطىء في باب الشفاعة والتوسل ، وأنهما بمعنى واحد – ولا يعدو معناهما طلب الدعاء من الحي الذي يدعو ، وأن الخروج بهما عن هذا الإطار إلى دعوة غير الله وما في معناها من أنواع العبادة مفهوم غير سليم . هذا ملخص ما أردنا أن نقوله في هذه النقطة . وإلى النقطة الثالثة والأخيرة بعون الله تعالى .

ثالثاً – السنة النبوية :

أيها الإخوة هكذا نصل إلى النقطة الثالثة من النقاط الثلاث المختارة لحديثنا هذه المرة وهي السنة النبوية . مما لا يختلف فيه اثنان أن ديننا الإسلامي مبني على أصلين اثنين :

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٥ أخرجه خ . والترمذي والإمام أحمد في مسنده .

(٢) أخرجه خ الفتن باب (٦) وأحمد في مسنده في ثلاث مواضع من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه .

الأصل الأول : أن يعبد الله وحده دون أن يشرك به غيره . وهو معنى قولنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

والأصل الثاني : أن يعبد الله بما شرعه على لسان رسوله وخليله محمد عليه الصلاة والسلام وهو معنى قولنا : أشهد أن محمداً رسول الله .

وصحة الأصل الأول تتوقف على تحقيق الأصل الثاني . ويمكن أن نوجز معنى تحقيقه في صدق متابعة رسول الله عليه الصلاة والسلام لأن اتباعه دليل محبة الله عزَّ وجلَّ الذي محبته والأنس به ومراقبته غاية سعي العبد وكده وهي أيضاً جالبة لمحبة الرب عبده ومغفرته له ، إذ يقول الله تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾[1] ذلك لأنه رسوله المختار المبلغ عنه دينه الذي شرعه لعباده ، وهو المبلغ عنه أمره ونهيه وتحليله وتحريمه ، فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه . والرسول واسطة بين الله وبين عباده في بيان التشريع وما يترتب عليه من وعده ووعيده . وتبليغ وحيه الذي اشتمل على ذلك كله . قرآناً وسنة . وقد كلف بذلك بقوله تعالى : ﴿ **بلغ** ﴾ وبقوله : ﴿ **لتبين** ﴾ وبقوله : ﴿ **ادع** ﴾ إذ يقول الله عزَّ وجلَّ ﴿ **يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾[2] . ﴿ **ما على الرسول إلا البلاغ** ﴾[3] . ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾[4] ، ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾[5] الآية .

إن هذه الآيات من الذكر الحكيم تبين بوضوح وظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام وهي التبليغ والبيان والدعوة إلى الله ، إلى دينه وشريعته ، وهذه الأوامر الربانية الثلاثة تحقق غرضاً واحداً وهو دلالة الخلق على الطريق الموصل إلى الخالق وهو راض عنهم حتى يكرمهم في دار كرامته لقاء ما قاموا به من أداء التكاليف في هذه الدار حتى يصدق في حقه عليه الصلاة والسلام ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾[6].

إنه والله رحمة مهداة ونعمة مسداة ولكن الشأن كل الشأن هل رفع أتباعه

---

(١) آل عمران : ٣١ .

(٢) المائدة : ٦٧ . (٣) المائدة : ٩٩ . (٤) سورة النحل : ١٣٥ .

(٥) النحل : ١٢٥ . (٦) الأنبياء : ١٠٧ .

رؤوسهم لدراسة سنته كما يجب – مكتفين بها ومتجردين لها – تلك السنة التي هي ذلكم البيان وذلك البلاغ وتلكم الدعوة ؟ .

هذا هو موضوع بحثنا من هذه النقطة ! ولا يشك مسلم ما مهما انحطت منزلته العلمية وضعفت ثقافته وضحلت معرفته أن الرسول الكريم ﷺ بلغ ما أُنزل إليه وهو القرآن . وذلك لأن الإيمان بأن الله أنزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام . وأنه بلغه كما أُنزل وأنه بين للناس ما يحتاج إلى البيان ، وأنه دعا الناس إلى سبيل الله ولم يفتر عن الدعوة إلى الله حتى لحق بالرفيق الأعلى .

إن هذا المقدار من الإيمان من أصول هذا الدين وأساسه الذي ينبني عليه كل ما بعده إذا كنا نؤمن هذا الإيمان – يجب أن نؤمن – فأين نجد بيانه الذي به يتحقق امتثاله عليه الصلاة والسلام لتلك الأوامر ﴿ **بلغ** ﴾ . ﴿ **لتبين** ﴾ . ﴿ **ادع** ﴾.؟ .
الجواب أننا نجد ذلك في سنته المطهرة التي قيض الله لها من شاء من عباده فصانوها وحفظوها من كل قول مختلق وكل معنى مزيف ، ليصدق قوله تعالى :
﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[1] والذكر المنزل المحفوظ هو القرآن في الدرجة الأولى وتدخل السنة في الدرجة الثانية عند التحقيق وإمعان النظر !! .

وهذه السنة التي يتم بها البيان المطلوب هي أقواله وأفعاله وتقريراته .

الآحاد والمتواتر :

في أثناء الفتوحات الإسلامية الواسعة دخلت على المسلمين اصطلاحات أجنبية بواسطة الكتب اليونانية التي ترجمت إلى العربية في عدة علوم ومن أخطرها علم المنطق والفلسفة ، فدخلت تلكم البحوث والاصطلاحات في الإلهيات فأفسدت على الناس جوانب خطيرة من عقيدتهم لأنها وجدت تشجيعاً رسمياً ودعماً قوياً من الخلفاء المعاصرين وفي مقدمتهم المأمون العباسي الذي تعرفون موقفه من كبار علماء المسلمين والأئمة البارزين كالإمام أحمد بن حنبل ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في صدد حديثه عن موقف المأمون « ما أظن الله غافلاً عما فعل المأمون بعقيدة المسلمين » .

ومن تلكم الاصطلاحات الغريبة والدخيلة تقسيم الأحاديث النبوية إلى ظنية وقطعية كخطوة أولى في سحب ثقة المسلمين من أحاديث نبيهم .

(١) الحجر : ٩ .

فزعموا أن الآحاد من الأحاديث لاتقيد العلم ولا يجوز الاستدلال بها في باب العقيدة ، وإنما يستدل في هذا الباب بالأدلة القطعية ، وهي من الأحاديث المتواترة أو الآيات القرآنية ، وقد انطلى – وللأسف الشديد – على علماء الكلام هذا القول المزخرف لضعف بضاعتهم في علوم السنة وانشغالهم بالاصطلاحات الكلامية عن الكتاب والسنة ، ثم جعل المتأخرون من علماء الأصول يتناقلون فيما بينهم هذا الاصطلاح وهذه الدعوى مما جعل جمهور الخلف يعتقد هذا الاعتقاد ، وظن الناس أن هذا هو معتقد المسلمين سلفاً وخلفاً وخشية أن يفطن بعض الحذاق لهذا الخداع المقنع خطوا خطوة أخرى كذر للرماد في العيون ، فقالوا قولة حق أرادوا بها الباطل وهي قولتهم المشهورة « إن طريق السلف أسلم » وأوهموا الناس أن طريقة السلف مجرد سرد النصوص دون فهم لمعانيها حتى أطلق عليها بعضهم « إنها طريقة العوام » وأما الطريقة المثلى التي فيها التحقيق والتدقيق هي طريقة الخلف ، ولما هدأوا الجمهور بعبارتهم تلك مضوا في طريقهم في إفساد عقيدة المسلمين وإبعادهم عن سنة نبيهم ولم يقف القوم عند هذا الحد بل خطوا خطوة أخرى أخطر من التي قبلها إذ قالوا : إن باب العقيدة باب خطير ، ومبحث هذا الباب أساس في الإسلام فلا ينبغي أن يستدل فيه إلا بدليل قطعي لا يتطرق إليه النسخ ولا يخضع للتخصيص أو التقييد ، ألا وهو الدليل العقلي . هذه هي الغاية في تدرجهم ، وأنت ترى أن مفهوم الدليل القطعي قد تغير ، فبينما كان المراد به في الخطوة الأولى الأحاديث المتواترة أو الآيات القرآنية فإذا يراد به هنا الدليل العقلي فقط . وأما الأدلة اللفظية أو النقلية قرآنا وسنة فلا تنهض للاستدلال بها استقلالاً في هذا الباب . وإنما يستأنس بها إن وافقت الأدلة العقلية القطعية . هكذا تدرج القوم في أسلوبهم إلى أن عزلوا نصوص الكتاب والسنة عن وظيفتها وهي هداية الناس : ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾[1] والسنة مثل القرآن في الهداية « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي »[2] ، « لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا أدري !! ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » رواه الترمذيّ . وفي لفظ « ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا وإن ما حرمه الرسول مثل ما حرمه الله » أو كما قال .

(١) الإسراء : ٩ . (٢) أخرجه الترمذي المناقب : ٣١ .

وعلى الرغم من هذه النصوص وغيرها من النصوص التي تصرخ بأعلى صوتها بأن الهداية كل الهداية والخير كل الخير في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وفي سنة رسوله المبينة للقرآن المفصلة ما أجمل فيه المقيدة لإطلاقه ، على الرغم من ذلك كله ، قد التمس القوم الهدى في غير وحي الله فأضلهم الله عقوبة لإعراضهم عنه واستخفافهم بشرعه . وفي حديث على بن أبي طالب عند الترمذي في وصف القرآن الكريم « من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله »[1] .

وإذا ما عزلت النصوص كما رأينا ، ولم تعد تصلح للاستدلال بها على سبيل الاستقلال فلم يبق إلا أن يرجع الناس إلى ما كانوا عليه قبل الوحي وهو التحاكم إلى العقول ، فنتيجة لذلك خاضوا بعقولهم في المطالب الإلهية فتكلموا في صفات الله فاختلفت العقول وتنازعت – ولابد أن تتنازع – فافترقوا فرقاً مختلفة يضلل بعضهم بعضا ، بل ربما كفر بعضهم بعضاً ، وكلهم على غير هدى على تفاوت في ضلالهم .

١ – فريق يثبت بعض الصفات وينفي بعضها الآخر بدعوى أن ذلك مقتضى العقل وبعبارة صريحة : إن عقول الأشاعرة والماتريدية تثبت صفات الذات كالقدرة والإرادة والعلم مثلاً . وترى وجوب تأويل صفات الأفعال كالرحمة والمحبة والغضب والاستواء على العرش وغيرها من صفات الأفعال . هذا مقتضى عقول الأشاعرة وأتباعهم .

٢ – أما المعتزلة فقد انقسموا على أنفسهم فافترقوا عدة فرق فأقربهم من يثبت الأسماء مع نفي الصفات مع ملاحظة أن أسماء الله عندهم كالأسماء الجامدة التي لا تدل على المعاني ومن غلاتهم من ينفي الصفات والأسماء معاً ولا يثبتون إلا ذاتاً مجردة من الأسماء والصفات حتى أصبح وجود الله عندهم وجوداً ذهنياً فقط ، ولا يتصور وجوده في الخارج .

هذا ما نتج من ذلك التصرف والتلاعب بالنصوص بل عزلها عن وظائفها كما قلنا سابقاً . وفي النهاية استولت عليهم الحيرة واستوحشوا مع أنفسهم بعد أن فقدوا

---

(١) أخرجه الترمذي والدارمي عن طريق الحارث الأعور عن علي رضي الله عنه والحارث ضعيف جداً ومعنى الحديث صحيح وأورده شارح الطحاوية .

– الأنس بالله ، وبهما تستر القوم بما أبدوا من تعظيم مبحث العقيدة بتلكم العبارات – المعسولة التي سبق ذكرها والتي لا تنطلي إلا على من يجهل القوم على صورتهم الحقيقية ، فقد انجلى لكل دارس فاهم ما انتهى إليه أمرهم ، فاسمعوا معي ما قال بعض فطاحلتهم متندمين في آخر جولاتهم في علم الكلام والفلسفة ولعل الله ختم لهم بالتوبة النصوح وحسن الخاتمة يقول الرازي متندماً وواصفاً لحياة علماء الكلام :

نهاية أقدام العقول عقال　　　وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا　　　وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا　　　سوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا

إلى أن قال : لقد تأملت الطرق الكلامية والمفاهيم الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات ﴿ **الرحمٰن على العرش استوى** ﴾[1]، ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾[2]وأقرأ في النفي ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[3]، ﴿ **ولا يحيطون به علماً** ﴾[4]ثم قال : ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي ، ويقول الشهرستاني هو الآخر : « إنه لم يجن منه الفلاسفة والمتكلمون إلا الحيرة والندم حيث يقول :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها　　　وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر　　　على ذقن أو قارعاً سن نادم

وثالثهم أبو المعالي الجويني يقول : يا أصحابنا لا تشغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به . وقال عند موته : لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي أو قال : على عقيدة عجائز نيسابور – يعني الفطرة – .

ويحكي عن بعض تلامذة فخر الدين الرازي : واسمه شمس الدين الخسرو شاهي أنه قال لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يوماً . ما تعتقد ؟ قال ما يعتقده المسلمون فقال الخسرو شاهي : وأنت منشرح الصدر لذلك ومستيقن به ؟ فقال نعم فقال : أشكر الله على هذه النعمة . ولكني والله ما أدري ما أعتقد والله ما أدري ما أعتقد

(١) طه : ٥ .　　(٢) فاطر : ١٠ .　　(٣) الشورى : ١١ .　　(٤) طه : ١١٠ .

والله ما أدري ما أعتقد ثلاث مرات وبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم لنسمع الأبيات الآتية : لابن أبي الحديد الفاضل المعروف بالعراقي وهو يذم علم الفلسفة ويرى أن تسميتهم إياها بالنظر غير صحيحة . فلنسمع نص كلامه :

فيك يا أغلوطة الفكـــر حار أمرى وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفـر
فلا حيا الله الأولى زعموا إنك المعـــروف بالنظـــر
كذبوا إن الذي ذكروا خارج عن قوة البشر

ونختم هذه النقول بحكايتين قصيرتين ولكنهما خطيرتان :

إحداهما يروي عن بعضهم : وهو (الخونجي) أنه قال عند موته : (ما عرفت مما حصلت شيئاً سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجع . ثم قال : الافتقار وصف سلبي أموت وما عرفت شيئاً) هكذا نتركها دون تعليق لننقل لكم الحكاية الثانية والأخيرة ، وقد تحاشى الرواة ذكر اسم هذه الأخير لأمر ما هو يقول : (اضطجع على فراشي واضع الملحفة على وجهي ، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندي منها شيء) ، ويقول شارح الطحاوية وهو يعلق على أصحاب هذه النقول بصفة عامة والأخيرتين بصفة خاصة : يقول : (ومن وصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق ، كما قال أبو يوسف : من طلب الدين بالكلام تزندق)[1] .

ومسك الختام لهذه النقول : كلام لإمام من أئمة الهدى الإمام الشافعي عرف القوم وعرف فيهم ما لا يظن وجوده عندهم فلنسمع ماذا يقول الإمام : « لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلماً يقوله ، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما خلا الشرك بالله خير له من أن يبتلى بالكلام » .

وبعد : فلعلي لست بحاجة إلى التعليق على هذه النقول المختلفة ، بعد أن أعلن علماء الكلام أنفسهم ممثلين في أئمتهم الذين يحتجون بكلامهم بأنهم ليسوا على شيء وأنهم قضوا أعمارهم فيما لا طائل تحته بل في كلام بعيد عن علوم المسلمين ثم توج إعلانهم ذلك كلام الإمام الشافعي الذي سمعناه ولكن الذي يهمنا في المقام ، أن ندرك

(١) شرح الطحاوية ص ٢٢٧ – ٢٢٩ .

أن تلك المحاولة الجهمية التي قام بها علماء الكلام والتي سبق أن تحدثنا عنها والتي تقدمت للمسلمين السذج بأسلوب خداع أظهر تعظيم شأن العقيدة أن تلك المحاولة هي التي نجحت وللأسف وأنتجت هذا الموقف الخطير على عقيدة المسلمين .

ما هو الموقف السليم ؟ :

إذا أثبتنا أن ما ذهب إليه علماء الكلام وتبعهم فيه قوم آخرون أنه غير سليم لابد أن يطرح هنا هذا السؤال : **ما هو الموقف السليم إذاً ؟!** .

الجواب : بديهي أن الموقف السليم هو ذلك الذي كان عليه الرعيل الأول قبل أن يوجد علم الكلام بفروعه المتعددة .

وتوضيح ذلك أن السنة مثل القرآن في الاستدلال بها فيستدل بالسنة في كل مقام يستدل فيه بالقرآن . ولا يشترط لذلك إلا صحة الثبوت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ولا فرق بين متواترها وآحادها من حيث الاستدلال بالجملة وكل ما في الأمر أنه يقدم المتواتر على الآحاد في حالة التعارض ، كما يقدم الصحيح على الحسن عند التعارض ، وهذا معروف لدى طلاب العلم .

أما القول بأنه لا يستدل بالآحاد في باب العقيدة أو لا يستدل بالأدلة النقلية على وجه الاستقلال في هذا الباب فقول مبتدع في الإسلام .

ولنبرهن على صحة ما قررنا ، نذكر ما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه من عدم اعتبار هذه الاعتبارات المحدثة التي أحدثها من أحدثها ليلبسوا بها على المسلمين السذج الذين لا يفرقون بين الشحم والورم وبين التمرة والجمرة .

١ - بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن ليدعوهم إلى الله ويبلغهم عن رسول الله ﷺ وكان باليمن جماعة من أهل الكتاب اليهود فأرشده النبي عليه الصلاة والسلام كيف يعاملهم : وأمره أن يكون أول ما يدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله فإن هم أطاعوه في ذلك يخبرهم بأن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة الحديث :[١] .

---

(١) أخرجه خ في الصحيح الزكاة (١) ، وم الإيمان (٢٩) . د : الذكاة (٦) ، ن : الزكاة (٤٦) . جه الزكاة (١) . الإمام أحمد في مسنده ٢٢٣ / ١ .

ومما يلاحظ أن معاذاً كلف ليدعوهم إلى أصول الدين وفروعه معاً وهذا يعني أن الإسلام لا يفرق بين باب العقيدة والأحكام فكما يجوز أن يبلغ فرد واحد الأحكام الشرعية كذلك يجوز أن يبلغ فرد واحد العقيدة الإسلامية فحيث تقبل أخبار الجماعة يقبل خبر الواحد العدل هذا ما درج عليه سلف هذه الأمة . فرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى اليمن كأبي موسى الأشعري وعلي بن أبي طالب ورسله إلى غير اليمن وجميع دعاة الإسلام من بزوغ فجر الإسلام إلى يومنا هذا كانوا يدعون إلى الله أفراداً وجماعات ويبلغ بعضهم عن بعض ولا يعلم لهذا الاصطلاح ذكر في الأوساط الإسلامية فيما نعلم وإذا كان كذلك فلا يكون اليوم دينا ما لم يكن دينا في عهد الوحي وما لم يعرفه أولئك السادة من الصحابة والتابعين الذين نقلوا الدين إلى من بعدهم ممثلاً في القرآن والسنة . فيتضح أن هذا التصرف باطل من القول وما يترتب عليه من الأحكام التي منها التفريق بين الصفات الثابتة بالآحاد والثابتة بالمتواتر أو القرآن ، والقول أن المعول عليه هو الدليل العقلي ، وأما النقلي فتابع له إن وافق قبل وإلا رد ، كل ذلك تصرف محدث في الدين وقول في شريعة الله بلا هدى ولا دليل منير . وكل ما كان كذلك يجب رده صونا للشريعة وحفظاً للعقيدة .

وبعد : فليس بعجب أن يصاب هؤلاء العلماء الذين تحدثنا عنهم بذلك المرض – مرض علم الكلام – في تلك العصور الخالية ثم يتوب الله عليهم فيتوبوا ، لأن المرض الغريب المعدي الطارىء قد ينتشر بين الناس قبل أن تعرف أعراضه لجهل الناس بحقيقته حتى يقابل بالوقاية أولاً ثم العلاج إذا نزل . ولكن العجيب المثير أن يعرف المرض ويصاب به من شاء الله من عباده . ثم ينزل الله الشفاء على من شاء منهم فيزول البأس فيصف أولئك المرضى بعد أن عافاهم الله خطورة ذلك المرض وسوء حالهم ووحشتهم عندما كانوا مصابين به ثم ينشطون في تحذير الناس من التعرض لأسبابه وينصحون بالابتعاد عنه واستعمال الوقاية ضده ، وبعد هذا كله يتعرض بعض الناس لهذا المرض فيصاب به عدد كبير من شباب المسلمين ويعيش هؤلاء المرضى بين الأصحاء مختلفين بهم وهم لا يشعرون أنهم مرضى ومن عرف منهم أنه مريض يتجاهل مرضه ويخفيه .

هذا هو حال علم الكلام وعلماء الكلام ومثلهم أصيب الفخر الرازي والإمام الجويني والشهرستاني والغزالي وغيرهم من كبار علماء المسلمين بداء علم الكلام ،

وفي نهاية المطاف أدركوا أنهم قضوا أعمارهم فيما لا طائل تحته . وأن علم الكلام حال بينهم وبين النظر في كتاب الله وسنة نبيه والانتفاع بهما ثم تاب الله عليهم فتابوا ، وألفوا كتباً تدل على توبتهم أو نشروا مقالات أو أبياتاً تدل على أنهم تابوا . ومما كتبه الرازي في توبته كتابه المعروف « أقسام اللذات » .
كما كتب الإمام الجويني بعد توبته رسالته المشهورة (الرسالة النظامية) .

وقد كتب الشهرستاني وهو ثالثهم كتاباً أبدى فيه ندمه البالغ (نهاية أقدام العقول) .

وأما الإمام الغزالى فقد كتب كتاباً ينصح فيه العوام وأشباههم بعدم الخوض في علم الكلام . وسماه (إلجام العوام عن علم الكلام) .

وبعد هذه التوبة المعلنة من هؤلاء الأئمة المجربين ونصحهم للناس ألا يقربوا علم الكلام ، بعد هذا كله أتى أناس أدخلوا هذا العلم في معاهد وجامعات إسلامية بعد تغيير العنوان أو الاسم فقط مع بقاء الحقائق كما كانت فسموه (مادة التوحيد) أو (مادة العقيدة) وليس فيها توحيد ولا عقيدة اللهم إلا ما كان من توحيد الربوبية الذي لم يجهله أحد من بني آدم عبر التاريخ الطويل اللهم إلا ما كان من الشيوعيين الجدد في الآونة الأخيرة من إنكارهم لوجود الله متجاهلين ومعاندين ذلك التجاهل الذي قد تمليه أحياناً أوضاع سياسية واقتصادية . حيث أنكرت وجود الله بعض الجهات فترة من الزمن ليكون الإنكار ثمناً لأسلحة سوفيتية متطورة .

وإذا ولت السياسة وجهها شطر الغرب اختفى الإلحاد وارتفع الإنكار ولو مؤقتاً كنتيجة لضعف الإيمان واليقين – والله المستعان – .

أما توحيد العبادة فلا ذكر له إلا ما كان بالاستطراد . وأما توحيد الأسماء والصفات فقد صار مفهوم التوحيد في هذا القسم في الصفات كلها أو بعضها .

ولا أستثنى من هذه المعاهد والجامعات إلا المعاهد والجامعات السعودية التي يرجع الفضل في سلامتها من هذا الوباء – بعد الله – لدعوة شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير ما يجزى به المصلحين . وقد وقفت هذه الدعوة المباركة سداً منيعاً أمام تيار الإلحاد والفساد وما انحرف من الاعتقاد ، ولا تزال كذلك . وقد صان الله بها عقيدة شباب هذا البلد الطيب ومن

هاجر إليه أو طلب العلم في معاهده وجامعاته من الانزلاق في تلك المزالق كما هو معروف لدى الحضور . ومما يبشر بالخير أن بعض المعاهد والجامعات في بعض الدول الإسلامية أخذت تنهج منهجاً سلفياً في دراسة العقيدة على قلتها وجُلُّهَا من الجامعات الأهلية . ويحق لنا أن نقول (أول الغيث القطر ثم ينهمر) ولله الحمد والمنة .

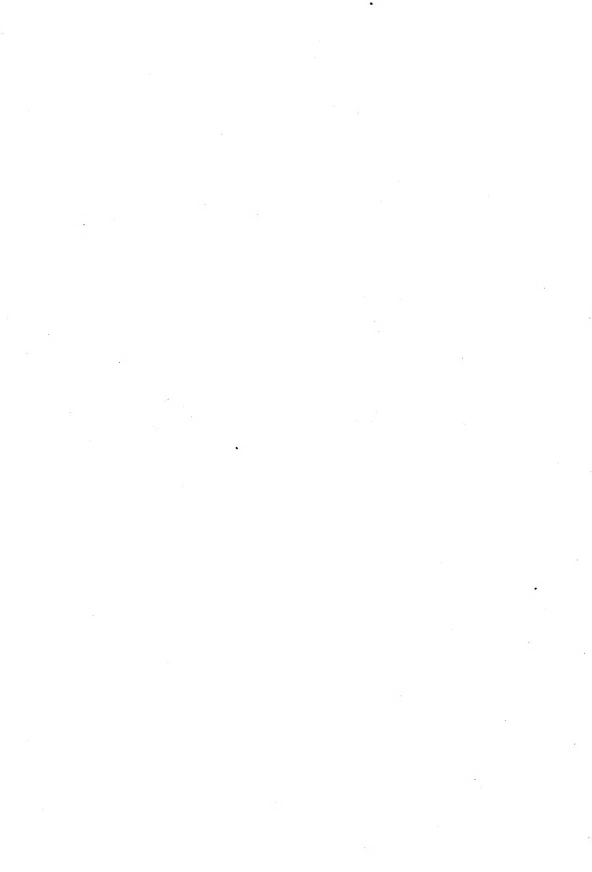
فنسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يحفظ علينا ديننا وعقيدتنا ويختم لنا بحسن الخاتمة من هذه الحياة إنه سميع مجيب الدعاء .

وصلاة الله وسلامه إلى نبيه ومصطفاه محمد وآله وصحبه .

* * *

الرسالة الثالثة

المحاضرة الدفاعية عن السنة المحمدية



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعـده .

وبعـد ...

ففي العطلة الصيفية من عام ١٣٨٣ هـ ، زرت الجمهورية السودانية مع بعض الشبيبة من طلاب الجامعة الإسلامية التي زارت السودان وقامت في أثناء زيارتها بالدعوة إلى الله تحت إشراف الأخ الداعية الشيخ محمد عبد الوهاب البنا بمعهد الجامعة الإسلامية ، وكنت بصحبتهم من المدينة المنورة إلى بور سودان . وبعد أن أقمت معهم يوماً واحداً عزمت على السفر إلى الخرطوم لإجراء اللازم في شأن السفر إلى الحبشة بواسطة السفارة الأثيوبية بالخرطوم حيث كنت على عزم لدخول الحبشة لو أراد الله . وجعلت أسأل عن أمهات المدن فيما بين بور سودان والخرطوم فوصف لي بعض من سألته مدينة عطبرة ورغبني في النزول بها إذ وصفها بطيب المناخ وجمال المنظر وكثرة الورشات حتى أنهم يسمونها عاصمة الحديد ، فقطعت تذكرة السفر إليها في طريقي إلى الخرطوم ، ونزلت بها فعلاً صباح يوم الجمعة ، وفور نزولي توجهت إلى أحد الفنادق .

وفي طريقي إلى الفندق أوقفني إعلان جذاب وقد كتب بخط عريض ملون ونصه كالآتي : (دار النشاط الإسلامي) تقدم مساء يوم الجمعة محاضرة للأستاذ محمود محمد طه تحت عنوان : (المستقبل للإسلام) وراعني الإعلان وسررت به كثيراً ، أولاً بوجود الدار المذكورة في مدينة عطبرة . وثانياً بعنوان المحاضرة . وقلت في نفسي لعل صاحب المحاضرة قرأ لسيد قطب كتابه الفريد في بابه المستقبل للإسلام وتأثر به وأراد أن يقدم للناس مضمونه . هذا ما وقع في نفسي حين قرأت الإعلان ، ولم أحط رحلي إلاّ وقد حانت صلاة الجمعة . وقصدت الجامع الكبير لأداء فريضة الجمعة وتذكير المصلين بعد الصلاة بما تيسر إلاّ أن إمام المسجد اعتذر متأسفاً ولم يأذن لي في التذكير ، وخرجت متآسفاً أنا بدوري مع قبولي عذر الإمام ولكني علمت أن بعض الشباب لم يقتنع بعذر الإمام وجعل يتكلم بالاستنكار ، بل جعل أفراد من الشباب يتعرف إليَّ ويظهر لي التأسف على ما حصل ، وذهبوا بي إلى دار النشاط الإسلامي سابقة الذكر إذ هم من أهلها وأخذوا يحدثوني عن المحاضرة التي قرأت عنوانها وطلبوا إلى حضورها وأجبت دعوتهم فحضرتها فإذا بمحاضرة الحادية أكثر ما فيها تمويه وتلبيس ولم أملك نفسي في المشاركة في مناقشتها على الرغم من أني غريب في الدار ، بل رأيت أن النمة لا تبرأ إلاّ بالمناقشة ومحاولة الدفاع حسب الإمكان وقمت بذلك فعلاً بعد أن أذن لي رئيس النادي . ولما طالت المناقشة بيني وبين المحاضرين اقترح رئيس النادي بالمناظرة إلاّ أن صاحبنا اعتذر ولم يقبل ،

وفي آخر المحاضرة أعلنت لي محاضرة دفاعية للرد والتعقيب على بعض النقاط الحساسة التي جاءت في محاضرته وجعلت أسجل في مذكرتي بعض النصوص التي حرفها للمناقشة حولها ، وقبل موعد محاضرتي حضرت له محاضرة أخرى وناقشته كما ناقشه غيري ، ولكن بدون جدوى لأنه لا يحاول الرجوع عن فكرته مهما كلفته الحال لأنه ليس من طلاب الحق . ولما أعلنت محاضرتي في الشوارع كالعادة المتبعة بادر بالسفر إلى أم درمان ، وعلى الرغم من غيابه قمت بالقاء المحاضرة وحضرها عدد ضخم ونوقشت كالعادة ، وبعد ذلك طلب مني بعض إخواننا المخلصين من شباب السودان وغيرهم طبع هذه العجالة التي لم أقصد بها إلاّ الدفعاع العاجل عن عقيدة الإسلام وتصحيح بعض النصوص التي حرفها المدعو (محمود) ولما أعلمه فيهم من حب الخير والحرص على الدفاع أجبتهم إلى طبعها وتوزيعها في السودان .

والله أسأل أن ينفع بها ويجعلها فاتحة خير ، كما أسأله تعالى أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم بعيداً عن الرياء والسمعة إنه سميع قريب . وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه محمد وآله وصحبه .

محمد أمان بن علي الجامي
الجامعة الإسلامية : كلية الشريعة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً .

وبعد ، فيقول الله في محكم تنزيله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ (التوبة : ١٢٨)

تتمثل تلكم الرحمة والرأفة اللتان وصف الله بهما نبيه في تعليماته الرحيمة ، وتوجيهاته الحكيمة ، ومن تلك التعليمات إخباره ببعض المغيبات التي أطلعه الله عليها ، لأنه لا ينطلق عن الهوى ﴿ **إن هو إلاّ وحي يوحى * علمه شديد القوى** ﴾ (النجم : ٤ ، ٥)

فيقول صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو يخبر عن مثل هذه الأوقات المظلمة التي تمر على المسلمين اليوم : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » وقال في تفسير الغرباء : « هم الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي » . وفي رواية أخرى : « هم الذين يصلحون حين يفسد الناس » . وقال في حديث أبي هريرة في صحيح مسلم : « يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم » ووجه كون هذه الأخبار رحمة ، أن الإنسان عندما يفاجأ اليوم ببعض آراء الملحدين الجريئة التي تهاجم دين الله المنزل من السماء ومنهجه الذي ارتضاه للبشرية ، تهاجمه بكل وقاحة وبمنتهى الجرأة والقادرون على قمع هذه الآراء وإيقافها عند حدها ساكتون ولا يثورون غيرة على هذا الدين الذي يدينون به . في مثل هذا الموقف يتذكر الإنسان هذه الأخبار الصادقة ، فلا يندهش كثيراً ، بل يزداد إيماناً على إيمان ، ويقيناً فوق يقين بهذا الدين وبمن أنزله وبمن أنزل عليه . وقد فوجئنا في مدينتكم هذه (عطبرة) مع الأسف بهجوم عنيف ضد تعاليم الإسلام من المدعو (محمود) تناول فيه العناصر الأولية لهذا الدين في محاضرته التي استطاع فيها أن يخرج كل ما في جعبته بكل صراحة ووقاحة ، ولكثرة النقاط الإلحادية التي جاءت في محاضرته ، سجلت في هذه الوريقات ما استحضرته خشية النسيان ولنناقشها نقطة نقطة ونرد شبهاته شبهة

شبهة ، مستعينين بالله تعالى .

ومن أخطر ما جاء في كلامه - هداه الله - قوله بأن العبد يترقى حتى يسمى بالاسم الفرد (الله) بدعوى أنه يسمو ويعلو روحياً بالرياضيات الروحية وبالخلوة فيترقى إلى درجة الألوهية والربوبية فيسوغ له آنذاك أن يقول هو (الله) ﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم**﴾[1] وهذه النقطة هي حجر الأساس في دعوته ، وهي هدفه الأول والآخر ، لأنه يستطيع بمقتضاها أن يسقط عن الناس جميع التكاليف ويصبح الإنسان حراً لا يخضع للأوامر والنواهي وهذا ما يريده ويدعو إليه وما عدا ذلك من النقاط الكثيرة التي سوف تسمعونها فكلها وسائل غير مقصودة إلا أنه سلك في دعوته إلى هذه النقطة مسلك اللف والدوران والتعمية على الناس ، وكان يحلق في أجواء بعيدة لا يدركها عوام الناس وفات المسكين (محموداً) بل (مذموماً) أن الإنسان إذا بلغ تلك المرحلة وسمى (الله) لا يقف عند الحرية المطلقة التي يشهدها (محمود) بسقوط تكاليف الدين فقط ، بل يكون معبوداً لأن الله هو المألوه المعبود وبذلك يورط نفسه في أوحال الشرك من حيث لا يشعر .

النقطة الثانية : هي سقوط الصلاة عن خواص العارفين على حد عبارة الملحدين ، من يسميهم (محمود) بالعارفين - وفي الواقع هم الجاهلون - كانوا يتدرجون في هذه المسألة على النحو التالي يزعم الواحد منهم ، أولاً : أنه بلغ مرحلة استطاع أن يستأذن فيها ربه أن يصلي الصلوات بمكة أو بالمدينة ، فأذن له فجلس في أوقات الصلاة بدعوى أنه يصلي في أحد الحرمين ، وإذا ما تأكد أن الناس آمنوا بهذه المرحلة الأولية أعلن سقوط الصلاة عنه كلياً . إلا أن محموداً لجرأتة ولظنه أن الجو صاف قابل لكل ما يلقي فيه ، صرح بالمرحلة النهائية من أول وهلة بدون تدرج فلا يشك طبعاً من في قلبه مسكة من الإيمان ولديه أدنى معرفة أن هذه الطريقة لا صلة لها بهدى محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وكان ﷺ كما يعلم الجميع يصلي بأصحابه في سفره وحضره ، صلى بهم بمنى ومزدلفة وعرفة وفيما بين مكة والمدينة ولا يعلم أنه قال ذات يوم لأصحابه : « صلو أنتم هاهنا وأنا أصلي بمكة أو بالمدينة إذا كان خارجهما » . وهو سيد ولد آدم . وكان ﷺ كثير العناية بالصلاة وكانت قرة عينه في الصلاة وكان حكمه صلى الله عليه وآله وسلم على تارك الصلاة بأنه كافر .

(١) سورة النور : ١٦ .

حيث يقول ﷺ : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » . ويقول أيضاً : « ان بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة » وما ذلك إلاَّ لأنه قطع صلته بالسماء لأن الصلاة هي الصلة بين العبد وربه ، ولذا سميت بالصلاة . ولو ذهبنا نسوق الآيات القرآنية التي تدل بمنطوقها : أن الصلاة والخشوع فيها من صفات المؤمنين وتدل بمفهومها أن تاركها غير مؤمن . لو فعلنا ذلك لطال بنا المقام . ومن تلكم الآيات الكثيرة (الآية : ٣ من سورة البقرة) ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ . (والآية : ٣ من سورة الأنفال) ﴿ **والذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ . (والآية : ٢ من سورة المؤمنون) ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

وقد اتفق الأئمة الثلاثة مالك ، والشافعي ، وأحمد : على قتل تارك الصلاة بعد الاستتابة وإنما اختلفوا : هل يقتل حداً أو كفراً . ولا يعلم خلاف بين المسلمين خلفهم وسلفهم في أن جاحد وجوبها المدعي سقوطها كافر وخارج عن الملة . ومن المؤسف ، بل المبكي أن يتظاهر الإنسان اليوم بسقوط الصلاة عنه وعدم وجوبها عليه ثم يتمكن من جميع الناس له في عدة مدن وعدة أندية ليبث أفكاره الإلحادية بدون مقاومة فعالة ممن بأيديهم السلطة والقوة – هداهم الله وأخذ بأيديهم إلى الحق – فإنا لله وإنَّا إليه راجعون . ويحسن بي أن أذكر لكم بهذه المناسبة قصة الجعد بن درهم الذي قتل في عصر التابعين بعد أن أفتى علماء التابعين بكفره ، وهو لم يقل : أنا الله ولم يفت بجواز ذلك ولم يترك الصلاة ولم يطعن في الزكاة إذاً ماذا فعل ؟ .

الذي حصل بالضبط أن الرجل ادعى أن الله لم يكلم موسى تكليماً ولم يتخذ إبراهيم خليلا ، ومع ذلك حضر مصلى العيد مع المسلمين ، وخطب أمير البلدة خالد ابن عبد الله القسري خطبة العيد ، وقال في آخر خطبته : (أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم لأنه ادعى أن الله لم يكلم موسى تكليماً ولم يتخذ إبراهيم خليلا) ونزل من على المنبر فذبحه . ذكرت لكم هذه القصة لتدركوا الفرق بين إيماننا وإيمانهم وغيرتنا وغيرتهم ، بين دفاعهم الصحيح ودعوى دفاعنا الذي لا بينة عليه .

النقطة الثالثة – بحث الزكاة : يرى (محمود) أن الزكاة ذات المقادير تشريع مؤقت ملائم للعصور الأولى القاصرة ، ولذا لا تصلح لهذا العصر الراقي المتطور ، بل

يجب أن نترقى في هذا العصر إلى روح الإسلام وهي العدالة الاشتراكية ، ونمنع بذلك ملكية الفرد ويشترك الناس جميعاً في خيرات الأرض ... هذا خلاصة كلامه . والواقع أن (محموداً) لا فرق عنده بين الأوضاع البشرية وبين المنهج السماوي الذي نزل ليسير العباد عليه دائماً وأبداً والذي لا يخضع لأي تغيير أو تبديل مهما تطور الزمن وتقدمت الأفكار ، وليس بغريب من مثله أن يتفوه بمثل هذا بعد أن استطاع أن يقول يجوز للعبد أن يدعي ذات يوم : أنه هو (الله) وتسقط عنه الصلاة ونحن نؤمن أن الإسلام هو دين العدالة ، ولا عدالة إلاَّ في الإسلام ، وهو دين الإنفاق والإيثار ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ (البقرة : ٣) ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ (الحشر : ٩) . ولا يمنع الإسلام ملكية الفرد أبداً ، بل يحترمها ويوجهها توجيهاً حسناً ، ويوجب على الملاك الإنفاق من أموالهم على المحتاجين على ما هو معلوم لدى الجميع . وهؤلاء الذين يعترضون دائماً على هذا الوضع الذي عليه الناس من أن بعضهم فقراء وبعضهم أثرياء طبقات مختلفة إنما يعترضون على الله عزَّ وجلَّ في أفعاله . ولما اختار الله نبيه محمداً ﷺ للرسالة الأخيرة اعترضه كفار قريش على هذا الاختيار فرد الله عليهم رداً مسكتاً لهم ولمن يأتي من بعدهم من كل من يعترض على أحكام الله وأفعاله . يحكي الله ذلك في (سورة الزخرف ، الآية : ٣١) ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ ثم قال في الآية التالية: ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ (الزخرف:٣٢) أي ليسخر بعضهم بعضاً ويستخدم بعضهم بعضاً على اختلاف طبقاتهم وعلى ذلك يقوم نظام الحياة :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فالأغنياء يستخدمون الفقراء وهم خدم لهم ، والفقراء يستخدمون الأغنياء وهم في حاجة دائماً إلى الفقراء في إصلاح أموالهم وحفظها وتنميتها ولا يستغنون عنهم . وهذه سنة الله في خلقه ﴿ **فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا** ﴾ (فاطر : ٤٣) . وذكر (محمود) الحائر عدة شبه تقضي بسقوط الزكاة في نظره :

أولاً : القول بوجوب الزكاة يسوغ ملكية الفرد . والجواب : على هذه الشبهة أن ملكية الفرد أمر ضروري وطبيعي فلا مفر منه . وتوضيح المسألة : أن الله حرم

أموال بعضنا على بعض إلاَّ برضاه وطيب من نفسه « لايحل مال امرىء مسلم إلاَّ عن طيب نفسه » « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا » . هكذا قال المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع ، يوم النحر مُحَرِّماً للأموال بعد إضافتها لأصحابها وما ذلك إلاَّ لأنهم ملكوها ملكاً صحيحاً ، ومن جهة أخرى أن الله شرع قطع اليد في السرقة ، ولو كانت الأموال مشتركة بين الناس لما قطعت يد السارق لأن له شبهة في كل جزء من أجزاء الأموال تمنع تنفيذ الحدود « ادرؤا الحدود بالشبهات » .

ثانياً : أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يُزَكِّ . وهذه شبهة واهية لا تليق إلا على قليل المعرفة لأنه ﷺ لم يملك قط مالاً يبلغ النصاب وحال عليه الحول ولو حصل ذلك لزكى ، وكان مورد رزقه صلى الله عليه وآله وسلم الغنائم « جعل رزقي تحت ظل رمحي » يأخذ حصته من الغنائم وينفق منها على بيته وفي قضاء ديونه لأن حياته كلها كانت وقفاً على تبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، ونصح الأمة ، والجهاد في سبيل الله . ولم يشتغل بجمع الأموال ولا ببناء القصور .

ثالثاً : أنه ﷺ ما كان يأخذ منها هو وآل بيته لكونها أوساخ الناس . وهذه الشبهة أوهى من التي قبلها ، بل هي كلمة حق أريد بها باطل وأي صلة بين تحريم الزكاة على الرسول وآل بيته لكونها أوساخ الناس وبين سقوطها عن الأمة اليوم بعد أن أوجبها الله على العباد وأمرهم بها في عدة مواضع من كتابه مقرونة بالصلاة ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتو الزكاة** ﴾ (البقرة : ٤٣) . وفصلها الرسول ﷺ ببيان مقاديرها والأموال التي تجب فيها وبيان مصرفها . أما الرسول ﷺ فقد خصه الله ببعض الأحكام من الإباحة والتحريم لِحِكَمٍ يعلمها سبحانه ومن تلكم الأحكام تحريم الزكاة عليه . وقد يقال – والله أعلم –في حكمة تحريم الزكاة عليه ما يأتي :

أولاً : تقتضي الحكمة عدم الأخذ منها هو وآل بيته إذ لو أخذوا منها لربما احتمل أن يقال : إنه إنما أمرهم بها لمصلحة اقتصادية تعود عليه وعلى أهل بيته فاقتضت الحكمة عدم الأخذ منها سداً للباب على هذا الاحتمال والله أعلم .

ثانياً : بأن الله جعل له ولآل بيته حقاً في خمس الغنائم بدل الزكاة وبهذا تُدفع الشبهة ويتضح وجه الحق ولله الحمد والمنة .

ولننتقل الآن إلى عرض النصوص التي ساقها المدعو محمود وحرفها ليؤيد بها فكرته وليلبس على الناس ، حيث يريهم أنه يستدل بالنصوص على آرائه لتروج عند السذج . فنبدأ بالآيات : الآية الأولى قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو** ﴾ (البقرة : ٢١٩) . زعم المسكين أن هذه الآية بقيت معطلة لا يعمل بها من حين نزولها إلى هذا القرن ، ويعلل ذلك أن الآية تدعو إلى العدالة الاشتراكية والوسط الذي نزلت فيه قاصر عن تطبيق هذه العدالة ، وظل يعمل بالزكاة ذات المقادير . أما الآن وقد تقدمت الأفكار البشرية مع تطور الزمن فيجب العمل بها بدلاً من الزكاة ذات المقادير ، هكذا يطعن المسكين بكل جرأة ووقاحة تلكم القرون المفضلة التي شهد لها الرسول المعصوم ﷺ أنها (خير القرون) حيث يقول : « خير أُمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ولا خير فيه قطعاً مع القصور في فهم الدين والعجز عن تطبيق الإسلام . وهؤلاء السلف الذين يستخف بهم المذكور بما فيهم أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمٰن بن عوف . هم سند هذا الدين ، فإذا طعنوا واتهموا بالقصور فقد طعن الدين نفسه ومن طعن هذا الدين فما عليه إلا أن يلتمس له ديناً آخر وملة أخرى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ (آل عمران : ٨٥) . وقال رسول الله ﷺ : « من رغب عن سنتي فليس مني » فلندع هذا الخبط ولنفهم المعنى الصحيح للآية وهو أنك إذا أردت أن تنفق مما زاد عن حاجتك فإنك تبدأ بنفسك ثم بمن تعول ثم تنفق في المشاريع الأخرى . هذا هو الأصل في الانفاق على أساس : اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأبدأ بنفسك وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى .

ولا يمنع هذا أن تؤثر أخاك المسلم على نفسك إن قدرت على الصبر على ذلك ، وليس بواجب أن تتصدق بكل ما زاد على حاجتك الضرورية ، حيث وصف الله بالإيمان حقاً من ينفق بعضاً مما رزقهم الله تعالى ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً** ﴾ (الأنفال : ٢ – ٤) . وإذا أردت أن تكون من المؤمنين فما عليك إلاَّ أن تطبق هذه الصفات الواردة في هذه الآيات وغيرها من آيات الكتاب المبين . والآية الثانية قوله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ (العنكبوت : ٦٩) .

حاول (محمود) أن يستدل بهذه الآية على ما يسميه بعلم الحقيقة – أو علم الباطن – بدعوى أن الإنسان يبلغ بالمجاهدة والطاعة – مرحلة تؤهله أن يأخذ عن الله بدون واسطة – وهذه من شطحات الصوفية القديمة – وليست شيئاً جديداً جاء به (محمود) ولا يدعي هذه الدعوى إلاَّ الزنديق الذي يحاول أن يخرج على رسالة المصطفى ﷺ ولو كان ذلك جائزاً ، لكان أبو بكر رضي الله عنه أولى بذلك لأنه أفضل هذه الأمة ، بعد نبيها ﷺ .

بهذه المناسبة نحيطكم علماً أن هذه الآراء الشاذة التي يدعو إليها هذا المسكين المتخبط ليست من بنات أفكاره – كما يظن بعض الناس – وإنما هي آراء بالية أخذها من بطون كتب الملاحدة إلاَّ أنه يزركشها أحياناً زركشة ويلونها تلويناً ليظن الناس أنها من بنات أفكاره .

وبعد فلنفهم الآن المعنى الصحيح للآية وهو أن العبد إذا لازم تقوى الله تعالى وبذل وسعه في طاعته وحاول فهم شريعته فهماً صحيحاً وفقه الله وهداه إلى الصراط المستقيم ويسر له الأسباب في تحصيل العلم ويسر له العمل الصالح وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً** ﴾ (الطلاق : ٤) . وهذا أيضاً معنى الأثر الذي يكرره (محمود) دائماً ظناً منه أنه حديث « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم » ولا يدل هذا الأثر – بعد صحته – على أكثر مما ذكر في الآية السابقة . الآية الثالثة : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ (الأنفال : ١٧) .

حاول محمود – كعادته – أن يحمل الآية ما لا تحتمل ، حيث أراد الاستدلال بها على تلكم العناوين الكثيرة التي يكررها دائماً الظاهر والباطن والشريعة والحقيقة ، ومعنى الآية واضح جداً وتوضيحه كالآتي : نفت الآية نوعاً من الرمي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وأثبتت له نوعاً آخر . فالرمي المنفي عنه ﷺ هو الرمي المقرون بالإصابة ، لأن الله تعالى هو القادر وحده على إيصال التراب الذي رماه الرسول ﷺ ، وحذفه إلى أعين الكفار وإصابة أعينهم كلها بذلك التراب القليل . والرمي المثبت هو الذي بمعنى الحذف ويكون معنى الآية : لم تكن أنت الَّذى أوصَلْت التراب إلى أعينهم وأصبتها به بل أنت وظيفتك الرمي والحذف فالله هو الموصل للتراب والمصيب به أعينهم ، هذا معنى الآية لا لَفَّ ولا تلبيس . ولله الحمد والمنة .

الآية الرابعة : ﴿ **قاتلوا الذين يلونكم من الكفار** ﴾ (التوبة : ١٢٣) هذه الآية في نظر محمود من أصرح أدلته في الدلالة على ما يزعم هو وسلفه الملحدون – كابن عربي وابن الفارض – في أن للقرآن ظاهراً وباطناً : والظاهر هو الذي يفهمه المسلمون قديماً وحديثاً وهو ظاهر كما يدل عليه اللفظ والمعنى . والمعنى الباطن الذي يدعي معرفته بالإلهام من يسميهم بالعارفين . أن الكفار هي الخوارج من العينين والأذنين وغيرهما . وهذا الكلام الصوفي المضحك لا يستحق أن نقف عنده كثيراً لظهور بطلانه ، بل نحمد الله الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً من عباده .

الآية الخامسة : قوله تعالى ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي** ﴾ (المائدة : ٣) يزعم محمود – هداه الله – أن هذه الآية تخبر أن الذي تم وكمل هو إنزال القرآن إلى الأرض فقط ، أما التشريع والبيان فلم يتما بعد ، وهذه جرأة نادرة منه كعادته إلاَّ أنها جرأة طائشة ووقحة وقد أرسل الله رسوله ﷺ وآله بالتبليغ والبيان ﴿ **يـٰأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾ (المائدة : ٦٧) وقال ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ (النحل : ٤٤) . وقد بلغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم رساله ربه ونصح لأمته وبين لهم البيان الشافي – بأبي هو وأمي صلى الله عليه وآله وسلم – لم يترك شيئاً يقربنا إلى الله إلا بيّنه لنا ودلّنا عليه كما لم يترك شيئاً يبعدنا عن الله . وعن دار كرامته ويقربنا إلى النار إلاَّ بيّنه لنا وحذرنا منه ويقول أبو ذر رضي الله عنه « لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلاَّ ذكر لنا منه عِلْماً » لأنه ﷺ نهى عن كل ذي مخلب من الطير ، وعن كل ذي ناب من السباع . وقد أوتي جوامع الكلم ، وأجمل بعض البيانات في كليات تندرج تحتها جزيئات كثيرة وكلما جدت مسألة أو مسائل فلا بد أن توجد لها قاعدة كلية تندرج تحتها تلك المسألة أو المسائل بعد التحقيق وإمعان النظر وهي التي يعبر عنها الفقهاء بـ (عموم الشريعة) أو (عموم النصوص) فالناس درجات ، طبعاً في إيجاد المدخل للجزئيات المتجددة في عموم النصوص ، وكان من الإنصاف إذا عجز العالم عن إدراج ما استحدث من المسائل وما سيحدث تحت تلكم الكليات كان من الإنصاف أن يسأل من هو أعلم منه إن وجد . وإلاَّ وكّل العلم إلى عالمه قبل أن يتهم الشريعة بعدم الكمال ، وقبل أن يزعم أن البيان لم يتم بعد . وبهذا ينتهي كشف الشبه حول الآيات التي لبَّس بها (محمود) في بعض محاضراته وأرجو بعد أن زال الإشكال وظهر وجه

الحق الانتقال إلى الآحاديث .

الحديث الأول : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » .

يزعم بعضهم أن الرسول ﷺ قال هذا الكلام عند رجوعه من بعض غزواته وهذا الحديث قد ضعفه غير واحد من أهل العلم من حيث السند ، وهو غير صحيح من حيث المعنى أيضاً . وكل من علم مكانة الجهاد في سبيل الله وأجر من استشهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله الذين هم ﴿ **أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ يدرك تماماً أن البون شاسع بين هذا الجهاد الذي هذه مكانته (وبين الجهاد الثاني الذي هو مخالفة الهوى وحمل النفس على الطاعة مع العلم أن من قام بجهاد الكفار وخاض المعركة لاعلاء كلمة الله يكون قد جمع بين الجهادين،والأمر واضح ولا حاجة إلى الإطالة .

الحديث الثاني : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » وقد ذكرت في بعض مواقفي – مع محمود أن هذا كلام ليس بقول الرسول ﷺ ولا قول صحابي ولا تابعي بل هو قول أبي سعيد الخراز – أحد الصوفية – كفى الله المسلمين شرهم . كما ذكرت أنه غير صحيح من حيث المعنى ، إذ لا يعقل أبداً أن تنقلب حسنة من الحسنات التي يثاب عليها زيد من الناس وهو في درجة الأبرار – سيئة في حق عمرو – وهو من المقربين – وقد حاول ذلك المسكين أن يجد لهذه القاعدة الخرازية مثالاً في الشريعة ، وأنّى له ذلك؟ ثم قال بعد أن فكر طويلاً – إلاَّ أنه تفكير غير موفق : لو تصدق إنسان بصدقة سرية لم يطلع عليه أحد ثم حدثته نفسه ، وأعجب بنفسه يكون هذا العمل حسنة بالنسبة لهذا الإنسان إلاَّ أنه يعد سيئة إذا ارتفع إلى درجة المقربين لما دخل فيه من الإعجاب بالنفس .

هذا ملخص كلامه في محاولته وهي محاولة فاشلة كما ترون . والجواب عنها : إن كان لابد من الجواب ، أن يقال الصدقة حسنة في حق كل واحد من الأبرار والمقربين والعجب سيئة في حق كل واحد منهما ولا إشكال في الموضوع وبالله التوفيق .

الحديث الثالث :

« أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي-؟ فسئل عنه فقال هو الرياء » . ذكر محمود أول هذا الحديث وسكت عن آخره ، لأنه لا يتفق مع مراده – وهكذا يفعل كل مغرض وصاحب هوى مع النصوص – ثم جعل يفسره على هواه بأن قال :

(المراد بالشرك الخفي أن يرى الإنسان نفسه وقد علمنا المعنى الصحيح للشرك الخفي من نفس الحديث مع أن لفظ الحديث (الشرك الأصغر) لا (الشرك الخفي) ولله الحمد والمنة .

الحديث الرابع : (الظاهر والباطن) جاء ذكر هذين الاسمين العظيمين في الكتاب العزيز كما جاء ذكرهما وتفسيرهما في السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ (وكثيراً ما يكرز محمود هذين الاسمين ظناً منه أنهما يدلان على أن للشريعة ظاهراً وباطناً تقليداً لبعض الصوفية الذين يذكرون الحديث بتمامه بما فيه تفسير الرسول ﷺ ، للاسمين الشريفين غيرهما من الأسماء الواردة في الحديث ونصه هكذا : « كان رسول الله ﷺ يقول إذا أوى إلى فراشة : « اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم خالق كل شيء ، فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء اقض عني الدين واغنني من الفقر » فهل بعد هذا التفسير من تفسير ، فماذا بعد الحق إلاَّ الضلال . وكان (محمود) يجهل هذا التفسير النبوي أو يتجاهله تجاهل مغرض ويقول بدون روية (كل شيء له ظاهر وباطن ، فالله له ظاهر وباطن . والشريعة لها ظاهر وباطن والإنسان له ظاهر و باطن)وقد دندن المسكين حول هذه المسألة كثيراً ونوقش كثيراً ونقدنا الأمثلة التي أوردها إلاَّ أنه يجيد التهرب والتملص فلم يستفد من المناقشة والنقد والردود . ونسأل الله لنا وله الهداية .

الحديث الخامس : « تخلقوا بأخلاق الله » .

ذكرت لكم سابقاً أن هذا الحديث لا أصل له في شيء من كتب السنة ولا يعرف له إسناد . ومعناه غير صحيح ، وبيان ذلك أن : المراد بالأخلاق الصفات قطعاً فالله موصوف بالعظمة والكبرياء ، وأنه يحي ويميت .. وهل يجوز للعبد أن يتصف بهذه الصفات ؟ .

والجواب السليم (لا) بالخط العريض . وقد يقول القائل هنا : أليس العبد يوصف بالعلم والقدرة والحياة والوجود وهذه من صفات الله تعالى ؟ .

الجواب أن يقال : إن علم الخالق تعالى غير علم المخلوق وكذلك قدرته وحياته ووجوده .

وتوضيح ذلك في صفه العلم – مثلاً – علم المخلوق علم مخلوق مثله ، يناسب حاله كان مسبوقاً بجهل ويطرأ عليه النسيان فما أكثر ما نعلمه ثم ننساه ، فهو علم ناقص غير محيط بكل شيء . أما الرب سبحانه فعلمه قديم قدم ذاته – غير مسبوق بجهل قط – ولا يطرأ عليه نسيان – ولا غفلة – وهو محيط بجميع المعلومات ، وهكذا يقال في سائر صفاته التي فيها الاشتراك في اللفظ – كالكرم – والجود – والرحمة – والعفو – والمحبة – والغضب – ونحو ذلك – وهكذا تزول الشبهة ويظهر وجه الحق – واضحاً – فلله وحده الحمد والمنة .

الحديث السادس : « خلق الله آدم على صورته » . هذا هو الحديث الأخير من الأحاديث التي ساقها (محمود) ليلبس بها على الناس وهو لم يذكر الحديث بتمامه ، وإنما اقتصر على القدر الذي كان يظن أنه من شواهده كعادته المعروفة . وذلك لأنه فاته المعنى الصحيح للحديث فمرجعُ الضمير في قوله : (على صورته) وتمام الحديث – بما فيه ذكر السبب– كالآتي: مرّ رسول الله ﷺ برجل يضرب ابنه أو غلامه ، في وجهه لطماً ويقول : قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك . فقال رسول الله ﷺ : « إذا ضرب أحدكم غلامه فَلْيتقِّ الوجه فإن الله خلق آدم على صورته » .

معنى الحديث جد واضح ، ومرجع الضمير ظاهر من ذكر سبب الحديث ، وتوضيح المعنى كالآتي : يقول ﷺ مؤدباً لأمته : إذا أراد أحدكم أن يضرب من يجوز له ضربه – ضرب تأديب طبعاً – كالغلام ، والولد ، والزوجة ، فليتق الوجه ضرباً ، احتراماً لأبي البشر آدم لأن الله خلق وجه آدم مشبهاً لوجه هذا الإنسان المضروب ، وهذا ما يسميه علماء البلاغة بالتشبيه المقلوب إذ كان المفروض تشبيه وجه الفرع بوجه الأصل ، لكنه جعل وجه الأصل كالفرع تنفيراً من ضربه ، وكان غرض المسكين من ذكر الحديث الاستدلال به على أن آدم فيه صفات من صفات الرب ظناً منه أن الضمير في قوله ﷺ على صورته – راجع إلى الله – وقد علمت عدم صحة هذا الفهم بمعرفتك المعنى الصحيح للحديث ، فالله الحمد والمنة .

أيها الأخ المسلم لا يشككنك في دينك تلبيس الملبسين وزعماء التجديد ، وتلامذة الملحدين الذين يتبعون ما تشابه من النصوص ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . ، على حسب أهوائهم ، وإذا ابتليت بهذا النوع من الناس ، وأراد أن يلبس عليك في

باب صفات الرب جلَّ وعلَا ، بمحاولة تشبيهها تشبيهاً بصفات المخلوق ، أو بنفيها وتعطيلها ، بدعوى التنزيه ، فاستحضر قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ (الشورى : ١١) . ﴿ **هل تعلم له سمياً** ﴾ (مريم : ٦٥) . ﴿ **ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ (الإخلاص: ٤) . وما في معناها من النصوص . ووجّه هذه المدافع إلى قلوب أولئك الملبسين فسرعان ما يصرعون ، أو يقعون أسرى في يدك ، فأحسن التصرف في الأسرى ، وكن حكيماً معهم . والله ولي التوفيق .

وإن ابتليت مرة أخرى بأولئك المساكين الذين يبالغون في حب الصالحين ، وحاولوا أن يحملوك على عبادتهم مع الله - أو من دون الله - بدعوتهم ، والاستغاثة بهم ، والاستعانة بهم ، وسؤالهم كشف الكربات ، وشفاء المرضى ، وطلب الشفاعة منهم ، والتوسل بهم توسلاً بدعياً ، غير شرعي ، وغير ذلك مِمَّا يفعله بعض العوام اليوم ، فبادر إلى النصوص الآتية لتسد بها باب الشرك بالله ، وباب الغلو في الصالحين ، وأحسن التصرف فيها ، وحاول ردهم إلى الحق ، وعالجهم علاج طبيب ماهر ببيان ما هو حق لله وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه ، وبيان حقوق الرسول ﷺ وحقوق الصالحين رحمهم الله تعالى ، وهذه بعض النصوص ﴿ **وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً** ﴾ (الجن : ١٨) . ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ (الكهف : ١١٠) . ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت** ﴾ (الأنعام : ١٦٢) . وقال رسول الله ﷺ : « إذا سألت فاسْأَل الله » « وإذا استعنت فاستعن بالله » « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وما في هذا المعنى من النصوص الصريحة الكثيرة . والله ولي التوفيق .

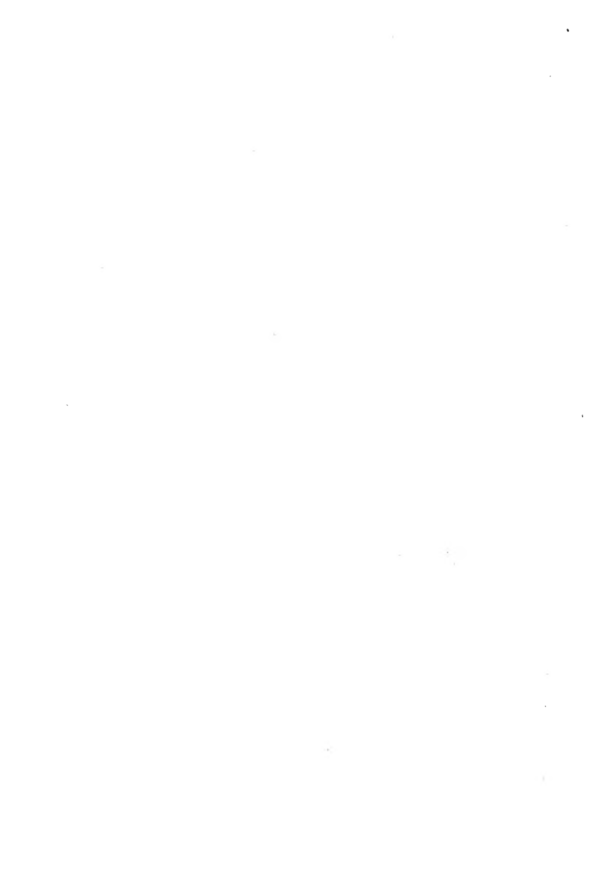
وإذا سلمت في البابين - باب توحيد العبادة - وباب توحيد الأسماء والصفات - فقد سلمت ، ولكن لا تقف عند هذا الحد فقط ، بل كمل إيمانك بالعمل الصالح بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات فابتعد عن البارات الخبيثة المنتشرة هنا وهناك ، ولا توسخ قلبك بالخمر فتهلك ، ولا تقصد إلا بيتك الشرعي ، ولا تبع هواك إلى تلك البيوت الوسخة ، فتهلك وقد نفى الرسول ﷺ الإيمان عن أولئك الذين يتجرأون على فاحشة الزنا ، وشرب المسكر ، والسرقة ، ونهب أموال الناس ، حيث يقول ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين

يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس لها رؤوسهم حين ينتهب وهو مؤمن » أو كما قال ﷺ .

أخي المسلم أكثر الخطوات إلى المساجد ، وحافظ على الصلوات مع الجماعة ، وعلى حضور صلاة الجمعة دائماً ، يسلم لك دينك .

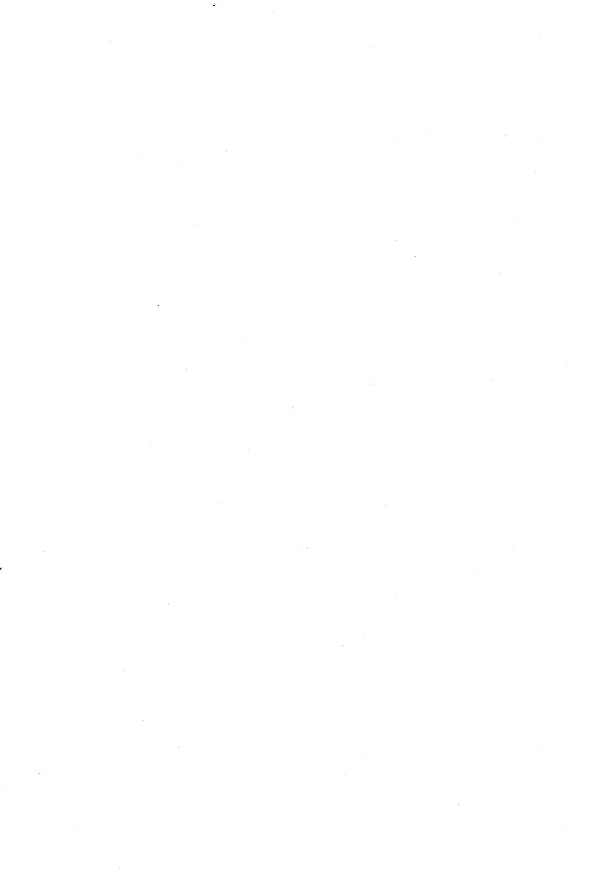
وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم ، أن يجعلني وإياكم ممن يقول ويسمع فيعمل – كما أسأل الله تعالى أن لا يجعل ما قلناه وما سمعناه ، حجة علينا إنه ولي ذلك ، والقادر عليه . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

محمد أمان بن علي



الرسالة الرابعة

منزلة السُّنَّة في التشريع الإسلامي



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

بقلـم

إبراهيم إبراهيم هلال

بعد أن تطرق التصوف والفلسفة إلى العالم الإسلامي ، وراج فيه الاشتغال بعلم الكلام ، أسقطت رواسب من هذه الفلسفات والعقليات غير المستقيمة على عقائد الكثيرين من المسلمين علماء وعامة على السواء ، وأصبحنا نجد مظاهر ذلك التصوف والفلسفة ، والكلام في علم هؤلاء العلماء وفي حديث أولئك العوام . وتأصل ذلك في بيئتنا الإسلامية قرونا على الدهر ، حتى صار العوام ينظرون إلى هذه العقائد البالية على أنها أصول الإسلام وساعد على ذلك وزاده ترسيخا في نفوسهم ، ما يقوم به هؤلاء العلماء المضللون من دعوة في مجال الدين على طريقة أولئك الصوفية ، والمتكلمين ، بل وقد بلغ الأمر ببعض المتصوفة ، أن تقدموا ، للدعوة إلى الله وإلى دينه ، في بعض البلاد الخام كبعض بلاد أفريقيا . مقدّمين وثنيات التصوف وفلسفاته على أنها في الإسلام ، وظن كثيرون أن هؤلاء نشروا الإسلام في غرب أفريقيا وجنوبها . وما دروا أنهم نشروا وثنية مقنعة ؛ تتسمى باسم الإسلام ، وليست من الإسلام إلا في اللفظ ، أمًّا العقيدة والشريعة التي جاء بها القرآن الكريم والحديث الشريف على يد محمد بن عبد الله لله وآله وسلم ، فلا تكاد تتميز بين هذه الأوشاب المستوردة .

لذلك كان الله يقيض لدينه على مر العصور ، من يقوم عليه وعلى حفظه تحقيقاً لوعده بذلك في كتابه العزيز : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[1] وظهر ذلك على أدوار التاريخ في علماء السلف من التابعين ، وتابعي التابعين وتابعيهم بإخلاص إلى يومنا هذا .

وهذه هي رسائل[*] فضيلة الشيخ محمد أمان بن علي الجامي المدرس بكلية الحديث بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، تسير على درب هؤلاء المجاهدين والمحافظين على عقيدة المسلمين والداعين إليها على هدى من الله وبصيرة ، نقدمها إلى القراء في

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

(*) وسنوالي نشر هذه الرسائل تباعا – بعون الله تعالى .

مختلف العالم الإسلامي ، أضواء كاشفة لذلك الزيغ الذي لحق بالعقائد والقلوب ، سواء بقلوب العلماء أم العوام ، ومنبهة إلى اتجاه الإسلام الخالص ، وصراطه المستقيم الذي يجب أن يسلكه الدعاة إلى دين الله كما جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

٢١ من المحرم سنة ١٣٩٨ هـ

إبراهيم إبراهيم هلال

منزلة السنة في التشريع الإسلامي

المقدمة :

الرسالات السماوية التي كلف الله بها رسله المختارين من البشر ، هي الرابطة بين السماء والأرض ؛ ولقد كانت تلك الرسالات متحدة في أصولها ، إذ كانت كلها تنادي أول ما تنادي ﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾[1] ، ولكنها كانت متنوعة أو مختلفة في التشريع والمناهج إذ كان كل رسول يُبعث إلى قومه ، وبلسان قومه ، على ضوء منهج معين ، وتشريع خاص محدود واستمر الوضع هكذا ، لحكمة يعلمها ربنا سبحانه ، فترة طويلة من الزمن .

ولما أراد الله أن يختم رسالته إلى أهل الأرض ، اختار من بين عباده نبيه المصطفى ، ورسوله المرتضى ، محمد بن عبد الله ، النبي العربي الهاشمي ﷺ ، ليرسله إلى الناس كافة ، وقد خلقه الله لهذا الغرض ، وربّاه تربية خاصة ، وأولاه عنايته ، وأدّبه فأحسن تأديبه ؛ وبعد تمهيدات وإرهاصات مرّت عليه في طفولته وصباه ، بعثه الله إلى الناس كافة ، وأنزل عليه كتابه الأخير الذي ليس بعده كتاب (القرآن الكريم) ، وهو كتاب الله المهيمن على الكتب التي قبله ، ووصفه بأنه ﴿ **كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾[2] ، ﴿ **يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويَهدِيهِمْ إلى صراط مستقيم** ﴾[3] ؛ وقد تكفل الله بحفظ هذا الكتاب ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[4] ؛ ووكل تبيانه إلى رسوله الأمين محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾[5] ، وشهد له أنه في بيانه هذا ، وأداء أمانة الرسالة ﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى** ﴾[6] ولما كان هذا شأنه ، وهذه مكانته ، أوجب الله طاعته ، وحرّم معصيته ، إذ يقول عزّ من

---

(١) الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ . (٢) فصلت : ٤٢ . (٣) المائدة : ١٦ .
(٤) الحجر : ٩ . (٥) النحل : ٤٤ . (٦) النجم : ٣ ، ٤ .

قائل : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾[1] ، ويقول سبحانه ، وهو ينفي عمن لا يحكمونه ، أو يرون في أنفسهم حرجاً وغضاضة أو توقفاً عن حكمه ، ولا يسلمون تسليماً كاملاً عن اقتناع ، وانشراح نفس ، يقول الله في حق هؤلاء : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾[2] ؛ هكذا تكشف هذه الآية الكريمة دعاة الإيمان – بالرسول ، دون عمل بسنته ، أو رضيٍّ بحكمه ، فالآية – كما ترون – تنفي عنهم الإيمان ، وتعريهم أمام الناس ، لئلا ينخدع ويظن ، أن الإيمان بالرسول يتم بمجرد دعوى الإيمان ، والقول باللسان ؛ وتأتي في هذا المعنى آية أخرى ، تهدد أولئك المدعين المخالفين عن أمره بالفتنة والعذاب الأليم : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾[3] ، وقد فسّر بعض أهل العلم الفتنة هنا ، بالزيغ والإلحاد ، لقاء رده لقول الرسول ﷺ ، إذا تكرر منه ذلك ، والله أعلم ؛ وبهذه الأساليب المتنوعة يدعو القرآن الناس ، إلى الإيمان بالسنة ، والعمل بها ، وأنها هي والقرآن ، هما الأساس حقاً لهذا الدين . وإذا كان الإيمان بالرسول أصلاً من أصول الإيمان ، فإن الإيمان بسنته ، جزء لا يتجزأ عن الإيمان به ، عليه الصلاة والسلام ، لأنه صاحب السنة ، ولأن الإيمان – كما يُعَرِّفه الإمام ابن القيم – : « هو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام علماً ، والتصديق به عقداً ، والإقرار به نطقاً ، والانقياد له ، محبةً وخضوعاً ، والعمل به ظاهراً وباطناً ، وتنفيذه ، والدعوة إليه بحسب الإمكان » .

وكما له في الحب في الله والبغض في الله ، والعطاء لله والمنع لله ، وأن يكون الله وحده معبوده ؛ والطريق إليه ، تجريد متابعة رسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً ، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى رسول الله ﷺ ، وبالله التوفيق .

وبعد : فأنت ترى أن الإمام ابن القيم رحمه الله ، يجعل تجريد متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، طريقاً إلى حقيقة الإيمان .

ولا غرابة في ذلك ، بل هو أمر منطقي ، كما ترى ؛ ولو أنك زعمت بأنك تحب العالم الفلاني وتقدره ، وله في نفسك كل تقدير واحترام ، ومع ذلك كنت

---

(١) محمد : ٣٣ . (٢) النساء : ٦٥ . (٣) النور : ٦٣ .

لا تقدر كلامه ، ولا تعيره اهتماماً ، ولا ترفع رأساً لحديثه ، فطبيعي أن يصارحك إنسان ما : ما لي أراك – يا فلان – تدعي محبة – العالم الفلاني – بل التفاني في حبه ، ومع ذلك لا تعير أدنى اهتمام لكلامه وحديثه وعلمه ؟!! هذا تساؤل لا بد منه ، عقلاً ومنطقاً ، ولست أدري ماذا يكون جوابك ؟!! هل تقول في الجواب : إني في الواقع لا أكنّ له محبة ، وإنما هي مجرد ادعاء لظروف ما ، ولا أعني بالمحبة أكثر من ذلك !!

أو تقول : إنّي أحبه وأقدره حقاً ، ولكن الهوى والشيطان ، ولكن القرناء ، ولكن الجفاف الذي أصاب قلبي ، كل ذلك حال دون الانتباه لكلامه ، والانتفاع بحديثه ، والتأسي له ؛ ولا بُدَّ لك من أحد الجوابين فأي ذين تقدم وتختار ؟!! فأحلاهما مّر ، والله المستعان ، والأمر بالنسبة للرسول ﷺ وسنته أعظم وأخطر وكيف لا ؟!! ونحن إنما عرفنا الله وآمنا به وعبدناه وحده ، بدعوته التي بلغتنا في طيات سنته ، التي حملها إلينا الثقات من علماء المسلمين من الصحابة ومن بعدهم ؛ الذين قيضهم الله لها ، وأكرمهم بخدمتها ، فبها بينوا القرآن وفسروه ، وعلى ضوئها بنوا أحكام الشريعة حكماً حكماً . وقعّدوا القواعد ، وضبطوا الضوابط ، التي يُرجع إليها عندما تنزل نازلة ، وتحدث حادثة ، وتجدّ الأمور .

وكل من يدعي الإيمان بالله وبرسوله ﷺ ، ثم يتجرّأ فينكر سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو ينكر حُجِّيتها ، أو إفادتها العلم اليقيني ، إنما يتناقض تناقضاً ، ويضطرب في كلامه اضطراباً ، ويتخبط في تصرفه تخبطاً ؛ فليقرأ – إن شاء – قول الحسن البصري رحمه الله : « ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل »[1] ، ولا عمل يقبل دون موافقة السنة « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا ، فهو رد »[2] وسوف تنجلي الحقائق ، يوم تبلى السرائر ، والله المستعان .

سوف ترى إذا انجلى الغُبار   أفرسٌ تحتكَ أمْ حِمـار ؟

وبعد هذه المقدمة القصيرة ، نأخذ في الحديث في صلب الموضوع ، مستعينين

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي رقم (٥٦) .

(٢) البخاري : الصلح : باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٥ / ٣٠١) ومسلم : الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٣ / ١٣٤٣ – ١٣٤٤) من حديث عائشة .

بالله وحده فنقول :

المنزلة هي المكانة والمرتبة ، والمراد بها هنا : المرتبة التي تشغلها السنة النبوية في باب التشريع ، حيث لا يستغني عنها بوجه من الوجوه ، إما مستقلة أو مبينة للكتاب ، إذ لا بد من عرض كثير من آيات الأحكام عليها ، لتفسر المجمل ، وتقيد المطلق ، وتخص العام ، إلى غير ذلك من الأغراض التي تحققها السنة ، والدور الذي تمثله – إن صح مثل هذا التعبير .

السنة في اللغـة

السنة في اللغة : هي الطريقة : سواء كانت محمودة أو سيئة ، ويشهد لهذا المعنى ، حديث جرير بن عبد الله البجلي : « من سنّ سنة حسنة ، فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن سنّ سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »[1] ؛ ومعنى الحديث : أي من أتى بخصلة حسنة ، فله أجرها وأجر من تأسى به وعمل مثل عمله ، لأنه الفاتح لباب الخير ، والدال عليه ، بعمله ؛ وكذلك الحال بالنسبة للسيئة ؛ لأن من أتى بخصلة سيئة ، وتأسى به غيره ، فعليه وزرها ووزر كل من تأسى به بعده ، لأنه فاتح لباب الشر ، وداع إلى الشر بفعله ومبادرته .

ويقول أهل اللغة : السنة : السيرة ، حسنة كانت أو قبيحة .

السنة في لسان علماء التشريع

يختلف علماء الشريعة في معنى السنة اختلافاً لفظياً لا جوهرياً :

فيطلق علماء الأصول لفظ السنة على أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام وأفعاله وتقريره – وربما أطلقوها على أعمال الصحابة ، كعمل أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما في جمع القرآن ، وعمل عمر رضي الله عنه في تدوين الدواوين ، ونحو ذلك ، وهو مذهب جماعة من أهل الحديث .

---

(١) راجع مسند أحمد (٤ / ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١) صحيح مسلم : الزكاة ، باب الحث على الصدقة (٢ / ٧٠٥ والعلم ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٤ / ٢٠٥٩) .

وقد يطلق الفقهاء السنة على الطريقة المسلوكة في الدين . في غير وجوب أو لزوم ؛ ومن عباراتهم المعروفة في تعريف السنة : أن السنة ما يُثاب فاعله ولا يعاقب تاركه .

ويطلق جمهور علماء الحديث السنة على ما يقابل البدعة ، فيقال : فلان على السنة ، إذا كان عمله وتصرفاته الدينية وفق ما جاء به رسول الله ﷺ ، كما يقال : فلان على بدعة ، إذا كان مخالفاً لهديه وسنته عليه الصلاة والسلام ؛ ومن إطلاقات السنة عندهم أيضاً : أنها قد تشمل صفاته الحميدة ، وأخلاقه الكريمة ، وسيرته العطرة ، ويمكن أن يشهد لهم على هذا الإطلاق ، قول أم المؤمنين خديجة – رضي الله عنها : « كلا والله ، ما يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق »[1] .

وكذلك ما كان عليه الصلاة والسلام ، معروفاً به بين قومه ، حتى قبل مبعثه من الصدق والأمانة ، لأن كل[2] ذلك يستفاد منه في إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام ، ورسالته وهي مرادفة للحديث ، كما ترى بهذا الاعتبار .

حاجة الإنسان إلى الرسول والرسالة

الإنسان ، ذلك المخلوق المختار ، ولكنه تحفه الشهوات ، وتكتنفه متطلبات الغرائز ، وتجتاحه الأهواء ، وهو أشبه ما يكون بالمريض مثلاً ، لا يجد سبيلاً للخلاص مما حل به من مرض ، والفوز بالبرء والعافية ، إلا بطبيب ناصح ؛ فإن ائتمر بأمره فعزف عمّا تميل إليه نفسه ، وامتنع عن الشهوات ، ومتع ولذّات ، سلم من هلاك ، وإلا فقد ألقى بنفسه إلى التهلكة ، وهذا يعني : أن حاجة الإنسان إلى الرسول ورسالته ، وما تشتمل عليه سنته أمسّ من حاجته إلى الطبيب والدواء – ويتضح ذلك بإجراء مقارنة ملموسة ، بعيدة عن الفلسفة .

وذلك أن غاية ما يصيب الإنسان ، إن أعرض عن الطبيب ، ولم يحي قلبه بما فيها من الوحي الإلهي ، كتاباً وسنة ، أن تعتريه الأسقام والآفات التي لا برء منها ، ويموت قلبه ولا يرجى بعده الحياة ، وتنضب ينابيع السعادة ، وتغشاه أمواج غامرة

(١) البخاري بدء الوحي باب (٣) (١ / ٢٣) من حديث عائشة .
(٢) الحديث والمحدثون – بتصرف .

متلاطمة من الشقاء والتعاسة ، ويغادره اليقين ، ولا تعود الحياة والسعادة إليه إلا بالعودة إلى نور الوحي والاستضاءة بنوره ، والله المستعان .

السنة صنو القرآن

ويتضح مما تقدم ، أن ملخص معنى السنة ، ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، وأن السنة من الوحي الإلهي : ﴿ **إن هو إلا وحي يوحى علّمه شديد القوى** ﴾[1] . كما يدل على ذلك من السنة قوله عليه الصلاة والسلام : « ألا ، وأني أوتيت القرآن ، ومثله معه »[2] . فالسنة إذاً صنو القرآن ، وهي وحي مثله ، وملازمة له ، ولا تكاد تفارقه ، ولا يكاد القرآن يُفهم كما يجب أن يفهم ، إلا بالرجوع إلى السنة في كثير من آياته ، ولا سيما آيات الأحكام .

معنى الوحي

الوحي : هو الإعلام الخفي والسريع ، ولذلك يطلقون على الرموز والإشارات الخفية أنها من الوحي ، عند أهل اللغة ! ومنه الإلهام : (وهو إلقاء المعاني الخاصة في النفس) والوحي إلى غير الأنبياء من هذا القبيل ، كالوحي إلى النحل : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل** ﴾[3] ، وأما في لسان الشرع : إعلام الله لأنبيائه بطريق خفية[4] أخبار السماء ، وما يريد أن يبلغه من التعليمات والتوجيهات والتشريع ، بحيث يحصل لديهم علم قطعي ، لا يتطرق إليه أدنى شك ، بأن ذلك من عند الله سبحانه ، فيكون مصدر الوحي هو الله وحده ، فلا وحي إلا من الله ؛ ومورد الوحي هم الأنبياء ، فلا يكون الموحي إليه إلاّ نبياً ؛ وهكذا يتضح أن المعنى الشرعي أخص من المعنى اللغوي كما ترى .

أقسام الوحي

إعلام الله لأنبيائه ما يريد إعلامهم يكون بطرق ثلاثة ، وقد أشار القرآن إلى هذه الطرق ، حيث يقول عزَّ وجلَّ : ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو**

---

(١) النجم : ٤-٥ .

(٢) أحمد (٤ / ١٣١) وأبو داود السنة ، باب لزوم السنة (٥ / ١١) من حديث المقدام بن معدي كرب .

(٣) النحل : ٦٨ . (٤) كذا في الأصل ولعل الصواب : بطرق خفية (الناشر) .

من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾[1] .

أولاً : المراد بقوله تعالى : ﴿ **إلا وحياً** ﴾ الإعلام ، الذي هو الإلهام ، وهو إلقاء المعنى المراد في قلب نبي من أنبيائه ، حتى يفهمه جيداً ، ويقطع بأنه من عند الله .

ثانياً : الكلام من وراء حجاب ، كلاماً حقيقياً ، يقطع بأنه سمع كلام ربه الذي كلمه كيف شاء ، دون أن يراه كما حصل لنبي الله وكليمه موسى عليه السلام في أول بدء الوحي ، حيث : ﴿ **نودي يا موسى إني أنا ربك** ﴾[2] ، حتى سمع سماعاً حقيقياً ، ولكن دون رؤية ؛ وكذلك عند مجيئه للميقات ، حيث يقول الله سبحانه : ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربُّه** ﴾[3] ؛ وقد حصل هذا النوع لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، ليلة المعراج ، عندما فرض الله عليه وعلى أمته الصلوات الخمس ، والقصة معروفة ولا حاجة لسردها .

ثالثاً : إعلام الله لنبي من أنبيائه ما يريد تبليغه بواسطه الملك (جبرائيل) عليه السلام ، وهذا النوع هو الغالب والأكثر وقوعاً ، وقد كان جبرائيل عليه السلام يأتي النبي عليه الصلاة والسلام بأشكال وصور مختلفة ، إذ كان يأتيه أحياناً ، متمثلاً بصورة الصحابي الجليل (دحية الكلبي) ، وربما جاء بصورة أعرابي ، وقد رآه مرتين على صورته الحقيقة : مرة عند غار حراء ، حيث يتحنّث قبل الوحي ، ومرة عند سدرة المنتهى في ليلة الإسراء والمعراج غ وقد لا يرى النبي عليه الصلاة والسلام الملك أحياناً ، وإنما يسمع عند قدومه دوياً كدوي النحل ، وصلصلة شديدة ، فتعتريه حالة روحية غير عادية .

تؤخذ هذه المعاني كلها أو بعضها ، من حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها ، ذكره البخاري في صحيحه : (أن الحارث بن هشام ، سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : يارسول الله ! كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ ، فيفصم عني ، وقد وعيت عنه ما قال ؛ وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي

---

(١) الشورى : ٥١ .　　(٢) طه : ١١ ، ١٢ .
(٣) الأعراف : ١٤٣ .

ما يقول » ، قالت عائشة رضي الله عنها : « ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً »)[1] .

ومما لا يختلف فيه اثنان دارسان للإسلام : أن ديننا مبني على أصلين اثنين :

الأصل الأول : أن يعبد الله وحده دون أن يشرك به غيره بجميع أنواع العبادات ، وأن لا يصرف منها شيء لغير الله ؛ وذلك معنى قول المؤمن : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

الأصل الثاني : أن يعبد الله بما شرعه على لسان رسوله وخليله محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو معنى قول المؤمن : « وأشهد أن محمداً رسول الله » ؛ وصحة الأصل الأول تتوقف على تحقيق الأصل الثاني ، ومعنى تحقيقه نوجزه في صدق متابعة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لأن اتباعه دليل محبة الله عزَّ وجلَّ ، الذي محبته ومراقبته والأنس به ، غاية سعي العبد وكده ، وهي أيضاً جالبة لمحبة الرب عبده ومغفرته له ، إذ يقول عزَّ منَ قائل : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾[2] . وذلك لأنه رسوله المختار ﷺ ليبلغ دينه الذي شرعه لعباده ، وهو المبلغ عنه أمره ونهيه وتحليله وتحريمه ، فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرّمه ، والدين ما شرعه وارتضاه ، والرسول ﷺ واسطة بين الله وبين عباده في بيان التشريع ، وما يترتب عليه من وعده ووعيده ، وتبليغ وحيه الذي اشتمل على ذلك كله قرآناً وسنة ، وقد كلف بذلك بقوله تعالى : ﴿ **يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾[3] . وبقوله : ﴿ **وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾[4] .

وقوله : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾[5] ، وقوله : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾[6] .

إن هذه الآيات من الذكر الحكيم ، تبين بوضوح وظيفة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وهي القيام بواجب التبليغ ، والبيان والدعوة إلى دين الله وإلى

---

(١) كتاب بدء الوحي ، باب (٣) (١ / ١٨) .

(٢) آل عمران : ٣١ . (٣) المائدة : ٦٧ . (٤) النور : ٥٤ .

(٥) النحل : ٤٤ . (٦) النحل : ١٢٥ .

شرعه الذي شرعه الله تعالى لعباده وارتضاه لهم .

وهذه الأوامر الربانية الثلاثة ، التي تقدم ذكرها في طي الآيات السابقة ، تحقق غرضاً واحداً ، وهو دلالة الخلق على الطريق الموصلة إلى الخالق سبحانه ، وهو راض عنهم ، حتى يكرمهم في دار كرامته ، لقاء ما قاموا به من أداء ما أوجبه الله عليهم في هذه الدار ، من تحقيق العبودية ، ليصدق في حقه عليه الصلاة والسلام قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[1] ، حقاً إنه رحمة مهداة ، ونعمة مسداة للبشرية جميعاً ، ولكن الشأن أن يرفع أتباعه رؤوسهم لدراسة سنته كما يجب ، مكتفين بها ، ليفهم كتاب الله على ضوئها ، متجردين لها ، تلك السنة التي هي ذلك البيان ، وذلك البلاغ ، وتلكم الدعوة .

وبعد ، فلا يشك مسلم مهما انحطت منزلته العلمية ، وضعفت ثقافته ، وضحلت معرفته أن الرسول الكريم ، محمداً عليه الصلاة والسلام ، بلغ ما أنزل إليه من ربه ، وهو القرآن الكريم ، وذلك لأن الإيمان بأن الله نزل القرآن على رسوله الذي اصطفاه محمدٍ عليه الصلاة والسلام ، وأنه بلّغ مانزل عليه إليه ، كما نزل ، وأنه بين للناس ما احتاج إلى بيان ، وأجاب على أسئلتهم واستفساراتهم في موضوعات كثيرة ، ودعاهم إلى الأخذ بما جاء به من ربه من الوحي ، ولم يفْتُر عن الدعوة إلى ذلك حتى التحق بالرفيق الأعلى . إن هذا المقدار من الإيمان ، أصل من أصول هذا الدين ، وأساسه الذي ينبني عليه كل ما بعده من واجبات الدين وفرائضه وإذا كنا نؤمن هذا الإيمان – ويجب أن نؤمن – فأين نجد بيانه الذي يتحقق به ، امتثاله عليه الصلاة والسلام لتلك الأوامر الربانية (بلغ) (لتبين) (ادع) الجواب : نجد ذلك في سنته المطهرة ، ولا نجد في غيرها ، تلك التي قيض الله لها من شاء من عباده ، وهم جهابذة علماء المسلمين ، فحفظوها وصانوها من كل مختلف ، وكل معنى مزيّف ليصدق قوله تعالى – وقوله الحق وخبره المصدق : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[2] ، والذكر المنزل المحفوظ هو القرآن بالدرجة الأولى ، وقد حفظه الله بما شاء ، وكيف شاء ، وتدخل السنة في عموم الذكر في الدرجة الثانية عند التحقيق وإنعام النظر ، وقد حفظها الله تعالى بأولئك الجهابذة العلماء ، كما

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ . (٢) الحجر : ٩ .

قلنا آنفاً والسنة التي يتم بها ذلك البيان المطلوب : هي أقواله وأفعاله وتقريراته[1] .

السنة هي الحكمـة

وقد ذكر الله الحكمة في عديد من آيات الكتاب العزيز ، مقرونة بالكتاب ، ومما لا شك فيه أن المراد بالحكمة في تلك الآيات المشار إليها كلها : السنة النبوية .

ومن تلكم الآيات قوله تعالى : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ **لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾[3] . وقوله : ﴿ **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً** ﴾[4] ، وقوله : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به** ﴾[5] وقوله سبحانه : ﴿ **واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً** ﴾[6] والآيات في هذا المعنى كلها تعطف الحكمة على الكتاب عطفاً يدل على المغايرة طبعاً .

يقول الإمام الشافعي رحمه الله : « فرض الله على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله عليه الصلاة والسلام » وقال رحمه الله في رسالته المشهورة : « فذكر الله الكتاب وهو القرآن ، وذكر الحكمة ، فسمعت من أرضاه من أهل العلم بالقرآن » يقول : (الحكمة سنة رسوله) ثم قال الإمام رحمه الله متعلقاً على هذا القول : « وهذا أشبه ما قال والله أعلم » ثم علل ذلك قائلاً : لأن القرآن ذكر وتبعته الحكمة ، وذكر الله مِنَّتَهُ على خلقه ، بتعليمهم الكتاب والحكمة ، فلم يجز – والله أعلم – أن يقال : الحكمة هاهنا غير سنة رسول الله ﷺ ، وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأنه افترض طاعة الرسول ﷺ ، وحتم على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لقول فرض ، إلا لكتاب الله ، ثم سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وإلى أن قال : (وذلك لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقروناً بالإيمان بالله وسنة

(١) من تصحيح المفاهيم : محمد أمان . (٢) البقرة : ١٢٩ .
(٣) آل عمران : ١٦٤ . (٤) النساء : ١١٣ .
(٥) البقرة : ٢٣١ . (٦) الأحزاب : ٣٤ .

رسوله ، مبينة عن الله معنى ما أراد ثم قرن الحكمة بكتابه ، وأتبعها إياه ، ولم يجعل لأحد من خلقه غير رسوله عليه الصلاة والسلام)[1] .

وقد نقل البيهقي عن الإمام الشافعي عدة نقول في هذا الصدد نختار منها الآتي :

نبذة من كلام أهل العلم في مكانة السنة وثبوت حجتها

١ – البيهقي : قال الإمام الشافعي رحمه الله : وسنة رسول الله ﷺ على ثلاثة أوجه :

أحدهم : ما أنزل الله فيه نص كتاب ، فَسَنَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام بمثل نص الكتاب .

والثاني : ما أنزل فيه جمله كتاب ، فبين رسول الله عن الله معنى ما أراد بالجملة ، وأوضح كيف فرضها عاماً أو خاصاً ، وكيف أراد أن يأتي به العباد .

والثالث : ما سنّ رسول الله عليه الصلاة والسلام مما ليس فيه نص كتاب ، فمنهم من قال : جعله الله له بما افترض من طاعته ، وسبق علمه من توفيقه له ، ورضاه أن يسنّ فيما ليس فيه نص كتاب ، ومنهم من قال : لم يسنّ سنة قط إلا ولها أصل في الكتاب كتبيين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة وكذلك ما سنّ في البيوع وغيرها من الشرائع ، لأن الله تعالى ذكره قال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم** ﴾[2] وقال : ﴿ **وأحل الله البيع وحرّم الربا** ﴾[3] ، فما أحل وحرّم ، فإنما بين فيه عن الله ، كما بين في الصلاة ؛ ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله ، فأثبتت سنته بفرض الله تعالى ؛ ومنهم من قال : كل ما سنَّ ، وسنته هي الحكمة التي ألقيت في روعه من الله تعالى . انتهى كلام الشافعي[4] .

وقال الشافعي في موضع آخر : « كل ما سنّ فقد ألزمنا الله تعالى اتباعه ، وجعل اتباعه طاعته ، والعدول عن اتباعه معصيته ، التي لم يعذر بها خلقاً ، ولم يجعل له من اتباع سنن نبيه مخرجاً » .

---

(١) مفتاح الجنة للسيوطي (٧) .

(٢) النساء : ٢٩ . (٣) البقرة : ٢٧٥ . (٤) مفتاح الجنة : ١٤ .

قال البيهقي : « باب ما أمر الله به من طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ، والبيان أن طاعته طاعته » ، ثم ساق الآيات التالية : قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾[1] ، قال عزَّ من قائل : ﴿ **ومن يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾[2] إلى غيرها من الآيات البينات التي مضمونها أن طاعة رسوله هي طاعة له تعالى ، وأن معصيته معصية له تعالى ، ثم أورد البيهقي حديث أبي رافع قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه يقول : لا أدري ؟!! ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه »[3] أخرجه أبو داود والحاكم من حديث المقدام بن معدي كرب قال : إن النبي عليه الصلاة والسلام حرّم أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلي وغيره ، ثم قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « يوشك أن يقعد رجل على أريكته ، يتحدث بحديثي فيقول : بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن ما حرّم رسول الله مثل ما حرم الله »[4] ، ثم قال البيهقي : « وهذا خبر من رسول الله عليه الصلاة والسلام عمّا يكون بعده من ردّ المبتدعة حديثه ، فوجد تصديقه فيما بعد ؛ ويقول الإمام البيهقي في هذا الصدد : ولو لا ثبوت الحجة بالنسة ، لما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام في خطبته بعد تعليم من شهده أمر دينهم : « ألاَ فليبلّغ الشاهد منكم الغائب ، فَرُبَّ مبلَّغ أوعىٰ من سامع »[5] .

ثم أخرج البيهقي بسنده عن شبيب بن أبي فضالة المكي ، أن عمران بن حصين رضي الله عنه ذكر الشفاعة ، فقال رجل من القوم : يا أبا نجيد ! إنكم تحدثوننا بأحاديث لم نجد لها أصلاً في القرآن !! فغضب عمران فقال للرجل : قرأت القرآن

---

(١) الفتح : ١٠ . (٢) النساء : ٨٠ .

(٣) أبو داود : السنة ، باب في لزوم السنة (٥ / ١٢) والترمذي : العلم ، ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ (٥ / ٣٨) وابن ماجه : المقدمة ، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ (١ / ٧) وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وذكر أن بعضهم رواه مرسلاً .

(٤) تقدم بعضه قبله ، وأخرجه أيضاً الدارمي : المقدمة باب السنة قاضية على كتاب الله (١ / ١٤٤) الترمذي : العلم ، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ (٥ / ٣٨) وابن ماجه . المقدمة ، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ (١ / ٦) وحديث أبي داود المتقدم ذكره أتم من حديثهما .

(٥) من خطبة الوداع المشهورة .

كله ؟!! قال : نعم قال : هل وجدت فيه صلاة العِشاء أربعاً ، ووجدت المغرب ثلاثاً ، والغداة ركعتين ، والظهر أربعاً ، والعصر أربعاً ؟!! قال : لا . قال : عمن أخذتم ذلك ؟!! ألستم عنا أخذتموه ، وأخذناه عن النبي عليه الصلاة والسلام ؟!! ثم قال : أوجدتم في القرآن من كل أربعين شاة ، شاة ؟!! وفي كل بعير ، كذا ، وفي كل درهم كذا ؟!! إلى آخر ذلك الحوار الحاد الذي أفحم فيه الصحابي الجليل ذلك السائل ، الذي تجرأ فسأل ماليس له ، فاستحق التوبيخ والتأديب وفي الوقت نفسه ، يدل على مدى ما يُكِنُّه سلفنا الصالح ، من تقديرهم للسنة النبوية ، والذود عنها ، ومحبتها ، وما من شك أن محبة سننه من محبته عليه الصلاة والسلام ، ومحبته من أسس الإيمان ، كما لا يخفى ؛ والمحبة الصادقة ، إنما تتمثل في الاهتمام بسنته علماً وعملاً ، وتقديرها والاحتجاج بها ، والذود عنها بكل سلاح ممكن ومتيسر .

مكانة السنة عند الخلفاء الراشدين

السنة النبوية بعد ثبوتها وصحتها ، تتمتع عند المسلمين ، قديماً وحديثاً ، بما يتمتع به القرآن الكريم من حيث وجوب العمل بها ، والرجوع إليها عند التنازع ، وترك الرأي من أجلها ، فلنستمع قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا المعنى . إذ أخرج البيهقي بسنده عن عمر رضي الله عنه قوله وهو على المنبر : « يا أيها الناس ! إن الرأي إنما كان من رسول الله مصيباً ؛ لأن الله تعالى كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف » . لهذا نرى عمر رجّاعاً في كل ما يبلغه من حديث رسول الله ﷺ في حادثة ما ، ونازلة علمية جديدة ، لا علم له فيها بسنة ثابتة ، وإذا ثبتت السنة بادر دون أدنى توقف ، إلى العمل بالسنة والرجوع إليها . ومن شواهد ما ذكرنا ما يرويه ابن المسيِّب ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كان يقول : « الدية للعاقلة — ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئاً ، حتى أخبره الضحاك بن سفيان : إن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، كتب إليه أن يورث امرأة أَشْيَم الضِّبابيّ ، فرجع إليه عمر »[1] أخرجه أبو دواد .

ومنها ما أخرجه البيهقي عن طاووس ، أن عمر قال : « أُذكّرُ الله امرأً سمع من

---

(١) مفتاح الجنة للسيوطي (٢٨ ، ٢٩)
وانظر : أبو داود الفرائض ، باب في المرأة ترث من دية زوجها (٣ / ٣٣٩) .

النبي عليه الصلاة والسلام في الجنين شيئاً ؟ ، فقام حمل بن مالك بن النابغة فقال : جنيناً ميتاً ، فقضى فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام بغرّة » ، فقال عمر : « لو لم نسمع هذا لقضينا فيه بغير هذا ، إن كدنا أن نقضي في مثل هذا برأينا »[1] . يقول الإمام الشافعي وهو يعلق على هذه الأخبار ، وموقف عمر من السنة : قد رجع عمر عما كان يقضي فيه ، لحديث الضحاك بن سفيان ، فخالف حكم نفسه ، وقال في الجنين : إنه لو لم يسمع هذه السنّة ، لقضي فيه بغيرها ، وقال : إن كدنا نقضي فيه برأينا .

ومنها ، ما أخرجه الشيخان[2] من طريق ابن شهاب عن عبد الله بن عامر ابن ربيعة ، أن عمر خرج إلى الشام ، فلما جاء (سَرْغَ)[3]،بلغه أن الوباء قد وقع بالشام ، فأخبره عبد الرحمٰن بن عوف ، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « إذا سمعتم به بأرض ، فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض ، وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً ، » فرجع عمر من (سَرْغَ) قال ابن شهاب : وأخبرني سالم بن عبد الله بن عمر ، أن عمر إنما انصرف بالناس من حديث عبد الرحمٰن بن عوف .

ومنها ما أخرجه البخاري في صحيحه لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس ، حتى شهد عبد الرحمٰن بن عوف أن رسول الله أخذها من مجوس هجر[4] .

هذا بعض ما أُثر عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وله مواقف أخرى كثيرة ومماثلة ، وهو موقف كل صحابي من الخلفاء وغيرهم ، وهاك بعض مواقف الخليفة الأول ، أبي بكر رضي الله عنه :

عن قبيصة بن ذؤيب قال : جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، لتسأله عن ميراثها ، فقال لها أبو بكر : ما لك في كتاب الله شيء ، وما أعلم لك في

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٨ / ١١٤) .

(٢) البخاري : الطب ، باب ما يذكر في الطاعون (١٠ / ١٧٩) والحيل ، باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون (١٢ / ٣٤٤) ومسلم : السلام ، باب الطاعون والطيرة (٤ / ١٧٤٠ - ١٧٤٢) .

(٣) بفتح أوله وسكون ثانيه ، وبالغين المعجمة ، وبالمهملة لغة فيه ، قرية كانت بوادي تبوك في طريق الشام (معجم البلدان ٣ / ٢١١ - ٢١٢) .

(٤) الجزية والموادعة ، باب الجزية والموادعة (٦ / ٢٥٧) .

سنة نبي الله شيئاً ، فارجعي حتى أسأل الناس ، فسأل الناس ، فقال له المغيرة بن شعبة : حضرت رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأعطاها السدس ، فقال أبو بكر : هل معك غيرك ؟ فقام محمد بن مسلمة الأنصاري فقال مثل ما قال ، فأنفذه لها أبو بكر[1] .

هكذا نتبين من هذا الاستعراض السريع لنصوص أهل العلم ومواقفهم في مختلف العصور ، تلك النصوص التي يصعب إحصاؤها ؛ نتبين أن الأمة مازالت ، ولن تزال متفقة على أن السنة النبوية يجب أن يكون لها مقام معلوم في بيان الأحكام ، وأنها حجة قائمة بنفسها ، وأنه يجب الرجوع إليها ، إذا لم يرد بها الكتاب ، هذه من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أنها بيان للقرآن ، وتفسير له ، ومفصّلة ما أجمل فيه ، وهذه المعاني كلها محل إجماع عند من يعتد بأقوالهم ، ولا نعلم أحداً شذ عن هذه القاعدة إلا الزنادقة وغلاة الرافضة الذين لا يتأثر الإجماع بمخالفتهم ، بل لا يستشارون إن حضروا ، ولا يُسأل عنهم إذا غابوا ، لأنهم فارقوا جماعة المسلمين ونابذوهم ، واتبعوا غير سبيل المؤمنين ، بمواقفهم العدائية لأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ذلك الموقف الذي أدى إلى رد أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام - المصدر الثاني للتشريع الإسلامي - بدعوى أنها رواية قوم كافرين ؛ ومن باب ذَرّ الرماد في العيون - عيون السذّج طبعاً - قالوا : نحن نعمل بالقرآن ، ونقتصر عليه ، وهذا كلام لا ينطلي على أولي النُهىٰ من طلاب العلم ، وأهل الإيمان ، والله الموفق .

لا بد من الرجوع إلى السنة لفهم عديد من الأحكام

إن الدارس لكتاب الله والسنة النبوية ، ولا سيما آيات الأحكام ، وأحاديث الأحكام ، ليدرك تمام الإدراك أن للسنة دوراً هاماً ، لا يستهان به في بيان الأحكام المجملة في القرآن الكريم ، وهي التي تقيّد المطلق ، وتخصص العام ، وتبين الناسخ والمنسوخ .

---

(١) موطأ مالك : الفرائض ، باب ميراث الجدة (١ / ٣٣٥) وأبو داود : الفرائض ، باب في الجدة (٣ / ٣١٦ - ٣١٧) والترمذي : الفرائض ، باب في ميراث الجدة (٤ / ٤٢٠) وابن ماجة : الفرائض ، باب ميراث الجدة (٢ / ٩١٠) .

الأمثلة

إذا أردنا أن نسوق أمثلة للأحكام التي أجملت في القرآن ، وبينتها السنة وفصلتها ، وأمثلة أخرى للأحكام التي انفردت بها السنة ولا وجود لها في القرآن ، لوجدنا الشيء الكثير في مختلف أبواب العبادات والمعاملات والحدود وغيرها .

الطهارة

من الأحكام التي وردت في القرآن مجملة ، وزادتها السنة بياناً وتوضيحاً ،. الوضوء والتيمم : ذكر الوضوء والتيمم في القرآن بنوع من التفصيل ، إذ يقول الله تعالى ، مخاطباً المؤمنين ، الذين يريدون القيام إلى الصلاة : ﴿ **يٰأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون** ﴾[1] .

في هذه الآية الكريمة من سورة المائدة ، بيّن الله تعالى صفة الوضوء ، بنوع من التفصيل ، إذ بيّن المغسول والممسوح من أعضاء الوضوء ، كما بين حد اليدين والرجلين ، ثم ذكر التيمم ، وأنه في الوجه واليدين دون سائر أعضاء الوضوء ، كالرجلين والرأس مثلا ، إلا أن الحاجة إلى بيان السنة لا تزال قائمة ، حتى مع هذا البيان الذي ترى .

توضيح ذلك

جاءت السنة بالبيان التالي :

أ – إذا أخذ المتوضيء في الوضوء ، يغسل كفيه ثلاث مرات ، ثم يستنشق ، ويستنثر ، ويتمضمض ثلاث مرات .

ب – بينت السنة بأنه يجوز للمتوضيء أن يغسل الأعضاء المغسولة مرةً مرةً ،

---

(١) المائدة : ٦ .

أو مرتين مرتين ، أو ثلاث مرات ، وهو الأكمل ، كما يجوز له أن يغسل بعضها مرة وبعضها مرتين وبعضها الآخر ثلاثاً .

ج – بينت السنة الفعلية أن الرأس يمسح مرةً واحدة بكيفية معينة ، وموضحة في السنة ، بأن يبدأ من مقدم رأسه بيديه ، ثم يذهب بهما إلى قفاه ، ثم يردهما إلى حيث بدأ مرة واحدة ، ولا يكرر مسح الرأس ، وكذلك الأذنان لا يكرر مسحهما على الصحيح ، وبينت السنة أيضاً أنه لا يجب أن يأخذ لأذنيه ماءً جديداً ، بل يمسحهما مع الرأس ، وبالماء الذي أخذه للرأس ، هذه صفة الوضوء على ضوء الكتاب والسنة معاً[1] .

أما التيمم : فقد بين القرآن الكريم أن التيمم إنما هو في الوجه واليدين كما تقدم فيبقى أن نعرف حد اليد هنا ، هل هي في التيمم مثلها في الوضوء ، فيمسحهما إلى المرفقين ؟!! وهل التيمم بضربة واحدة أو بضربتين ؟ تجيب السنة الصحيحة على هذين السؤالين ، ولا جواب إلا في السنة !! إذ ثبت فيها أن التيمم بضربة واحدة[2] .

كما ثبت فيها أن حد اليدين هنا إلى مفصل الكف ، هذا ، وقد استطردت الآية الكريمة التي تحدثت عن الوضوء والتيمم ، إلى حكم آخر بالمناسبة ، وهو الطهارة من الجنابة حيث قالت : ﴿ **وإن كنتم جنباً فاطهروا** ﴾[3] هكذا أجملت الآية هذه الطهارة ، فبينت السنة أنها بالماء إذا تيسر على الوجه التالي : يغسل أطرافه وما أصابه من القذر ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة ، فيغسل رأسه ثم يعمم بدنه بالماء مع تخليل الشعر الكثيف ، ليصل الماء إلى أصول الشعر ، هذا إذا كان الماء متيسراً ، أما إذا تعذر الماء ، أو عند العجز عن استعماله ، فيكفيه الصعيد الطيب ، بأن يضرب الأرض بيديه ، ويمسح وجهه وكفيه مرة واحدة ، وكفى ؛ هذا هو البيان الذي سجلته السنة ، في هذه المسألة ، رويناه بالمعنى ، طبعاً ، وهو مجمل في قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم جنباً فاطهروا** ﴾ .

---

(١) انظر صفة الوضوء في صحيح البخاري (كتاب الوضوء (١ : ٢٣٢ وما بعده) .

(٢) قصة عمر بن الخطاب وعمار رضي الله عنهما ، راجع صحيح البخاري : التيمم ، باب التيمم للوجه والكفين (١ / ٤٤٤ – ٤٤٥) .

(٣) المائدة : ٦ .

هكذا ننتهي من حديثنا عن الطهارة ، بإيجاز ، وأرجو ألا يكون مخلا . ولننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الصلاة وما قامت به السنة من البيان والإيضاح والتفصيل ، تفصيلاً لم يرد مثله في الكتاب فهاك البيان :

الصلاة

إن الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام ، ورد ذكرها في القرآن هكذا : ﴿وأقيموا الصلاة﴾[1] فكيف إقامتها ياترى ؟!! فالسنة وحدها هي التي تجيب على هذا السؤال الهام ، وقد علمنا في دراسة السنة أن الله أوجب الصلاة على رسوله وأتباعه ، ليلة الإسراء والمعراج ، حين عرج به عليه الصلاة والسلام ، إلى حيث يسمع صريف الأقلام ، أقلام الملائكة ، وهم يكتبون ما أمروا بكتابته ، فهناك خوطب النبي الكريم ﷺ من قبل ربه ومولاه سبحانه ، فأسمعه كلامه سبحانه ، إلا أنه لم يمكنه من رؤيته ، بل احتجب عنه بنوره سبحانه : « نور أنّى أراه »[2] ، (حجابه النور)[3] في تلك اللحظة العظيمة ، أوجب الله عليه خمسين صلاة ، فقبلها رسول الله ، عليه الصلاة والسلام – فانصرف لينزل ، إلا أن بعض إخوانه من أولى العزم (موسى) عليه السلام أوقفه ، ونصحه ليراجع ربه ويسأله التخفيف لأمته ، فخفف الله عنهم بعض التخفيف ، فتكرر السؤال والشفاعة ، وتكرر التخفيف ، إلى أن خفضت الصلاة من خمسين إلى خمس صلوات ، فنزل رسول الله ﷺ ، وعاد إلى مكة بذلك الإيجاب الإجمالي ، فبعث الله إليه رسوله جبرائيل فعلمه أفعال الصلاة ، وعدد الركعات ، وموضع السر والجهر في القراءة ، كما علمه كيف يتطهر لها ، وهكذا بينت السنّة صفة الصلاة بالاختصار .

الزكاة

الزكاة : وقد ورد في الكتاب العزيز الأمر إجمالاً دون تفصيل ، شأن الصلاة ،

---

(١) المزمل : ٢٠ .

(٢) مسلم : الإيمان ، باب في قوله عليه السلام : نور أني أراه ، وفي قوله : رأيت نوراً (١ / ١٦١) من حديث أبي ذر وانظر أيضاً : شرح العقيدة الطحاوية (٢١٣) .

(٣) مسلم : الإيمان ، باب في قوله عليه السلام : إن الله لا ينام ، وفي قوله : حجابه النور (١ / ١٦١) من حديث أبي موسى الأشعري وانظر أيضاً : شرح العقيدة الطحاوية (٢١٤) .

بقوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾[1] ، ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾[2] فتولت السنة بيان الأموال التي تجب فيها الزكاة وبيان الأنصبة ، والمقدار المأخوذ من كل نصاب ، إلى آخر البيان الشامل بأطراف هذا الركن العظيم ، كما بينت السنة نوعاً من الزكاة يسمى زكاة الفطر أو صدقة الفطر ، تؤدي في نهاية رمضان للمستحقين ، وهي صاع من تمر أو صاع من شعير أو صاع من طعام ، أو صاع من أقط . الخ .

الصـــيـــام

الصيام ، وقد تناول القرآن الكريم هذا الركن بنوع من التفصيل في قوله تعالى : ﴿ **يـٰأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ وقال في البيان نفسه : ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون** ﴾[3] ، وبعد هذا التفصيل القرآني ، الذي سمعت ، تبقى هناك أحكام وردت بها السنة ، وانفردت بها ، منها : حكم من واقع امرأته في نهار رمضان وهو صائم ، ما الذي عليه ؟!!

ومنها : من أكل وشرب ناسياً في نهار رمضان ماذا يفعل ؟!!

ومنها : حكم من لا يدع قول الزور والعمل به ، وهو صائم ، ما حجم ذنبه وهل صيامه صحيح أم باطل ؟

وقد بينت السنة ، كفارة الذي واقع امرأته في نهار رمضان ، كما بينت أن الذي أكل أو شرب ناسياً في رمضان فعليه أن يتم صيامه فإن الله هو الذي أطعمه وسقاه ، وتصدق عليه صدقة لا تضر صيامه !! والسنة تنص على الذي لا يدع قول الزور والعمل به ، وتنادي عليه ، بأنه ليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ، وقد قالت

(١) المزمل : ٢٠ . (٢) الأنعام : ١٤١ .
(٣) البقرة : ١٨٣ – ١٨٧ .

طائفة من أهل العلم ، لا يستهان بها : أن الكذب وما في معناه ، يفسد الصيام أخذاً من ظاهر الحديث المشار إليه ، وهو حديث صحيح[1] ؛ وإن خالفهم في ذلك جمهور أهل العلم ، وتفصيل ذلك معروف في موضعه في كتب الفقه . وكل الذي نريد أن نقوله هنا ، أن السنة ساهمت في بيان الأحكام حتى في هذا الموضوع الذي فصل فيه القرآن ذلك التفصيل ، وهي ما يوضحه قوله عليه الصلاة والسلام : « أوتيت القرآن ومثله معه »[2] ، وهي السنة المطهرة ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إن ما حرم رسول الله ، كما حرم الله[3] ، وما أحله رسول الله ، كما أحله الله[4] .

الحـــج

الحج ، ولو تركنا بحث الصيام لننتقل إلى الحج ، لوجدنا القرآن الكريم ، يعلن بوجوب الحج بقوله تعالى : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا** ﴾[5] ، وهي الآية التي نزل بها وجوب الحج ، على الصحيح عند أهل العلم ، ولم يكتف القرآن بإعلان وجوب الحج فقط ، بل قد ذكرت عدة أحكام من أحكام الحج في سورة البقرة ؛ كالإفاضة من عرفة ، وذكر الله عند المشعر الحرام ، وحكم من تتعجل في يومين ومن تأخر إلى اليوم الثالث ، والطواف بالبيت العتيق ، وغير ذلك ، فتولت السنة بيان بقية الأحكام التي لم يرد ذكرها في القرآن ، وهي أحكام كثيرة جداً ، وردت في أحاديث صحاح في مقدمتها حديث جابر بن عبد الله المعروف لدى طلاب العلم . ذلك الحديث الذي شرح بوضوح صفة حجة النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد ألف كثير من أهل العلم[6] على ضوئه رسائل وكتابات

---

(١) انظر : البخاري : الصوم ، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم (٤ / ١١٦) .

(٢) تقدم تخريجه ص ١١ .

(٣) أخرجه الترمذي : العلم ، باب ما نهى عنه عند حديث النبي ﷺ (٥ / ٣٨) وابن ماجة : المقدمة : باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ (١ / ٦) من حديث المقدام بن معدي يكرب ، وقال الترمذي : حسن غريب من هذا الوجه .

(٤) ورد نحوه في خطبة عمر بن عبد العزيز أخرجها الدارمي : المقدمة باب ما يتقى من تفسير حديث النبي ﷺ وقول غيره عند قوله ﷺ (١ / ١١٥) .

(٥) آل عمران : ٩٧ .

(٦) انظر مثلاً : حجة النبي ﷺ كما رواه عنه جابر رضي الله عنه للشيخ محمد ناصر الدين الالباني المطبوع بالمكتب الإسلامي ، بيروت .

في مناسك الحج بعد أن ضموا إليه أحاديث أخرى ، اشتملت على أحكام ، لا يستغني عنها ، وهذا الباب من الأبواب التي استفاضت فيها السنة بالبيان والتوضيح ، قولية أو فعلية ، كما لا يخفى على طلاب العلم فبالسنة عرفنا كيف نحرم ؟ وما الذي يحرم علينا بالإحرام ؟ ، بها عرفنا كيف نطوف ، وبها عرفنا السعي ، وكيف نسعى : من أين نبدأ وإلى أين ننتهي ؟ وأين نقف يوم عرفة ، وكيف ومتى ؟ إلى آخر أعمال الحج ، ولست أدري كيف يحج (الهوائيون) الذي سموا أنفسهم (بالقرآنيين) ما أضلهم ! وما أبعدهم عن الصواب !! وسيأتي الحديث معهم إن شاء الله .

البيــوع

البيوع : إن السُنن التي وردت لبيان الأحكام المجملة في القرآن ، أو التي انفردت بأحكام لم ترد في القرآن ، ليست تنحصر في أبواب العبادات فحسب ، بل للسنة دورها المعروف في جميع المباحث الفقهية من المعاملات والجنايات والحدود ؛ ففي البيوع نجد الآية الكريمة تقول : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾[1] فإذا راجعنا السنة الصحيحة ، نجد أنواعاً من البيوع المنهي عنها بالسنة المطهرة :

١ – منها البيع على بيع أخيه والسوم على سوم أخيه المسلم .

٢ – منها النجش[2] .

٣ – منها بيع الملامسة .

٤ – منها بيع المنابذة .

٥ – وبيع الحصاة .

٦ – وبيع المزابنة ، كما في حديث أنس عند البخاري .

٧ – منها حكم بيع الشاة المصرّاة وما يترتب عليه .

٨ – منها تلقي الركبان .

---

(١) البقرة : ٢٧٥ .

(٢) هو أن تزيد في السلعة لتوقع غيرك ، وليس لك حاجة في الشراء .

٩ - أن منها بيع حاضر لبادٍ ، وغيرها كثيرة ، ومعروفة في مواضعها من كتب السنة وكتب الفقه ، من البيوع المشتملة على الغرر والجهالة ، وكلها محرمة بالسنة ، كما وردت في السنة في هذا الباب أحكام أخرى كثيرة ، مثل خيار المجلس ، وخيار الشرط وغيرهما من الأحكام .

الحــــدود

الحدود : أما في هذه الأبواب ، فحدِّثْ دون تحفظ أو حرج عن السنن التي وردت بأحكام على وجه الانفراد ، قبل أن يكون لها ذكر في القرآن ، فلنأخذ مثالاً واحداً لنكتفي به ، وهو حد السرقة : يقول الله تعالى في بيان هذا الحد في كتابه العزيز : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم** ﴾[1] فلإقامة هذا الحد الذي أمرنا بإقامته ، نحتاج إلى معرفة أمرين اثنين :

(أ) ماهو المقدار الذي إذا أخذه السارق تقطع يده ؟ أي ما هو نصاب السرقة ؟ فبينت السنة ذلك ؛ إذ يقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : « لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدا »[2] .

(ب) ما حد اليد هنا ؟ هل هي من المنكب ؟ هل هي من المرفق ؟ أو هي من مفصل الكف ؟ والسنة الفعلية هي التي تجيب على هذه التساؤلات ، إذ كانوا يقطعون من مفصل الكف ، هذا ولو أردنا أن نسرد الأحكام التي أجملت في القرآن ، وبينتها السنة - أو الأحكام التي انفردت بها السنة في جميع الأبواب الفقهية ، لا حتاج المقام إلى سفْر ، فلنكتف بهذه الإشارة ، وهي كافية لمعرفة مكانة السنة ، ومنزلتها في التشريع الإسلامي ، وهو ما أردناه والله ولي التوفيق .

---

(١) المائدة : ٣٨ .

(٢) البخاري : الحدود ، باب قوله تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة** ﴾ الخ (١٢ / ٩٦) ومسلم : الحدود ، باب حد السرقة ونصابها (٣ / ١٣١٢ - ١٣١٣) ، أبو داود : الحدود ، باب ما يقطع فيه السارق (٤ / ٥٤٦) والنسائي : قطع السارق ، باب القدر الذي إذا سرقه السارق قطعت يده (٢ / ٢٥٤) من حديث عائشة .

من هم أعداء السنة ؟!!

على الرغم مما ذكر ، ومما لم يذكر من الأدلة القطعية من الآيات الصريحة ، والأحاديث الصحيحة ، وآثار الصحابة ، ومن بعدهم من أهل العلم .

على الرغم من تلك الأدلة التي تصرخ بأعلى صوتها ، بأن السنة صنو الكتاب ، وأن السنة هي الحكمة المذكورة في القرآن في غير ما آية ، وأنها من وحي الله ، وأن ديننا يؤخذ من الكتاب والسنة معاً ، لا من الكتاب وحده ، على الرغم من كل ذلك ، لم تسلَم السنة من تهجُّم جهلة المتفقهة ، وعداء غلاة الرافضة والزنادقة ، حيث زعمت الرافضة ، وجوب الاستغناء بالقرآن عن السنة في أصول الدين وفروعه والأحكام الشرعية ، لأن الأحاديث في زعمهم رواية قوم كفار ، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن النبوة إنما كانت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأن جبريل عليه السلام ، أخطأ فنزل بها إلى محمد عليه الصلاة والسلام بدل أن ينزل بها إلى علي . وهذا الزعم يعني : أن أمر الوحي كان مضطرباً ، ولا يصدر من تنظيم محكم من قبل رب حكيم سبحانه ، وإنما يتخبط فيه ملك الوحي (جبرائيل) عليه السلام ، وأن ملك الوحي نفسه ليس بمعصوم . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومنهم من يقر للنبي – عليه الصلاة والسلام – بالنبوة ولكنه يقول : إن الخلافة كانت حقاً لعلي – رضي الله عنه – فلما عدَل بها الصحابة إلى أبي بكر رضي الله عنه ، كفروا بذلك – في زعمهم – حيث جاروا وظلموا – في زعمهم – بعدولهم بالحق عن مستحقه ، وبالتالي كفّروا علياً ، لعدم طلبه حقه ، فبنوا على ذلك رد الأحاديث كلها ، لأنها – عندهم في زعمهم – رواية قوم كفار ، كما تقدم ، وهذه القاعدة الكفرية الواهية في نفس الوقت ، هي أساسهم في رد أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وأخيراً أطلق أتباع هؤلاء من المتأخرين على أنفسهم بأنهم (القرآنيون) أي العاملون بالقرآن ، المستغنون به عن السنة ، هذا تفسير كلمة (القرآنيون) حسب (رغبتهم) ، ولكن التفسير المطابق لواقعهم ، أنهم المخالفون للقرآن ، المتبعون للهوى ، وهذا أشبه بإطلاق كلمة (القدرية) على نفاة القدر ، لأنهم في الواقع مخالفون للقرآن ، خارجون عليه ، كما خرجوا على السنة ، لأن القرآن يدعو الناس إلى الأخذ بالسنة إيجاباً وسلباً ؛ إذ يقول الله تعالى : ﴿ **وما آتاكم**

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[1] ، ولا يتم الإيمان بالقرآن إلا بالإيمان الصادق بمن أُنزِلَ عليه القرآن ، والإيمان به إنما يعني تصديقه في أخباره اتباع أمره ونهيه . وقد ذكر الإمام السيوطي في رسالته اللطيفة (مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة) ، قاعدتهم هذه ثم قال مستهجناً ومستقبحاً : « ما كنت أستحل حكايتها لو لا ما دعت إليه الضرورة من بيان أصل هذا المذهب الفاسد ، الذي كان الناس في راحة منه من أعصار » إلى أن قال : « وقد كان أهل هذا الرأي موجودين بكثرة في زمن الأئمة الأربعة ، وتصدى الأئمة وأصحابهم للرد عليهم في دروسهم ومناظراتهم وتصنيفاتهم »[2] ، ثم ساق من نصوص كلامهم الشيء الكثير ، وقد سبق أن نقلنا من كلام أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم ، ما يكفي لمعرفة موقف أهل السنة من أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهو يتضمن تزييف كلام أهل البدع والهوى ، ومن أراد المزيد فعليه بالرسالة المشار إليها ، وقبلها رسالة الإمام الشافعي المعروفة ، وغيرهما من المراجع المعتبرة في هذا الباب ولو أخذنا نستعرض الأبواب الفقهية التي تقوم بتنظيم حياة الناس في معاشهم مثل أبواب البيوع التي مررنا بها مراً سريعاً ، بذكر بعض الأمثلة منها ، ومثل باب التفليس والحجر ، وباب الصلح والحوالة والضمان ، وبحوث الشركات والوكالة والشفعة والقرض ، ومبحث المساقاة والإجارة والهبة والعارية وغيرها ، من أبواب الفقه ، لو استعرضنا السنن التي تنبني عليها هذه الأبواب ومسائلها ، لوجدنا أن السنة هي التي تنظم للناس حياتهم اليومية ، لأن جميع المسائل الفقهية التي يتعامل الناس في معاشهم ، ويرجعون إليها في محاكمهم ، فمستندها إنما يكون إلى الكتاب أو السنة معاً ، ولا يصح حكم أو قضاء لا مسند له منهما . أما الكتاب ، فأكثر الأحكام التي وردت فيه من الأبواب المشار إليها ، إنما كانت مجملة ، وفصلتها السنة ، وقد تكون أكثر تلك الأحكام لم يرد بها نص في الكتاب ، وإنما انفردت بها السنة ، كما أوضحنا فيما سبق ، فكيف يزعم زاعم بعد هذا كله ، الاستغناء عن السنة ؟!! ودعوى الاستغناء عن السنة هي في واقعها محاولة للاستغناء عن الإسلام ، بأسلوب ملتوٍ ، غير صريح ، ويؤكد هذا ما سبق أن ذكرنا من أن أصل هذه المحاولة من الزنادقة ، وغلاة الرافضة ، الذين صرحوا بتكفير الصحابة ، الذين هم سند هذا الدين ، والذين نطق بهم القرآن وأثنى

---

(١) الحشر : ٧ .　　(٢) مفتاح الجنة للسيوطي (٦) .

عليهم ، من المهاجرين والأنصار ؛ وتكفير هؤلاء السادة ، إنما يعني تكذيب الله سبحانه في إخباره أنه رضي عنهم ورضوا عنه ، وأنهم اتبعوا رسوله ، النبي الأمي في ساعة العسرة .

كما يتضمن تكذيب خبر الرسول عليه الصلاة والسلام في ثنائه عليهم ، وشهادته لمجموعة كبيرة منهم أنهم من أهل الجنة ، ومن تجرأ على مثل هذا التصرف ، ووصل إلى هذه الدرجة ، فعليه أن يراجع الإسلام من جديد ، لأنه قطع علاقته بالإسلام بهذا التصرف ، الذي يعتبر ردة عن الإسلام ، والله المستعان .

وقد حاول هؤلاء الزنادقة إزالة السنة من الوجود ، والقضاء عليها لو استطاعوا ، أو أن يجعلوا وجودها وجوداً شكلياً ، فاقداً للقيمة ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منها شيئاً ، وانقلبوا خاسرين ومهزومين ، مثلهم كمثل الذي يحاول قلع جبل أُحُد مثلاً ، فيحوم حوله ، وفي سفحه ، وينقل من أحجاره حجراً حجراً ، ظناً منه أنه بصنيعه هذا يستطيع قلع الجبل وإزالته من مكانه ، أو كالذي يغترف من البحر اغترافاً بيده أو بدلوه ، محاولاً بذلك أن ينفد البحر أو ينقص ؛ وما من شك أن هذا المسكين سوف تنتهي أوقاته ويحل أجله المحدود ، والجبل جبل ، والبحر بحر بل يبقى البحر ثابتاً في مكانه ، يغوصه الغواصون من رجال هذا الشأن ، ليخرجوا للناس اللآلىء والدرر من المسائل العلمية النافعة ، كما يبقى الجبل ثابتاً وشامخاً ، يصعده أصحاب الخبرة ، ويترددون بين شعابه ، ليعثروا على ما قد يخفى على غيرهم بين تلك الشعاب المتنوعة ، التي لا يسلكها إلا الخواص ، ليخرجوا بالمسائل الدقيقة ، التي لا يفطن لها غيرهم – إذ لكل ميدان رجال .

هذه نهاية محاولة الرافضة ومن يشابههم ويسير في ركابهم ، وقد أراد المنكرون لأخبار الرسول عليه الصلاة والسلام ، بناء القاعدة الكفرية السابقة ، أن يجدوا ما يتعلقون به أمام خصومهم من أهل السنة وذهبوا يبحثون عن الأخبار والأحاديث التي تؤيد ما ذهبوا إليه ، من قريب أو بعيد ، وفي أثناء بحثهم ، عثروا على كلام باطل بطلان مذهبهم ونصّه هكذا : « ما جاءكم عني فا عرضوه على الكتاب ، فما وافقه فأنا قلته ، وما خالفه فأنا لم أقله » .

وطاروا به فرحاً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينفلتوا بحديثهم هذا من أيدي حراس

السنة ولم تنم عنهم تلكم العيون الساهرة ، حفظاً على السنة ، بل عثروا على حديثهم ذاك ، فأعلنوا أنه من أباطيلهم ودسائسهم ، حتى عرفه الناس ، فسجلوه في كتبهم ، وأجروا له عمليتهم الخاصة ، وفندوه وجرحوه ، وعرّوه ، حتى انكشف حاله ، فلله الحمد والمنة .

قال السيوطي في رسالته اللطيفة « مفتاح الجنة »[1] : ثم قال البيهقي : باب بيان بطلان ما يحتج به بعض من رد السنة ، من الأخبار التي رواها بعض الضعفاء ، في عرض السنة على القرآن – قال الشافعي – رحمه الله : احتج عليّ بعض من ردّ الأخبار ، بما روى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « ما جاءكم عني فاعرضوه على الكتاب ، فما وافقه فأنا قلته ، وما خالفه فأنا لم أقله » فقلت له : ما روى هذا أحد يثبت حديثه في شيء صغير ولا كبير وإنما هي رواية منقطعة عن رجل مجهول ، ونحن لا نقبل مثل هذه الرواية في شيء ا . ه .[2] .

قال البيهقي : أشار الإمام الشافعي إلى ما رواه خالد بن أبي كريمة ، عن أبي جعفر عن النبي عليه الصلاة والسلام ، أنه دعا اليهود فسألهم ، فحدثوه حتي كذبوا على عيسى عليه السلام ، فصعد النبي المنبر ، فخطب الناس ، فقال : « إنّ الحديث سيفشو عني ، فما أتاكم يوافق القرآن فهو عني ، وما أتاكم يخالف القرآن فليس عني » قال البيهقي : خالد مجهول ، وأبو جعفر ليس بصحابي ، فالحديث منقطع ؛ وقال الشافعي : ليس يخالف الحديث القرآن ، ولكن حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام بين معنى ما أراد خاصاً أو عاماً ، ناسخاً ومنسوخاً ، ثم يلتزم الناس ما سن

---

(١) مفتاح الجنة (٢١) .

(٢) قال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله : قال عبد الرحمٰن بن مهدي : الزنادقة والخوارج وضعوا حديث « ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله ، فإن وافق كتاب الله فأنا قلته وإن خالف فلم أقله » وقد عارض حديث العرض قوم ، فقال : وعرضنا هذا الحديث الموضوع على كتاب الله فخالفه ، لأنا وجدنا في كتاب الله : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ ووجدنا فيه : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ ووجدنا فيه : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ فقال الأوزاعي : الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب ، وقال ابن عبد البر : إنها تقضي عليه وتبين المراد منه ، وقال يحيى بن أبي كثير : السنة قاضية على الكتاب وقال الشوكاني : والحاصل أن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسلام (انظر : جامع بيان العلم وفضله) وإرشاد الفحول للشوكاني ص ٣٣ والدارمي : المقدمة ، باب السنة قاضية على كتاب الله (١ / ١٤٥) ومفتاح السنة (٤٣) .

بفرض الله ، ممن قيل عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فعن الله قبل ، ثم ذكر السيوطي بقية كلام البيهقي حول الحديث ، والله أعلم .

تقديس الآراء أدى إلى الإعراض عن السنة

وإذا كان الحامل للرافضة ، والمخدوعين بهم على ذلك الموقف العدائي ، هو ما تكشفه نفوسهم الخبيثة من الأحقاد على أصحاب رسول عليه الصلاة والسلام ، والظن السيىء برسول الله عليه الصلاة والسلام ، وعدم الإيمان به ، الإيمان الصادق ، واعتقادهم في الملائكة عدم العصمة ، وأخيراً عدم تقديرهم لرب العالمين حق قدره ، إذا كان الحامل لهم هو هذه المعاني - فيا ترى ما الذي حمل بعض المتفقة على هذا الجفاء والإعراض عن السنة ، والوقوف منها موقف المستغني عنها ؟!!

الجواب : الذي يبدو لي أن الذي حمل القوم على ذلك هو الغلو في تقديس آراء الرجال ، واعتبارها ديناً يدان به لرب العالمين ، وقد أدى بهم هذا الغلو إلى إساءة الظن بنصوص الكتاب والسنة ، فزعموا أنها إنما تقرأ وتسمع لأجل التبرك بألفاظها فقط ، لا للاهتداء بها بتطبيق الأحكام التي اشتملت عليها !!

صحيح أنها نصوص مباركة حقاً ، فكتاب الله كتاب مبارك ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك** ﴾[1] .

وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، مباركة أيضاً ، وإذا ما تعلم المسلمون كتاب ربهم وسنة نبيهم ، وعملوا بهما ، محللين حلالهما ، محرمين حرامهما ، ومطبقين أحكامهما على حياتهم العامة والخاصة حصلت لهم بركة لا يتوقعونها ، وقد حصلت لسلفهم يوم كانوا مؤمنين بهما حق الإيمان ، أجل لو فَعَل المسلمون اليوم ذلك ، لتغيرت حياتهم الجاهلية هذه ، إلى حياة إسلامية مباركة ، حياة الأمن والرفاهية ، حياة الرحمة ، يتمتعون فيها بالهيبة والمنعة والكرامة ، يستردون فيها كل ما سلبوا من حقوقهم المادية والمعنوية ، وتعود إليهم وحدة الصف ، وينالون فيها النصر والغلبة ، هذه هي البركة التي تتوقع من الإيمان بالكتاب والسنة ، أما البركة التي معناها حصول الرزق الواسع للمنزل الذي يقرأ فيه القرآن الكريم ، وصحيح البخاري وأن ذلك المنزل سوف يسلم من الحريق ، وتسلط العدو ، ومفاجآت

(١) الأنعام : ٩٢ .

الثعابين وغير ذلك من حوادث الأيام ، فنقول لهم : إنْ القرآن لم ينزل لهذا الغرض ، ولا السنة أوحت إلى النبي بهذا الغرض ، فعلى رسلكم - أيها القوم - !! وفي زعم هؤلاء (الركيِّين) : أنَّ النصوص معزولة عن حياة المسلمين العامة والخاصة ، وأن مصادر الأحكام هي آراء الرجال ، وإليها المرجع ، [فعلى أهل كل مذهب - إذا أرادوا معرفة حكم ما ، أن يرجعوا إلى أحكام الكتاب والسنة ، لا إلى آراء علماء مذهبهم ، ظنا منهم أن الدين كله في كتب أولئك العلماء ، التي يعتبرونها (موسوعة علمية) تضم (مجمع) آراء الرجال واجتهاداتهم واستحساناتهم واأقيستهم من الألف إلى الياء ، مع أن المرء لا يكاد يجد فيها آية واحدة أو حديثاً واحداً صحيحاً ليستشهد به المؤلف على حكم فى الإحكام] .

قد يتهمني بعضهم بالمبالغة ، إذا قلت إن هذا التعصب للمذاهب ، هو الذي حال بين كثير من المسلمين وبين فهم السنة ، كما يجب ، وهو من أسباب تفرق المسلمين وتشتتهم ، وبالتالي فهو من أسباب تخلف المسلمين ، وتسلط أعدائهم عليهم ، لأنهم خالفوا كتاب ربهم ، الذي هو عزهم ، وهو يناديهم بقوله : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾[1] حتى أصبحت الأمة الواحدة ، كأصحاب ملل مختلفة ، كل حزب بما لديهم فرحون ، وقد صار لهذا التفرق الديني - إن صح التعبير - أثره السيء في حياة الأمة الاجتماعية والسياسية . إن ما تعيشه أمتنا - اليوم - من هذا التشتت الذي لم يسبق له مثيل ، ومن التخاذل أمام أعدائهم ، والهزائم المتلاحقة ، والعجز عن إيجاد وحدة إسلامية ، تجمع شتات هذه الأمة ، كل ذلك من شؤم التعصب المذموم ، الممزق للأمة ، والله المستعان .

وقد تحدث غير واحد من أئمة المسلمين عن أضرار التعصب المذهبي ، وإعراض كثير من الناس بسببه عن الكتاب والسنة ، والاستغناء عنهما بالآراء ، واخترت لحديثي هذا نبذة من كلام الإمام ابن قيم الجوزية ، ثم أتبعه إن شاء الله بكلام شيخه ، شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله .

قال الإمام ابن القيم في بعض كتبه[2] : لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة ، والمحاكمة إليهما ، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما ، وعدلوا إلى الآراء ،

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) الفوائد : (٤٨ ، ٤٩ ، ١٠٤) .

والقياس ، والاستحسان وأقوال المشايخ ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم ، وظلمة في قلوبهم ، وكدر في أفهامهم ، ومحق في عقولهم ، وعمتهم هذه الأمور ، وغلبت عليهم ، حتى ربى فيها الصغير ، وهرم عليها الكبير ، فلم يروها منكراً ، فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن ، والنفس مقام العقل ، والهوى مقام الرشد ، والضلال مقام الهدى ، والمنكر مقام المعروف ، والجهل مقام العلم ، والرياء مقام الإخلاص ، والباطل مقام الحق ، والكذب مقام الصدق ، والمداهنة مقام النصيحة ، والظلم مقام العدل ، فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور ، وأهلها هم المشار إليهم ، وكانت قبل ذلك لأضدادها . ثم قال رحمه الله : فإذا رأيت دولة هؤلاء قد أقبلت ، ورأيتها قد نصبت ، وجيوشها قد ركبت ، فبطن الأرض – والله – خير من ظهرها ، وقلل الجبال خير من السهول ، ومخالطة الوحوش أسلم من مخالطة الناس – ثم قال – وهو ينصح لمن وقع في هذا الأمر – : اشتر نفسك اليوم ، فإن السوق قائمة ، والثمن موجود ، والبضائع رخيصة ، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير ، ذلك يو التغابن : ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا** ﴾[1] ثم أردف قائلا : « العامل بغير إخلاص ، ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا يثقله ولا ينفعه » ثم قال في وصف المتعصبين : « وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص ، والعلم وراء الكلام » ، كما قال حماد بن زيد : قلت لأيوب : العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم ؟!! فقال : الكلام اليوم أكثر ، والعلم فيما تقدم أكثر ، ففرّق هذا الراسخ بين العلم وبين الكلام ، فالكتب كثيرة جداً ، والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة ، والعلم بمعزل عن أكثرها ، وهو ما جاء به الرسول عن الله ، قال الله تعالى : ﴿ **فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم** ﴾[2] وقال : ﴿ **ولئن اتبعت أهْوَاءَهُمْ من بعد ما جاءك من العلم** ﴾[3] وقال في القرآن : ﴿ **أنزله بعلمه** ﴾[4] أي ومعه علمه . ثم واصل الإمام كلامه قائلا : « ولما بعد العهد بهذا العلم ، آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار ، وسوانح الخواطر والآراء علماً ، ووضعوا فيها الكتب ، وأنفقوا فيها الأنفاس ، فضيعوا فيها الزمان ، وملأوا بها الصحف مداداً ، والقلوب سواداً ،

---

(١) الفرقان : ٢٧ . (٢) آل عمران : ٦١ .
(٣) البقرة : ١٤٥ . (٤) النساء : ١٦٦ .

حتى صرح كثير منهم ، أنه ليس في القرآن والسنة علم ، وأن أدلتهما لفظية لا تفيد يقيناً ولا علماً ، وصرخ الشيطان بهذه الكلمة فيهم ، وأذن بها بين أظهرهم ، حتى أسمعها دانيهم لقاصيهم فانسلخت بها القلوب من العلم والإيمان كانسلاخ الحية من قشرتها ، والثوب من من لابسه » إلى أن قال : « وقال لي بعض أئمة هؤلاء : إنما نسمع الحديث لأجل البركة ، لا نستفيد منه العلم ، لأن غيرنا قد كفانا هذه المؤونة ، فعمدتنا على ما فهموه وقرروه ، ولا شك أن من كان هذا مبلغه من العلم فهو كما قال القائل :

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبطحاء أبعد منزل

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في وصف هؤلاء : « إنهم طافوا على أبواب المذاهب ، ففازوا بأخس المطالب ، ويكفيك دليلاً على أن هذا الذي عندهم ليس من عند الله ما ترى من التناقض والاختلاف ، ومصادمة بعضه لبعض ؛ قال تعالى : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾[1] وهذا يدل على أن ما كان من عنده سبحانه لا يختلف ، وأن ما اختلف وتناقض ، فليس من عنده ، وكيف تكون الآراء والخيالات ، وسوانح الأفكار ديناً يدان به ، ويحكم به على الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، وقد كان علم الصحابة الذي يتذاكرون فيه ، غير علوم هؤلاء المتخلفين الخراصين كما حكى الحاكم في ترجمة أبي عبد الله البخاري قال : « كان أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا اجتمعوا إنما يتذاكرون كتاب ربهم وسنة نبيهم ، ليس بينهم رأي ولا قياس ا . هـ » كلام شيخ الإسلام[2] .

وهذا لا يعني إنكار القياس كلياً ، فمثل قياس العلة أمر لا مفر منه ، والبحث معروف في موضعه .

وبعد ، هذا ما استحسنت أن أسجله ، في هذا المقام من كلام أهل العلم ،

---

(١) النساء : ٨٢ .

(٢) الفوائد (١٠٥) وقول البخاري هذا أخرجه الجوزقاني في كتابه : الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير بسنده عن الحاكم قال أخبرني أبو الفضل محمد بن يوسف بن ريحان الأمير ببخاري حدثني أبي قال سمعت أبا عبد الله محمد بن إسماعيل يقول ؛ وذكره (رقم ١١٠ ، بتحقيقي المطبوع بالجامعة السلفية ، بنارس ، الهند) .

للاستدلال على أهمية المقام ، وهو مقام جد خطير ، كما ترى إذا انشغل جمهور المسلمين اليوم بتلكم الآراء تاركين نصوص الكتاب والسنة وراءهم مهجورة ، وكأني بقائل يقول : إن المسلمين لم يهجروا كتاب ربهم ولم يهملوه ، بل قد انتشرت في الآونة الأخيرة إذاعة القرآن الكريم في عواصم المسلمين ، كما انتشرت مدارس تحفيظ القرآن في أكثر المدن ، بل خصصت الجامعة الإسلامية ، بالمدينة المنورة كلية للقرآن وعلومه المتنوعة ، فكيف يقال : إن المسلمين قد هجروا القرآن ، والحالة هذه ؟!!

الجواب : ما ذكر واقع وهو عمل نافع جليل إن شاء الله ، إلا أن هذا المقدار ليس هو كل ما يجب على المسلمين نحو القرآن ، بل كل ما ذكر إنما هي وسائل ، ولا ينبغي الوقوف عند الوسائل ، قبل الوصول إلى الغاية ، لأن الغرض من إذاعة القرآن وحفظه ودراسة علومه هو المحافظة عليه كدستور للأمة يجب الحفاظ عليه ، كما يجب الرجوع إليه في جميع مجالات الحياة ، ولا يكفي أبداً أن يحفظ ويذاع فقط دون أن يتحاكم إليه في أي شيء ، بل يجب أن يكون هو الحكم في كل شيء . واعتقاد خلاف هذا خطأ أو مغالطة ، لأن عدم الاحتكام إليه مع الاحتكام إلى غير ما أنزل الله يعتبر كفراً بالقرآن ، وهجراً له ؛ وهجر القرآن أنواع كثيرة ، مع التفاوت بينها ، يقول ابن القيم : « هجر القرآن أنواع خمسة » :

أحدها : هجر سماعه ، والإيمان به ، والإصغاء إليه .

والثاني : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه إن قرأه وآمن به .

والثالث : هجر التحكيم والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه ، واعتقاد أنه لا يفيد العلم اليقيني وأن أدلته لفظية لا يحصل لها العلم .

والرابع : هجر تدبره وتفهمه ، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه .

والخامس : هجر الاستشفاء به والتداوي به في جميع أمراض القلوب ، وأدرانها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به .

وكل هذا داخل في قوله تعالى : ﴿ **وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا**

القرآن مهجورا ﴾[1] ، (وإن كان بعض الهجر أهون من بعض) ا . هـ .[2]

هذا ما عنيناه بهجر المسلمين كتاب ربهم وإهمالهم إياه ، وكلام ابن القيم واضح شامل ، ولا شك أن أخطر أنواع هجر القرآن ، هو هجر تحكيمه والاستغناء بغيره ، واعتقاد أنه غير صالح لحل مشكلات العصر ، وما في هذا المعنى من العبارات الإلحادية التي يطلقها بعض الملحدين اليوم والتي تنبيء عن عدم الإيمان بالقرآن ، وعدم الاعتبار به ، إلا أنه آيات تتلى في بعض المناسبات . وتأكيداً لما ذكرت ، أنقل لكم ما قاله عن شريعة الإسلام مسئول عربي بدرجة (وزير) عندما سئل السؤال الآتي : (ما هو موقف حزب البعث من المنطق ذي الروح الإسلامية الذي تعرضه بعض الدول العربية المحافظة في نظرها للمشكلات العربية اليوم ؟!! أما زال الحزب محافظاً على نظريته العلمانية تجاهها ؟!!) .

هكذا نص السؤال .

قال المسئول جواباً على هذا السؤال : (نحن نختلف مع الذين يظنون أن في الإسلام الخلاص من المآزق التي تقع فيها الأمة العربية ، أما أولئك الذين يعملون على تنشيطه للحركات الإسلامية ، والشريعة القرآنية فهم يحملون نظرة لا تتوافق معنا ، ونحن لا نعتقد بهذه الأشياء ونحن بالتأكيد حزب علماني) إلى أن قال : (وفي هذه المرحلة التاريخية التي نعيشها ، فنحن نعتقد أنه يجب علينا إيجاد طرق علمية وعملية للتطبيق أكثر من الأديان)[3] .

وبعد ، هذا ما آلت إليه قيادات الأمة الإسلامية في كثير من البلدان ، وهو يحتم على طلاب العلم أن يكرسوا جهودهم في دراسة الكتاب والسنة ، ليسلحوا أنفسهم بسلاح العلم والمعرفة ، ويؤهلوا بذلك أنفسهم للقيادة ، بعد إتمام دراستهم ، هادفين إصلاح ما فسد من أمر هذه الأمة المسكينة ، التي وقعت فريسة الإلحاد الشيوعي ، الذي أخذ يحلق بها من جميع الجهات ، ليفسد عليها أمر دينها ويبعدها عن إسلامها وقرآنها وسنة نبيها ﷺ ، كما يجب عليهم أن يهدفوا إلى تغيير ذلك المفهوم السائد لدى كثير من الأوساط من أن دراسة شريعة القرآن ، لا تؤهل الإنسان للقيادة

---

(١) الفرقان : ٣٠ . (٢) الفوائد : ٨٣ .

(٣) مجلة الجامعة الإسلامية – العدد الأول – العام ١١ .

والإصلاح ، وحل مشكلات العصر وأن الذي يتولى القيادة ، يشترط فيه أن يكون (واشنطونيّ) الفكر أو (لندنيه) ، وأن يكون (باريسيّ) الأخلاق أو (رومانيّها) وأخيراً أن يكون (موسكوي) العقيدة أو (بكينيّها) ، وعلى طلاب العلم الديني أن يغيروا هذا التصور الملحد ، ليبينوا للناس أن الدارس للإسلام وشريعة القرآن صالح للقيادة ، بل يشترط فيمن يتولى قيادة الأمة الإسلامية أن يكون بعيداً من تلك المواصفات السابقة الذكر ، بل يجب أن يؤمن بالله ربّاً ومعبوداً وبالإسلام ديناً ومنهجاً ، وبالقرآن دستوراً ، وبمحمد ﷺ رسولاً وإماماً وأسوة ، وأن يكون ذا بصيرة وفقه في الدين ، محمديّ الأخلاق والسلوك والعقيدة ، وبالله التوفيق .

إذا درسنا الكتاب والسنة بهذه الهمة ، وعلم الله منا الصدق والإخلاص في ذلك سوف يوفقنا الله ، ويكلل علمنا بالنجاح بإذنه ، لأن الأمر كله له ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهذا الضرب من الدراسة ، نوع من الجهاد ، فلير الله منكم الإخلاص ، والصدق في جهادكم أيها الطلبة : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾[1] ، وكل الذي أريد أن أصل إليه أن تعلموا أن هدف الأهداف من دراسة هذا المنهج الذي تدرسونه ، في جامعتكم هذه ، أن تخرجوا إلى العالم بعد إتمام دراستكم ، لتساهموا في حركة البناء والإصلاح ، لإيجاد مجتمع إسلامي ، مجتمع مبني على أسس ثابتة ، مأخوذة من دراسة الإسلام العظيم وهي :

١ - الرضى بالله رباً ومعبوداً وحده ، الذي له الحكم وحده ، والحكم حكمه ، والأمر أمره ، والخلق خلقه .

٢ - الرضى بالإسلام ديناً ومنهاجاً وطريقاً إلى العزة والكرامة ، وهو الذي فيه الخلاص من جميع المشكلات ، والخروج من المآزق : ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً** ﴾[2] .

٣ ـــ والرضى بالنبي محمد ﷺ رسولاً وقدوة وأسوة وإماماً للمتقين،وهم المتبعون له .

٤ ـــ والرضى بالقرآن الكريم دستوراً ومنهاجاً للحياة الكريمة ، حياة العز

---

(١) العنكبوت : ٦٩ . (٢) الكهف : ٥ .

والشرف .

٥ – والرضى بالسنة النبوية كمصدر ثان من مصادر التشريع الإسلامي ، يتوقف المصدر الأول على بيانه ، في كثير من موارده وأحكامه .

إن المجتمع الذي هذه أسس بنائه ، هو المجتمع الإسلامي ، وكل مجتمع يتخلف في بنائه مادة من هذه المواد وتغيب ، فهو مجتمع جاهلي ، رضي أو أبى ، والله الهادي وحده سواء السبيل .

والله ولي التوفيق

الرسالة الخامسة

مشاكل الدعوة والدعاة

في العصر الحديث



الحمد لله المنعم المتفضل تفضل علينا بنعمة الإسلام والدعوة إليه وصلاة الله وسلامه وبركاته على رسوله المصطفى والنبي المرتضى نبيناً محمد وآله وصحبه أئمة الهدى ودعاة الحق والتابعين لهم على منهاجهم في الدعوة إلى الله تعالى . وبعد .

فإن بمعرفة الدعاة ، سنة الله مع دعاة الحق قديماً وحديثاً وكيف امتحن الله الرسل وأتباعهم ، إن هذه المعرفة تخفف على الدعاة وطأة المشاكل والمحن إذا أوذوا في سبيل دعوتهم – ولابد أن يؤذوا – .

ومما قاله ورقة بن نوفل لرسول الله عليه الصلاة والسلام عندما زاره في صحبة خديجة أم المؤمنين ليخبره ما جرى له في جبل حراء مع جبريل ، مما قاله ورقة « ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أوذي »[1] .

تلك هي سنة الله مع دعاة الحق . ولن تجد لسنة الله تبديلاً .. ولن تجد لسنة الله تحويلاً . لو ذهبنا لتعرف كيف عاشت أول رسالة إلى أهل الأرض وهي رسالة نوح عليه السلام لرأينا هذا الرسول يقاسي من قومه صنوفاً من المشاكل من سخرية السفهاء وعناد المعاندين . وعلى الرغم من ذلك نراه يجابه الجاهلية ويصدع بالحق ﴿ **أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون** ﴾[2] وثارت الجاهلية وعاندت وكابرت وأخيراً أخذ نوح عليه السلام يجأر إلى الله ويدعو عليهم الدعاء الأخير :

﴿**رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً۝إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً** ﴾[3] ولو تركنا نوحاً وتمرد الجاهلية ودعاء نوح بالهلاك لنرى تلك المحنة التي عاشها خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ جاء إبراهيم قومه بأسلوب لا يتوقعونه إذ قام من توه بأسلوب يهدم الجاهلية ليبني على أنقاضها الإسلام ، الإسلام الذي لا يقبل الله سواه ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾[4] .

---

(١) أخرجه خ بدء الوحي وغيره من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها حديث رقم (٣) وأطراف الحديث في ستة مواضع في الجامع الصحيح .

(٢) سورة نوح الآية : ٣ .

(٣) سورة نوح : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٨٥ .

صاح فيهم صيحة الحق قائلاً ﴿ **أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** ﴾[1] .

فهاجت الجاهلية وجن جنونها وقررت أخيراً التخلص من هذا الرسول ورسالته وأصدرت قرارها القائل ﴿ **حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين** ﴾[2] بيد أنه صدر من السماء قرار ﴿ **يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾[3] فأبطل هذا القرار مفعول قرار الجاهلية ولله الحمد والمنة ، هكذا امتحن الرسولان الكريمان وكانت العاقبة للمتقين .

موسى عليه السلام

أما موسى عليه السلام فقد تنوعت المشاكل معه ورافقته المحن والمخاوف وهو رضيع ثم شبت معه حيث أخذ يحاول الطاغية فرعون التخلص منه وهو رضيع ثم بدأ يؤذيه سفهاء قومه من جهة ، فتجلد حتي بلغ رسالة ربه في وسط تلك الأمواج المتلاطمة من المحن المتنوعة . فيخبر القرآن آخر قصة موسى مع فرعون فيقول ﴿ **ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر** ﴾[4] .

عيسى عليه السلام

إذا كان موسى عليه السلام قد رافقته المحن – كما قلنا – منذ أن كان في المهد صبياً ، فإن عيسى عليه السلام قد واجهته ألوان من الشكوك موجهة إليه وإلى والدته فور أن وجد في هذه الدنيا فقاسى ضروباً من العنت إذ اختلف فيه القوم بين قائل هو ابن الله أو الله نفسه وبين قائل هو ولد بغي ، فجعل عيسى عليه السلام يعرف القوم نفسه وحقيقته فيما تخبرنا به سورة مريم : ﴿ **قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً * وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً * وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً * والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً * ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون** ﴾[5] وعلى

(١) سورة الأنبياء الآية : ٦٧ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٦٨ .
(٣) سورة الأنبياء الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ .
(٤) سورة القمر الآيتان : ٤١ ، ٤٢ .
(٥) سورة مريم الآيات : ٣٠ – ٣٤ .

الرغم من هذه الحقيقة التي شرحها القرآن الكريم لم يزل القوم يتمردون عليه ويؤذونه ولكنه كان يقابل كل ذلك بالصبر الجميل والتحمل وكان محاطاً بعناية الله تعالى : وقد تآمروا على قتله وصلبه ولكن الله جعل فداءه ذلك الرجل الذي كان دليلاً لهم يدلهم على مخبئه ، فقتلوه ثم صلبوه جزاء وفاقاً . فأشاعوا بأنهم قتلوا عيسى وصلبوه ، فيوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة ويخبر أن تلك الإشاعة عنه ليس لها أصل من الصحة فيقول الله تعالى : ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾[1] .

محمد رسول الله والذين آمنوا به واتبعوه

مضت الأيام تلو الأيام والشهور تلو الشهور والدهور تلو الدهور ليحين وقت بزوغ فجر الإسلام من جديد من واد غير ذي زرع من عند بيت الله المحرم بمكة المكرمة فولد محمد عليه الصلاة والسلام بمكة المكرمة وترعرع فيها فعرف عند قومه من صغره بالصدق والأمانة ، فكانت له شخصية وكسب شعبية بأخلاقه الكريمة ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[2] فلما كلفه ربه بأن يبلغ رسالته وأن يصدع بالحق ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾[3] دعاهم إلى الإسلام فاستنكر القوم هذه الدعوة واستغربوا هذا الأسلوب الجديد الذي لا عهد لهم به والرسول ينادي فيهم : « قولوا لا إله إلا الله تفلحو »[4] : فأدرك القوم معنى هذه الكلمة وأنها تعني القضاء على آلهتهم ، وبالقضاء عليها يقضي على نفوذهم الواسع وسلطانهم الجاهلي .

فلما كان لصاحب الدعوة من المكانة في أنفسهم سابقاً لم يتجرأوا في أول الأمر على قتله وقتل دعوته في مهدها ، بل اتبعوا أساليب شتى قبل قرار القتل الذي سوف نتحدث عنه إن شاء الله ، فعرضوا عليه المال أو الجاه والرياسة ، ولم ينجح العرض

---

(١) سورة النساء الآيتان : ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢) سورة « ن » الآية ٤ . (٣) سورة الحجر الآية : ٩٤ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤٩٢ / ٣ ومن حديث ربيعة بن عباد الدبلي وكان جاهلياً مسلم ٣٤١ / ٤ بإسناد صحيح وقد أخرجه أيضاً ٦٣ / ٤ ، وذلك من حديث شيخ من بني مالك رضي الله تعالى عنه .

إذ رأوا أنه ليس لديه أدنى ميل إلى هذه الأمور التي يرونها عظيمة ، فعمدوا إلى أسلوب خسيس يريدون به تدمير أعصاب الرسول ﷺ - لو استطاعوا - والقضاء على الروح المعنوية العالية فأخذوا يقترحون اقتراحات ساخرة ، يحدثنا القرآن عن شيء من ذلك فيقول :

« ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾[1] ولما لم ينجح هذا النوع من الأسلوب أيضاً أخذوا يفترون على من سموه من قبل أنه الصادق الأمين[2] ويلقبونه بألقاب مفتريات ويشيعون ضد الدعوة إشاعات هم يعلمون عدم صحتها قبل غيرهم ولم يتركوا باباً من المكر والمكيدة إلا طرقوه وها هو القرآن الكريم يحدثنا عن مكرهم :

﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾[3] .

ولما لم تنجح جميع الوسائل التي أشرنا إليها من عرض المال والرياسة والسخرة والشائعات والافتراءات ، وهي ما يسمونه بالحرب النفسية لجأ القوم إلى الحرب الحسية ينالون بها من صاحب الرسالة وأصحابه حيث تفجرت أحقادهم ، فعقدت جلسة خاصة ومهمة لسادات قريش في الحجر واستعرضوا الموقف ودرسوه وعددوا ما فعل النبي عليه الصلاة والسلام وما قال في حقهم وفي حق آلهتهم قالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط : سفه أحلامنا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا وشتم آباءنا وعاب ديننا[4] إلى آخر ما عددوه ، ومن باب الموافقة أن يمر بهم النبي عليه الصلاة والسلام وهم يتحدثون في أمره ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به من كل جانب وصاحوا به قائلين : أنت الذي تقول كذا وكذا ؟ فيجيبهم الرسول

---

(١) سورة الإسراء : ٩٠ - ٩٣ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤٢٥ / ٣ وذلك من حديث السائب بن عبد الوهاب رضي الله تعالى عنه بإسناد صحيح.

(٣) سورة إبراهيم الآية : ٤٦ .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٣١٨ / ٢ بسياق طويل عن طريق ابن إسحاق وهو يصرح بالسماع عن شيخه يحيى بن عروة وإسناده حسن .

عليه الصلاة والسلام بكل ثقة وثبات . نعم أنا أقول كذا وكذا وأرادوا قتله ، فأدركهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه فانبرى للدفاع عنه فأخذ يدفع هذا ويجأ هذا في بطنه وهو يقول : ﴿ **أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله** ﴾[1] .

ولما أعجزتهم جميع الحيل عقدوا مؤتمراً خطيراً في زعمهم في الأيام التي أخذ المسلمون يهاجرون فيها إلى المدينة وظنوا أن الفرصة سانحة فلا تفوت ، ومن الاقتراحات المهمة التي طرحت على بساط البحث والمناقشة للتخلص من النبي ودعوته هي الآتية :

١ - أن يسجن سجناً مؤبداً ولا يفك .

٢ - أن يقتل على أيدي عدد من شباب قريش ينتخبون من عدة قبائل ليتفرق دمه بين القبائل .

٣ - أن ينفى من البلد .

ولما وضعوا خطتهم وحزبوا أمرهم كشف الله السميع القريب أسرار مؤتمرهم ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾[2] هذا وكانت المحنة على ضراوتها وقسوتها لا تزيد محمداً عليه الصلاة والسلام وصحبه إلا صلابة وتصميماً ، تصميماً في المضي مهما كانت التضحيات .

وفي الوقت الذي كانوا يؤذونه عليه الصلاة والسلام هذا الإيذاء كانوا يؤذون المؤمنين به ويعذبونهم بألوان العذاب ، وقد سجل التاريخ ما فعل أمية بن خلف ببلال الحبشي في بطحاء مكة ليكفر بمحمد ويعبد اللات والعزى ولا يزيد بلال على قوله أحد أحد[3] وهو تحت تلك الصخرة ولكن إيمانه كان أعظم وأثبت وكانت هذه الكلمة من بلال تعني الهتاف بلا إله إلا الله . وقل هو الله أحد وفي مكان آخر

---

(١) سورة غافر الآية : ٢٨ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٣٠ .

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة ٣١٧ - ٣١٨ / ١ بإسناد حسن إذ قال حدثني عبد الله بن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ثم ذكر بعض الشيء ثم ذكر قصة بلال رضي الله تعالى عنه ونقل عنه الحافظ في الإصابة ص ١٦٥ / ١ .

من مكة أيضاً نرى آل ياسر يعذبون ويفتنون ليكفروا بالإسلام ويعبدون اللات والعزى . ويموت الأب وهو شيخ كبير تحت التعذيب من توه كما تقول بعض روايات السيرة .

أما الأم الشجاعة فقد أغلظت القول على أبي جهل فطعنها لشدة جهله برمحه فقتلها فهي أول شهيدة في الإسلام . وكان النبي عليه الصلاة والسلام يمر بآل ياسر وهم يعذبون فيقول لهم « صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة »[1] .

وقد شهدت أيام النبوة أبطالاً خلد التاريخ بطولتهم وشجاعتهم وثباتهم على عقيدتهم مهما كلفهم ذلك من الثمن . ولو كان الثمن إزهاق أرواحهم الطاهرة فلنتخذ منهم خبيب بن عدي كمثال فقط لندرك أثر العقيدة في نفوسهم .

يقول علماء السيرة أن خبيباً أحد الذين بعثهم النبي عليه الصلاة والسلام إلى بعض القبائل التي تسكن بين مكة والمدينة وهي قبيلة عضل وما جاورها من القبائل فبينما هو في طريقه اعتقل ثم حمل إلى مكة وباعه المجرمون لبني الحارث بن عامر ابن نوفل ليقتلوه بحارث بن عامر الذي قتله خبيب يوم بدر ، وفي اليوم المحدد لقتله خرجوا به من الحرم إلى التنعيم ليقتلوه في الحل بعد أن يصلبوه فاستأذن منهم ليصلي ركعتين[2] يناجي فيهما ربه هو ساجد فأذنوا له فصلى ركعتين حسنتين ، فلما فرغ أقبل عليهم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أنني جزع من الموت لاستكثرت أو لأطلت ، فرفع خبيب على الخشبة فقيل ارجع عن الإسلام نخلي سبيلك . فقال : لا والله ما أحب أن أرجع عن الإسلام وأن لي ما في الدنيا جميعاً ، وله دعوة مستجابة على الكفار في هذه المناسبة مسجلة في كتب السير وكتب الحديث ولا نطيل بذكرها .

ومما قاله خبيب وهو معلق مصلوب (اللهم إني لا أرى إلا وجه العدو ، اللهم إنه ليس ها هنا أحد يبلغ رسولك عني السلام فبلغه عني أنت) فبلغ جبريل سلامه إلى النبي ﷺ فأخبره النبي ﷺ أصحابه .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦٢ / ١ بإسناد صحيح وذلك من حديث سالم بن أبي الجعد وأورده النووي في تهذيب الأسماء للنووي رقم الترجمة ٣٠ ص ٣٧ الجزء الثاني من القسم الأول .

(٢) أخرجه خ الجهاد (١٧٩) المغازي (١٠) (٢٨) وذلك من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه انظر الفتح ٣٠٨ – ٣٠٩ / ٧ حديث رقم ٣٩٨٩ .

فأخذوا يمزقون جلده أشلاء برماحهم وهو يترنم بأبياته المشهورة التي منها :

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي ... وما أرسل الأحزاب عند مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع
ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي

* * *

وفي وسط هذه المحنة والمشاكل المحزنة أظهر الله دينه وقويت شوكته وأعز الله أتباعه حتى قامت له دولة في طيبة ، فطابت لأتباعه وطاب مقامهم بها ، فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يستقبل الوفود تلو الوفود وهم يدخلون في الإسلام ويسألون عن تعاليمه ، وفي الوقت نفسه يرسل جيشه إلى الأطراف لدعوا إلى الله بالتي هي أحسن أولا وللمعاند السيف هكذا أظهر الله الإسلام وأعز أهله ولو كره الكافرون .

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[1] ، **﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾**[2] .

ثم سلم الرسول ﷺ الزمام لرجال أمناء تسلموا الدعوة وساروا بها سيرتها الأولى لم يغيروا و لم يبدلوا فأخذوا يفتحون القلوب قبل أن يفتحوا البلاد فأقبل الناس على الإسلام محبة وتقديراً لحملته لما رأوا فيهم الرحمة والإنصاف والعدل وعدم التناقض وهي الصفات التي جعلت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً .

هكذا مثل الإسلام أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام وأتباعهم وحببته إلى الناس ثم انتهت تلك القرون التي هي بحق خير هذه الأمة « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »[3] .

---

(١) سورة المنافقون الآية : ٨ . (٢) سورة الصف : ٨ ، ٩ .
(٣) صحيح مضى تخريجه ص ٢٥ وقد أخرجه خ وم وغيرهما وذلك من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه .

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الدعوة وشوهوا الإسلام وأدخلوا فيه ما ليس منه ، فاشتدت غربة الدين من جديد ، فوقع الدعاة في مشاكل ومحن غير متوقعة إذ واجهت الدعوة صنوفاً من الضغط والاضطهاد من أولئك الذين يتظاهرون بالإسلام بل في زعمهم أنهم أتباع صاحب الرسالة والمحبين له .

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

مشاكل الدعوة بين الماضي والحاضر

استعرضنا عرضاً سريعاً مشاكل الدعوة عبر التاريخ الطويل للدعوة اعتباراً من عهد نوح عليه السلام إلى العصر الحديث محاولين الربط بين ماضي الدعوة وحاضرها لنقارن بين المشاكل والمحن المحدقة بالدعوة والدعاة فيهما ، وتبين لنا من هذا العرض أن المشاكل التي واجهتها الدعوة في الماضي البعيد والقريب كان مصدرها أعداء الدعوة المكشوفة عداوتهم الذين يعادونها علنا مما جعل الدعاة يحذرونهم ويحتاطون لمكائدهم ولا يفاجأون بها إذا ظهرت ، بل يقابلونها بكل ثقة وثبات دون اضطراب أو قلق .

أما في العصر الحديث فتواجه الدعوة الإسلامية ودعاتها مشاكل ومحناً لا قبل لهم بها من المنتسبين إلى الإسلام بل من المنتسبين إلى الدعوة نفسها أحياناً كما سيأتي بيان ذلك .

نوعية المشاكل في الماضي

أما نوعية المشاكل والمحن في الماضي قريباً كان أو بعيداً تنجلي فيما يلي :

١ – إيذاء الدعاة في أنفسهم وأتباعهم وتعذيبهم لمحاولة إيقاف الدعوة .

٢ – تقديم بعض المغريات كالأموال والمناصب والرياسة للدعاة ، ولكن دون جدوى .

٣ – محاولة القضاء على الدعوة في مهدها بقتل صاحب الدعوة أو حبسه أو نفيه أو إخراجه من أرضه وإبعاده في الآفاق كما مر بنا تفصيل ذلك .

هكذا كانت نوعية المشاكل في العصور الغابرة ، وكلها باءت بالفشل كما رأينا ،

إذ جعل الله العاقبة للرسل وأتباعهم ، ونصرهم على أعدائهم ﴿ **وما النصر إلا من عند الله** ﴾[1] .

﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين* إنهم لهم المنصورون* وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾[2] .

نوعية المشاكل في العصر الحديث

تعيش الدعوة الإسلامية في العصر الحديث حياة لا تعرف لها مثلاً في العصور الغابرة ، وقد تنوعت المشاكل وتعددت ، مما جعل دعاة الحق يحتارون في أمر الدعوة ومشاكلها المتنوعة وكيفية التغلب عليها حتى صار هذا التفكير شغلهم الشَاغل . وفي الإمكان أن نوجز أهم تلك المشاكل فيما يلي :

(أ) الجهل أي عدم تصور الإسلام تصوراً صحيحاً .

(ب) التناقض الذي يصيب بعض الدعاة أحياناً .

(ج) النفرة وعدم الانسجام بين المنتسبين إلى الدعوة الإسلامية .

(د) وجود بعض الطوائف الضالة التي تعمل في بعض البلاد باسم الإسلام (كالقاديانية) .

(هـ) المناهج العقيمة المقررة في كثير من جامعاتنا .

(و) آثار الاستعمار الباقية في كثير من البلدان الإسلامية .

تفصيل الكلام على المشاكل الست :

(أ) الجهل :

حقاً إن الجهل داء فعلى الداعية أن يبدأ بتكوين نفسه وعلاج دائه قبل أن ينزل الميدان للدعوة وذلك بالفهم الصحيح . بأن يوجه اهتمامه إلى أخذ العلم من مصدره الأصيل الكتاب والسنة على أنهما هما المصدران للشريعة أصولها وفروعها وبدراستهما يحصل العلم النافع والهدي والسيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة : ﴿ **إن هذا القرآن**

---

(١) سورة الأنفال الآية : ١٠ .

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٧١ – ١٧٣ .

يهدي للتي هي أقوم ﴾[1] ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أوتيت القرآن ومثله معه »[2] كما ينبغي له أن يدرس السيرة العطرة ولا بأس أن يطلع على ما تزخر به المكتبة الإسلامية الحديثة من كتب قيمة تستند إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة في بحوثها ومعالجتها للحوادث العلمية .

وبذلك يتكون لدى الدارس تصور صحيح لهذا الدين في أحكامه وتشريعاته وعقيدته وعبادته وأخلاقه .

وبذلك يحصل له الفقه في الدين . وهو التصور الصحيح للإسلام – كما قلنا – يتصور ويفهم فهماً دقيقاً معنى الألوهية ومعنى العبادة ومعنى الجاهلية ، وما أصدق كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ يقول : « إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية[3] هو الفقه الذي يريده النبي عليه الصلاة والسلام في قوله : « من يرد الله به خيراً يفقه في الدين[4] .

وعدم هذا الفقه هو الذي جعل أهل الكلام يسمون فلسفتهم توحيداً وتعطيلهم تنزيهاً وإثبات غيرهم تشبيها . وألفوا في ذلك مؤلفات تدرس اليوم في كثير من معاهدنا وجامعاتنا باسم التوحيد وليس فيها طعم التوحيد ولا روحه ، بل قد أبعدوا النجعة ، فهم كما قال القائل :

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبطحاء أبعد منزل

وهؤلاء في واد والتوحيد والعقيدة في واد .

فكم حالت تلك المؤلفات بين شبابنا وبين فهم العقيدة الإسلامية التي نطق بها الكتاب والسنة كنتيجة للتصور الخاطيء للإسلام وعقيدته ولقد أحسن من قال :

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتمويه

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٩ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٣٠ – ١٣١ / ٤ من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله تعالى عنه بإسناد صحيح وأخرجه الآجري في الشريعة من هذا الوجه وأورده السيوطي في مفتاح الجنة .

(٣) مضى بيانه ص ١٧٠ .

(٤) مضى تخريجه أخرجه خ العلم (١٠) الخمس (٧) م الإمارة (١٧٥) أحمد في مسنده ٣١٦ / ١ من حديث ابن عباس وغيره من الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين رأي فقيه
كلا ولا جحد الصفات ونفيها حذراً من التمثيل والتشبيه

* * *

هذا وإن عدم الفقه الدقيق هو الذي حمل العباد أو المنتسبين إلى التنسك والتعبد على ابتداع طقوس بعيدة عن روح الإسلام وأطلقوا عليها أسماء من عند أنفسهم على حساب الإسلام وفرقوا بها جماعة المسلمين ووزعوهم على تلك البدع وأعلنوا عن أنفسهم أنهم أهل الله وأحباؤه . ولهم صلاحية ليست للأنبياء والرسل . إذ في إمكانهم أن يأخذوا الدين وشرائعه عن الله مباشرة بغير واسطة جبريل ودون الحاجة إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام .

وهكذا تدعو جهلة الصوفية إلى الردة من حيث لا تشعر أو من حيث تشعر بالنسبة لأقطابهم ، ومن تلكم الطرق المبتدعة الطرق الآتية أسماؤهم :

١ – الطريقة التيجانية .
٢ – الطريقة القادرية .
٣ – الطريقة السنوسية .
٤ – الطريقة المرغنية .

إلى آخر تلكم الأسماء التي وزعت المسلمين طرائق قدداً وسماها أولئك الذين لا فقه لهم في الدين أنها من طوائف المسلمين بل زعم بعض هؤلاء أن أصحاب هذه الطرق من دعاة الإسلام وأنهم هم الذين انتشر الإسلام بدعوتهم في العالم . يالها من فرية ما أفظعها ويالها من جهل ما أقبحه .

إن هي لا بدع سميت بغير أسمائها لو كانوا يفقهون .

ولا يستكثر على مشايخ الصوفية أن يأتوا كل بدعة وأن يقولوا كل قول بعيد عن الصواب لأنهم أوعية جهل – لو صح هذا التعبر . ولعلي لا أثقل عليكم لو نقلت لكم بيتاً صوفياً يشتمل على الوعظ والإرشاد في دين الصوفية وهذا نصه :

فأكثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على الكريم

(تيسير العزيز الحميد ص ٦٧) وأتركه هكذا دون تعليق لتأخذوا حريتكم في التعليق : وجهلهم مركب وهو من أقبح نوعي الجهل كما لا يخفي ولكن الذي يخجل ويحمل المرء على الاستغراب أن يتبنى الدعوة إلى هذه الطرق المبتدعة ويعد أصحابها من دعاة المسلمين علماء أجلاء ولو في نظر العامة ودكاترة محترمون ، كيف جهلوا بأن هذه الطرق عقبة من العقبات التي يشكو منها دعاة الحق في كل مكان وليس بينها وبين الإسلام صلة قرابة إذ تتنافى تعاليم الإسلام في أصوله وفروعه ، ودعوى أنها من البدع الحسنة دعوى عارية عن الدليل ، إذ لا يوجد في الإسلام ما يسمى بالبدعة الحسنة . ورحم الله الإمام مالكاً إمام دار الهجرة إذ يقول : « من ابتدع في الإسلام بدعة فرآها حسنة فقد اتهم محمداً بالخيانة وعدم التبليغ » أو كما قال الإمام رحمه الله .

حقاً إنه لا يكون ديننا اليوم ما لم يكن ديننا أمس في عهد النبوة ، ولقد عظمت المصيبة على الأمة الإسلامية في العصر الحديث بهاتين البدعتين بدعة الكلام وبدعة الطرق الصوفية .

أما بدعة الكلام فقد صرفت شباب الجامعات وكثيراً من طلاب العلم في المساجد في كثير من البلدان الإسلامية عن دراسة العقيدة الإسلامية التي كان عليها سلف هذه الأمة والتي نطق بها الكتاب . وشرحتها السنة فقد جهلها كثير ، من شبابنا المخدوعين بذلك الكلام المذموم الذي ذمه أئمة المسلمين وحذروا منه .

ومن المغالطات الغريبة أن يطلق على عقيدة طائفة من أهل الكلام أنها عقيدة أهل السنة والجماعة وهي بعيدة عن السنة وعما كانت عليه الجماعة بعدهم عنها . وهم يدخلون في عموم قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير** ﴾[2] .

وقد شغلت تلكم المغالطة وزخرف القول فراغ قلوبهم واستولت على عقولهم ولم يبق مكان لقبول الحق إلا من رحم ربك وأدركه بلطفه .

---

(١) سورة الحج الآية : ٨ . (٢) سورة الحج الآيتان : ٣ ، ٤

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله في بعض كتبه[1] .

قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده ، هكذا كما أنه في الأعيان فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات . فإذا كان القلب ممتلئًا بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع .

فلنستمع ما قاله بعض أئمة الهدي في ذم الكلام وأهله :

١ – قال الإمام أبو يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة وصاحبه (من طلب الدين بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيمياء أفلس . ومن طلب غريب الحديث كذب)[2] .

« قال الإمام الشافعي حكمي في أهل الكلام : أن يطاف بهم في القبائل والعشائر ويضربوا بالجريد والنعال ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام . وقد اطلعت من أهل الكلام على شيء مما ظننت مسلماً بقوله ، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى عنه ما خلا الشرك بالله خير له من أن يبتلي بالكلام[3] .

وما أروع ما قال الإمام مالك رحمه الله . « أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد عليه الصلاة والسلام لجدل هؤلاء » ؟؟ .

فكم كان غريباً ومثيراً أن ينتسب هؤلاء الكلاميون إلى الأئمة المذكورين في الفروع الفقهية ثم يخالفونهم في أصول الدين فيما يعتقدون نحو ربهم !! .

فهل يعتقد هؤلاء البلداء أن الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة السلف كانوا على ضلال في عقيدتهم وأصول دينهم بينما هم على حق في الفروع .

هذا ما يستنتج من موقفهم رضوا أم أبوا !! إنها قضية ولا أبا حسن لها !! – كما يقولون . وأما بدعة الطرق الصوفية فهي الأخرى قد حجبت كثيراً من المخدوعين لها عن فهم حقيقة العبادة في الإسلام حتى يظن جمهور المخدوعين أن التعبد أو التنسك معناه التصوف ، وبالتالي غيرت الصوفية لديهم مفهوم الذكر فقد ظن أكثرهم أن ذكر الله – عبارة عن اجتماع لفيف من الناس في مكان ما – وفي الغالب يكون

(١) الفوائد .
(٢) شرح الطحاوية ص ٢٢٩ .
(٣) المصدر السابق .

عند ضريح من أضرحة المشايخ والسادة ويعقدون حلقات يطلق عليها – ظلماً وعدواناً – حلقات الذكر ثم يأخذون في التمايل يميناً ويساراً وهم يقولون : الله الله وأخيراً هو هو وإذا حمي الوطيس فلا تسمع إلا حوه حوه أو ح ح . وقد يطفأ السراج – إن أقيمت الحضرة ليلاً – ليأخذ الذاكرون حريتهم وليصل الذكر إلى حد الكمال ويصل الواصلون !! يا للإسلام ما أعظم مصيبة أتباعه .

وأما العبادة عند المتصوفة فهي عبارة عن إقامة الحفلات الموسمية كالاحتفال باسم المولد النبوي والاحتفال باسم الإسراء والمعراج وعيد أول السنة الهجرية وعيد النصف من شعبان ، وصورت الصوفية لجمهور المخدوعين أن هذه الاحتفالات والأعياد هي الإسلام بل هي من أعظم ما يتقرب به المسلمون إلى الله فطالما يحافظون عليه فهم بخير والحمد لله شرقوا أو غربوا أو ألحدوا أو وحدوا والعبارة المخدرة لا تفارق ألسنتهم « أمة محمد بخير » .

ولا شك أن الباحث الفهيم المهتم بشئون الدعوة الإسلامية يرى أن أفظع فتنة فتنت بها الأمة في العصر فتنة علم الكلام وفتنة التصوف وجميع المشاكل التي سوف نتحدث عنها إن شاء الله تتفرع معظمها عن هاتين البدعتين والله المستعان .

(ب) التناقض :

إذا تحدثنا عن حاجة الدعاة إلى التصور الصحيح للإسلام وأن عدم تصورهم للمفهوم الصحيح للإسلام هو عقبة من العقبات في سبيل الدعوة إذ أثبتنا حاجتهم تلك ، فهم إلى التطبيق العملي والتفاعل مع الإسلام أحوج . بحيث تكون حياتهم ترجمة واضحة لمنطوق الإسلام وصورة كريمة تمثل الإسلام وتحببه إلى الناس فالأمة الإسلامية بحاجة ماسة إلى دعاة يتوسمون خطى الدعوة في أقوالهم وأفعالهم ، في حياتهم الخاصة في أنفسهم وفي بيوتهم وفي حياتهم العامة ليصبحوا بذلك قدوة للمجتمع الذي يعيشون فيه ، والداعية الناجح هو الذي يهذب الناس بسيرته قبل أن يهذبهم بلسانه ، ويدعوهم إلى الله بخلقه وحسن سلوكه قبل أن يقول شيئاً بلسانه .

فكم تشكو الدعوة الإسلامية في العصر الحديث من تناقض الدعاة تشكو من دعاة يعظون ولا يتعظون ، يقولون ما لا يفعلون ، يأمرون ولا يأتمرون ، ينهون ولا ينتهون ، دعاة تكذب أفعالهم أقوالهم في الغالب ، نسمع خطباً منبرية قوية .

وتحمسات وانفعالات ، وثرثرة ولا شيء غير ذلك (نسمع جعجعة ولا نرى طحناً) .

وقد بلغ الأمر والحال ببعض من ينتسب إلى الدعوة والإصلاح أنه قد يترك الصلاة أو صلاة الجمعة وإذا سئل عن ذلك يكون الجواب أنه في إجازة .

ويعد هذا صنفًا من الدعاة إلى الإسلام ، فما رأي المستمع الكريم ؟!! .

(جـ)النفير وعدم الانسجام :

توجد في العصر الحديث جماعات تدعو إلى الله ولكنها في الغالب تتخبط على غير بصيرة . فالواجب على دعاة الحق أن يكونوا على بصيرة فاهمين ما يدعون إليه ومتصورين له ، ومؤمنين به .

﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾[1] هاتان صفتان لأتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

١ - القيام بواجب الدعوة .

٢ - أن يكسبوا البصيرة قبل أن يشرعوا في الدعوة .

والبصيرة هي العلم الذي مصدره الوحي والفقه الدقيق الذي يستفيد منه الداعية الحكمة وحسن الأسلوب وكسب القلوب والتحبب إلى الناس دون تملق ولا نفاق ، والتحابب بين المسلمين عامة وبين الدعاة خاصة أمر ضروري لحياة الدعوة بل سبب لرضى الرب تعالى ودخول دار الكرامة « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم »[2] .

ومما تشكوه الدعوة الإسلامية هذا اليوم النفرة وعدم الانسجام وقلة التعاون بين الجماعات التي تتصدى كل واحدة منها للدعوة إلى الله . وفي الواقع أن أكثر تلكم الجماعات بحاجة ماسة إلى من يدعوهم إلى الله ويبصرهم في دينهم حتى يكنوا مؤهلين أولا في أنفسهم للدعوة بالقضاء على التنافر فيما بينهم وتنافر مناهجهم

---

(١) سورة يوسف الآية : ١٠٨ .

(٢) أخرجه م الإيمان (٩٣) ت : الأطعمة (١٤٥) القيامة (٥٦) جه المقدمة (٩٠) وأحمد في مسنده ٣٩١ / ٢ وذلك من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

وبراجهم في العمل .

وهذه الجماعات أشبها بالأحزاب السياسية المتنافسة لمصالحها الشخصية وأغراضها الذاتية هي ذاتها محنة من المحن ومشكلة من المشاكل للدعوة والدعاة معاً إذا هي بقيت على وضعها ولم تُعِدْ النظر في سلوكها ومنهج عملها وبرامهجها وأساليب دعوتها وسياتها فخطرها على الدعوة يفوق كل خطر يهدد الدعوة من خارجها . فعلى هذه الجماعات أن تدرس تاريخ الدعاة الأولين من الصحابة والتابعين الذين نطق بهم القرآن وبه نطقوا والذين انتشر الإسلام بدعوتهم ، بل عليهم أن يفهموا الدين كما فهم أولئك السادة ويسيروا سيرتهم وينسجوا على منوالهم مع ملاحظة الأساليب المناسبة في العصر الحديث والملابسات والظروف وأحوال الناس .

وإن لم يسلكوا هذا المسلك فسوف لا يكتب لدعوة أي نجاح أو أي تقدم لأنه عمل لم يستوف الشروط وهو عمل غير صالح وسوف لا يجدي ما أوتي أصحابها من الدهاء وسحر البيان والجدل والاستغفال . أجل قد ينطلي هذا الأسلوب على بعض الناس فترة من الزمن ويحسبونهم صادقين في دعوتهم لكثرة لمعان الأسلوب ، ولكنه لا ينطلي على الله الذي بيده النجاح والتوفيق . فعليهم أن يراقبوا الله وحده لأنه هو الذي له الأمر كله وبيده الخير كله لا إله إلا هو ولا رب سواه ، وهو المستعان .

(جـ) المنــاهج التعليميـة :

مما منيت به الدعوة الإسلامية في هذا العصر أن كثيراً ممن يتصدون للدعوة إلى الإسلام أولئك الذين يتخرجون في الجامعات التي تدرس تلكم المناهج العقيمة البالية التي لا تنتج إلا الجهل بحقيقة الإسلام والجمود الفكري وبرودة الهمة .

فيتخرج الطالب وليس أمامه أي هدف إلا البحث عن وسيلة العيش فقط فيأخذ يطرق جميع الأبواب التي تؤمن له العيش فإذا لم يجد سبيلاً إلى ما يريد ، يوظف كداعية أخذ شهادته المزركشة في طولها وعرضها على الجهة المسئولة عن الدعوة رسمياً فيوظف تحت عنوان :

* * *

فينزل الداعية الجديد الميدان ليدعو إلى الله وليس لديه أي تصور للدعوة في أسلوبها وسياستها وآدابها ودراسة أحوال المدعوين ، فيتخبط خبط عشواء يميناً ويساراً على حساب الدعوة الإسلامية المظلومة التي أصبحت (تكية) يتعيش منها كل محتاج إلى العيش - هل يقوم بواجب الدعوة أولا يقوم ؟ هذا السؤال غير وارد ...

نوعية المنهج :

يحسن بنا أن نعرف شيئاً عن هذا المنهج الذي تحدثنا عنه ووصفناه بأنه منهج غير صالح وأنه عقيم لئلا يكون كلامنا مجرد دعوى لا بينة لها . فلنتخذ من مواد المنهج كله ثلاث مواد رئيسية تمثل المنهج كله فيما قلنا عنه :

١ - مادة التوحيد .

٢ - مادة الفقه .

٣ - مادة التاريخ .

أولاً : أن مادة التوحيد ليس لها قسم خاص وإنما تدرس في قسم الفلسفة وهذا يعني أن التوحيد عندهم مادة من مواد الفلسفة وفي الواقع أن الفلسفة شيء والتوحيد شيء آخر لا صلة له بها إن كان التوحيد هو ذلك الذي نطق به الكتاب والسنة ولا علاقة لفلسفة أرسطو وأفلاطون بالتوحيد الذي يؤخذ من الوحي : فالثري غير الثريا .

بعض الكتب المقررة في مادة التوحيد :

من أمهات الكتب التي تدرس هذه المادة الخطيرة :

١ - أم البراهين .

٢ - حاشية الباجوري على السنوسية .

٣ - حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد .

٤ - حاشية الدسوقي .

٥ - الهدهدي .

٦ - الشرقاوي ... إلخ .

الموضوعات التي تشتمل عليها هذه الكتب :

تبحث هذه الكتاب الموضوعات التالية :

مبحث الاستواء والعلو .

مبحث المحبة والرحمة .

مبحث الغضب .

مبحث الكلام وغيرها ولكننا نخص بالبحث هذه الصفات التي اخترناها لأهميتها وهذه الصفات كلها يدرسها الطالب لا ليثبتها ويؤمن بها على مراد الله ومراد رسوله كما جاءت . ولكن يدرسها ليتعلم كيف يردها ويعطلها وينفيها عن الله بدعوى أنها لا تليق بالله على الرغم من أنَّ الله هو الذي أثبتها لنفسه .

﴿ **أأنتم أعلم أم الله** ﴾[1] الله سبحانه وتعالى هو أعلم بما يليق به . ثم يسمون ذلك التعطيل والنفي تأويلاً وتنزيهاً ، وهل يغير حكم الخمر تسميتها ماء زلالا أو لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ؟؟!!

فتجد الطالب يدرس ما لا يقبل عقله الحر لو ترك على حريته ، ولكنه مضطر أن يدرس وأن يقبل كل ما يدرسه مما جاء في تلك الكتب ،: مكره أخاك لا بطل : فيقول المنهج مثلا لا يجوز أن يعتقد بأن الله في العلو ، وآيات الكتاب الكريم والسنة المطهرة والعقل الصحيح والفطرة السليمة كل أولئك يثبتون علو الله على خلقه وأنه ليس في ذاته شيء من خلقه ولا في خلقه شيء من ذاته وهو فوق سماواته بائن من خلقه بل كل واحد يجد من نفسه ما يدفعه إلى اعتقاد العلو ويرفع أكف الضراعة إلى العلي الأعلى قبل أن يستشير علماء الكلام هل ذلك لائق أم لا ؟ وهو أمر فطري ولم ينقل خلاف ذلك إلا عن بشر المريسي أحد الجهمية مع أنه يقول سبحان ربي الأسفل . قبحه الله هو وأتباعه .

فيعيش الطالب حياته كلها في هذه الاضطرابات الفكرية حائراً لا يدري ماذا يفعل؟ هل يصدق المنهج على علاته فيقع في الإلحاد في صفات الله وأسمائه ؟ أو هل

---

(١) البقرة : ١٤٠ .

يتجرأ على مخالفة المنهج ليتبع ما جاء به جبريل إلى محمد عليه الصلاة والسلام من ربه وفي ذلك صلاحه ونجاحه ؟ .

فلنستمع لبعض النصوص التي يرى المنهج وجوب تأويلها وأن ظاهرها لا يليق بالله :

١ - ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾[1] . إن الله كتب كتاباً وهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي[2] .

٢ - ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾[3] .

٣ - « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[4] .

٤ - ﴿ **وجاء ربك والملك صفاً صفاً** ﴾[5] .

هذه النصوص وأمثالها نزلت على الرسول عليه الصلاة والسلام وعلمها أصحابه وفهموها وآمنوا بها ولم يروا وجوب تأويلها بل لم يتكلموا فيها بشيء ، وهكذا من بعدهم من التابعين إلى عهد المأمون العباسي في المائة الثانية فدبت فتنة الكلام إلى صفوف المسلمين بواسطة الكتب اليونانية المترجمة إلى العربية في الفلسفة والمنطق .

فسلطت الفلسفة على المطالب الإلٰهية فأعرض الناس عن النصوص في هذا الباب فصاح فيهم شيطان الفلسفة وعلم الكلام بأن النصوص لا تفيد اليقين وأنها ظنية وأن الأدلة العقلية هي اليقينية ودعوا عنكم الظنية إلا حين توافق اليقينية ، ومن تاريخ هذه الصيحة المنكرة أصاب منهج التوحيد انحراف خطير فشب على ذلك الوليد وشاب الكبير فأنكروا استواء الله على عرشه على ما يليق به كما أخبرنا عن نفسه ، كما أنكروا أن يكون القرآن كلام الله ، وأنه يحب أولياءه ويحبونه ، وأنه يرحم عباده على ما يليق به ، ويجيء لفصل القضاء يوم القيامة كما يليق به سبحانه .

---

(١) سورة طه الآية : ٥ .

(٢) صحيح سبق تخريجه ص ٢٧ أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

(٣) سورة التوبة الآية : ٦ .

(٤) صحيح سبق تخريجه وقد أخرجه الترمذي وأبو داود انظر ص ١١٤ وأخرجه الحاكم قاله العلامة المباركفوري في التحفة .

(٥) سورة الفجر الآية : ٢٢ .

والطالب الذي يدرس المنهج يتعلم فلسفة التعطيل والتحريف فيتخرج موحداً أي معطلاً ومنحرفاً فتصبح كلمة التوحيد ولفظة الموحد من ألفاظ الأضداد .

الفقــه :

وأما مادة الفقه فهي عبارة عن آراء بعيدة وخالية عن الأدلة بل هي مسائل فرضية لا صلة لها بالواقع أو استحسانات شخصية لا طعم لها ولا لون وكل طالب يدرس آراء تنتمي إلى مذهب معين محاولاً أن يثبت آن آراء وقياس مذهبه أفضل من آراء وقياس مذاهب الآخرين ولا يمرن الطالب على استنباط الأحكام من الكتاب والسنة على أنهما مصدران للتشريع الإسلامي وعلى الرغم من ذلك يتخرج عالماً من علماء المسلمين وداعية إلى الله تعالى .

وفي الواقع أن انحراف المنهج التعليمي ليس وليد العصر الحديث بل راجع إلى القرون التي خلت .

فلنستمع للعلامة ابن القيم وهو يتحدث عما أصاب المسلمين كنتيجة لانحراف المنهج التعليمي ، والعلامة ابن القيم من أعيان القرن السابع الهجري يتحدث عما أصاب المسلمين من الإعراض عن الكتاب والسنة وهو يقول :

« لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم وظلمة في قلوبهم وكدر في أفهامهم ومحق في عقولهم . إلى أن قال : قامت فيهم البدع مقام السنن ، والنفس مقام العقل ، والهوى مقام الرشد ، والضلال مقام الهدى ، والمنكر مقام المعروف ، والجهل مقام العلم . ثم قال رحمه الله فإذا رأيت في دولة هذه الأمور أقبلت ، وراياتها قد نصبت ، وجيوشها قد ركبت فبطن الأرض والله خير من ظهرها . وقلل الجبال خير من السهول . ومخالطة الوحش خير من مخالطة الناس . والله المستعان »[1] .

مــادة التــاريـخ :

أمَّا مادة التاريخ فهي عبارة عن سرد حوادث وقعت في القرون الخالية وأماكن

---

(١) الفوائد لابن القيم ص ٤٣ .

وقوعها وزمانها والإخبار بأن فلانًا ولد في اليوم الفلاني في السنة الفلانية وكانت وفاته في عام كذا إلى آخر تلكم الحكايات ، ولا يتفقه الطالب في فقه السيرة وعبر التاريخ ولا يعلم شيئاً عن أخبار أبطال المسلمين وترجمة أئمة المسلمين وعلمائهم .

وهكذا يتخرج من هذا المنهج الجدليون والقصاصون وأصحاب الآراء الذين يجيدون كيف يفرضون المسائل الفرضية التي لا وجود لها في دنيا الناس ، ولقد ملأ هذا الصنف معاهدنا وجامعاتنا ومراكز الدعوة دون جدوي منهم في مجال الدعوة . بل صاروا عقبة في سبيل الدعاة الصالحين والعلماء العاملين والله المستعان .

(د) بعض الطوائف المنحرفة التي تعمل باسم الإسلام :

ومما منيت به الدعوة الإسلامية في العصر الحديث وجود طوائف تعمل في ميدان الدعوة باسم الإسلام ومن تلكم الطوائف القاديانية التي نشأت بالقارة الهندية وباضت وفرخت قبل أن يحرك علماءُ المسلمين المسئولون عن الدعوة الإسلامية أي ساكن بل لم يفطنوا لها ولانحرافها إلا بعد أن تمكنت في القارة في طولها وعرضها واستفحل أمرها فألفت الكتب ووزعتها ، وأنشأت المدارس ونشرت مبادئها ، ثم أخذت تنتشر في أطراف الدنيا . والمدهش من أمر علماء المسلمين المهتمين بالدعوة الإسلامية في القارة التي ظهرت فيها القاديانية أول ما ظهرت وفي الجهات التي ظهر فيها نشاطها أخيراً . والعجيب من أمرهم أنهم لم يحركوا بنت شفة في استنكار مبادئها وبيان زيفها وتحذير الناس منها إلا في الآونة الأخيرة بعد أن تمكنت في الأرض كما قلت سابقاً . وعلى الرغم من القرار الذي اتخذته بعض الجهات الإسلامية بأن – القاديانية تعتبر أقلية إسلامية في أرضها على الرغم من ذلك فلا تزال الطائفة تزاول نشاطها في الجهة نفسها وفي الجهات الأخرى التي انتشرت فيها سابقاً ، كبعض دول أفريقيا .

وتعتبر الطائفة ونشاطها عقبة أمام دعاة الحق في تلك الجهات ، وقد استمالت قلوب العوام بتلك النفقات الباهظة التي تنفقها على المدارس والمؤمنين بها بسخاء منقطع النظير .

فالواجب على جميع الجهات المسئولة أو المهتمة بالدعوة السعى في إيقاف هذا النشاط الهدام كلياً طالما ثبت كفر هذه الطائفة وردتها بتكذيبها نصوص الكتاب

والسنة التي تنص على أن محمداً عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين ولا نبي بعده[1] .

وبذلك نكون قد عملنا شيئاً في تقليل المشكلات الكثيرة التي عرقلت سير الدعوة في كثير من الجهات وشغلت بال الدعاة ، علماً بأن القضاء على نشاطهم ليس بالأمر السهل بل الموقف يحتاج وقتاً غير قصير مع وجود الحزم والصدق لأن كثيراً من عوام المسلمين الذين لا يفرقون بين الشحم والورم قد اعتنقوا مبادىء هذه الطائفة منذ أمد بعيد وافتتنوا بها فشغلت أذهانهم الخالية بأفكارهم المسمومة وخدعتهم أساليبهم المعسولة ولقنوهم الكفر والإلحاد باسم الإسلام . صحيح أن نشاط هذه الطائفة بدأ يضعف في بعض الجهات التي كانت قد تمكنت فيها وذلك بنشاط أهلي محلي قد يقوم به سكان المنطقة كما لاحظنا ذلك في نيجيريا في هذه الأيام القريبة ، فقد علمت في أثناء زيارتي الأخيرة لنيجيريا في بعض المناسبات بأن نشاط القاديانية قد خف الآن حتى انحصر في المدارس الثانوية بل قد أخذ القاديانيون المحليون يراجعون الإسلام من جديد بعد أن كانوا دعاة مخلصين للقاديانية . هذا خبر سار ولكنه لا يجعلنا نتكل ونترك العمل في القضاء على هذا النشاط في جميع مراحل مدارسنا ومؤسساتنا وبالله التوفيق .

وإذا كنا قد تساهلنا عند ظهورها كما رأينا فلا ينبغي أن نتساهل مرة أخرى وهي مدبرة إذ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين[2] . والله المستعان .

(و) الاستعمار الغربي :

الحديث عن القاديانية يذكرنا للمشكلة الأم . ألا وهي الاستعمار الغربي لأن القاديانية بل وجميع الطوائف المنحرفة التي تكيد للإسلام والمسلمين باسم الإسلام أغلبها من منتجات الاستعمار أو أصدقاء الاستعمار – بل إن بعض الطوائف الصوفية كان لها علاقة قوية وودية مع الاستعمار أيام كان الاستعمار يفسد في هذه المناطق الإسلامية كالمرغنية وفروعها ، عرف الناس ذلك أم جهلوا إلا الخواص .

---

(١) أخرجه خ المناقب (١٨) م.الفضائل (٢٢) وأحمد في مسنده ٣٩٨ / ٢ انظر ص ١١٢ من هذه الرسالة انظر المسند ٣٣٨ / ٣ .

(٢) أخرجه خ الأدب (٨٣) م الزهد (٦٣) د : الأدب (٢٩) جه : الفتن (١٣) الدارمي في الرقائق (٦٥) الإمام أحمد في مسنده ١١٥ / ٢ وذلك من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما .

إن الاستعمار الغربي الذي سيطر على كثير من البلدان الإسلامية لم يكن مخططه أن يستغل خيرات البلاد ويستعبد سكانها فحسب - كما يظن البعض - بل كان من أهم مخططاته محاربة الإسلام وتجهيل المسلمين بدينهم على حقيقته بجميع الوسائل الممكنة له الظاهرة والخفية .

الوسائل التي استعملها الاستعمار في محاربة المسلمين

١ - نشر الثقافة الغربية على نطاق واسع مع السعي في التخفيف من الثقافة العربية الإسلامية أو القضاء عليها إن أمكن ولو مع طول الزمن .

٢ - تشجيع مدارس التبشير المسيحي وتدوين مناهجها لكي ينصرف أبناء المسلمين إليها تاركين مدارسهم الإسلامية وقد نجح في ذلك كله .

٣ - تشجيع الطوائف المنحرفة التي تعمل باسم الإسلام في ميدان الدعوة كالقاديانية وبعض الطوائف الصوفية ليتمكن من ضرب الإسلام ودعوته من الداخل بأيد تنتمي إليه تلهج بذكره وهذا أخطر سلاح استعمله الاستعمار ضد الإسلام ودعوته .

٤ - اعتبار اللغة الإنجليزية لغة رسمية في كثير من البلدان العربية والإسلامية مما جعل شبابنا يقبلون على تعلم هذه اللغة في الوقت الذي يجهلون فيه لغتهم الأصلية بل استطاع الاستعمار أن يحمل شبابنا السذج على كراهة الإسلام وأهله بدعوة أنه دين تعصب ودين تأخر وانطلى هذا الكلام على شبابنا لجهلهم حقيقته فضلوا .

فوقف الاستعمار والمؤمنون به حجر عثرة في سبيل الدعوة الإسلامية وأخيراً غادر المستعمرون بلادنا وديارنا بعد أن تركوا على تركتهم ورثة مخلصين ليحافظوا على تركتهم لأنهم يتمكنون من العمل في صالحهم أكثر مما يتمكنون هم أنفسهم .

وهذا يعني أن الاستعمار لم يخرج حتى الآن من بعض البلاد الإسلامية . ولا أدل على ما قلت من أن اللغة الإنجليزية لا تزال رسمية في بعض تلك البلاد والذين يستعملونها هم من المسلمين رسمياً ولهم لغتهم وثقافتهم وما ذاك إلا لأنهم ورثة

مخلصون يقدرون لغة المورث كما يقدرونه .

وهؤلاء الورثة أشد عداوة لدعاة الإسلام ودعوتهم .

والله المستعان .

* * *

الاستعمار الشـرقي

بينما يعاني الدعاة تلك المعاناة من الاستعمار الغربي وورثته المخلصين ، إذا هم يفاجأون باستعمار من نوع آخر أشد ضراوة وأشد حقداً على الدعوة الإسلامية وأهلها . وهو الاستعمار الشرقي الملحد ، وكان ماكراً يظهر للغوغائيين نوعاً من الرحمة في أسلوب معسول يخدع السذج من الناس . فقد خدع الطبقة الفقيرة ووعدهم بثراء يأتيهم بين عشية وضحاها إذا آمنوا به وأخلصوا له ليثيرهم ضد الأغنياء وأصحاب الأموال الطائلة وكان يضحك على سذاجة الفقراء ، فيقول لهم : إن هؤلاء الإقطاعيين طالما ظلموكم ونحن نريد أن نمن عليكم وننقذكم مما أنتم فيه من الفقر والحاجة ونرفعكم إلى المستوى اللائق بكم لنحقق بذلك العدالة الاجتماعية حتى تعيشوا مع هؤلاء الأثرياء الإقطاعيين جنباً إلى جنب . من هنا طار الفقراء فرحاً وصفقوا لهم حتى كلت أيديهم من التصفيق . وهتفوا لهم بالبقاء – يعيش يعيش حتى بحت حناجرهم فجعل الفقراء ينتظرون الثراء الموعود به من السادة المستعمرين الشيوعيين فلم يجدوا شيئاً بل الحالة تزداد سوءاً . فإذا المستعمرون يهجمون على أموال الأثرياء فيصادرونها باسم الفقراء ولكن لم تنقل إلى خزائن الفقراء – كما كان يتوقع الفقراء – بل نقلت إلى خزانة خاصة لتشتري بها الضمائر الرخيصة والأيدي الأثيمة لتسلط على دعاة الإسلام وعلماء المسلمين بالتعذيب والتشريد والتقتيل لمحاولة القضاء على الدعوة وأهلها ظناً منهم بأن الدعوة سوف تموت بموت الدعاة والعلماء – خابوا وخسروا – صحيح أن الدعوة في المنطقة أصيبت بنكسة خطيرة بموت القادة المسئولين ولكنها لم تمت ولن تموت بإذن الله بل سوف تبقى ما بقيت الغبراء تحت الخضراء بل إنها تواصل سيرها إلى الأمام ولو كره المجرمون المستعمرون والمؤمنون بهم . إن هذا الاستعمار الشرقي من مكائده أنه دخل المنطقة وهو ينادي ويهتف

مع المواطنين يسقط الاستعمار .. يسقط الاستعمار .. الاستعمار عدو الإنسانية إلى آخر الهتافات المضللة فاطمأن الغوغائيون وهتفوا بحياة الرفيق المخلص على درب الحرية الرفيق .. الرفيق .. ولكنه لم يرفق بهم ولم يرحمهم فجعل يظهر في كل بلد بوجه وبلقب جديد ويتلون بحسب الظروف .

الشيوعيون ، اليساريون ، الاشتراكيون ، الاشتراكية العربية ، الاشتراكية الإسلامية الاشتراكية المحلية ..

وهكذا ولا يزال يفسد في الأرض ويسفك الدماء ويهلك الحرث والنسل ويكسب الأصدقاء من أناس من بني جلدتنا ويتكلمون بلساننا وينتسبون إلى ديننا وإسلامنا فيما يبدو للناس ، وعلى الرغم من ذلك كله أن هذا الاستعمار هو صديق جمهور الغوغائيين لأنه يمدنا بالأسلحة التي يحارب بها الاستعمار إنها من عجائب الدهر !! وهل هناك استعمار أظلم من هذا الاستعمار الذي لم يترك لنا ديناً ولا دنيا ﴿ **إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾[1] فما قيمة الأسلحة التي ندفع ثمنها ديننا وعقيدتنا ؟؟ . أفلا يعقلون ؟

دعوة محمد بن عبد الوهاب وصمودها للمشاكل

وفي القرن العشرين كان يعيش محمد بن عبد الوهاب في قلب بلاد نجد في بلدة (حريملة) فرأى العالم المصلح أن ظاهرة جاهلية أخذت تنتشر في طول البلاد وعرضها ، إذ رأى الناس يترددون إلى جذوع النخل وقبور الموتى فيطلبون من الموتى والجمادات ما لا يطلب ولا يملكه إلا خالق الأرض والسماوات – رأى الناس يطلبون المغفرة والشفاء مثلا ، كما لاحظ غلبة الخوف الزائد والقلق من شياطين الجن والاستعاذة بهم إذا خافوا منهم . وفي الوقت نفسه لاحظ الداعية أن الأمة الإسلامية التي يتصل بها عندما كان يطوف أكثر البلاد لطلب العلم لاحظ أنهم كلهم – إلا ما شاء الله – أصيبوا بنفس الجاهلية بل أقبح منها ، وبجانب ذلك رأى كتاب الله لا يرجع إليه لأخذ الأحكام منه وإنما يحكم الحكام بغير ما أنزل الله .

هذه الظواهر الجاهلية جعلت الشيخ يفكر في إصلاح العقيدة وإصلاح الأحكام

(١) سورة الحج الآية : ٤٦ .

حتى يكون الحكم لله والعبادة له وحده والمتابعة لرسوله ﷺ وحده فهاجم الجاهلية وصارح الناس بأن ما هم عليه ليس من دين الإسلام في شيء ، فدعاهم إلى الرجوع للإسلام الحقيقي : عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله ، وأن يعبد الله بما جاء به محمد عليه الصلاة و السلام دون ابتداع في الدين وأن تؤخذ الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله رأساً دون لف ودوران في الآراء والاستحسان ولقوانين والعادات . فحمل المصحف يدعو إلى الرجوع إليه والاكتفاء به والسنة تشرحه وتفصل مجمله . من هنا ثارت الجاهلية وهاجت وصاحت قائلة : إن ابن عبد الوهاب أتى بدين جديد وبمذهب خامس ، والداعية ماض في دعوته ولا يلتفت إلى ما يقال ويشاع وكأني به يقول :

وما لي إلا آل أحمد شيعة   وما لي إلا مذهب الحق مذهبُ

نجاح دعوته رحمه الله

ولما أراد الله نجاح هذه الدعوة المباركة قيض الله لها ملوك آل سعود فحملوا السيف بجانب المصحف ، فالشيخ يدعو ويجادل بالتي هي أحسن ويسوق الأدلة من الكتاب والسنة محاولاً إقناع المخدوعين ليرجعوا إلى الحق . ومن اقتنع ورضي بالله رباً معبوداً وحده . – وبمحمد نبيًا ورسولاً وإماماً وقدوة وحده ، وبالإسلام ديناً لا يقبل الله سواه واتبع سبيل المسلمين وكفر بما يعبد من دون الله فهو الأخ المسلم له جميع حقوق المسلمين كائنا من كان وعليه ما علي المسلمين .

ومن لم يتبين له الحق وتردد أو توقف يبين له الحق وتشرح له الحقائق حتي يتبع الحق ، ومن أعرض وعاند وحاول أن يقف في سبيل سيرة الدعوة ليعرقلها فالسيف أولى به ولا شيء غير السيف هذا لأن آخر العلاج الكي[1] ولأن « الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن »[2] هكذا تعاون حملة المصحف وحملة السيف حتى حقق الله لهم أمينتهم الغالية ووصلوا إلى الهدف المنشود – وهو :

(إقامة دولة إسلامية تحكم بالشريعة) وتقيم الحدود وتدعو إلى تجريد العبادة

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ .

(٢) لم أقف عليه أيضاً بهذا اللفظ في كتب السنة النبوية المعروفة .

لله والمتابعة لرسوله عليه الصلاة والسلام ، هذا هو الصراط المستقيم الذي دعت إليه الرسل ونزلت من أجله الكتب .

وبعد : فلم تصل دعوة ابن عبد الوهاب إلى ما وصلت إليه من النصر وعزة أتباعه والدنيا تبش في وجهها وتهش وتضحك دون ردود فعل .

بل قامت الدنيا وقعدت – كما أشرنا سابقاً – غضباً وحنقاً على الدعوة وصاحبها ، وأبى الله إلا أن يظهرها كما رأينا لأنه لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

النواحي التي ركزت عليها دعوته رحمه الله

ومن اطلع على الأسباب التي حملت الشيخ على القيام بدعوته ثم درس الكتب والرسائل التي كتبها الشيخ أو كتبها أولاده وأحفاده وتلاميذهم يقطع دون شك أن دعوة الشيخ ركزت على ناحيتين هامتين :

(أ) دعوة الناس إلى تجريد العبادة لله وحده بحيث لا يعبد مخلوق مخلوقاً مثله من دون الله أو مع الله ، وتجريد المتابعة لرسول الله وحده بحيث لا يقدم قول أحد أو رأي أحد على قول رسول الله عليه الصلاة والسلام .

(ب) دعوة الناس وخصوصاً الحكام إلى تحكيم شريعة الله وحده بحيث لا يتخذ بعض الناس أرباباً من دون الله يحللون ويحرمون : ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾[1] .

وذلك يعني أن دعوة محمد بن عبد الوهاب كانت – ولا تزال تحارب – جاهليتين خطيرتين منتشرتين في العالم الإسلامي في العصر الحديث :

أولاً : جاهلية عبادة المخلوق مخلوقاً مثله بدعوى حب الصالحين أو التوسل بهم أو الاستشفاع بهم إلى غير ذلك من الأعذار التي تشبه قول المشركين السابقين الذي حكاه القرآن : ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾[2] وقد قاومت دعوة الشيخ هذه الجاهلية وطاردتها ولا تزال تطاردها في كل مكان ولله الحمد والمنة .

---

(١) سورة يوسف الآية : ٤٠ .

(٢) سورةالزمر الآية : ٣ .

ثانياً : جاهلية الحكم بغير ما أنزل الله ، وبين هذه الجاهلية والتي قبلها صلة قرابة كما لا تخفى على من رزق الفقه في الدين لأن التحاكم إلى غير شريعة الله يعني اتخاذ أرباب يشاركون الله في إصدار الأحكام والتشريع ، لذا فإن دعوة الشيخ اعتبرت هذه الجاهلية قرينة التي قبلها وأن حكمها واحد في نظر الإسلام فحاربتها كما حاربت الجاهلية التي قبلها .

من هنا نعلم خطأ الذين يزعمون بأن الدعوة دعوة ابن عبد الوهاب عالجت ظاهرة عبادة غير الله فقط في الوقت الذي أهملت الناحية الدستورية ثم وهذا الزعم - في نظري - يصدر من أحد رجلين :

أحدهما : رجل مغالط ومتجاهل للحقائق . وهذا لا نرى أن نطيل معه الحديث لأن البحث مجرد جدال عقيم وغير منتج فنتركه هو وجداله .

ثانيهما : رجل قاصر النظر والفهم للأمور ، فهذا يجب أن يبصر بأن نريه بأن هذه الدولة الإسلامية السعودية التي قامت في قلب الجزيرة العربية لتحكم بالشريعة الإسلامية وتحارب جاهلية الحكم بغير ما أنزل الله وجاهلية عبادة غير الله حتى أصبحت غريبة بين دول العالم ولكنها من أعاجيب الزمن حيث استطاعت ببركة تحكيم الشريعة تحقيق استقرار أمن منقطع النظير في دنيا العصر الحديث حتى صارت تغبط لدى الدول التي يسمونها الدول الكبرى وتفردت هذه الدولة بالرجوع إلى المصحف الشريف في أحكامه .

بهذا يتبين لنا بأن قيام هذه الدولة أثر من آثار هذه الدعوة المباركة بتوفيق الله وهل يصدق بعد هذا من يقول : إن دعوة ابن عبد الوهاب أهملت الناحية الدستورية فالجواب لا ، إلا إن كابر .

أعـداء الدعـوة

جندت الأقلام الرخيصة - كعادتها - لمحاربة الدعوة . وأخذت تكتب ضد الدعوة غير متحرية للصدق ، وهذه الأقلام تنتمي في الغالب إلى الطوائف الآتية :

(أ) الطوائف الصوفية المحترفة باسم الدين .

(ب) الفقهاء الجامدون المقدسون للآراء .

(جـ) أهل الكلام المتطرفون .

تواطأت هذه الأقلام على تشويه الدعوة وعرقلة سيرها : لو استطاعت وقامت بنشر ما يشبه التعميم العالمي - إن صح التعبير - فشاع في العالم وعم الدنيا بأن دعوة محمد بن عبد الوهاب تعادي المذاهب الأربعة جهلاً من هذه الأقلام أن ابن عبد الوهاب نفسه حنبلي المذهب إلا أنه غير متعصب كما نشرت الأقلام المجرمة بأن ابن عبد الوهاب وأتباعه يكرهون الرسول ولا يصلون عليه ويعادون الأولياء وينكرون كراماتهم ، والحكايات وروايات الناس كثيرة في هذا الباب ، ولا استحسن سردها بل أستبشع ذلك ، لبعدها عن الذوق ، وقد كتبت تلكم الأقلام عن الدعوة كل شيء إلا حقيقة الدعوة وأهدافها فلم تتعرض لشيء من هذا طبعاً !!

نجاح الدعوة على رغم كثرة أعدائها

قابل صاحب الدعوة تلكم الدعايات التي بثتها أبواق الأعداء وتسطرها أقلام الأجراء ، قابلها بالإعراض عنها عملاً بقوله تعالى ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾[1] فمضت الدعوة تشق طريقها في الآفاق على رغم أنوف الأعداء ، ولا تدخل الدعوة بلداً فيتعرف عليها أهله ويعرفونها على حقيقتها إلا اطمأنوا إليها وأحبوها وأقبلوا عليها غير متأثرين بدعاية الأعداء إذا تبين لهم الحق .

ولا أشبه هذه الدعوة إلا بالقادة الفاتحين الصالحين الذين إذا أقبلوا على البلاد التي يريدون فتحها خافهم أهلها وأصابهم الذعر والقلق وإذا فتحوها فدخلوها وعرفهم الناس فعرفوا فيهم الرحمة والإنصاف والعدل أحبوهم وتفانوا في حبهم وتقديرهم وفدوهم بالنفس والنفيس بل انضموا إلى معسكرهم وصاروا من أنصارهم .

هذا مثل دعوة ابن عبد الوهاب تماماً .

وأنا أعرف شخصياً بعض البلاد الإسلامية والعواصم العربية التي كانت تتصور دعوة ابن عبد الوهاب قبل عشرين سنة تقريباً كأنها ملة أخرى غير إسلامية ولا يستطيع أحد أن يحرك بنت شفة ليتحدث عنها ويذكرها بخير فضلاً عن أن يدعو إليها .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٩٩ .

العاقبة للمتقين

أما اليوم فتوجد في بعض تلك العواصم التي وصفناها مراكز قوية لهذه الدعوة تعمل في تصحيح العقائد والإصلاح العام وتحذير الناس من الوثنية والجاهلية والمنتشرة هناك وتهاجمها بشجاعة وقوة .

وأصحاب تلك المراكز ليسوا من خريجي الجامعات السعودية – كما يظن – ولكنهم من سكان تلك البلاد والذين كسبتهم الدعوة وجندتهم لكونها موافقة للفطرة السليمة ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾[1] فسيطرت الدعوة على الموقف فأخذت تلاحق الجاهلية ، جاهلية دعوة غير الله وتطاردها أينما كانت حتى رجع الناس إلى الدين الصحيح .

وقصارى القول أن الدعوة تعني أن يفهم الناس الإسلام من جديد في العصر الحديث كما كان يفهمه المسلمون الأولون ، نابذين البدع والخرافات التي لا أصل لها في الدين وراءهم ظهرياً ، سعياً وراء الوحدة الإسلامية الكبرى ، الوحدة التي يكون حجر زاويتها تحقيق التوحيد وهتافها بـ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وتحقيق التوحيد هو الذي من أجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب السماوية كلها وبتحقيق كلمة الإخلاص نستطيع تكوين أمة قوية بإذن الله الأمة التي لها سيادتها ومناعتها تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتؤمن بالله وحده ، تلك الأمة التي تعنيها آية سورة الحج ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[2] وسعياً في دعوة ابن عبد الوهاب في تكوين مثل هذه الأمة فقد ندد بالجاهليات في جميع صورها ، ندد بها بكل شدة دون مجاملة أو مداهنة وكانت أكثر صراحة في هذا الباب من أية دعوة أخرى في العصر الحديث ، ولذلك كثر أعداؤها منذ ظهورها ولكنها على الرغم من ذلك بلغت حيث لم يتوقع أنها تصل إليه ، بل قد انتشرت كتب الداعية ورسائله في أقطار الدنيا بعدة لغات .

---

(١) سورة الروم الآية : ٣٠ . (٢) سورة الحج : ٤٠ : ٤١ .

والعجيب من أمر هذه الكتب أنها تدخل أحياناً على بعض الناس وهم لها كارهون لما يبلغهم عنها بواسطة الدعايات المغرضة ، وإذا ما درسوا وفهموا رغبوا فيها وأحبوها وطلبوا المزيد منها .

قصـة قصـيرة

حدثني من أثق به أنه كان يوجد في بعض مدن الهند عالم يدرس في المساجد وكان من عادته إذا انتهى من الدرس يدعو الله كثيراً وكان في دعائه يدعو على الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويلعنه .

وكان ممن يحضر درسه طالب سعودي[1] واع ولبق . فكر الطالب السعودي كيف ينقذ هذا المدرس المسكين الذي ضللته الدعاية المضللة حتى وقع في هذه الورطة ، فهداه تفكيره بإذن الله إلى الحيلة الآتية :

عمد إلى كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد . فنزع عنه الغلاف والورقة الأولى التي تحمل اسم المؤلف ثم تقدم إلى المدرس الهندي فطلب منه أن يقرأ هذا الكتاب ثم يخبره عن مضمونه وعن رأيه فيه .

فأخذ المدرس الكتاب فقرأه فأعجب به فسأله الطالب في غد عن الكتاب فأخذ المدرس يثني على الكتاب ثناء عظيماً ويصفه بأنه من أحسن الكتب في بابه فقال الطالب السعودي إن مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن عبد الوهاب الذي تلعنه ، وقدم له الغلاف والورقة المنزوعة التي فيها اسم الشيخ فاندهش المدرس وندم على ما فرط منه وأخذ يدعو للطالب ، ثم غير موقفه من الشيخ بل غير أسلوب الدعاء فجعل يدعو للشيخ آخر كل درس بدلاً من الدعاء عليه فنسأل الله تعالى أن يعفو عنه .

هكذا تضلل الدعاية الناس وتورطهم . ثم تنجح الدعوة إلى الله وبالحكمة كما رأينا في صنع الطالب السعودي الموفق رحمه الله : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾[2] « صدق الله العظيم » .

---

(١) أغلب الظن أنه الشيخ عبد الله القرعاوي عندما كان يطلب العلم في الهند . والله أعلم .

(٢) سورة النحل الآية : ١٣٥ .

وبعد فهذه هي دعوة محمد بن عبد الوهاب منذ نشأتها إلى العصر الحديث عرضتها بإيجاز مع بعض المشاكل التي واجهتها .

ولقد لقيت هذه الدعوة من أعدائها مشاكل ومحناً لم تلق مثلها أية دعوة في العصر الحديث في الغالب ولكنها نجحت نجاحاً لم يكتب لغيرها من الدعوات .

فجزى الله صاحبها ومن حملها من بعده خير ما يجزى به المصلحين . كما نسأله تعالى أن يثبت ملوك آل سعود وأمراءهم الذين كانوا لهذه الدعوة خير عون والذين قاموا بنشرها والدفاع عنها ونشر كتبها ولا يزالون كذلك تقبل الله منهم عملهم الإسلامي . .

وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه محمد وآله وصحبه .



الرسالة السادسة

العقل والنقل

عند ابن رشد



الحمد لله وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وبعد :

طلب من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة حضور مهرجان ابن رشد لتمثل المملكة العربية السعودية ، فطلبت إلى الجامعة بدورها إعداد البحث للمهرجان وحضوره ممثلاً لها .

فاستعنت بالله الذي من استعان به أعين ، فأعددت هذا البحث المتواضع تحت عنوان :

العقل والنقل عند ابن رشد

والله أسأل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع بهذا البحث من شاء من عباده ويجعله منيراً لسبيل الحق على تواضعه إنه خير مسئول وأكرم معط ..

وصلى الله وسلم وبارك على خير رسله وخاتم أنبيائه محمد وآله وصحبه .

٢٥ / ٧ / ١٣٩٨

محمد أمان بن علي الجامي
عميد كلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية
بالجامعة الإسلامية



تمهيد

من هو ابن رشد ؟ :

قبل أن نتحدث عن موقف ابن رشد من العقل والنقل يحسن بنا أن نقول شيئاً عن ابن رشد ، عن حياته ، عن فلسفته ، لكي نعرف الظروف التي نشأ فيها حتى صار أحد أساطين الفلسفة ، وما الذي عرضه لذلك الاضطهاد والعسف والتشريد . والاتهام بالإلحاد والزندقة أحياناً .

ولد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد في مدينة قرطبة سنة خمسمائة وعشرين من الهجرة الموافق عام ستة وعشرين ومائة بعد الألف ميلادياً ، وترعرع في حب العلم وأهله في كنف والده الذي كان من كبار علماء قرطبة وقضاتها ، وشغف في حداثة سنه بدراسة الطب والشريعة وتطلع إلى العلوم الماورائية ، فظهر منه نبوغ عجيب لفت إليه الأنظار ، والعجيب من أمر هذه الفيلسوف الكبير أنه لا يدري أين درس الفلسفة والعلوم الماورائية ومن أستاذه في هذه العلوم ؟

يرى بعض الناس أنه أخذها عن ابن باجة – الفيلسوف المشهور – إلا أن الواقع التاريخي يأبى ذلك ، لأن وفاة ابن باجة كانت في سنة ١١٣٨م وكان ابن رشد في هذا التاريخ في الثانية عشرة من عمره ، فليس في الإمكان أن يدرس الفلسفة في هذا السن المبكر ، بل كان يدرس مبادي العلوم الشرعية في هذا التاريخ كالفقه وعلم الكلام على والده ، ويرى بعض آخر أنه تتلمذ على ابن طفيل ، ولكن التاريخ يثبت أن ابن طفيل ما كان يعرف ابن رشد معرفة شخصية إلا في الوقت الذي ذاعت فيه شهرته وطار صيته في الآفاق ، كفيلسوف وطبيب ، هذا يستنتج من وصفه لحاله عندما دخل على السلطان يوسف بن يعقوب لأول مرة ، وعنده ابن طفيل ، يقول ابن رشد لما دخلت على أمير المؤمنين ابن يعقوب وجدته هو وأبا بكر بن طفيل ، فأخذ أبو بكر يثني علي ويذكر بيتي وسلفي ، ويضم إلى ذلك بفضله أشياء لا يبلغها قدري ، إلى آخر كلامه ...

وهذا يدل على أن ابن طفيل إنما عرف ابن رشد من صيته الطويل ، ولا يعرفه قبل ذلك ، فضلاً عن أن يتتلمذ عليه .

هكذا يثبت بالواقع التاريخي أن ابن رشد لم يأخذ فلسفته عن ابن طفيل كما ثبت من قبل أنه لم يأخذها عن ابن باجة ، فيبقى أستاذه في الفلسفة غير معروف ، ولعله

بعد دراسته لمبادىء العلوم الشرعية وعلم الكلام عكف على دراسة كتب أرسطو ، وتتلمذ عليه بواسطة كتبه ، كما يظهر من تأثره البالغ بفلسفته . وعلى أي حال فهو فيلسوف كبير يكتنفه الغموض وتحيط به الاستفهامات من كل جانب ، أهو فيلسوف متهور – كما يقول بعض الكتاب ؟ أو فيلسوف جامع بين الفلسفة والدين كما يظهر من بعض كتبه ؟ أهو أشعري في عقيدته ؟ أو واقفي ؟ أو مفوض ؟ أو هو ... أو هو ... إلخ . والذي جعل ابن رشد يقع تحت هذه الاستفهامات ، ويعيش هذا الغموض أنه كان كثير المداراة ويحاول أن يعيش مع الجمهور بظاهره . أما في حقيقته فهو في عالم آخر ... عالم الخواص ، الذي يزعم أنه يفهم من نصوص الشريعة فهما خاصاً لا يفهمه الجمهور ، ويعذر – الجمهور في مفهومه الشخصي – على زعمه – ولا يبيح للعلماء أو الخواص ، أن يقفوا عند مفهوم الجمهور ، ولابن رشد اصطلاح خاص قد ينفرد به في هذا المعنى ، وهو أنه يثبت فريقاً ليسوا من العلماء ، وهم فوق الجمهور ، وهم علماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة ، والماتريدية ومن يدور في فلكهم ، يطلق عليهم جدليون ، يتبعون ما تشابه من النصوص ابتغاء الفتنة وابتغاءَ تأويله .

فابن رشد شخصية غريبة يحتار المرء في تحديده ، فتراه ، فقيها واسع الاطلاع على أقوال الفقهاء وكثيرا ما يحاول ترجيح قول على قول ، أو تقديم رأي على رأي فيقارع الحجج بالحجج ، وقد تراه يتحدث عن مذهب السلف حديث مطلع ومقتنع ويثني عليه خيراً لأنه لا يؤول النصوص بل يبقيها على ظاهرها ، على ما يليق بالله . ثم تراه وقد انزلق مع الفلاسفة المتهورين ويدعو إلى تحكيم البراهين . ويعتبرها هي الأصل في باب الإلهيات مع عدم الاكتراث بالأدلة النقلية ، كما يقول بقدم العالم كما يبدو من بعض كتبه[1] .

* * *

---

(١) مناهج الأدلة .

بين يدي البحث

قبل أن أشرع في البحث أحب أن أضع بين يدي القاريء النقاط التالية :

١ – مما يجب الاتفاق عليه بين المسلمين (وحدة المصدر في معرفة العقيدة الإسلامية) . واعتماد ذلك المصدر في بحث أي معنى من معاني العقيدة ، وعدم إغفاله ، وبذلك تسلم عقيدة المسلم من الزيف والإلحاد والضلال .

٢ – لا يجوز تعطيل العقل في مجال العقيدة وغيرها لأن العقل أساس التكليف ومناط الأهلية إلا أنه لا يجوز أن يتجاوز العقل حدوده ويتجاهل وظيفته ويجنح في مجال الخيال الفاسد والأوهام الكاذبة ، والخيال والوهم لا يصلحان أساساً للعقيدة والمعرفة الصحيحة حتماً .

٣ – دعوتنا إلى وحدة المصدر للعقيدة الإسلامية حقيقة دل عليها الشرع بالقواطع من الأدلة النقلية ، والعقل السليم لا يعارضها ، على القاعدة التي تقول :

« العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح »

٤ – إذا كان العقل هو الذي دلنا على معرفة الله عز وجل وعلى أن محمداً رسول الله حقاً فأي معارضة تفرض بين العقل وبين ما جاء به الكتاب والسنة ، أو رد خبر الله وخبر رسوله بحجة مخالفتهما للعقل ، تعتبر مناقضة صريحة لما دل عليه العقل نفسه .

٥ – العقل نور جعله الله في الإنسان ليكشف لك الأشياء الموجودة والحقائق الواقعة ، ولتفهم به عن الله ورسوله ، هذه وظيفة العقل ، فلو أردت منه أن يريك كل ما تحبه وتتخيله من المعدومات فلا يجد إلى ذلك سبيلاً ، اللهم إلا إذا كان على سبيل الوهم والخيال ، وسبق أن قلنا : إن الوهم والخيال لا يصلحان للمعرفة الصحيحة والعقيدة السليمة ، والله هو الهادي إلى سواء السبيل .

تعريف العقل

يقال ، عقل الشيء فهمه فهو معقول – أي مفهوم . العقل نور روحاني تدرك

به النفس الأمور الضرورية ، والفطرية » وابتداء وجوده عند اجتنان الولد في الرحم ، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ[1] .

ويقال للأدلة النظرية : العقلية ، لأنها تدرك بالعقل ، حيث إن الإنسان يستعمل العقل في ترتيبه وتكوينه وتنظيمه ، وسمى العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه لئلا يقع فيما لا ينبغي من اعتقاد فاسد أو فعل قبيح ، ومن ذلك « اعقلها وتوكل على الله »[2] أي احبسها .

تعـــريف النقــل

يقال ، نقل الشيء أي أخذه من مكان ، ونقلة الحديث هم الذين يدونون – الأحاديث وينقلونها ويسندونها إلى مصادرها .

ويقال لأدلة الكتاب والسنة ، الأدلة النقلية ، ويقال لها السمعية ويقال لها ، الخبرية والأدلة والمأثورة ، وكلها بمعنى واحد ، وهي الأدلة المسموعة المنقولة عن كتاب الله العزيز والسنة المطهرة أو الأدلة التي نقلها إلينا نقلة الحديث والرواة .

العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح

هذا العنوان يجب أن يكون المحور لبحثنا وقاعدة ننطلق منها في دراستنا لآراء أبي الوليد في الإلٰهيات ومناقشتها ، لنتبين مذهبه على حقيقته إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، وهو أمر عسير غير يسير .

وذلك لأن العقل هو الذي دلنا على وجود الخالق ، وصحة رسالة رسوله الذي أيده – بالمعجزات ، تلك المعجزات التي تدل على صدق نبوة الأنبياء باستعمال الفكر والنظر ، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح وله كتاب خاص بهذا المعنى تحت عنوان « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » ، وقد يسايرنا أبو الوليد في هذا الخط فترة من الزمن غير طويلة إلا أنه لا يستطيع أن يواصل سيره معنا بل سرعان ما يتركنا في وسط الطريق ، ليعود إلى غموضه

---

(١) القاموس المحيط .

(٢) جزء من الحديث الذي أخرجه الترمذي في السنن القيامة باب (٦٠) .

متناقضا معه ، ومُطْلِقاً على ما نحن عليه ، مذهب الجمهور أو مذهب العوام . والواقع أن ابن رشد يساير أيضاً علماء الكلام بل يوافقهم في الحقيقة ، ويتظاهر بمخالفتهم في الظاهر أو في طريق التطبيق ، فنجده يعتب على علماء الكلام في تأويلهم لنصوص الكتاب والسنة ، ويعلن أمام الرأي العام أن تأويلهم هو الذي غير الشريعة وبدل معالمها وأفسد على الناس مفهومها ، وإذا قلبت النظر في أمره فتجد أن – عتابه لا ينصب على التأويل من حيث هو تأويل ، ولكنه ينصب على التصريح به للجمهور ، فهو يبيح من التأويل للعلماء ما لا يبيح للجمهور شريطة ألا يصرح العلماء للجمهور بذلك التأويل لأنهم حرفيون على حد تعبيره .

هكذا عاش ابن رشد غير واضح في عقيدته وفلسفته ويسمى هذا الموقف : التوفيق بين الفلسفة والشريعة ، بين الحكمة والدين ، وكان مقتنعاً بصحة هذا المذهب ولذا نراه يعتب على الإمام الغزالي وينقم منه تصريحه أمام الجمهور ما لا ينبغي أن يصرح به إلا أمام الخواص !!

فلسـفة ابن رشـد

مما لا يختلف فيه اثنان أن ابن رشد فيلسوف كبير وخطير وباطني غامض ، ومن الصعوبة بمكان أن يحدد المرء معالم فلسفته ومذهبه . كما قلت آنفاً حيث اختار لنفسه الغموض في حياته ، ولا أقول إن ابن رشد لا يملك الجرأة الكافية التي تمكنه من الإعلان عما يتفاعل في نفسه من آراء عرفانية ولكن أقول : إن ابن رشد لم يستخدم أو لم يرد أن يستخدم جرأته في الإعلان عن مذهبه . والثبات عليه بشكل واضح ودائم بل قد اضطر أحياناً إلى مسايرة الناس في خلاف ما يعتقد ، وخصوصاً بعد أن نكب على يد السلطان المنصور بن أبي يعقوب ، سلطان الموحدين وأحرقت كتبه في الفلسفة ، ورمي بالإلحاد ، ومما يروي في سبب النكبة أنه أنكر بحضرة والي قرطبة وجود قوم عاد الذين ورد ذكرهم في الكتاب العزيز ، هكذا الرواية – والعهدة على الراوي – وعلى الرغم مما قيل . فإن الدارس لآراء ابن رشد يشهد له بالعمق وأنه من أوسع الفلاسفة الإسلاميين في العلوم الماورائية . وله محاولة في ربط الفلسفة بالشريعة في حدود تصوره للشريعة .

وقد قام ابن رشد بشرح عدة كتب من كتب الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم ،

وانتقد بعض أولئك الفلاسفة وفند آراءهم ونظر في علم الكلام فوقف عنده كثيراً ولم يستسغ آراءهم وتأويلاتهم فأخذ ينتقد تأويل الأشاعرة والمعتزلة والماتريدية وحكم عليهم كلهم بأنهم خصمون يجادلون بالباطل حتى تخضع النصوص لآرائهم وعقلياتهم ، فرأى أنه لابد له أن يشق له طريقاً وحده ويطلق العنان لجواد فلسفته لينطلق كما يريد إلا أن جواده لم يسلم من كبوة – ولكل جواد كبوة – ومن كبوة جواده وهفوة ذهنه أنه يرى :

إذا وجدت بعض الآيات في الكتاب العزيز تضاد الفلسفة يجب تفسيرها تفسيراً شعبياً باعتبار أن لكل آية معنيين : حرفي شعبي وروحي خاص ، فالحرفي للشعب ، والروحي للفلاسفة – بل يقول ما هو أدهي من هذا وأمر – إذ يقول : كما أن الأنبياء يتقبلون الوحي فيبلغونه للشعب وكذلك الفلاسفة وهم أنبياء الطبقة العالمة .

لذلك يجب أن يوفق بين الدين والعلم ، وعلى العلماء أن يجمعوا بين الحكمة والشريعة وأن يعملوا من الشريعة بما يوافق الحكمة حتى يكون عملهم في كل شيء موافقاً للحكمة . ومن أقواله المأثورة « الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له » .

هذه – كما ترى – كبوة خطيرة ، بل انزلاقة قاتلة . وقولة منكرة في الإسلام ، لا أعلم أنه سبق إليها ، هي سخرية ساخرة من مقام النبوة . والنبوة منزلة خاصة لا تنبغي إلا لأولئك المصطفين المختارين الذين اختارهم الله وجعلهم واسطة بينه وبين عباده في تبليغ الرسالة إليهم ونصحهم وهدايتهم أولهم آدم وآخرهم خاتم النبيين محمد ابن عبد الله النبي العربي الهاشمي ﷺ وقد صرح الكتاب العزيز أنه خاتم النبيين ، حيث يقول الله تعالى : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ « سورة الأحزاب الآية رقم ٤٠ » .

وادعاء النبوة لأحد بعده مصادمة لهذه الآية والأحاديث الصحيحة التي جاءت في هذا المعنى كقوله عليه الصلاة والسلام : « أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي »[1] وابن رشد قد قال قولاً شططا بادعاء النبوة للفلاسفة ، بل إنه يجعلهم نخبة ممتازة من الأنبياء ، ومرسلة إلى نخبة ممتازة من الناس – إذ يقول « وكذلك الفلاسفة وهم أنبياء الطبقة العالمة » ولست أدري ما مفهوم النبوة عند ابن رشد ؟ حتى تبيح له

(١) أخرجه / خ في المناقب (١٨) م : الفضائل (٢٢) د : الفتن (١) ت : الفتن (٤١) وأحمد في مسنده ٢/٣٩٨ من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه . وانظر المسند ٣/٣٣٨ .

فلسفته مثل هذا الادعاء علماً بأن من الفلاسفة الذين يشملهم ادعاؤه فلاسفة اليونان من غير المسلمين مثل أستاذه أفلاطون ومثل أرسطو فهل تبيح فلسفة ابن رشد أن يكون أمثال هؤلاء من قدماء الفلاسفة وحدثائهم من المسلمين وغير المسلمين من أنبياء الله تعالى ؟!! والله المستعان .

نعود إلى قول ابن رشد « الحق لا يضاده الحق بل يوافقه ويشهد له » وهو حق بقطع النظر عما أراد به أبو الوليد ، وسبق أن نقلنا عن بعض المحققين قوله : « العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح »[1] ، وعندما يحصل الاختلاف بين العقل والنقل لابد من أحد أمرين :

أحدهما : أن النقل غير صحيح في نفسه أو أسيء فهمه وفسر تفسيراً غير صحيح .

ثانيهما : المعقول الذي ادُّعِيَ أن النقل يخالفه غير صريح وغير سليم . بل إنه أصيب بأدران الشبهة أو الهوى الذي غيره حتى فقد العقل سلامته . بل هو إما مريض أو ملوث ولا محالة ، ولو كان العقل يتمتع بعافيته وسلامته ، والنقل يتمتع بصحته وقوته فلا يكادان يختلفان .

وهذه قاعدة عظيمة ونافعة بإذن الله ، ومقبولة لدى العقلاء المنصفين ، بل لا يكاد يتردد فيها كل ناظر في العقليات ، وله اطلاع على النقليات ، ورزق التجرد عن التعصب والهوى والتحيز .

وقد أشار أبو الوليد ابن رشد إلى هذه القاعدة في كتابه « مناهج الأدلة » في غير ما موضع في أثناء مناقشته لبعض علماء الكلام في تأويلهم البعيد عن روح الإسلام ، وفي رد شبههم التي عرضوها على الشريعة ليعارضوها بها ، ومما قاله أبو الوليد في هذا الصدد قوله :

« وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف أنهم تأولوا كثيراً مما ظنوه ليس على ظاهره . وقالوا إن التأويل ليس هو المقصود به . وإنما أتى الله به في صورة المتشابه ابتلاء لعباده ، واختباراً لهم ثم قال أبو الوليد : نعوذ بالله من هذا الظن بالله . بل نقول : إن كتاب الله العزيز إنما جاء معجزاً من جهة الوضوح والبيان » إلى أن

(١) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول – لابن تيمية .

قال : ما أبعد عن مقعد الشرع من قال : فيما ليس بمتشابه به أنه متشابه . ثم إنه أول ذلك المتشابه بزعمه ، وقال لجميع الناس : إن فرضكم هو اعتقاد هذا التأويل ، مثل ما قالوه في آية الاستواء على العرش وغير ذلك ما قالوا إن ظاهره متشابه » يشير أبو الوليد إلى بعض آيات الصفات التي حرفها كثير من علماء الكلام ، وتبعهم كثير من الناس في تحريفهم باسم التأويل كآية مجيء الرب يوم القيامة ﴿ **وجاء ربك والملك صفاً صفاً** ﴾[1] ، وبصفة المحبة ﴿ **فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه** ﴾[2] . وصفة الرحمة التي دل عليها قوله عليه الصلاة والسلام : « الراحمون يرحمهم الرحمن »[3] ، « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[4] ، وصفة الرضا المأخوذة من قوله تعالى : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾[5] وغير ما ذكر من نصوص الصفات التي جاءت في الكتاب العزيز والسنة المطهرة . التي سلط عليها أهل الكلام وكثير من الفلاسفة صنوف التأويل البعيدة عن مراد المتكلم بها ، والتي أبعدت كثيراً من الناس عن المفهوم الصحيح لنصوص الصفات ويضرب أبو الوليد مثالاً رائعاً لهذا الصنف من الناس فيقول :

ومثال من أول شيئاً من الشرع وزعم أن ما أوله هو ما قصده الشرع ، وصرح بذلك التأويل للجمهور – مثال من أتى إلى دواء قد ركبه طبيب ماهر ليحفظ صحة الناس أو الأكثر . فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء المركب الأعظم لرداءة مزاج كان به ليس يعرض إلا للأقل من الناس فزعم أن بعض تلك الأدوية التي صرح باسمه الطبيب الأول في ذلك الدواء ، العام المنفعة المركب ، لم يرد به ذلك الدواء الذي جرت العادة في اللسان أن يدل بذلك الاسم عليه وإنما أريد به دواء آخر مما يمكن أن يدل عليه بذلك الاسم باستعارة بعضه ، فأزال ذلك الدواء الأول عن ذلك المركب الأعظم ، وجعل فيه بدله الدواء الذي ظن أنه الذي قصده الطبيب . وقال للناس هذا هو الذي قصده الطبيب الأول فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول ففسدت به أمزجة كثير من الناس . فجاء

---

(١) سورة الفجر الآية : ٢٢ . (٢) سورة المائدة الآية : ٥٤ .

(٣) أخرجه د : الأدب ٥٨ وت : البر (١٦) من حديث عبد الله بن عمرو .

(٤) الترمذي البر (١٦) وإسناده وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وقال العلامة المباركفوري أخرجه أحمد والحاكم .

(٥) سورة البينة الآية : ٨ .

آخرون شعروا بإفساد أمزجة الناس عن ذلك الدواء المركب ، فراموا إصلاحه ، بأن بدلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول فعرض للناس من ذلك نوع من المرض غير النوع الأول ، فجاء ثالث فتأول من أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني ، فعرض للناس من ذلك نوع ثالث من المرض غير النوعين المتقدمين فجاء متأول رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة ، فلما طال الزمان بهذا المركب الأعظم وسلط الناس التأويل على أدويته وغيرها وبدلوها عرض للناس منه أمراض شتى ، حتى فسدت المنفعة المقصودة بهذا الدواء المركب في حق أكثر الناس ، وهذه هي حال الفرق الحادثة في هذه الطريقة مع الشريعة ، وذلك أن كل فرقة منهم تأولت في الشريعة تأويلاً غير الذي تأولته الفرقة الأخرى ، وزعمت أنه الذي قصده صاحب الشريعة حتى تمزق الشرع كل ممزق وبعد جداً عن موضعه الأول .

ولما علم صاحب الشرع – عليه الصلاة والسلام – أن مثل هذا يعرض ولابد في شريعته قال : « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » يعني بالواحدة التي سلكت ظاهر الشرع و لم تؤوله تأويلاً صرحت به للناس . وإذا تأملت ما في هذه الشريعة ، في هذا الوقت من الفساد العارض فيها من قبل التأويل تبينت أن هذا المثال صحيح ، وأول من غير هذا الدواء الأعظم هو الخوارج ، ثم المعتزلة بعدهم ، ثم الأشعرية ، ثم الصوفية .

إلى آخر كلامه في هذا المعنى ، حقاً إنه لمثال صحيح وسليم لو سلم من شيء واحد وهو ما جاء في تفسير أبي الوليد للحديث الذي استشهد به ، إذ يقول : وهو يصف الفرقة التي تنجو من النار وتفوز بدخول الجنة وحدها « يعني بالواحدة التي سلكت ظاهر الشرع و لم تؤوله تأويلاً صرحت به للناس » يفهم من هذا التفسير الغريب أو التأويل المذموم – في نظر ابن رشد – أنه هو التأويل الذي يصرح به للجمهور فقط ، وأما لو أول العلماء نصوص الكتاب والسنة في دائرتهم الخاصة وخرجوا بها عن ظاهرها ، واعتقدوا صحة ذلك التأويل مع مخالفته لظاهر الشرع ومصادمته له فلا حرج عليهم ، ولا يخرجهم عن عموم الفرق الناجية . إنها لفلسفة جريئة ، وابن رشد – كما علمنا – يثبت للشرع مفهومين اثنين ، وكلامهم صحيح في بابه ، مفهوم يخص العلماء[1] وهو الذي يتم بتأويل نصوص الشرع ليوافق

(١) العلماء في اصطلاح ابن رشد : الحكماء أي الفلاسفة .

الحكمة مع عدم التصريح به للجمهور وهم عامة الناس غير العلماء بل هو مفهوم خاص بالخاصة ولا يجوز لهم البقاء مع ظاهر الشرع حين يخالف ظاهر الشرع الحكمة ، في زعمهم ويسمى ذلك عندهم التوفيق بين الشريعة والحكمة .

المفهوم الثاني : مفهوم يخص الجمهور ، وهم عوام الناس غير العلماء كما تقدم وواجبهم التمسك بظاهر الشرع قبل أن يحيدوا عنه ، ولا يجوز لهم التأويل بل لا يخبرون عنه ، هذه هي فلسفة – ابن رشد في هذه المسألة ، وقد وقع فيما هو أقبح مما عابه على أهل الكلام حيث زعم أن للشريعة الإسلامية معنيين ، معنى جمهوري أو شعبي ومعنى فلسفي خاص بالحكماء ، وادعى أن كلا المعنيين صحيح ، ومراد للشارع : وسبق أن صرح – فيما نقلنا عنه – أن مثل هذا الادعاء تغيير للشريعة وإفساد على الناس ، ويُعِدُّ ابن رشد علماء الشريعة من العوام أو الجمهور ، ولا يطلق لقب العلماء إلا على الفلاسفة الذين يسمونهم حكماء أحياناً .

ولست أدري كيف غاب عن هذا الفيلسوف الكبير أن الحق لا يتعدد بل هو واحد بلا نزاع ، فماذا بعد الحق إلا الضلال .

يذكرني موقف ابن رشد هذا قول الشاعر العربي :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

بل ما فعله ابن رشد أقبح مما فعله علماء الكلام في هذا المقام بالذات . قبل أن نضيف سخريته من علماء الشريعة والاستخفاف بهم حيث يُعِدُّهم من العوام ...

* * *

وجود الله عند ابن رشد

لم أعثر فيما قرأت لابن رشد على رأي صريح ينكر فيه وجود الله الخالق المصور المبدع ، بل على العكس من ذلك نراه يرسم معالم الطريق لمعرفة الله تعالى ، ويقيم الأدلة العقلية على وجود الله وينبه على الآيات الكونية الآفاقية والنفسية ، بصورة واضحة ، ولكنه – كما قسم الناس في مفهوم الشريعة – كما رأينا آنفاً – يقسمهم مرة أخرى في مجال الاستدلال بالآيات الكونية على وجود الله فيقول : « إن الأدلة

على وجود الله الصانع » تنحصر في هذين الجنسين :

١ - دلالة العناية .

٢ - دلالة الاختراع .

يقوم دليل العناية على أن يفكر الإنسان جيداً وينظر فيما يحيط به من حماية وعناية ربانية ونعم لا تعد ولا تحصى ، وقد خلق الله من أجله أكثر الموجودات ، بل جميع ما في السمٰوات وما في الأرض ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وسخر لكم ما في السمٰوات والأرض جميعاً منه** ﴾ .

ويقوم دليل الاختراع على النظر الدقيق في الموجودات والمصنوعات التي تدل لا على وجود الخالق فحسب بل على قدرته وعظمته ووحدانيته كأثر يدل على المؤثر وصفة تدل على الصانع الحكيم ، ويرى أبو الوليد أن لكل دلالة من الدلالتين جماعة من الناس تفهمها وتختص بفهمها وإدراكها ، ويجعل دلالة العناية طريقة الجمهور لأنها حسية ، كما يجعل دلالة الاختراع خاصة بالعلماء والخواص ، لأنهم يزيدون على ما يدركه الحس . بما يدركونه بالبرهان الذي يتم بالنظر واستعمال الفكر . ويرى أنه لا يجوز للعلماء أن يقفوا عند دلالة العناية مع الجمهور بل عليهم أن يستعملوا الفكر ، وينظروا في ملكوت السمٰوات والأرض . وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ . ليستدلوا على وجود الله وقدرته وحكمته بالنظر في أسرار هذه المخلوقات إذا كان ذلك في استطاعتهم دون الجمهور ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ ولنستمع الآن إلى أبي الوليد وهو يتقدم إلى الجمهور بإرشاده كي يعرفوا الاستدلال على وجود الله تعالى فيقول :

« الطريق التي نبه الكتاب العزيز عليها ودعا الكل من بابها تنحصر في جنسين :

١ - في العناية بالإنسان وخلق جميع الأشياء من أجله ، ولنسم هذا دليل العناية .

٢ - ثم ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل في الإنسان وبقية المخلوقات الأخرى ، ولنسم هذا دليل الاختراع .

ويرى ابن رشد أن هذين الدليلين هما دليل الشرع ، ثم يقول أبو الوليد إن جميع الموجودات في هذا الكون مناسبة ومفيدة لوجود الإنسان ، كوجود الشمس والقمر والنبات والحيوان والأمطار والبحار والهواء والنار - بل في أعضاء الإنسان ذاتها دليل على أن موجد هذا العالم قدير حكيم عليم لطيف بعباده . ثم يواصل تحليله البديع فيقول لما كانت جميع هذه الموجودات مخترعة من العدم محدثة بعد أن لم تكن دل ذلك على أنه لابد من وجود مبدع صانع لهذا الكون قادر على الاختراع لاستحالة تحولها من العدم إلى الوجود بنفسها وذلك المبدع الخالق هو الله لا إله إلا هو ولا رب سواه .

الوحدانية عند ابن رشد

تبينا فيما سبق أن ابن رشد لا يثار الغبار حوله في باب إثبات وجود الله تعالى لا أقول : إنه على يقين تام من وجود الله فحسب بل هو على استعداد تام لإقناع غيره ممن يخالطه شك أو ليس على يقين من وجود الله تعالى بأدلة عقلية وآيات كونية بأسلوبه القوي الممتاز كما رأينا فيما سبق من الأبواب فلنستمع إليه وهو يسوق الأدلة النقلية والعقلية ويحلل المسألة كعادته إذ يثبت بأنه تعالى واحد فرد صمد اعتماداً على الآيات القرآنية مثل قوله تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ . ويقول أبو الوليد : إن من نظر في كلمة « لا إله إلا الله » وصدق المعنيين الواردين فيها وهما الإقرار بوجود الباري ونفي الآلهة عما سواه ، فهو المسلم الحقيقي . ويثبت ابن رشد من ناحية إدراكه الفلسفي ، بأن الله هو الصانع الخالق الأول صنع كل ما في العالم لحكمة على نظام وترتيب وقانون . صدرت عنه جميع الموجودات المتغايرات صدوراً أولياً أزلياً ودفعة واحدة . ويرى ابن رشد أن الفاعل الأول واحد ، والوحدانية ذاتية فيه ، إذ لا يمكن أن تكون الوحدانية زائدة على ذاته التي هي في الوقت نفسه وجوده .

وهذا يعني أن الصفات قائمة بذات الله ومتحدة معها وليست زائدة عليها وسيأتي لهذه المسألة مزيد إيضاح إن شاء الله - ماذا يريد أبو الوليد بهذه (الرطانة الفلسفية) . بعد أن أثبت وجود الله ووحدانيته اعتماداً على الآيات القرآنية . وبعد أن وفق في تفسير كلمة التوحيد تفسيراً سلفياً أثبت فيه الربوبية والألوهية معاً بطريقة

رائعة ودقيقة ، وصرح بأن المسلم الحقيقي ذلك الذي يقر بوحدانية الله في ربوبيته وألوهيته . بعد هذا كله أبت عليه فلسفته إلا أن يستعمل أسلوباً مغلقاً ملتوياً ينبيء بأن الفيلسوف قد اختلط عليه الأمر ، ولعل هذا التخبط أثر من آثار فلسفة أرسطو وزملائه الذين تتلمذ على كتبهم وتأثر بهم . وهم يعتقدون بقدم العالم وأزليته ويثبتون تأثيراً لغير الله في هذا العالم في الأفلاك وغيرها على سبيل الاستقلال ويشبهون الله عز وجل بملك في مدينة ما يعطي الاستقلال في التصرف في المدينة لمن تحته لحاجته إليه في التعاون معه ، سبحان الله عن الشريك والوزير والمساعد !! بل هو الواحد الأحد سبحانه ، وهؤلاء الفلاسفة الذين تأثر ابن رشد بفلسفتهم يعتقدون أنَّ الله إنما خلق العقل فقط ، والعقل الأول خلق العقل الثاني ، وهكذا إلى آخر كلام سقيم مليء بالإلحاد والقول على الله بغير علم ، وليس فيه مسكة من تقدير الله حق قدره ، سبحانك ما أحلمك يارب العالمين !!

وقد تورط ابن رشد في هذا الاعتقاد في هذه مسألة كما ترى وكما سيتضح فيما سيأتي من كلامه ، ثم أخذ ابن رشد يخوض في المسألة طالما خاض فيها علماء الكلام ، وهي هل الصفات زائدة على الذات أم هي عين الذات ، إذ يقرر أن ذات الله ووجوده ووحدانيته كلمات يختلف معناها ، ولكن دلالتها فيما يتعلق بالله واحدة . فالله قديم لأن الواحد بما هو واحد ، سابق على كل مركب ، وهذا الأول القديم بذاته باق مطلقاً ، وصفات الله من الحكمة والقدرة والوحدانية وغيرها ليست زائدة على الذات .

وتحقيق هذا يتطلب نوعاً من التفصيل حتى يتضح الحق بإذن الله .

فنقول : يمكن أن يقال : الصفة عين الذات ويصح هذا الحكم – بمعنى أن الصفات لا تنفك عن الذات إذ لا نستطيع أن نتصور علما قائماً وحده بغير عالم وقدرة قائمة وحدها بغير قادر أو إرادة قائمة بنفسها دون مريد ، وهكذا ، وبهذا الاعتبار نقول : الصفات عين الذات .

كما أنه من الممكن أن نقول : الصفة غير الذات فيصح الحكم أيضاً باعتبار آخر وهو أن للصفة معنى وللذات معنى مغايراً لمعنى الصفة بهذا الاعتبار . إن الصفة غير الذات قطعاً ، وما قيل في هذه المسألة يقال في مسألة : هل الاسم عين المسمى أم غير المسمى ، وعلى هذا المعنى يخرج كلام أبي الوليد ، إذ يقول إن صفات الله

ليست زائدة على الذات ، والله أعلم .

ومثل هذا البحث يعده أبو الوليد إذا صدر من غيره بدعة محدثة غير معروفة عند السلف ، إذ لا يكادون يزيدون على ما دل علي الكتاب والسنة ، بل يؤمنون بأن الله موصوف بصفات الكمال كالعلم والقدرة والرحمة والاستواء وغير ذلك من الصفات ذاتية أو فعلية ، ولا يسألون هل هي عين الذات أو غير الذات .

وهي الطريقة السليمة ، وتدل على عمق علم السلف ودقتهم وبعدهم عن التكلف والقول على الله بغير علم ، والمعروف عنهم أنهم لا يتجاوزن الكتاب العزيز والسنة المطهرة في المطالب الإلٰهية خشية القول على الله بغير علم . والخوض في حقائق ذاته وصفاته وأسمائه وتسليط الوهم والخيال عليه أمرٌ جد خطير ، إذ لا يصف الله أعلم من الله ، ولا يصفه من خلقه أعلم من رسوله عليه الصلاة والسلام الذي أذن له أن يصفه وأمره أن يبلغ عنه ما نزل عليه ، ومن جمل ما نزل عليه صفات الله عز وجل . ومن بعدهم عن التكلف أنهم لا يتطلعون إلى إدراك حقائق الصفات والأسماء إيماناً منهم بأن المخلوق لا يحيط بالخالق علماً مهما أوتي من علم وذكاء لأن علم المخلوق محدود ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾[1] ولا يقاس بغيره بأي نوع من أنواع القياس ، إذ ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[2]، ﴿ **هل تعلم له سمياً** ﴾[3]، ﴿ **ولم يكن له كفواً أحدا** ﴾[4]. والملاحظ أن ابن رشد قد يتسامح مع نفسه ما لا يتسامح مع غيره كما رأينا فيما سبق ، فيطلق لنفسه حرية الخوض والتأويل بينما هو يعيب كل ذلك لو صدر من غيره ، ويعدُّه بدعة محدثة .

ومن الإنصاف – والإنصاف من الإيمان – أن يعد هذا التصرف بدعة في حق كل أحد حتى في حق أبي الوليد ، وعلى العموم يلاحظ الدارس لكتب ابن رشد أنه يورد من الأدلة العقلية والنقلية في حواره ونقاشه في الإلٰهيات ما يدل على اطلاعه الواسع ومقدرته الرائعة وذكائه الخارق .

العلم عند ابن رشد

يقول أبو الوليد في بعض كتبه : أما الأوصاف التي صرح بها الكتاب العزيز

(١) سورة الإسراء : ٨٥. (٢) سورة الشورى : ١١.

(٣) سورة مريم : ٦٥. (٤) سورة الإخلاص : ٤.

التي يوصف الصانع الموجد العالم بها ، فهي أوصاف الكمال الموجودة للإنسان ، إلى أن قال : أما العلم فقد نبه الكتاب العزيز على وجه الدلالة عليه في قوله تعالى : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ وهي أن المصنوع يدل - من جهة الترتيب الذي في أجزائه ، ومن جهة كونها صنع بعضها من أجل بعض آخر ومن جهة موافقة جميعها للمنفعة المقصودة بذلك المصنوع أنه لم يحدث عن صانع هو « طبيعة » كما لم يحدث (صدفة) وإنَّما حدث عن صانع رتب ما قبل الغاية على الغاية فوجب أن يكون عالماً به ، مثال ذلك :

إن الإنسان إذا نظر إلى البيت فأدرك أن الأساس إنما صنع من أجل الحائط ، وأن الحائط إنما أقيم من أجل السقف ، يتيقن أن البيت إنما وجد عن عالم بصناعة البناء.

يقول أبو الوليد : إن من نظر في أجزاء الموجودات وفي ترتيبها ، وتنظيمها وارتباط - أجزائها وحاجة بعض أجزائها إلى بعضها الآخر ، يدرك تماماً أن هذا المصنوع إنما صنعه صانع عليم حكيم ، هذا الدليل الذي ساقه ابن رشد والمثال الذي ذكره والأسلوب الذي استعمله يقطع بمجموع ذلك دابر ذلك الزعم بأن العالم وجد (صدفة) أو أوجدته (الطبيعة) إذ يأبى العقل الصريح والفطرة السليمة صدور هذا المصنوع العجيب عن طبيعة ليست هي أكثر من الشيء نفسه ، أو صفة من صفات الشيء : والشيء لا يوجد نفسه ، وأما صفة الشيء فهي تابعة للشيء لأنها عرض قائم للشيء، كما هو معروف لدى العقلاء ثم يواصل ابن رشد حديثه في صفة العالم فيقول :

وهذه الصفة هي صفة قديمة ، إذا كان لا يجوز عليه سبحانه ألا يتصف به وقتاً ما ، ولكن لا ينبغي أن يتعمق في هذا ، فيقال : ما يقوله المتكلمون . ثم أخذ أبو الوليد يناقش أهل الكلام في بدعتهم التي أحدثوها في هذه الصفة كعادتهم : وهي قولهم : (هل الله يعلم المحدث في وقت حدوثه بعلم قديم أو بعلم حديث)؟!! إلى آخر خوضهم الذي يدل على عدم تقديرهم الخالق حق قدره ، فيقول أبو الوليد في تعليقه على هذا الخوض « وهذا شيء لم يصرح به الشرع ، بل المصرح به خلافه - وهو أنه تعالى يعلم المحدثات حين حدوثها كما قال تعالى : ﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها** ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٥٩.

هكذا يقرر أبو الوليد شمول علم الله تعالى ، وأنه يعلم الأشياء قبل أن تكون على أنها ستكون ، وكيف تكون ، وإذا كانت على أنها كانت ، وهو بكل شيء عليم ، كيف لا ؟ وهو الخالق الباريء المصور ، وهذا مفهوم علم الله عند المسلمين سلفاً وخلفاً ، بعيداً عن تكلف المتكلفين وتشبيه المتشبهين – وتنطع أهل الكلام الذين يهرفون ما لا يعرفون ، وقد ابتليت الأمة الإسلامية بهذه الطائفة أيما بلاء والله المستعان .

محاولة ابن رشد الحل الوسط في قضية قدم العالم

ناقش ابن رشد الخلاف القائم بين القائلين بأن العالم مخلوق محدث بعد أن لم يكن ، وبين الفلاسفة القائلين بأن العالم قديم أزلي مع الاعتراف بأنه مخلوق ، فيقول ابن رشد إن الخلاف في هذه المسألة يعود إلى اللفظ ، أي خلاف لفظي غير جوهري ، لأن في الوجود طرفين وواسطة ؛ ولقد اتفق الجميع على الطرفين وهما :

أولاً – هناك واحد بالعدد قديم الأول الذي ليس قبله شيء .

ثانياً – هناك على الطرف الآخر كائنات مكثرة ، وهي عند الجميع محدثة ولكنهم اختلفوا في هذا العالم بجملته أقديم هو أم محدث ؟ فيواصل الفيلسوف مناقشته قائلاً ، إن العالم في الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ولا قديماً حقيقياً ، لأن القول . إنه محدث حقيقي فاسد ضرورة لأن العالم ليس من طبيعته أن يفنى أي لا تنعدم مادته ، والقديم الحقيقي ليس له عله والعالم له علة .

إذاً العالم حدث إذا نظرنا إليه من أنه معلول من الله ، والعالم قديم ، إذا اعتبرنا أنه وجد عن الله منذ الأزل من غير تراخ في الزمن ، الخلاصة أن العالم بالإضافة إلى الله محدث وبالإضافة إلى أعيان الموجودات قديم .

هكذا ينهي الفيلسوف ابن رشد مناقشته لهذه القضية العويصة حقاً . وقد اضطرب فيها كثير من حذاق الفلاسفة وأساطين أهل الكلام ، والخوض في مثل هذه المسألة يعد من فضول الكلام ، كما قال غير واحد من المحققين المعتدلين ، ويكفي المرء أن يقول جملتين اثنتين مع الفهم والفقه وهما :

١ – الله خالق كل شيء وهو المبديء المعيد .

٢ – ما سوى الله مخلوق محدث بعد أن لم يكن – وكفى .

وشبهة ابن رشد في تردده في هذه المسألة في أمرين اثنين – هما :

١ – إن الله لم يزل فعالاً وخلاقاً .

٢ – إن مادة العالم باقية ولا تفنى .

الجواب عن الشبهة الأولى أن يقال : إن الله تعالى له معنى الربوبية قبل أن يخلق المربوب ، وله معنى الخالق قبل أن يخلق ، وهو الرازق قبل أن يخلق الرزق والمرزوق ، أي هو موصوف بجميع صفات الكمال أزلاً وأبداً ، ولم يتجدد له بإيجاد خلقه صفة لم تكن له ولا يجوز أن يعتقد بأنه تعالى تجددت له صفة لم يكن متصفاً بها من قبل ، لأن صفاته تعالى صفات الكمال وفقدها صفة نقص ، ولا يجوز أن يعتقد أنه حصل له الكمال بعد أن لم يكن .

وهذا واضح في الصفات الذاتية ، وأما الصفات الفعلية كالخلق والتصوير والإحياء والإماتة والمجيء والنزول والاستواء والغضب والرضى ، وإن كانت هذه الأحوال والأفعال تتجدد وتحدث في وقت دون وقت كما في حديث الشفاعة ، حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله »[1] لأن هذا التجدد والحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن ، ألا نرى أن من تكلم اليوم وكان متكلماً بالأمس لا يقال بأنه حدث له الكلام بل في حال تكلمه يقال : إنه متكلم بالفعل ، وفي حال سكوته يقال : إنه متكلم بالقوة ، وكذلك من كان قادراً على الكتابة يقال : كاتب بالفعل في حال كتابته ، وفي الحالة الأخرى يقال : كاتب بالقوة ، فالله تعالى : خالق . رازق . محيي . مميت . معط . قبل أن يخلق خلقه وعباده الذين يرزقهم ويعطيهم ويحييهم ويميتهم ، لأنه قادر على ذلك كله أزلاً ولم يكن فاقداً صفة من هذه الصفات أو عاجزاً عن فعل من هذه الأفعال ، بل هو

---

(١) هذا جزء من الحديث الطويل الذي أخرجه خ الأنبياء (٣) تفسير سورة (١٧) م : الإيمان (٣٢٧) ت : القيامة ١٠ . أحمد في مسنده ٢/٤٣٥ وذلك من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وهو حديث الشفاعة الطويل .

على كل شيء قدير : ولعل في هذا المقدار غُنية لطالب الحق . ومحاولة الإحاطة بالله تعالى علماً محاولة فاشلة لقصور علمنا وعجزنا الذاتي ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾[1] ، ﴿ **ولا يحيطون به علماً** ﴾[2] ، ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾[3] هكذا يتم الجواب على الشبهة الأولى من الشبهتين اللتين جعلتا ابن رشد يتردد في : هل العالم محدث أو قديم . وأما جوابنا الآن على الشبهة الثانية بمعونة الله وتوفيقه وهي أن مادة العالم لا تفنى ولا تنعدم وذلك دليل قدم العالم ، وقد حاول ابن رشد أن يستنتج من بقاء شيء من أجزاء العالم وعدم فنائه أن العالم قديم أزلي .

فالجواب : أنه صحيح أن بعض المخلوقات لا تفنى بل تبقى بإبقاء الله إياها ، ويجاب عن بقائها بجوابين :

أولاً : لا يلزم من عدم فنائها أزليتها ، إذ لا تلازم بين عدم فنائها وأزليتها .

ثانياً : أن بقاء ما يبقى من المخلوقات ليس بقاؤه ذاتياً ، وإنما يبقى بإبقاء الله إياه - كالجنة وأهلها والنار وسكانها ، وعجب الذنب من ابن آدم[4] وأما الباقي الذي يكون البقاء وصفاً ذاتياً له فهو الله وحده ، ولا يشاركه أحد في بقائه كما لم يشاركه أحد في سائر صفاته وإن اتحدت الأسماء أحياناً في بعض الصفات .

فهو الأول الذي ليس قبله شيء ، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء ، هذا والأمر في غاية الوضوح لطالب الحق والحمد لله رب العالمين له المنة وحده .

صفة الحياة والقدم والإرادة
عند الفيلسوف ابن رشد

يثبت ابن رشد عدداً معيناً من صفات الله تعالى ، على الطريقة الأشعرية على الرغم من الحملات العنيفة التي يشنها عليهم أحياناً .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٨٥ . (٢) سورة طه الآية : ١١٠ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٥٥ .

(٤) أخرجه خ تفسير سورة ٣٩ . (٧٨) م : الفتن ١٤١ - ١٤٣ أحمد في مسنده ٣٢٢ /٢ وذلك من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

ومن الصفات التي يثبتها : صفة الحياة والإرادة والقدم ، يثبت هذه الصفات بدليل عقلي مؤيد بالأدلة النقلية ، وإن كان الاعتماد عنده على الأدلة العقلية على طريقة أهل الكلام .

بل يرى أن الاعتماد على الأدلة النقلية والوقوف عندها طريقة الجمهور ، والجمهور في اصطلاح ابن رشد هم من ليسوا بالفلاسفة الذين يسميهم (الحكماء) .

فيقول في إثبات هذه الصفات بعد أن تحدث عن صفة العلم : إن صفة الحياة والإرادة والقدرة ، وجودها ظاهر من صفة العلم ، وذلك يظهر في الشاهد إذ من شرط العلم الحياة والإرادة والقدرة ، والشرط عند المتكلمين يجب أن ينتقل فيه الحكم إلى الغائب ، وما قالوه صواب وهذا التصويب يعتبر إنصافاً من ابن رشد ، وعلى الرغم من كثرة مناقشته الحادة للأشاعرة والمعتزلة يعترف لهم بالفضل فيما أصابوا فيه لأن الحق ضالة المؤمن أخذها أين وجدها ولو كان عند المتكلمين .

وبعد : فقد لاحظنا فيما سبق أن الفيلسوف ابن رشد كثيراً ما يناقض نفسه ، إذ رأيناه غير مرة يقف مواقف كان يعيبها على أهل الكلام ، من التأويل ودعوته المعنى الجمهورى[1] ، والمعنى الخاص لبعض النصوص[2] ، ولا عجب في ذلك لأن التناقض يكاد يكون وصفاً ذاتياً للفلاسفة كلهم فليس أبو الوليد بدعاً من الفلاسفة ، هذا ما يهون الأمر علينا ، وقديماً قيل (إذا عمت هانت)

الكلام عند ابن رشد

يسلك ابن رشد في إثبات صفة الكلام ، المسلك الذي سلكه في إثبات صفة الحياة والقدرة والإرادة وهو الاستدلال بثبوت صفة العلم لأن الكلام في فلسفة ابن رشد ليس شيئاً أكثر من أن يفعل المتكلم فعلا يدل به المخاطب على العلم الذي في نفسه ، أو الفعل الذي يصير المخاطب بحيث يتكشف له ذلك العلم الذي في نفسه ، وذلك فعل من جملة الأفعال وأغرب من هذا قوله : « وقد يكون من كلام الله ما يلقيه الله إلى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وبواسطة البراهين ، وبهذه الجهة صح عند العلماء أن القرآن كلام الله » .

---

(١) أي الذي يفهمه من النصوص جمهور الناس . (٢) أي الذي لا يفهمه إلا الخواص .

وقد توسع ابن رشد في مفهوم الكلام إلى أن أدخل في مسمى كلام الله ما يتكلم به الفلاسفة بدعوى أن ألقى إليهم الكلام بواسطة البراهين .

يقف أبو الوليد في هذه المسألة موقفاً شاذاً وخطيراً ؛ ولم يُسْبَق إليه – فيما نعلم – وذلك أنه خالف الأشعرية القائلة بالكلام النفسي واللفظي معاً على أن النفسي هو الكلام الحقيقي لله ، واللفظي دال عليه أو ترجمة له ، أو عبارة عنه ، والقرآن عند الأشعرية ليس بكلام الله حقيقة ولكنه دال على كلام الله الحقيقي الذي هو الكلام النفسي فلذا يجب احترامه إلى آخر الكلام المعروف عندهم .

وأبو الوليد لم يلتزم هذا المذهب التزاماً كلياً ولم يرفضه رفضاً باتاً وهو في الوقت نفسه يخالف المعتزلة التي لا تثبت كلاماً نفسياً ، بل تصرح بأن كلام الله مخلوق ، ومعنى أن الله متكلم عندهم أنه خالق للكلام ؛ فالقرآن مخلوق من مخلوقات الله عندهم وعند الأشعرية ونقطة الخلاف بينهم ؛ التصريح بالقول أنه مخلوق ، وعدم التصريح به فالطائفتان متفقتان في العقيدة الداخلية إن صح التعبير – ومختلفتان في السياسة الخارجية .

إذ ترى المعتزلة أن يُصَرَّح بذلك لدى الجمهور لأن القضية قضية العقيدة يستوى فيها العامة والخاصة ، وبينما ترى الأشعرية عدم التصريح إلا في مقام التعليم ، وكأنها ، عقيدة تخص الخاصة دون العامة ، وهو موقف يشبه موقف ابن رشد من حيث التفريق بين العامة والخاصة ، في بعض الواجبات والاعتقادات – كما رأينا – إلا أنه يختار لنفسه طريقة أخرى في هذه المسألة كما أشرنا ، وكما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله ، هذا ما عنيناه بقولنا : إن موقفه شاذ وخطير . وأما أهل السنة والجماعة الذين اكتفوا بما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، والذين لا يتجاوزون الكتاب العزيز والسنة المطهرة فهم يعتقدون بأن الله يتكلم حقيقة كما يليق به بكيفية لا نعلمها إذ لا نحيط به علماً ﴿ **ولا يحيطون به علماً** ﴾[1] ؛ ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾[2] ؛ ولا يخوضون في كيفية تكلمه كما لم يخوضوا في كيفية جميع صفاته ، وكيفية ذاته تعالى : وإذا كان إيمانهم بالله إيمان تسليم لا إيمان تكييف فيجب أن يكون إيمانهم بصفاته كذلك إيمان تسليم بما في ذلك صفة الكلام ، لأن

(١) سورة طه : ١١٠ . (٢) سورة البقرة : ٢٥٥

الكلام في الصفات كالكلام في الذات . والكلام في بعض الصفات كالكلام في البعض الآخر يحذو حذوه ، فلا تكييف ، ولا تمثيل ، ولا تعطيل ، أو تحريف .

أما القرآن فمن جملة كلام الله غير مخلوق كسائر كلامه ، وقد أخبرنا الله في الكتاب العزيز أن القرآن كلامه ، حيث يقول : **﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾**[1] .

وما من شك أن الكلام الذي سمعه ذلك المشرك المستأمن هو هذا القرآن الذي في المصحف المحفوظ في الصدور ، المكتوب في الألواح ، ولذلك نستشهد به قائلين قال الله تعالى : كذا وكذا ، وكلماته تعالى لا نفاد لها – إذ يقول الرب جل من قائل : **﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾**[2] .

هذا هو اعتقاد أهل السنة في كلام الله وموقفهم من القرآن الكريم وهم – كما لا يخفي على المنصف – خير هذه الأمة على الإطلاق بشهادة المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام فهو يقول عنهم : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »[3] والخيرية تستلزم قطعاً صلاح العقيدة وصحتها ضرورة ، بحكم أنهم شافهوا صاحب الرسالة محمداً عليه الصلاة والسلام وأخذوا عنه دينهم وعقيدتهم .

وإذا كنا نؤمن بأنه عليه الصلاة والسلام بلغ رسالة ربه كاملة لم يكتم شيئاً منها في أصول الدين وفروعه ، ونؤمن ثانياً بأن الصحابة فهموا ما بلغهم الرسول عليه الصلاة والسلام فهماً صحيحاً وشاملاً وتحملوا أمانة التبليغ لمن بعدهم فبلغوهم فعلاً . ولم يكتموا شيئاً مما بلغوا ، إذا كنا نؤمن إيماناً كهذا يلزمنا أن نعتقد أن كل خير في اتباعهم فيما كانوا عليه لأنهم على هدى وعلى صراط مستقيم ، ومخالفتهم تعد إحداث بدعة في الدين ، وأن الدين لم يتم بعد بل هو في حاجة إلى زيادة أو تعديل أو تحسين ؛ وكل ذلك تحد سافر لشهادة الله لنبيه وأتباعه بأنه أكمل لهم الدين وأتم عليهم نعمة الإسلام إذ يقول الله جل من قائل : **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم**

---

(1) سورة التوبة الآية : ٦ .
(2) سورة الكهف الآية : ١٠٩ .
(3) مضى تخريجه ص ٢٥ وقد أخرجه خ ومسلم وغيرهما .

وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾[1] ؛ وقد نزلت هذه الشهادة من السماء في آخر حياته عليه الصلاة والسلام ، وكان نزولها في حجة الوداع على رؤوس الأشهاد في أعظم تجمع حصل في تاريخ الإسلام .

وكل الذي أقصده بهذا الاستطراد ؛ أن الصواب في هذه المسألة وغيرها من مسائل الدين بما في ذلك البحث الذي حول القرآن هو ما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وكل ما خالف ما كانوا عليه باطل ضرورةَ (أن الحق واحد لا يتعدد) . هذه هي الطوائف الثلاثة في هذه المسألة ، ولا نعلم لها رابعة – فيما نعلم – ولكننا فوجئنا في أثناء دراستنا لكتب ابن رشد بقول غريب لم يسبق إليه ، وذلك في تعريفه للكلام – وقد ذكرناه فيما تقدم – وقد انتهى إلى القول : بأن حروف القرآن التي في المصحف إنما هي من صنعنا نحن بإذن الله ؛ وإنما وجب لها التعظيم لأنها دالة على المخلوق لله ، وعلى المعنى الذي ليس بمخلوق[2] .

مناقشة ابن رشد في رأيه

يمكن أن نوجه فلسفة ابن رشد في هذه المسألة في نقطتين اثنتين :

١ – تعريفه للكلام بأنه فعل يفعله المتكلم إلى آخر كلامه .

٢ – الادعاء بأن الحروف التي في المصحف صنفان ، صنف مصنوع لنا وصنف مخلوق لله وأن الصنف الذي من صنعنا يدل على اللفظ المخلوق وعلى المعنى غير المخلوق .

تعليق على النقطة الأولى : بأنه كلام لا معنى له ، بل تأباه اللغة العربية ويأباه الواقع إذ لا يعرف في اللغة العربية ، أن الكلام هو الفعل ، فيقول النحاة عندما يعرفون الكلام ، هو اللفظ المركب المفيد بالوضع ، وذلك يعني أن الكلام هو ذلك الملفوظ المنطوق ، وفي الواقع فإن الناس يفرقون بين الكلام والفعل طبعاً ، واكتفي بهذا المقدار في هذه النقطة لوضوحها فيما أحسب .

وأما النقطة الثانية : فادعاء ابن رشد صنفين من الحروف للقرآن فكلام خال

(١) سورة المائدة الآية : ٣ . (٢) مناهج الأدلة لابن رشد .

وفارغ عن المعنى في نظرنا ، وعلى أي حال فقد وقع ابن رشد في البدعة التي كان يشنعها على أهل الكلام ، ولم يقف مع ظاهر الشرع كما يدعو إليه وكما هو المتحتم على كل مسلم ، وبعد .

فكم كان جديراً بابن رشد أن يطبق القاعدة التي يذكرها دائماً في بحثه وهي : « لا يحق للباحث في مسائل الدين أن يطبق الاعتبارات الإنسانية على الأمور الإلهية » ولكنه خالفها ولم يلتزم بها – للأسف – والملاحظ أن ابن رشد قد خالف علماء الكلام في مواقفهم من صفات الله ، وأنكر عليهم تأويلهم وشدد الإنكار عليهم وكان يرى أن تبقى نصوص الصفات على ظاهرها – كما يليق بالله – ويدعو إلى ذلك بكل صراحة ، وهي دعوة حق طبعاً ، ولكنه قلب ظهر المجن – كما يقولون – لهذه الطريقة في صفة الكلام وانحاز إلى الطريقة الأشعرية وهي القول بخلق القرآن مع إثبات الكلام النفسي ، بل زاد عليهم حيث ادعى أن للقرآن حرفين ، حرف مخلوق لله وحرف مصنوع للعباد دال على الحرف المخلوق ، وهو موقف – كما ترى – في غاية الغرابة ، بل انزلاقة خطيرة يخشى منها على إيمان صاحبها ، والله المستعان .

موقف ابن رشد من مثبتة الصفات

جرت عادة معطلة الصفات الذين تعودوا أن يسلطوا ألواناً من التأويل على صفات الله تعالى ، إذا خالفت المعقول وأوهمت التشبيه – في زعمهم – وقد جرت عادة هؤلاء بأن يلقبوا مثبتة الصفات بالألقاب التالية :

(أ) المشبهة .

(ب) المجسمة .

(جـ) الحشوية .

وفي زعم هؤلاء أن الإثبات يستلزم التشبيه والتجسيم ، وهو زعم فاسد لا يعتمد على قاعدة علمية ونظر سليم ، وإنما هو زعم يتوارثه أهل الكلام بعضهم من بعض مبعثه إما الجهل ، أو هوى في النفس ، وإلا فإن التجسيم أمر زائد على الإثبات ، فلا يلزم من إثبات العلم لله مثلا تشبيه الله بخلقه في علمه ، ضرورةَ أن علم الخالق ليس كعلم المخلوق ، لأن علم المخلوق علم يتناسب حال المخلوق محدث مثله ، محدود

لا يحيط بالمعلومات ، ومعرض للنسيان والغفلة والذهول ، ثم إنه غير باق ، ضرورةَ زوال الصفة بزوال الموصوف . وهذه الأعراض التي ذكرناها لعلم المخلوق ينزه عنها علم الخالق لأنه علم يليق به تعالى ، قديم قدم ذاته ، محيط بكل شيء لا يلحقه نسيان أو ذهول أو غفلة ؛ وهو باق بقاء الذات العلية ، فإثبات صفات الله تعالى عند المثبتة إنما على غرار قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[1]،و ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد**﴾[2]، ﴿ **ولا يحيطون به علماً** ﴾[3]،﴿ **هل تعلم له سمياً** ﴾[4]، وما قيل في صفة العلم يقال : في سائر الصفات الذاتية والفعلية ، هكذا يثبت لدي المنصف أن الإثبات شيء والتشبيه شيء آخر والله ولي التوفيق .

وقد استخدم أبو الوليد بعض تلك الألقاب التي تقدم ذكرها في حق المثبتة جرياً على عادة القوم ، وكان المتوقع من أبي الوليد أن يقف موقف البصير المنصف ، فيضع الأمور في نصابها ، ويلحق الألقاب بأهلها ، فيقول لمن أثبت صفات الله كما يليق به أنه مثبت ، ولمن أول وحرف أنه مؤول ، ولمن شبه صفات الله بصفات خلقه أنه مشبه .

وقد أثبتنا – فيما سبق – أن المثبتة ليسوا بمشبهين ولا مجسمين ، بل طريقتهم طريقة وسط بين التشبيه والتعطيل ، كما وضحنا آنفاً ، وإذا كانت المشبهة قد غلت في إثبات صفات الله فأثبتوها معتقدين أنها صفات كصفات المخلوقين ، بدعوى أنهم لا يعقلون من صفات الله إلا كما يعقلون من صفات المخلوقين ، فقدرة الله عندهم كقدرة المخلوقين ، وإرادته كإرادتهم واستواؤه كاستوائهم ، كذلك محبته ورضاؤه ، وغلت المعطلة في التنزيه من الطرف الآخر فَنَفَتْ وعطلت صفات الله تعالى أو بعضها ، بدعوى التنزيه معتقدين أن إثبات الصفات يؤدي إلى التشبيه ، فأما أهل السنة والجماعة فقد هداهم الله سواء السبيل ووفقهم فسلكوا مسلكاً وسطاً ، فأثبتوا ونزهوا – أثبتوا لله ما أثبت لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من صفات الكمال – وجميع صفاته كمال – إثباتاً بلا تشبيه أو تمثيل في ضوء قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ .

وقد أثنى أبو الوليد على هذه الطريقة في غير ما موضع في بعض كتبه[5] ولكنه

(١) سورة الشورى : ١١ . (٢) سورة الإخلاص : ٤ . (٣) سورة طه : ١١٠ .
(٤) سورة مريم : ٦٥ . (٥) مناهج الأدلة لابن رشد

يراها أنها إنما تناسب الجمهور فقط دون العلماء فإنهم لا يقفون عندها بل عليهم أن يغوصوا في بحار الفلسفة ، فيكشفوا حقائق لا يدركها الجمهور ، مع التكتم الشديد وعدم التصريح بتلك الحقائق أمام الجمهور ، فلو التزم أبو الوليد طريقة معينة في إصدار الأحكام على الناس لسهل علينا أن نصغي إلى أحكامه ثم نناقشه ، ولكنه صعب المنال وكثير التقلب ، فبينما تراه يتحدث في باب الأسماء والصفات حديث سلفي مثبت للصفات واقف مع ظاهر الشريعة فإذا هو يخطب على منصة أهل الكلام فيؤول وينفر عن الإثبات ، ولو عرجت في نادي الفلاسفة لوجدته في طليعة الحكماء الذين يعيشون في مخيم الغموض ويضربون في بيداء الأوهام والخيال ؛ ولا تكاد تفقه كثيراً مما يقولون ، ولو مررت بمجموعة الفقهاء لرأيته في وسطهم يقارع الحجج بالحجج فيؤصل ويفرع ،وربما دخل مجالس المحدثين ليتشبه بهم،على حد قول القائل :

تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم فإن التشبه بالرجال فلاح

والصفة البارزة في ابن رشد أنه يرى نفسه أنه مخلوق في سماء الفلسفة مع مجموعة الحكماء تاركاً الجمهور في سذاجتهم – فيما يظن – .

ابن رشد يثبت المعاد بالأدلة العقلية والنقلية

يقول أبو الوليد : (والمعاد مما اتفقت على وجوده الشرائع ، وقامت عليه البراهين عند العلماء ، وإنما اختلفت الشرائع في صفة وجوده ، ولم تختلف – في الحقيقة – في وجوده) يشير ابن رشد إلى أن المعاد لم يكن محل نزاع بين الشرائع السماوية ، أو لدى العقلاء والحكماء ، بل كان محل اتفاق في المجالين الشرعي والفلسفي – إن صح التعبير – وإنما اختلفت الناس في أمرين في شأن المعاد :

١ – أهو روحاني فقط ، أو روحاني وجسماني ، معاً ، ثم يسوق ابن رشد الدليل فيقول :

(والاتفاق على هذه المسألة مبنيّ على اتفاق الوحي في ذلك ، واتفاق قيام البراهين الضرورية عند الجميع على ذلك) هكذا يصرح ابن رشد بأن الأدلة النقلية المأخوذة من الشرائع السماوية ، والبراهين العقلية اتفقت على أن للإنسان سعادتين اثنتين :

١ - دنيوية .

٢ - وأخروية . ويحلل ابن رشد المسألة قائلاً : (وانبنى ذلك عند الجميع على أصول يعترف بها عند الكل منها :

(أ) أن الإنسان أشرف من كثير من الموجودات .

(ب) إذا كان كل موجود يظهر من أمره أنه لم يخلق عبثاً ، وأنه إنما خلق لفعل مطلوب منه ، وهو ثمرة وجوده ؛ فالإنسان أحرى بذلك ، وقد نبه الله تعالى على وجود هذا المعنى في جميع الموجودات في الكتاب العزيز فقال : ﴿ **وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** ﴾[1] وقال جل من قائل وهو يثني على عباده الذين يدركون هذه الغاية المطلوبة من الوجود ﴿ **الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾[2]

ثم يقول أبو الوليد : ووجود الغاية في الإنسان أظهر منها في جميع الموجودات ، وقد نبه الله تعالى عليها في غير آية في كتابه العزيز فقال : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾[3] وقال : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾[4] ، وقال : ﴿ **ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون** ﴾[5] ، وقال : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[6] ، ثم يقول أبو الوليد : وهو يبين اتفاق الأدلة النقلية والعقلية على المعاد : .

ولما كان الوحي قد أنذر في الشرائع كلها بأن النفس باقية ، وقامت البراهين عند العلماء على ذلك وكانت النفوس يلحقها بعد الموت أن تعرى عن الشهوات الجسمانية ، فإن كانت زكية تضاعف زكاؤها بتعريها عن الشهوات ، وإن كانت خبيثة زادتها المفارقة خبثاً لأنها تتأذى بالرذائل التي كانت قد اكتسبتها ، وتشتد حسرتها على ما فاتها من التزكية ، عند مفارقتها البدن ، لأنها ليس يمكنها الاكتساب إلا مع هذا البدن ، وإلى هذا المقام الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين** ﴾[7] ، هكذا يقرر أبو

---

(١) سورة ص : ٢٧ . (٢) سورة آل عمران : ١٩١ . (٣) سورة المؤمنون: ١١٥ .

(٤) سورة يس : ٢٢ (٥) سورة القيامة : ٣٦ . (٦) سورة الذاريات : ٥٦ . (٧) سورة الزمر: ٥٦ .

الوليد : أن المعاد مما جاءت به الشرائع ، ونادت به الأدلة النقلية والعقلية ، بيد أن الموضوع لم يسلم من الاختلاف فيه ، بل اختلفوا . ويمكن أن نوجز اختلافهم في الآتي :

١ – هل ذلك الوجود الذي بعد الموت هو هذا الوجود بعينه ، بمعنى أن ما في ذلك الوجود من النعيم واللذات متحد مع ما في هذا الوجود الذي قبل الموت ، وإنما يختلفان في الانقطاع والدوام ، أي أن ذلك دائم وهذا منقطع !؟

٢ – إن الوجود الجسماني مخالف لهذا الوجود ، وإنما يتفقان في اسم الوجود الجسماني فقط ، مع اختلاف الحقائق مستدلين بقول ابن عباس فيما روي عنه :

(ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء)[1] ، ويرى أبو الوليد أن هذا الرأي الثاني أليق بالخواص .

٣ – ترى طائفة من الفلاسفة : أن المعاد روحاني فقط وإنما مثل به لإرادة البيان .

والعجيب في أمر ابن رشد أنه يرى أن أصحاب هذا الرأي لهم حجج كثيرة في الشريعة إلا أنه لم يذكر منها حجة واحدة مع دعوى الكثرة . وابن رشد يختلف مع الإمام الغزالي في هذه المسألة ، إذ يرى الغزالي وجوب القول بمعاد الأجسام ويحكم بالكفر على من أنكر ذلك وقال بمعاد الأرواح فقط ، وقد كفر الغزالي بعض الفلاسفة بهذا القول كالكندي والفارابي وابن سينا إضافة على قولهم بأن الله يعلم الكليات فقط دون الجزئيات ، وقولهم بقدم العالم وأزليته .

هكذا يتبين أن ابن رشد متساهل ، بل متناقض في هذا الباب على خطورته ، ولم يقف عند التساهل والتناقض ، بل إنه يذهب بعيداً إذ يعد هذه المسألة مسألة اجتهادية إذ يقول :

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره سورة البقرة رقم الآية ٢٥ ونقل عنه ابن كثير في تفسيره من ١/١١٠ عن طريق سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية أبي معاوية كلاهما عن الأعمش به قاله ابن كثير في تفسيره من سورة البقرة ... وإسناده صحيح . أبو ظبيان هو حصين بن جندب بن الحارث الجنبي بفتح الجيم وسكون النون . ثم موحدة ظبيان بفتح المعجمة وسكون الموحدة الكوفي ، ثقة . من الثانية مات سنة تسعين وقيل غير ذلك وهو من رجال الجماعة قاله الحافظ في التقريب .

(والحق في هذه المسألة أن فرض كل إنسان فيها هو ما أدى إليه نظره فيها ، بعد ألا يكون[1] نظراً يفضي إلى إبطال الأصل جملة ، وهو إنكار الوجود جملة ، فإن هذا النحو من الاعتقاد يوجب تكفير صاحبه لكون العلم بوجود هذه الحال للإنسان معلوماً للناس بالشرائع والعقول) .

خلاصة رأي ابن رشد في هذه المسألة أن الواجب هو الإيمان بالبعث بعد الموت ، وأن هناك معاداً ، وأما كون المعاد يكون للأرواح أو الأجسام فليس بمهم عند ابن رشد بل لكل إنسان أن يعتقد ما أدى إليه نظره واجتهاده .

والحق أن هذه المسألة من المسائل التي لم يوفق فيها ابن رشد بل أخطأ في دعوى أن المقام مقام اجتهاد ، بل الصواب أن المقام مقام نص ، ولا اجتهاد مع النص ، فنصوص الكتاب والسنة تصرخ دون خفاء وبأعلى صوت : بأن المعاد للأجسام والأرواح معاً ، فلنستمع إلى الآيات التالية وهي تستنكر على الإنسان حين ينسى أو يتناسى بأن الله خلقه من نطفة ويستصعب ذلك متسائلاً من يحيي العظام وهي رميم !!

﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾[2] وإلى الآية التالية وهي تصف يوم القيامة **﴿ يوم نطوي السماء كطيّ السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾**[3] وإلى قوله تعالى : **﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى ﴾**[4] .

وإذا انتقلنا إلى السنة نجدها تصرح بالمعاد الجسماني بما لا يترك مجالا للشك أو الجدل – من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « تبعث أمتي يوم القيام غراً

---

(١) أي بشرط ألا يؤدي نظره إلى إبطال الأصل جملة .

(٢) سورة يس الآيات : من ٧٧ – ٨٠ .

(٣) سورة الأنبياء الآية : ١٠٤ .

(٤) سورة الروم الآية : ٢٧ .

محجلين »[1] وقوله : « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا بهما »[2] .

دلالة الحديث الأول على البعث الجسماني واضحة جداً ، لأن الوصف بالغراة والتحجيل إنما هو وصف للجسم والروح تابعة طبعاً .

وأما الحديث الثاني فلا تقل دلالته على المراد من الحديث الأول ، لأن الأوصاف الأربعة كلها أوصاف لا تليق إلا بالجسم كما لا يخفي والروح تدخل تبعاً . والله ولي التوفيق .

وبعد : أعتقد أن الموضوع قد وضح ، وليس بحاجة إلى تعداد أدلة أخرى غير ما تقدم من أدلة الكتاب والسنة ، والعقل لا يستبعد ذلك لأنه لم يستبعد المبدأ ، ولقد رأينا كيف ربطت بعض الآيات السابقة المعاد بالمبدأ مثل قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾[3] .

* * *

الخلاصــة

١ – ثبت بالأدلة النقلية والعقلية أن المعاد جسماني

٢ – ثبت أن المقام مقام نص لا مقام اجتهاد .

٣ – إنكار المعاد الجسماني تكذيب لنصوص الكتاب والسنة وخروج على مقتضى العقل . وتكذيب نصوص الكتاب والسنة الصريحة كفر لا ريب فيه .

والله المستعان .

* * *

(١) أخرجه خ الوضوء (٣) م : الطهارة (٣٤) (٣٩) ت : الجمعة (٧٤) ن : الطهارة (١٠٩) جه : الطهارة (٢٦) زهد (٣٤) أحمد في مسنده ١/٢٨٢ وذلك من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من حديث الشفاعة الطويل .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/٤٩٥ من حديث جابر الطويل وأخرجه البخاري في الأدب المفرد وتعرض له الحافظ في الفتح في موضعين كتاب العلم ، وكتاب التوحيد عن طريق محمد بن عبد الله ابن عقيل .

(٣) سورة الروم : ٢٧ .

القضاء والقدر عند ابن رشد

مما لا يختلف فيه اثنان أن الإيمان بالقضاء والقدر جانب مهم جداً من جوانب العقيدة الإسلامية ، ولهذا الإيمان أثره الواضح في سلوك المرء وتصرفاته وفي موقفه من الوقائع والأحداث التي تفاجيء الإنسان في هذه الحياة ، ويجب أن يقوم هذا الإيمان على المعنى الصحيح للقضاء والقدر ، ولا يوجد ذلك المعنى الصحيح إلا في الوحي الإلهي المتمثل في القرآن الكريم والسنة المطهرة ولا يجوز بوجه من الوجوه الاستعاضة عن هذا المصدر ولا إشراك غيره معه كمصدر أصيل .

معنى القدر والقضاء وأيهما أسبق

اختلف أهل العلم أيهما السابق على الآخر . القضاء أو القدر .

والذي تطمئن إليه النفس وتؤيده الأدلة ، هو قول أبي حاتم الرازي وغيره من بعض أهل العلم وخلاصته : أن القدر هو التقدير ، فإن القضاء هو التفصيل ، ومن الشواهد التي ذكرها أبو حاتم على ما ذهب إليه قوله تعالى : ﴿ **قضي الأمر الذي فيها تستفتيان** ﴾[1] ومعناه الفراغ وقوله تعالى : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض** ﴾[2] أي فرغ منها ، والقضاء والقدر بمنزلة الثوب الذي يقدره الخياط ، فهو قبل أن يفصله يقدره . ويزيد ، ويوسع ، ويضيق ، وإذا فصله فقد قضاه . ولا يمكنه أن يزيد أو ينقص ، وذلك مثل القضاء والقدر والله أعلم . وهناك تعريفات أخرى ، وقد يعكس بعضهم فيقدم القضاء على القدر .

وسواء كان هذا أو ذاك فإن الله تعالى سبق علمه بكل مخلوق وكتب مقاديره ، وأوجده وفق ما قدره له وشاء ما يصدر عنه بعد وجوده من خير أو شر ، ولا يخرج عن ذلك شيء لا أفعال الإنسان ولا غيرها ، وكذلك ما يصيب الإنسان من الحوادث والكوارث . والعبد بجملته مخلوق جسمه وروحه وصفاته وأفعاله وأحواله ، فهو مخلوق خُلِق على نشأة وصفة يتمكن بها من إحداث إرادته وأفعاله بتلك النشأة . بمشيئة الله وقدرته ، وتكوينه فهو الذي خلقه وكونه . وكذلك فتقع حركته بقدرة العبد المخلوقة . وإرادته التي جعلها الله فيه . فالله سبحانه إذا أراد فعل العبد خلق له القدرة ، والداعي إلى فعله . فيضاف الفعل إلى قدرة العبد إضافة المسبب إلى

(١) سورة يوسف : ٤١ . (٢) سورة الجمعة : ١٠ .

سببه ، ويُضاف إلى الله المسبب بسببه والمسبب . والسبب . والفاعل . والآلة . أثر قدرة الله تعالى فلا تعطل قدرة الله عن شمولها وكمالها ، وتناولها لكل ممكن ؛ وليس في الوجود شيء مستقل بالتأثير سوى مشيئة الله تعالى وقدرته ولا تعطل قدرة العبد التي خلقها له وجعلها صالحة لمباشرة الأفعال .

هذه طريقة أهل السنة والجماعة في هذا الباب ، وهي التي كان عليها سلف الأمة وهي وسط بين طريقة الجبرية ، والقدرية كما ترى . وكما سيتضح قريباً إن شاء الله ..

وهذه المسألة من أعوص المسائل الشرعية كما يقول أبو الوليد لما يظهر من التعارض بين الأدلة ، مما أدى إلى تفرق الناس إلى ثلاث فرق ، طرفين ووسط :

الطرف الأول : الجبرية ، وعلى رأسهم جهم بن صفوان ، فقد ذهبت هذه الفرقة إلى أن العبد مجبور على عمله من خير وشر ، وتنسب إليه الأعمال مجازاً كما تنسب إلى الجماد ، والإنسان – إنما يخالف الجماد في المظهر فقط ، فكتب فلان (مثلا) وقرأ وقام وعقد ، مجاز ، كما يقول : ماج البحر وتحرك الجمل وأثمرت الشجرة ، والذي دفعهم إلى هذا فرارهم من الوقوع فيما وقعت فيه القدرية عن القول : إن العبد يخلق أفعاله ، كما سيأتي إن شاء الله .

والجبرية نظرت إلى العبد وهو منفعل فقالوا : إنه مجبور غير مختار ، وفاتهم أنه منفعل وفاعل .

ما ينتج من هذا القـول

يترتب على هذا المذهب إبطال التكليف ، والثواب والعقاب على الأعمال كما ينتج عنه أن إرسال الرسل وإنزال الكتب عبث ، وهو مذهب باطل ومرفوض كما ترى عقلاً وشرعاً ، أما العقلاء : فإنه لا يستساغ أن يعطي العامل أجر عمل لم يفعله باختياره حقيقة ، وإنما ينسب إليه مجازاً ، من حيث الثواب .

وأما العقاب فليس من العدل أن يعاقب العامل على خطيئة ارتكبها تحت الإجبار وبدون اختيار منه بل أتاها مكرهاً ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فيصبح إنذار الترغيب والترهيب وإنذار الرسل كلاماً لا معنى له . هذا ما يترتب على قول الجبرية بإيجاز

الطرف الثاني : المعتزلة القدرية .

هذه الفرقة ترى أن العبد يخلق أفعاله بقدرته مستقلاً عن قدرة الله ويريد ويدبر بإرادته الحرة قبل أن تتدخل إرادة الله تعالى في إرادته .

وجهة نظرهم

والذي حمل هؤلاء على هذا القول الخطير ، لما رأوا أن العبد يفعل ويترك باختياره الحر ، وأثبت له الشرع الثواب على الحسنات ، والعقاب على السيئات ، ثم لاحظوا الفرق بين حركة العبد العادية ، وحركة اليد المرتعشة ، حيث تكون الأولى اختيارية والثانية اضطرارية ، وما ندركه من الفرق بين حركات الصاعد إلى المنارة والساقط منها ، إذ تكون الأولى بقدرة العبد واختياره بينما لا قدرة له ولا إرادة في الأخرى .

لاحظ القوم هذه الملاحظات في أفعال وحركات العبد ونظروا إليه فاعلاً ، وغفلوا أنه فاعل ومنفعل فزعموا أن العبد هو الذي يخلق أفعاله بقدرته قبل أن تتدخل قدرة الله ، تعالى الله عن شريك يشاركه في ربوبيته وخلقه ، وفاتهم أن العبد بجسمه وروحه وإرادته وقدرته مخلوق لله . فالله تعالى هو الذي يخلق له القدرة على العمل ويجعله فاعلاً يفعل بالإرادة المخلوقة والمحدودة والقدرة المحدثة حتى ينسب إليه العمل ويضاف إليه إضافة المسبب إلى السبب في الوقت الذي يضاف عمله إلى الله إضافة المخلوق إلى الخالق .

ما أبعد هذا الطرف عن ذلك الطرف حيث العبد مجبور هناك وخالق هنا ، وكلا الفريقين ضل الطريق وضاع الصواب بينهما ، وعثر عليه أهل السنة والجماعة بتوفيق الله تعالى وقد تقدم بيان مذهبهم .

كسب الأشعري

حاول أبو الحسن الأشعري أن يأتي بحل وسط بين الجبرية والقدرية إلا أنه لم يوفق حيث جعل مناط التكليف الكسب ، والكسب هو العمل – كما يتبادر – بل هو إرادة تحصل عند الفعل ، وقعوا في هذا المضيق لئلا يقولوا : إن العبد هو الفاعل

الحقيقي مستقلاً كما هو مذهب القدرية ، أو يقولوا : إنه مجبور وليست له إرادة كما تقول الجبرية ، ولكنهم لم يأتوا بجديد بل طريقتهم هذه هي الجبرية بعينها ، والخلاف بينهم وبين الجبرية خلاف لفظي وليس بجوهري كما ترى ، بل طريقتهم أكثر غموضاً ، بل قد عد كسب الأشعري من المحالات ومحالات الكلام ثلاثة – كما يقولون :

١ – كسب الأشعري .
٢ – أحوال أبي هاشم .
٣ – طفرة النظام .

أما كسب الأشعري : فقد تحدثنا عنه ، وملخصه ، أن العبد ليس هو الفاعل حقيقة ولكن إرادته للفعل يخلق الله الفعل . نقدر أن نقول : إنها جبرية متطورة أو متسترة .

أما أحوال أبي هاشم : المراد بها الصفات المعنوية التي انفرد بإثباتها أبو هاشم دون سائر المعتزلة مع نفيه لصفات المعاني ، أي أنه ينفي العلم والقدرة والإرادة إلى آخر الصفات ثم يثبت كونه عالماً وقادراً ومريداً . وهذه (الكوكتة) هي الأحوال .

وأما طفرة النَّظام : فهي (انزلاقة) انفرد بها النَّظام المعتزلي دون سائر المعتزلة وهي القول بأن الله خلق هذه الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن ، من نبات وحيوان وجبال وبحار ، ولم يتقدم خلق آدم على ذريته غير أن الله (أكمل بعضها في بعض فالتقدم والتأخر إنما وقع في ظهور هذه الموجودات في أماكنها ، دون حدوثها ووجودها) .

وكان النظام متأثراً بأصحاب الكمون والظهور ، في الفلاسفة وهي طفرة لم يسبقه إليها أحد قبله .

خـلاصة رأي ابن رشـد

يقول ابن رشد – وهو يلخص بحثه الطويل في مسألة القضاء والقدر : (ولما كان ترتيب الأسباب ونظامها هو الذي يقتضي وجود الشيء في وقت ما أو عدمه

في ذلك الوقت ، وجب أن يكون العلم بأسباب شيء ما هو العلم بوجود ذلك الشيء أو عدمه في وقت ما ، والعلم بالأسباب على الإطلاق هو العلم بما يوجد منها ، أو ما يعدم في وقت من أوقات جميع الزمان فسبحان الذي أحاط اختراعاً وعلماً بجميع أسباب الموجودات ، وهذه هي مفاتح الغيب في قوله تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾[1] الآية .

وإذا كان هذا كله كما وصفنا تبين لك كيف ثبت لنا الاكتساب ، وكيف تكون جميع مكتسباتنا بقضاء وقدر سابق ، وهذا الجمع هو الذي قصده الشرع بتلك الآيات العامة والأحاديث التي يظن بها التعارض ، وهي إذا خصصت عموماتها بهذا المعنى انتفى عنها التعارض ، وبهذا أيضاً تنحل جميع الشكوك التي قيلت في ذلك أعني الحجج المتعارضة العقلية ، أعني أن كون الأشياء الموجودة عن إرادتنا يتم وجودها بالأمرين معاً أعني بإرادتنا وبالأسباب التي من خارج فإذا نسبت الأفعال إلى واحد من هذين على الإطلاق لحقت الشكوك المتقدمة .

وابن رشد كما ترى – يدندن حول مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة وهو بريء من داء الجبرية والقدرية . ومن كسب الأشعري بل هو يثبت للعبد قدرة وإرادة ، وفي الوقت نفسه يقرر أن الأشياء توجد بقضاء وقدر سابق ، بل يقرر أنه لابد من اجتماع الأمرين معاً . القضاء والقدر ويسميهما « السبب الخارجي » وإرادة العبد وهي السبب الداخلي وتوجد الأشياء بإذن الله تعالى ، بتوفر الأمرين معاً .

وذلك يعني أن العبد يعمل بإرادته وقدرته واختياره . ولكنه هو وإرادته وقدرته والآلة التي استعملها بل وعقله كل ذلك مخلوق لله ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾[2] فتضاف الأعمال إلى العبد حقيقة إضافة المسبب إلى السبب لأن العبد بإرادته وقدرته هو سبب وجود تلك الأعمال . وقد جعل الله لكل شيء سبباً .. فهي تضاف إلى الله إضافة المخلوق إلى الخالق . هذه هي طريقة أهل السنة والجماعة كما تقدم . فليهنأ ابن رشد بهذا التوفيق في هذه المسألة العويصة كما وصفها هو نفسه في كتاب منهاج الأدلة في عقائد الملة . وبعد هذا الملخص والتعليق يحسن بنا أن نسرد بعض الآيات القرآنية

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .

(٢) سورة فاطر الآية : ٣ .

التي أشار إليها ابن رشد لنرى كيف تتفق ولا تختلف وبالتوفيق بينها تزول جميع الشكوك إن شاء الله . المجموعة الأولى من الآيات المشار إليها .

(أ) ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾[1] ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾[2] ﴿ **ثم توفى كل نفس ما كسبت** ﴾[3] ﴿ **لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾[4] ﴿ **ذلك بما قدمت أيديكم** ﴾[5] .

هذه المجموعة وما في معناها من نصوص الكتاب والسنة تفيد أن أفعال الإنسان تقع بإرادته ومشيئته واختياره .

ومما يؤيد هذا المعنى أن المجنون لا يسأل عن أفعاله بإجماع لأنها لم تقع منه بإرادته أو بإرادة معتبرة .

(ب) المجموعة الثانية : ﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾[6] . ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم** ﴾[7] . ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾[8] .

تفيد هذه المجموعة وما شاكلها من نصوص الوحي أن الإنسان وإن كان فاعلاً لأفعاله حقيقة لا مجازاً وله إرادة ومشيئة لكن إرادته ومشيئته مخلوقان لله . وهما سببان فقط لإيجاد فعل الإنسان ، والله خلق السبب والمسبب معاً ، وكون الإنسان يفعل بإرادته ، لا يخرج فعله من عموم مخلوقات الله ، فالسفينة يصنعها الإنسان بيده ولكن الله خالقها وخالق يده وإرادته ، وكذلك البيوت والجلود المذكورات في المجموعة الثانية والله ولي التوفيق .

هكذا تتفق الآيات التي ظاهرها التعارض ولا تعارض في واقع الأمر ، إذ دلت المجموعة الأولى أن للإنسان تدخلاً في أعماله بحيث يثاب على الحسنة ويعاقب على السيئة ، فتضاف إليه أعماله حقيقة .

---

(١) سورة الكهف الآية : ٢٩ .
(٢) سورة التكوير الآية : ٢٨ .
(٣) سورة البقرة الآية : ٢٨١ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .
(٥) سورة آل عمران الآية : ١٨٢ .
(٦) سورة يس الآية : ٤٢ .
(٧) سورة النحل الآية : ٨٠ .
(٨) سورة الصافات الآية : ٩٦ .

ودلت المجموعة الثانية على أن الإنسان وعمله مخلوقات لله تعالى وهو الخالق وحده سبحانه .

ســـر القـــدر

فطالما خضنا في هذا البحث الخطير فلابد أن نقول شيئاً في محاولة الإجابة على سؤال خطير يتردد في الأذهان وربما ظهر على بعض الألسنة أحياناً والسؤال يتكون من فقرتين ، ونص السؤال هكذا :

إذا شاء الله من الإنسان المعصية و لم يشأ منه الطاعة فَلِمَ يحاسبه على ما يشاء منه ؟

ولِمَ لم يشأ منه الطاعة كما شاءها من غيره ؟ .

الجواب على الفقرة الأولى من السؤال : سبق أن تحدثنا أن في الأصول القطعية عند أهل السنة : أن الهداية والضلال . والطاعة والمعصية بمشيئة الله وأن الإنسان سبب في وقوعها . ومسؤليته عن أفعاله أصل قطعي آخر من هذه الزاوية ، فالقاعدة التي يتفق عليها العقلاء أن القطعيات لا تتناقض في نفسها ، وإن بدت لنا متناقضة لقصور إدراكنا . فحسبنا أن نقف عند هذه القطعيات ونؤمن بها جميعاً . ولا نرد منها شيئاً ولو لم نحط بها علماً ، لأن مسألة القضاء والقدر لها تعلق بصفات الله تعالى : كعلمه وحكمته وإرادته ، وحيث إننا نعجز عن الإحاطة بصفات الله تعالى فكذلك نعجز عن الإحاطة بسر القدر ، وسر القدر هو أن الله تعالى أضل وهدى وأسعد وأشقى وأمات وأحيا وغير ذلك لحكمة يعلمها ولا نعلمها . ها هنا السر !! وهو العليم الحكيم . فسبحان الذي أحاط بكل شيء علماً . وأحصى كل شيء عدداً . ولا يضير المرء في إيمانه عجزه عن الإحاطة بسر القدر لأن ذلك ليس بمستطاع ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ولكن الذي يضيره أن يبني على عجزه أحكاماً ويتصرف على غير هدى ، من ذلك رد بعض الأصول القطعية في القدر ، وضرب النصوص بعضها ببعض .

وللجواب على الفقرة الثانية في السؤال نورد قول علي رضي الله عنه (القدر سر الله فلا نكشفه) ومن سر القدر عجزنا عن جواب : « لم شاء الله الطاعة من

زيد ووفقه بينما لم يشأ من عمرو ولم يوفقه » ؟ بل الجولب الذي ليس بعده جواب قوله تعالى : ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾[1] . ومما لا نزاع فيه بين العقلاء أن المالك له أن يتصرف في ملكه كيف يشاء . و يلزم ليكون تصرفه سليماً أن يدرك غيره الحكمة الباعثة والعلة في تصرفاته وليس لأحد حق الاعتراض عليه في تصرفه . إذا لم يعلم السر في أفعاله .

فلو رأينا صاحب بستان يحتوي بستانه على أنواع من الأشجار لو رأيناه يقطع هذه الشجرة ويترك تلك ويهذب هذه وينظمها ويهمل تلك دون تهذيب أو إصلاح فهل لأحد حق الاعتراض على هذه الأعمال المختلفة ، فالجواب لا . لأننا لا ندري ما هو الباعث له على ما فعل أو ترك . هذا هو معنى قول علي رضي الله عنه (القدر سر الله فلا نكشفه) أي فلا نحاول كشفه لندرك حقيقة ذلك السر المكتوم لأنه تكلف بلا نتيجة ومن حاول إدراك غير المستطاع – فنتيجة محاولته :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها   فلم يضرها وأوهي قرنه الوعل

من ثمرات الإيمان بالقدر

صاحب الإيمان الصحيح بالقدر يباشر الأسباب المباحة بيده ، ويبذل وسعه في الأخذ بالأسباب ولا يعجز ولا يتواكل ولكنه يعتمد على الله وحده في نجاح تلك الأسباب المبذولة لا على الأسباب ذاتها ، ولقد كان كذلك سيد المرسلين وإمام المتوكلين محمد عليه الصلاة والسلام . يعتبر تعليماً للأمة في الأخذ بالأسباب ومباشرتها وقد فعل ذلك في سبيل التخلص من شر المشركين ولكنه لم يكن اعتماده في الخلاص على السبب نفسه . وإنما كان اعتماده على الله العلي القدير قال الله تعالى : ﴿ **ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** ﴾[2] وذلك يعني أن ثقته كانت في الله واطمئنانه وسكينته بسبب تلك المعية الخاصة . إلا أنه لم يهمل السبب بناء على الثقة والاعتماد الصادق على الله . وقد رأيناه عليه الصلاة والسلام مرة أخرى في معركة « بدر » يباشر السبب – إذ رأيناه ينظم الجيش كسبب مادي لابد من مباشرته ، ثم يرجع إلى العريش الذي ضرب له في أرض المعركة

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٢٣ .

(٢) سورة التوبة الآية : ٤٠ .

فيدعو الله ويلح في الدعاء ويكثر فيطلب النصر من الله . وكان عليه الصلاة والسلام يحث أصحابه على البيع والشراء . وكان من أصحابه المزارعون والتجار الذين يزاولون البيع والشراء . هذا هو المفهوم الصحيح للتوكل ، وهو ثمرة من ثمرات الإيمان الصحيح بالقدر ﴿ **فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون** ﴾[1] .

* * *

---

(١) سورة يس الآية : ٨٣ .

خاتمة

تم بتوفيق الله وعونه إعداد هذه العجالة التي تحدثنا فيها عن موقف الفيلسوف ابن رشد من العقل والنقل ورأينا في هذا البحث معالجة ابن رشد التوفيق بين الشريعة والحكمة ومناقشته الحادة لعلماء الكلام في التأويل الذي يسلطه أهل الكلام على نصوص الصفات ليتبعوا ما تشابه من النصوص ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . وقد بينا في هذه العجالة ضرورة توحيد المصدر للعقيدة الإسلامية وذلك المصدر هو الوحي الإلهي فقط دون أن يشاركه أي مصدر آخر لا الفلسفة ولا علم الكلام ولا القياس بأنواعه .

وبعد هذا كله من الحماقة بمكان أن يقال :

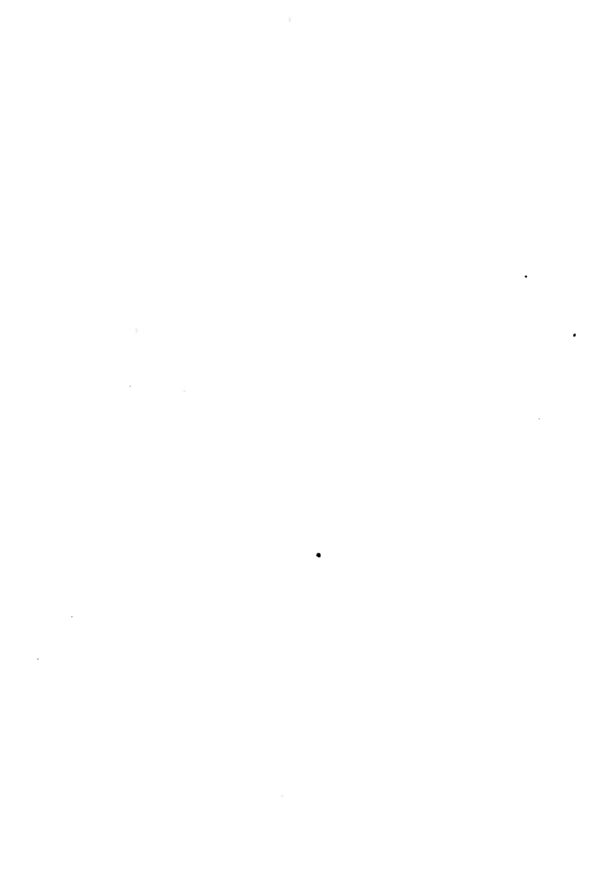
بأن الشرع لم يفصل أمور العقيدة ، فالرجوع إلى الفلسفة أمر ضروري لمعرفة التفصيل ، وهو قول عار عن الحقيقة بل هو تمويه على السذج من الناس لأن أمور العقيدة – كما أوضحنا في صلب البحث – من أهم مطالب الدين بعثت بها الرسل وأنزلت بها الكتب .

ومن المستحيل عقلاً أن يهمل الشارع بيان هذا المطلب الذي هو أهم المطالب على الإطلاق دون بيان شاف بالتفصيل فيحيل الناس على مصدر آخر في معرفته ، في الوقت الذي بين فيه فروع الشريعة وأوضح سننها وآدابها ولقد رأينا كيف بين الوضوء ونواقضه وكيفية التيمم وغير ذلك من الفروع .

ومن تتبع آيات القرآن وتدبرها واطلع على المقدار الكافي من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام مع دراسته ما كان يفهمه الرعيل الأول من النصوص ؛ يدرك تماماً ودون شك أن بيان العقيدة قد وقع بياناً يغني أهله عن الحاجة إلى سفسطة أهل الكلام وخوض الفلاسفة .

والحمد لله رب العالمين ...

* * *



الرسالة السابعة

طريقة الإسلام في التربية



بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدمة

طريقة الإسلام في التربية

فضيلة رئيس الندوة الإسلامية العالمية في التربية ، والسكرتارية المحترمة أيها الحضور الكرام أحييكم بتحية الإسلام . سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

وبعد : فكم كان سروري عندما سمعت بهذه الندوة المباركة التي بادرت إلى إقامتها والدعوة إليها هذه الجامعة الفتية (جامعة بايرو) بكانوه . وقد جاءت الندوة في الوقت الذي تشكو فيه البشرية حاجتها الماسة إلى التربية الإسلامية السماوية بعد أن جربت جميع المناهج الأرضية وأدركت فشلها في إيجاد الفرد الصالح الذي يتكون منه المجتمع الصالح والأمة الصالحة . ولا يتحقق ذلك إلا حين يتخرج ذلك الفرد في المنهج الإسلامي . في هذا الوقت دعت هذه الجامعة الفتية إلى هذه الندوة المباركة . وبحق تعتبر هذه الدعوة مبادرة موفقة وكريمة ، وهي تدل - في ضمن ما تدل على مدى الوعي الناضج في أسرة هذه الجامعة والمسئولين عنها . فنشكر لهم هذه المبادرة الكريمة ، وندعو الله السميع القريب أن يبارك في هذه الجهود المبذولة وهذا السعي المشكور حتى نرى ثمار هذه الندوة قد أينعت وآن قطافها بإذن الله قد حان ، ومساهمة من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في مثل هذا النشاط الإسلامي العالمي قد لبت الدعوة الموجهة لها من جامعة بايرو بكانو وكلفتني بالحضور والمشاركة في الندوة فها أناذا أتقدم بهذه المحاضرة الموجزة أو البحث المتواضع تحت عنوان « طريقة الإسلام في التربية » فأقول مستعيناً بالله ومصلياً على رسوله ومسلماً :

* * *

طريقة الإسلام في التربية

لكل منهج من المناهج طريقة في التربية وميزة يتميز بها في تنشئة الفرد والمجتمع فللإسلام طريقة خاصة ومتميزة في التربية بميزات لا يشاركه فيها أي منهج آخر ، فالإسلام وحده هو الذي يهدف إلى تكوين الإنسان الصالح بينما تهدف جميع المناهج إلى تكوين المواطن الصالح ، وما من شك في أن إعداد وتكوين الإنسان الصالح أشمل وأدق وأعمق من إعداد المواطن الصالح . والمواطن الصالح هو ذلك الإنسان المقيد بالأرض بل بقطعة منها لا يصلح لغيرها ، مع ملاحظة الاختلاف بين تلك المناهج الأرضية في تحديد هذا المواطن الصالح هل هو الجندي الصالح في استعمال سلاحه .

أو هو العابد الصالح في تنسكه وعبادته .

أو ذلك الإنسان الخامل في سلامة صدره وهدوئه .

إلى غير ذلك من المعاني .

أما الإسلام فله طريقته الخاصة في إعداد الفرد الصالح وله وسائله الخاصة أيضاً ، إذ يأخذ هذا الكائن البشري المسمى إنساناً بكامله ، بجسمه ، وروحه ، وعقله ، قبل أن يهمل الروح على حساب الجسم أو العقل وقبل أن يعكس ، بل ينفذ إلى هذا الكائن من جميع منافذه فيربي روحه ، وجسمه ، وعقله معاً ، ثم إنه يساير الإنسان في جميع أحواله ، في حبه وكرهه وفي حالة خوفه ورجائه وفي جميع ظروفه المختلفة .

يربيه بوسائل شتى : يربيه بالقوة ، يربيه بالموعظة ، يربيه بالأحداث على اختلافها بالقحط ، بالزلازل ، بالأمراض ، وتسليط الأعداء ، حتى يجأر إلى الله ويرجع إليه ﴿ **ثم إذا مَسَّكُم الضر فإليه تجأرون** ﴾[1] . يربيه بمثل هذه الوسائل حتى يتكون الفرد الصالح القوي في إيمانه وثقته بربه ، فمنه يتكون المجتمع الصالح والأمة الصالحة الخيرة وهي الأمة الإسلامية الواعية الطيبة التي قال عنها خالقها الحكيم

---

(١) سورة النحل الآية : ٥٣ .

العليم سبحانه ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[1] .

ولقد رأينا الله يخاطب هذه الأمة المحمدية مباشرة ودون واسطة ودون تقييد لها بأي صفة من الصفات المقيدة لا بالقومية أو الوطنية أو القبلية ، بل يقول لهم يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام كنتم خير أمة أخرجت للناس إخراجاً خاصاً وممتازاً لتقوموا بأعباء الخلافة – تعمرون الأرض وتصلحونها بالعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله . والإيمان بالله يستلزم الإيمان برسله وكتبه ويوم لقائه وغير ذلك من شُعَب الإيمان التي أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، أخذاً من سنة هادي الأمة ومربي البشرية محمد عليه الصلاة والسلام الذي أرسله الله لهداية الناس جميعاً ﴿ **قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾[2] ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[3] ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** ﴾[4] ﴿ **وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً** ﴾[5] .

أعود فأقول : إذا رأينا الله يخاطب هذه الأمة في الآية السابقة ويوجههم ذلك التوجيه السديد ثم استمعنا إلى الآيات التي تخبرنا بعموم رسالة محمد ﷺ نبي هذه الأمة وأنه بعث لهداية الناس جميعاً ليصلهم بربهم ، فسنرى في هذه النصوص الآتية كيف يخاطب الله الإنسان بصفته إنساناً فقط ، ليرده إلى خالقه ويصله به مباشرة ودون واسطة ﴿ **يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك** ﴾[6] .

﴿ **يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾[7] ، ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾[8] .

هكذا يخاطب الله الإنسان حقيقة الإنسان دون أن يربطه بصفاته الطارئة كالوطنية والقومية مثلا بل يخاطب إنساناً حراً طليقاً مخلوقاً لله وهو عبد الله فقط

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٠ .
(٢) سورة الأعراف الآية : ١٥٨ .
(٣) سورة الأنبياء الآية : ١٠٧ .
(٤) سورة سبأ الآية : ٢٨ .
(٥) سورة النساء الآية : ٧٩ .
(٦) سورة الانفطار الآيات : من ٦ – ٨ .
(٧) سورة الانشقاق الآية : ٦ .
(٨) سورة (ق) الآية : ١٦ .

ليرده إلى خالقه ومولاه ويخبره بأنه سوف يرجع إليه ليرى عنده جزاء عمله وكده في هذه الدار ، وفق عمله وكده ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر دون أن يظلم ﴿ **ولا يظلم ربك أحداً** ﴾[1] فماعليه إلا أن يعمل الخير ويبتعد عن الشر . بمثل هذا الأسلوب وبمثل هذا التوجيه يربي الإسلام الإنسان في كيانه المهم : الروح وهو لا يهمل الجسم ولكنه يركز على الروح كما رأينا وكما سنرى تفاصيل ذلك إن شاء الله .

ومن درس المناهج الأخرى غير الإسلامية في مجال التربية يجدها فريقين : فريق يصل الناس بربهم وخالقهم متجردين عن الحياة تاركين الأرض وعمارتها بل يكادون أن يزعموا أنهم روح بلا جسم .

وفريق آخر يصل الناس بالأرض ليتمتعوا بالأرض وزينتها ويكافحوا دونها ويعادوا من أجلها ويوالوا في سبيلها ، من أجلها يحبون ويكرهون ، وقد خلدوا إلى الأرض وركنوا إليها حتى أصبحوا عباداً لها .

وأما الإسلام ، الإسلام وحده هو الذي يصل الإنسان بخالقه ليصلح حاله في الأرض وينظم حياته ويمشي على الأرض بجسمه وهو متوجه إلى السماء بروحه ليعيش بين الأرض والسماء ولا يقطع صلته بأيتهما . يمشي على الأرض يكد ويسعى في رزقه وهو متصل بالسماء : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾[2] . وهذا الاتصال بالسماء بهذه الصورة التي صورها القرآن هو محور العقيدة الإسلامية ومنهجها التربوي ، ومن الاتصال بالله تتفرع التشريعات والتنظيمات والتوجيهات حتى يمكن للحياة البشرية أن تسير على منهجها المستقيم ، دون تفريط أو إفراط ليعلموا أن الله وحده صاحب الحول والقوة والعزة والجبروت والسلطان وهو مالك الكون ﴿ **بيده ملكوت كل شيء** ﴾[3] .

وهذا العلم يحملهم على عدم التطلع إلى أحد سواه بل يتوكلون عليه وحده ويكتفون به ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾[4] ويغمضون عيون قلوبهم بحيث لا يلتفتون إلى غيره ، ومن ثم تتحرر قلوبهم وأرواحهم ليتطلعوا إلى الله بل لينطلقوا إليه خفافاً يحدوهم الحب الصادق له سبحانه ، وينطلقوا لخالقهم وولي نعمتهم ،

---

(١) سورة الكهف : ٤٩ .
(٢) سورة تبارك الملك الآية : ١٥ .
(٣) سورة يس الآية : ٨٣ .
(٤) سورة الزمر الآية : ٣٦ .

وشوقهم إلى لقائه وهو أسمى أمانيهم ، أجل .. إن هذا الرد يجعلهم يدركون الأمور على حقيقتها ، وأن منهج الله هو المنهج الصالح وحده فيلتمسون الهدي في منهجه ليهتدوا بهديه ويسيروا على ضوئه فتصلح حالهم في الأرض وتقوى بذلك صلتهم بالله وثقتهم به بل يكسبون من هذا الاتصال قوة تفوق قوى الأرض كلها ، لأنهم يستمدون قوتهم من قوة الله خالقهم فهم من الله وقوتهم من قوة الله إذ هي قوة تبني وتنشيء وتعمر وتصلح وهم خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضا ليعمروها ويصلحوها ويقيموا فيها العدل ويستغلوا خيراتها وثرواتها **﴿ وسخر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾**[1] ولا يعرف العجز والكسل إلى نفوسهم سبيلاً بل يواصلون سيرهم بقوة دونها جميع القوى وبثقة دونها كل الثقات .

هكذا يربي الله الإنسان حتى يدرك أن منه المنشأ وإليه المصير **﴿ فلينظر الإنسان مِمَّ خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * إنه على رجعه لقادر * يوم تبلى السرائر * فما له من قوة ولا ناصر ﴾**[2] **﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾**[3] **﴿ إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ﴾**[4] فمنهج الإسلام في التربية فريد في بابه ، في إحاطته بجميع جوانب الإنسان ، ولا غرابة في ذلك لأنه منهج الله الخالق **﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾**[5] **﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾**[6] وبعد هذه الإشارة وهذه النصوص التي سردناها نستطيع أن نقول بكل تأكيد : إنه لا يوجد نظام أو منهج يعالج الفطرة كما يعالج الإسلام ، إذ هو يعطي كل جانب في الإنسان غذاءه اللائق به والصالح له بنظام دقيق وبالقدر المفيد بحيث لا يشكو جوعاً أو يصاب بتخمة ، ومن ثم ينطلق الإنسان في الحياة نشيطاً متحركاً ومنتجاً على الدوام دون عجز أو كسل أو فتور ، وجميع المناهج الأرضية تعجز عن الوصول إلى هذا المستوى ، وتقف دون هذا الشمول في دقته كما يشهد واقع الحياة بذلك ، ولا أريد بحديثي هذا إجراء مقارنة بين المنهج الإسلامي المنزل وبين المناهج الأرضية الوضعية ، بل لا أبيح لنفسي مثل هذه المقارنة وإنما أريد بيان وشرح المنهج الإسلامي

---

(١) سورة الجاثية الآية : ١٣ .
(٢) سورة الطارق الآيات : من ٥ - ١٠ .
(٣) سورة مريم الآية : ٤٠ .
(٤) سورة (ق) الآية : ٤٣ .
(٥) سورة الملك الآية : ١٤ .
(٦) سورة الروم الآية : ٣٠ .

وأنه هو وحده الصالح للتربية المنشودة ، وهو الكفيل وحده لتكوين الجيل الصالح وتنشئته ، الجيل الذي يعمر الأرض ويقيم العدل ويؤمن بالله ويعمل لصالح عباد الله دائماً حيثما حل وأينما نزل ، بل أقول بكل تأكيد : إن المناهج كلها : غير المنهج الإسلامي - تعجز أن تخرج هذا الصنف من الناس . أجل إن المنهج الإسلامي لو درس وفهم ثم طبق لأغنانا - نحن المسلمين - عن استيراد مناهج من خارج بلادنا ، ومن وضع أعدائنا وأعداء عقيدتنا - مشرقين أو مغربين لنربي عليها أبناءنا وفتياتنا ، والذي حملنا على ما نحن عليه اليوم من التماس الهدى والصلاح والخير في غير المنهج الإسلامي هو عدم دراستنا للإسلام ومنهجه التربوي دراسة فاحصة وواعية كما يجب أن يدرس ويفهم بل لا أقف عند قولي : لأغنانا - نحن المسلمين - فحسب بل أقول لأغنى الناس جميعاً وكفاهم ، لأنه منهج رباني صالح لجميع الناس أنزله رب العالمين رحمة للعالمين لهداية البشرية أجمع عرفه من عرفه وأخذ به ، وجهله من جهله وأعرض عنه وشقي لعدم الأخذ به..

وهذا الشقاء الذي تشكوه الأمم المعاصرة اليوم في مجال التربية وغيره هو نتيجة إعراضها عن المنهج الإسلامي التربوي ، فهل لها أن تعود من جديد لتسعد ؟ لست أدري عن مدى استعدادها للعودة . ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها** ﴾[1]

* * *

(١) سورة فصلت : ٤٦ ، وسورة الجاثية : ١٥ .

الـــروح

قبل أن أقول شيئاً عن طريقة الإسلام في تربية الروح يحسن بي أن أقول شيئاً عن الروح ذاتها : الروح هي تلك الطاقة الهائلة في كيان الإنسان والركن المهم فيه والعنصر الأساسي في تكوينه وهي التي يتم بطريقها اتصال الإنسان بربه وخالقه لأنها من روح الله التي أودعها قبضة من طين فصار إنساناً ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾[1] وهي تهدي إلى خالقها وتتصل به سبحانه ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾[2] .

هكذا يبقى الإنسان على اتصال بربه بواسطة روحه ما لم تنحرف فطرته ويفقد الإنسان اعتداله بأن يصاب بمرض الشبهات المضلة أو يغشاه ركام من الشهوات فيحجب عنه النور فيتخبط وعلى الرغم من ذلك فإن الفطرة لا تعمي كل العمى حتى في هذه الحالة ، بل لا تزال تحاول أن تتجه إلى خالقها ، مثلها في هذه الحالة مثل العين الكليلة تحاول الاتجاه إلى الضوء وهي لا تراه كله رؤية كاملة ولكن لديها بصيص من النور ، ففي هذه الحالة يصاب الإنسان بتخبط في سيره إلى الله وعبادته ، فتجده يعبد مع الله غيره من الكائنات بالتقرب لها والتزلف ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾[3] مع الاعتراف التام بأن هذه الكائنات لن تشارك الله في الخلق ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولن الله** ﴾[4] ، ﴿ **قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض** ﴾[5] هنا تظهر جلياً مهمة العقيدة ودورها الهام ، ومهمتها مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها السليمة ، أجل مهمة العقيدة أن تساعد الفطرة في الاهتداء إلى الله وإخلاص العبادة له وحده ، ذلك الاهتداء الذي كان كامناً فيها ، وتلك القابلية التي كانت تنتظر التوجيه ، فتأتي العقيدة فتوجه وتهدي إلى طريق مستقيم وصراط قويم صراط الله الذي له مافي السمٰوات

(١) سورة (ص) الآية : ٧٢ .
(٢) سورة الأعراف الآية : ١٧٣ .
(٣) سورة الزمر الآية : ٣ .
(٤) سورة الزمر الآية : ٣٨ .
(٥) سورة الأحقاف الآية : ٤ .

وما في الأرض ، هكذا تظهر جلياً مهمة العقيدة وفائدة إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية وعدم الاكتفاء بالفطرة وحدها بالأدلة الكونية التي نصبها الله في الآفاق وفي الأنفس لتدل على خالقها .

إذاً مهمة العقيدة أن تطلق الروح وتخرجها من حجابها لكي ترى الله وتتصل به مباشرة وبدون واسطة ، لذا نرى الإسلام يعني بالروح عناية خاصة لأنها في نظر الإسلام هي القاعدة التي يستند إليها الكيان كله ويتم الترابط عن طريقها وهي الموجهة إلى الله ، ومعلوم أن للإنسان طاقات عديدة طاقة الجسم ، وهي لا تتجاوز كيانه المادي وما يدرك بالحواس وهي طاقة محدودة كما ترى .

أما طاقة العقل فهي أكثر انطلاقاً طبعاً إلا أنها محدودة أيضاً بما يعقل وبالزمان والمكان والبدء والنهاية .

فالطاقة الوحيدة في كيان الإنسان المعفوة عن الحدود والقيود هي طاقة الروح وحدها إذ هي التي تملك الاتصال بما لا يدركه الحس والعقل وهي التي تتمتع وحدها بالاتصال بالخلود الأبدي والوجود الأزلي لأنها تملك الاتصال بالله ومعرفته بآلائه ونعمائه ، وإن كنا نجهل كنه الروح وكنه الاتصال بالله ، وما أكثر ما نجهل كنهه وحقيقته ونحن نؤمن به وبوجوده ، ولكن الإنسان يكاد يحس بسبحة الروح الطليقة عندما تجوب آفاق الكون وتتصل بكل حي في هذا الكون ، لهذا اهتم الإسلام بأمر الروح في جملة اهتمامه بالطاقات البشرية كلها وأعطاها حقها من الرعاية والتوجيه وركز على الروح وهي من أمر الله ﴿ **قل الروح من أمر ربي** ﴾[1] .

وفيما يلي نرى كيف ربى الإسلام الروح وما هي الطريقة التي سلكها في تربيتها .

طريقة الإسلام في تربية الروح

للإسلام طريقته الخاصة في تربية الروح وهو يعقد الصلة الدائمة بينها وبين الله صلة لا تنقطع في كل لحظة في كل عمل وكل فكر وكل شعور حتى لا تنطفيء تلك الإشراقة الروحية لتكون تلك الصلة القوية منهج حياة الإنسان تضيء له الحياة

(١) سورة الإسراء الآية : ٨٥ .

لتظل دائمة مضيئة لكيلا تكون الانطلاقة فلتة عابرة ، إذاً منهج الإسلام في تربية الروح أن تكون صلة الروح بالله في كل لحظة ودقيقة كما سبق أن قلنا بحيث يراقب الله وهو في خلوته حيث لا يراه أحد سواه وهو بين أصحابه وهو يقرأ وهو يكتب ولا يكتب ما لا يرضاه الله وما يضر عباده وأولياءه وهو في مصنعه في متجره في مزرعته في حبه في رضائه وسخطه في جميع أحواله وظروفه بل لا تقوى الظروف الطارئة والأحوال المتجددة أن تحول بينه وبين الله ومراقبته بل هو في جميع حالاته مع الله وعلى اتصال وثيق دائم ، بل هذه هي العبادة التي من أجلها خلق الله الجن والإنس ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[1] وليست العبادة المذكورة في الآية والتي خلقنا من أجلها أداء بعض الشعائر الدينية في أوقات محددة فحسب - كما يظن البعض - كالصلاة والزكاة والصيام مثلا بل هذه مفاتيح وأسس لعبادات أخرى كثيرة أو هي المحطات الكبري - كما يقول بعض المفكرين الإسلاميين - شريطة أن يحسن الوقوف فيها وأداءها كما يجب ، أما حقيقة العبادة أو ثمرتها على الأصل فهي تلك الصلة الدائمة بالله في جميع الأحوال وتحت أي الظروف دون انقطاع أو فتور ، ويخطيء الذين يحسبون أن حقيقة العبادة في الإسلام ذلك التنسك والتزهد فترة من الزمن وأن يظهر الخشوع والخضوع في السجود وفي الركوع فإذا ما ختم صلاته وخرج من مصلاه فإذا العدوان على عباد الله وهتك أعراضهم !! ، فإذا الجشع والشح والغش والخيانة ، فإذا هذه الأخلاق قد أخذت منه كل مأخذ فلا يأمنه المشتري في بيعه ، بل لا يأمن جاره بوائقه « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قالوا : من يا رسول الله قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه »[2] أي شره وضرره ﴿ **إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر** ﴾[3] وليس الغرض من العبادة هذه الشكليات الجوفاء .

« إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[4] فالقلب هو محل نظر الرب في العبد لا الصور والمظاهر والشكليات التي لا قيمة

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٢) أخرجه خ الأدب (٢٩) م : الإيمان (٧٣) ت : القيامة (٦٠) أحمد في مسنده ١/٣٨٧ وذلك من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه . (٣) سورة العنكبوت الآية : ٤٥ .

(٤) أخرجه م : البر (٣٢) جه الزهد (٩) الإمام أحمد في مسنده ٢/٢٨٥ وذلك من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

لها عند الله إذا انفردت .

والعبادة المثمرة هي أهم الوسائل في تربية الروح وعقد الصلة بين الإنسان وربه . وهناك وسائل أخرى يستعملها الإسلام في هذا المجال ، وسوف نذكر بعضها إن شاء الله فيما يأتي من باب المثال لا الحصر .

الوسائل التي استعملها الإسلام
في عقد الصلة بين الإنسان وربه

١ – إن الإسلام ينبه القلب ويثيره لينظر في الكون وصفحته الواسعة ويحس بوجود الله المبدع وقدرته المطلقة التي ليس لها حدود ويقول القرآن الكريم عقب ذكر كل آية من الآيات التي في صفحات الكون يقول منبهاً مثيراً ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾[١] ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾[٢] إلى آخر تلكم التنبيهات والتذكيرات فتتفق هذه الآيات الكونية مع الآيات المنزلة المتلوة في إثبات وجود الله وقدرته القادرة القاهرة لقوم يعقلون ويدرسون ويفهمون، فيعمق ذلك إيمانهم ويوثق صلتهم بربهم وخالقهم .

٢ – يثير انتباه القلب لئلا يغفل عن مراقبة الله الدائمة ليعلم أنه سبحانه وتعالى معه أينما كان مطلع على قلبه عالم بكل أموره السرية والعلنية بل وما دون السر كيلا يفارقه وجدان التقوى والخشية الدائمة ومراقبة الله في كل حال ومن ثم يتجدد عنده شعور الحب لله وتعظيمه والتطلع إلى رضائه على الدوام والشوق إلى لقائه والأنس به دائماً والاطمئنان في السراء والضراء ويتقبل قدره بالتسليم والرضا دون تضجر أو قلق ودون شكوى من الله إلى خلقه ومحاولة الفرار منه إلى غيره وإنما يفر منه وإليه ﴿ **ففروا إلى الله** ﴾[٣] لأن الأمر كله منه وهو الذي له الخلق كله وله الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله وبيده الخير كله وَمَنْ مَنَّ الله عليه بهذه الحالة هو الذي يعيش الحياة السعيدة وقليل ما هم .

ويقول كاتب إسلامي معاصر[٤] في هذا المعنى وهو معروف لدى القراء المسلمين :-

---

(١) سورة الصافات الآية : ١٣٨ .
(٢) سورة الصافات الآية : ١٥٥ .
(٣) سورة الذاريات الآية : ٥٠ .
(٤) الأستاذ الفاضل محمد قطب .

« وحين يعيش الإنسان في جو الإسلام والقرآن لا يملك نفسه من حب الله تعالى حتى وهو يخشاه ! . إنها عجيبة من عجائب العقيدة ، في ظل العقيدة يتطلع القلب إلى الله بحب دافق وشوق دائم للقياه ثم يقول الكاتب : إنه ليس عمل واحد ولا كلمة واحدة ولا شعور واحد ولا لمسة واحدة ، وإنما هو عمل مزيج من الأعمال والأقوال والمشاعر واللمسات ، كلها في النهاية تحدث هذا الحب المتدفق الفياض ، الحياة الدائمة مع الله في صفحة الكون وباطن النفس ، التطلع الدائم إلى الله في السمٰوات والأرض في الظاهر والباطن في السر والجهر .

المراقبة الدائمة في كل أمر .

الصلاة والعبادة . قراءة القرآن .

ومئات من المشاعر الخفيفة واللمسات اللطيفة ، إلى أن قال : في النهاية يتدفق في هذا الحب الواغل في الأعماق حب أعمق من أن يصفه اللفظ وألطف من أن يمسكه التعبير سارب في النفس مشع في الكون لا تمسكه الألفاظ » . ثم يقول الكاتب وهو يعلل هذه الحياة النادرة الوجود اليوم : ذلك لأنه يعيش وهو مسلم لله بأنه هو مالك الملك . وهو موزع الأرزاق **﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾**[1] .

فلا يلجأ إلا إلى الله إذ ما قيمة اللجوء لغير الله وما نتيجته ، إلا المذلة للناس والهوان والضعف والخسران المبين **﴿ أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾**[2] . كذلك تصنع العقيدة في النفوس . إنها تولد فيها هذا الاطمئنان إلى الله والتسليم لقدرة الله والرضاء بما يرضاه » ا هـ .

أعود فأقول : باستخدام هذه الوسائل التي ذكرناها أو ذكرنا بعضها على الأصح يعقد الإسلام الصلة بين الإنسان وبين خالقه وتولد هذه الصلة ذلك الاطمئنان العظيم .

وبعد : هذا ما يحدث كنتيجة لتربية الروح على المنهج الإسلامي فإذا كنا قد أطلنا الحديث عن الروح وتربيتها فلابد لنا من كلام موجز على الأقل عن الجسم وطريقة تربيته .

(١) سورة فاطر الآية : ٢ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٣٩ .

طريقة الإسلام في تربية الجسم

إن الإسلام لم يهمل – كما نوهنا سابقاً – الجانب الجسمي في الإنسان بل عامل الإنسان على أنه مادة وعقل وروح ، وأولى عنايته كلا من هذه العناصر وأعطى لكل عنصر احتياجه وضروراته ، فكفل للجسم كل متطلباته ولوازمه إلا أنه ركز – كما رأينا – على العنصر الذي يميز الإنسان عن سائر المخلوقات وهو الروح . أما الجسم فقد هيأ له جميع وسائل الراحة الجسمية ، أحل له الطيبات وحرم عليه الخبائث الضارة للجسم وحياته عاجلاً أو آجلاً يسر له الطعام والشراب والمسكن والمتعة المباحة ، ورفع عنه الحرج في التشريع .

﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾[1] ، « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا »[2] وشرع له التداوي من الأمراض لئلا تفتك به « عباد الله تداووا إن الله ما أنزل داء إلا أنزل له دواء »[3] هذه هي بعض الأمثلة السريعة لعناية الإسلام بجسم الإنسان تؤكد أنه لم يهمله على حساب الروح وإن ركز عليه كما رأينا ، إذ الجسم السليم في العقل السليم كما يقولون .

أيها الحضور الكرام ، عندما نتحدث عن المنهج الإسلامي في مجال التربية وغيره من المجالات لا نعني أن يعرف الناس هذا المنهج بمعرفة خصائصه ووسائله ومحاسنه معرفة ذهنية نظرية فحسب ، وإنما نعني أن نعيش مع هذا المنهج ونجني ثماره ليسعد به الإنسان المعاصر كما سعد به من قبل من سبقنا في صدر هذا الإسلام وعصوره الذهبية أولئك الذين عرفوه حق المعرفة لأنهم عرفوا بعد أن جربوا غيره من المناهج الجاهلية وعرفوا عيوبها ثم انتقلوا إلى الإسلام عن إيمان وفهم فأحبوه بل تفانوا في حبه وحب من أنزله وحب من جاء به وهو رسول الهدى ومربي البشرية عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سورة الحج الآية : ٧٨ .

(٢) صحيح وقد مضى تخريجه ص ٤٣ وقد أخرجه خ المغازي (٦٠) والأحكام (٤٣) .

(٣) أخرجه ت : الطلب (٣) د : الطب (١) (١١) جه الطب (١) أحمد في مسنده ٣/١٥٦ و ٤/٣٧٨ . وذلك من حديث أسامة بن شريك ومن حديث أنس رضي الله تعالى عنه .

وتمسكوا بالإسلام تمسك من أُلقِيَ في اليَمِّ بيد من أخذ بيده لينقذه من الغرق وليكون سبباً في حياته ، كيف يمكن تمسكه به ، كذلك كان تمسكهم بالإسلام ، وفي هذا المعنى يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعمر من تعرفونه ذلك الرجل والصحابي المحدث وهُوَ من هُوَ ، هو دون حاجة إلى تعريف ، يقول عمر رضي الله عنه :

« إنما تنقض عرى الإسلام عروة إذ نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية »[1] .

ما أصدق هذا الكلام وقد فسره واقع جمهور المسلمين اليوم . ما أكثر الجاهليات التي يتمسك بها كثير من المسلمين اليوم على أنها من الإسلام وليست في شيء منه . من ذلك مناهج التعليم والتربية في كثير من البلدان الإسلامية والتي يتخرج عليها أبناؤنا وفتياتنا ، تلك المناهج التي تسمح للطالب والطالبة أن ينال الشهادة العالية بل الشهادات العليا في الدراسة الإسلامية وهو لا يعرف من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه وكتابته وبجانب ذلك لا يجيد لغة القرآن – اللغة العربية – وهي بحق لغة الإسلام – إذ لا يمكن فهم كتاب الإسلام إلا عن طريقها ، بل لا يمكن الفهم عن رسول الإسلام وما جاء به من عند الله إلا بهذه اللغة ، والمناهج التي تحول بين أبناء المسلمين دون هذا الغرض هي مناهج ضارة وداعية إلى الجهل بالإسلام ، فهذا كمثال فقط لتصديق عمر رضي الله عنه ولو تتبعنا أمثلة تفسر لنا هذا الكلام العظيم للرجل العظيم عمر لطال بنا الحديث ولسبب ذلك الخروج عن موضوع المحاضرة ، فلنعد إلى الموضوع .

أيها الإخوة الكرام : إذا كنا لا نشك بأن الله هو خالق النفس البشرية وهو خالق الحياة فلا شك أن خالق النف وخالق الحياة هو أعلم وأخبر بالنفس وطبيعتها ومتطلباتها وبالحياة وظروفها في تطورها فإذا هو أولى وأجدر بتنظيم الحياة وتربية النفس بل هو الذي له الحق وحده في وضع منهج الحياة التربوي وغيره ، المنهج الذي يضمن للبشرية السعادة في الأولى والأخرى الذي يعتبر بحق سفينة نوح من ركبها سلم ونجا ومن تخلف عنها غرق ولا شك إذ لا توجد سفينة أخرى في الميدان ﴿ ألا

---

(١) نحو هذا المعنى أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/٢٣٢ من حديث فيروز الديلمي عن رسول الله ﷺ وكذا من حديث أبي أمامة ٥/٢٥١ .

له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾[1] ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[2] فلنرجع إلى المصحف ولنشرحه بالسنة فهناك المنهج الصحيح وهناك التربية السليمة وهناك الحياة السعيدة والله المستعان وصل اللهم وبارك على من أرسلته رحمة للعالمين نبيناً محمد وآله وصحبه .

* * *

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .

(٢) سورة الملك الآية : ١٤ .

الاقتـراحــات

أتقدم باقتراحات لا تتجاوز أربعة أرقام فقط خشية أن تكثر وتنسى :

١ – إحياء رسالة المسجد بأن توجد في كل مسجد مدرسة تحفيظ القرآن ونبذة يسيرة من الأحاديث النبوية . وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام .

٢ – أن توجد لكل مسجد هيئة يطلق عليها هيئة المسجد هي المسئولة عن مدارس تحفيظ القرآن إدارياً ومالياً وعن طريقها تجمع التبرعات من الأهالي ، فتكون هذه المدارس نواة للمدارس الأهلية التي لابد من إيجادها إذا أردنا الإبقاء على ديننا ولغة ديننا اللغة العربية ولعلكم على علم بأن المدارس الأهلية قد لعبت دوراً هاماً في القارة الهندية في ميدان نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية ، وقد بأدت تلكم المدارس بمدارس تحفيظ القرآن في المساجد ثم انتهت إلى التعليم الجامعي ولا تزال تعمل وتؤدي واجبها إلى اليوم وهناك جامعات كثيرة في كل من الهند وباكستان تخرج علماء فطاحل في علوم الحديث بالهند وعلوم القرآن واللغة العربية ، وأذكر على سبيل المثال جامعة بنارس لأهل الحديث بالهند وجامعة لا ئلقور بباكستان وقد عملت في جامعة لائلقور – مدرساً منتدباً من الجامعة الإسلامية لمدة سنتين وعرفت المجهود الجبار الذي يقوم به شعب باكستان في سبيل خمة دينهم ولغة دينهم دون حاجة إلى الدولة إلا للاعتراف فقط .

والجدير بالذكر أننا صرنا نحتاج إلى استعارة علماء في علم الحديث من الجامعات الأهلية في الهند وباكستان ليقوموا بتدريس علوم الحديث في جامعاتنا في البلاد العربية ويوجد الآن في الوقت الحاضر أساتذة من باكستان في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة يدرسون علوم الحديث والقرآن وهم خريجو الجامعات الأهلية هنالك .

أذكر هذا الواقع كاستشهاد بالواقع على الاستغناء عن المدارس الحكومية الرسمية بالمدارس الأهلية للمحافظة على تعاليم ديننا ولغة ديننا .

٣ – إيجاد لجنة دائمة لهذه الندوة المباركة التي جمعتنا هنا لتقوم دائماً بتنظيم المؤتمرات الإسلامية كما تقوم بزيارة بعض البلدان الإسلامية لتكسب خبرة في مجال المدارس الأهلية والجامعات الأهلية ودراسة مناهجها ثم العمل على ضوء تلك الخبرة المكتسبة .

٤ – إيجاد منح دراسية لأبناء نيجيريا في تلك الجامعات الأهلية التي تدرس بتوسع العلوم الدينية واللغة العربية ليتفقهوا في دينهم ويعلموا قومهم إذا رجعوا إليهم .

* * *

الرسالة الثامنة

سير الدعوة الإسلامية

في إفريقيا عبر التاريخ

تقـــديم

هذه الرسالة بيان لما اشتبه على بعض الناس في أمر انتشار الإسلام ودخوله قارة أفريقيا ، وما دخل في روع الكثير منهم ، بأن للصوفية دورهم في هذا المجال ، وأن هذه حسنة من حسنات التصوف والصوفية ، وأنه لولا قيام الصوفية بهذا الدور ، ما عرف الإسلام قلب أفريقيا .

ولكن المؤلف الأستاذ محمد أمان بن علي ، الأستاذ بكلية الشريعة بالمدينة المنورة بجامعتها الإسلامية ، يكشف لنا عن هذا الخطأ ، ويبين أن الذي نشره الصوفية ما هو إلا وثنية من نوع الوثنيات التي كان عليها الأفارقة قبل غزو التصوف لهم ، وإذا اختلفت وثنية التصوف في شيء عن هذه الوثنية الأولى فإنما في تقنعها بقناع الإسلام اسماً وشكلاً ، وأما هي في نفس الأمر وحقيقته فهي من نوع الوثنية الأولى السافرة ، والأستاذ الكريم يقدم هذه الحقيقة بدليلها ، وأمثلتها المستقاة من نفس البيئة والواقع الذي عليه هؤلاء الأفارقة ، وهو بصفته أفريقي أثيوبي ، وله زيارات للقارة الأفريقية ضمن وفود الجامعة الإسلامية التي تجول في هذه القارة للدعوة إلى الإسلام وتبصر المسلمين به لتنفيذ أحد أنشطة الجامعة العالمية التي تقوم بها لخدمة الإسلام والمسلمين – قد لمس ذلك عن قرب ، وعاينه مواجهة فرأى أن ما عليه هؤلاء المسلمون الذين دخلوا الإسلام على يد المتصوفة ، ليس من الإسلام في شيء ، ما هو إلا تصوف ، قد ألغى شخصية الفرد ، في شخصية صاحب الطريقة ، أو القطب أو الغوث ، وأنه لا يتحرك إلا بحركة هذا الشيخ ، أو تأثير ذلك القطب !. ونبحث عن الله في عقيدة هذا المتصوف الأفريقي الذي تأسلم ، فلا نرى له وجوداً ، فقد حل القطب أو الغوث مكانه ، بعد أن كان من قبل يعبد حيواناً ، أو شجرة ، أو حجراً . الفرق أن هذا الأول صنم متحرك متكلم ، والأخير صنم لا يتحرك ، وإذا تحرك فإنه لا يتكلم ، وقد طمست العبادات تحت الطقوس والأوراد ، التي قدمها الصوفية ، كبديل لما شرع الله .

وحقيقة أخرى يضعها فضيلة المؤلف أمامنا ، وهي أن هذه الحقيقة لو عملنا بمقتضاها لطمسنا هذه المعالم الوثنية ، الصوفية ، وغير الصوفية ، وأحلنا القارة إلى أمة إسلامية ، وقد يكون لها دورها في الحديث كما كان لعرب الجزيرة العربية في القديم .

فضلاً عن ذلك فإن أفريقيا كانت أول مهاجر إسلامي ، حين هاجر المسلمون

الأولون ، وهم لا يزالون في مكة إلى الحبشة ، فوجدوا في ملكها وأهلها إخوة متحابين – ووجدوا فيها الوطن الأمين ، حين افتقدوه بين قومهم وعشيرتهم ثم أسلم النجاشي قبل أن يدعوه الرسول رسمياً إلى الإسلام .

فهذا الموقف من النجاشي وقومه يعلمنا أن الأفارقة أناس صفت نفوسهم وليس لهم تعصب في الباطل وإنما هم أولو بصيرة نفاذة وعقل وقاد ، وقدرة على التمييز بين الخير والشر . فحينما يعرض عليهم الخير يستجيبون له ويميلون إليه ويولون للشر ظهورهم . وقد تجلى ذلك في أقوى صورة ، حينما قدم عمرو بن العاص على النجاشي يسترد المسلمين المهاجرين ، ويطعن في دينهم ، فلما عرف النجاشي من المسلمين دينهم ، وسمع قرآنهم ، في مواجهة عمرو رضي الله عنه ، رفض طلبه ورد عليه هدية قريش التي جاء بها ، وقال له : « والله لا أسلمهم إليكم أبداً »[1] كذلك يقدم لنا انتشار الإسلام في أفريقيا في أدواره المتتابعة عبر التاريخ من عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه إلى الآن ، فيطلعنا على قوم فيهم خصوبة دينية ، واستجابة إلى الحق وبحث عنه ، وما أحرانا أمام هذه الأرض الخصبة وأمام هذه التربة الطيبة أن ننمي فيها ما غرس من أصول الإسلام من قبل وفي أنحاء متفرقة من مجاهلها التي تتحرق شوقاً إلى الإسلام الآن وأن نغرس الغراس الجديد بين القوم الذين لم يصلهم الإسلام إلا على أيدي التجار والصوفية ، وأخذوا منه التسمية فقط وبقوا على خرافاتهم ووثنياتهم الأولى أو زادوا عليها ما قدمه لهم المتصوفة من وثنيات البيئات المتحضرة ، وكذلك نغرس هذا الإسلام الذي جاء في كتاب الله العزيز ، والذي قدمه أحد رسل الإسلام إلى رستم أكبر قواد الفرس في قوله : « جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام »[2] . والذي قدمه أبو سفيان إلى هرقل بهذه الصورة ، فكان جواب هرقل قيصر الروم أن قال له : « لئن صح ما قلت فسيملك (محمد ﷺ) موضع قدمي هاتين : ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ولو أني أعلم أني أصل إليه لتجشمت لقاءه »[3] .

فهذا هو الإسلام ، وغيره ليس بإسلام ، وهو إذا حل في بيئة أحياها كما قال تعالى :
﴿ يٰأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[4] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٠١ – ٣٠٣ / وذلك من حديث أم سلمة رضي الله تعالى عنها بإسناد صحيح أنظر المسند ٢٨٠ – ٢٩٢ / ٥ .

(٢) أورده ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن سيف بن عمر من فتوحه أنظر البداية والنهاية ٣٩ / ٧ .

(٣) أخرجه ح في الصحيح بدء الوحي (٦) الجهاد ١٠٣ وأحمد في مسنده ٢٦٣ / ١ وذلك من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنه . (٤) سورة الأنفال الآية : ٢٤ .

والمؤلف الجليل صاحب هذه الرسالة القيمة ذات الأثر العظيم إن شاء الله يرسم للمملكة العربية السعودية بصفتها المشرفة الأولى على هذا الجهاد وتلك الدعوة المباركة ما يجب أن يتخذ في هذا المجال ، كي نصل إلى الغرض المنشود كما يعتبر تخطيطه في مجال الدعوة هذه تخطيطاً لكل الدول والجماعات الإسلامية للعمل في أفريقيا وفي غيرها ، فهذه مهمة المسلمين المتصلة ، والتي لا يصح أن تتوقف في أي زمان أو مكان : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم** ﴾[1] . وفق الله أمتنا الإسلامية إلى العمل على إعزاز الإسلام ، وإعلاء كلمة المسلمين .

رمضان سنة ١٣٩٦ .

د . إبراهيم إبراهيم هلال

مدرس الدراسات الإسلامية
بكلية بنات عين شمس

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٠ .



الإسلام في أفريقيا عبر التاريخ

مقــــــدمة

قصدت من هذا العنوان أن نقوم بجولة خاطفة نمر خلالها على بعض جوانب القارة ، تلك الجوانب التي تهمنا في مجال الدعوة الإسلامية لنعرف ماضي هذه القارة ولنربط ماضيها بحاضرها في الجوانب التي ذكرناها . ولكي نعرف الأدوار التي مرت على العمل الإسلامي في القارة . استنتاجاً من واقع الدعوة الإسلامية هناك ابتداء من عهد النجاشي إلى الوقت الحاضر (بشكل مختصر جداً) .

أقول مستعيناً بالله وحده ...

الإسلام في أفريقيا عبر التاريخ

قارة أفريقيا أول قارة سعدت وتنورت بنور الإسلام بعد الجزيرة العرَبية إذ قفز الإسلام رأساً من مكة المكرمة أول ما وفد على الجزيرة فحل في جزء من أفريقيا « الحبشة » المعروفة اليوم بأثيوبيا ، وبالتحديد في « أريتريا » حل الإسلام في ذلك الجزء من أفريقيا قبل أن يعرج على أي مكان آخر حتى على المدينة المنورة دار الهجرة .

وذلك عندما اشتد على نبي الرحمة وأصحابه أذى الكفار و لم يتمكنوا من عبادة ربهم بحريتهم وأذن النبي ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة بعد أن طمأنهم بأنه يوجد في تلك الأرض ملك لا يظلم أحد بجواره وهو النجاشي رحمه الله . وهو يومئذ لا يزال على نصرانيته .

فغادر الوفد الإسلامي مكة المكرمة بعد أن ضاقت بهم شعابها ، وجبالها بل الجزيرة كله في طولها وعرضها ، فنزلوا بلد النجاشي فوجدوا الرجل كما وصفه النبي عليه الصلاة والسلام ، وجدوه رجلا يتمتع بحصانة العقل والتثبيت في الأمر وحسن الجوار ، رجلاً لا تؤثر فيه الهدايا الثمينة ولا الكلام المزخرف ولو كان محدثه أدهي

رجالات العرب المعروف بمعرقف الكلام وحسن الإلقاء وسحر البيان كعمرو ابن العاص .

الإخــوة الأفاضـل :

إن هجرة الصحابة هذه لهجرة فريدة من نوعها ، إذْ لم تكن انتقالاً من دار الكفر إلى دار السلام – كما يقول بعض من يعرف الهجرة – بل لم تكن انتقالاً من مكان مفضول إلى مكان أفضل بل كانت من مكة المكرمة إلى أرض الحبشة بأفريقيا ، والحبشة لم تكن دار إسلام بل لم يكن قد دخلها الإسلام بعد . أجل لم يحصل في تلك الهجرة هذا المعنى ولا ذلك .

لأن هدف القوم كان هو الفرار بدينهم وعقيدتهم التي عذبوا من أجلها ليجدوا – مكاناً يعبدون الله فيه بحريتهم دون معارض . هذا هو ما تحقق لهم عند النجاشي – بحمد الله – قبل أن يتحقق لهم عند غيره .

والذي يظهر من حال القوم ومن الظروف التي خرجوا فيها ومن سياق قصتهم أنهم كانوا لاجئين وكان يهمهم أن يجدوا أرضاً يظهرون فيها شعائر دينهم ويعبدون الله ربهم بعيدين عن الضغط والاضطهاد . هذا ما يظهر من قصة القوم . ولكن الله العلم الحكيم قد بارك في تلك الرحلة الفذة فصاروا حملة الدعوة الإسلامية إلى القارة البكر أفريقيا .

وأدرك كفار قريش هذا المعنى عندما علموا أن المهاجرين قوبلوا بالإكرام والتقدير وأعطوا الحرية في دينهم فصاروا يعبدون الله ربهم دون خوف أو خفاء . من هنا داخلهم الخوف بأن الإسلام السمح ربما خط له طريقاً في أفريقيا ليتصل بقلوب الأفارقة الطيبة وأذهانهم الخالية – إن ترك وشأنه – ويعمل فيها عمله فيفوزوا بشرف المبادرة إلى قبول الإسلام في الوقت الذي يفوت فيه هذا الشرف أهل مكة .

جعلوا يفكرون ويقدرون لينظروا ما يفعلون ، فبينما هم في هذا التفكير والتقدير إذْ فوجئوا يوم بدر بتلكم الهزيمة النكراء يوم أعز الله فيه الإسلام والمسلمين ، وأذل الشرك والمشركين ، فازداد تفكيرهم في شأن المهاجرين فقرروا أخيراً إرسال وفد مهمته محاولة استرجاع المهاجرين إلى مكة –لو استطاعوا – وكان يرأس وفدهم رجل من أدهى رجالات العرب وأقدرهم على سحر البيان : عمرو بن العاص الغني

عن التعريف .

قدم الوفد أرض الحبشة فنزل في ضيافة النجاشي وهو يحمل معه أحب الهدايا إلى ملوك الحبشة – كما يقول علماء السيرة – فبادر الوفد فور وصوله بتقديم الهدايا إلى البطارقة رجاء أن يتعاونوا معهم في التأثير في النجاشي حتى يسلم لهم المهاجرين وقد رشوا الأرض ومهدوا الطريق في زعمهم – لو صح التعبير – ولكن المفاوضة أسفرت عن نتيجة عكسية ، ذلك لأنهم حاولوا أن يسلم لهم النجاشي المهاجرين قبل أن يسمع كلامهم بل بمجرد الاستماع إلى شرحهم المزخرف . ولكن النجاشي لم يوافق على هذه النقطة بل طلب حضور المهاجرين ليسمع كلامهم كما سمع كلام الآخرين وهو الأسلوب السليم الذي يقتضيه العقل والمنطق بل هو الموقف الذي لا ينتظر من النجاشي غيره وهو من عرفناه إذ هو الملك الذي لا يظلم أحد بجواره بإخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام ما أعظمها من منقبة . لذلك كله وعملاً بمبدأ الإنصاف ، وهو من الإيمان بمكان – طلب النجاشي حضور المهاجرين ليسمع كلامهم . ولما وصل الوفد إلى باب الملك وقفوا عند الباب قبل أن يدخلوا تمشياً مع تعاليم الإسلام ليستأذنوا للدخول .

كيف تتوقعون صورة استئذانهم أو على الأصح كيف يتوقع وفد قريش صورة وكيفية استئذان جماعة غريبة ومستضعفة ولاجئة إلى تلك الأرض النائية إلى جوار ذلك الملك الرهيب ؟ لا شك أنهم كانوا يتوقعون استئذانهم كاستئذان قوم أذلاء يدخلون مطأطئين رؤوسهم للملك راكعين على ركبتهم أو ساجدين على جباهم أمام ذلك الملك المهيب الذي صارت له عندهم بعض يد الإحسان والإكرام .

ولكن الذي حصل غير ذلك . أجل إن الذي حصل أن رئيس وفد المهاجرين جعفر بن أبي طالب وقف بالباب فصاح قائلاً : يستأذن عليك حزب الله فقال النجاشي مروا هذا الصائح فليعد كلامه ففعل . فقال النجاشي نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته ، فدخلوا ولم يسجدوا طبعاً فقال النجاشي : ما منعكم أن تسجدوا لي ؟ قال جعفر بكل هدوء وبأسلوب له تأثيره : نسجد لله الذي خلقك وملكك . ثم تابع كلام قائلاً : وأما السجود لغير الله فإنما كان تحيتنا يوم كنا نعبد الأوثان . فبعث الله فينا نبياً صادقاً وأمرنا بالتحية التي رضيها وهي السلام تحية أهل الجنة . فعرف النجاشي أنهم حزب الله حقاً ، واثقون به ، ولا يخافون فيه لومة لائم ، وأن ما

يقولونه ، في التوراة والإنجيل[1] .

وهذا الموقف الجريء من الوفد المحمدي هو درس للجانبين معاً الجانب القرشي والجانب الافريقي ، وخطاب موجه إلى قلوبهم جميعاً لو كانوا يفقهون ، وكأن جعفراً يقول لهم إذا كان وفد قريش مغروراً بفصاحة عمرو وبلاغته وسحر بيانه وبما قدمه من الهدايا الثمينة للبطارقة كثمن لاسترجاعنا ، وإذا كانت البطارقة تستضعفنا وتحاول أن تؤثر في النجاشي ملكهم ليسلمنا لعمرو بن العاص ، على الرغم من ذلك فنحن حزب الله العلي القدير متوكلون عليه واثقون به فلا نبالي لأنه سبحانه مولانا فنعم المولى ونعم النصير . أجل نحن حزب الله ألا أن حزب الله هم الغالبون ، فوقعت خطبة جعفر هذه من النجاشي موقعها ، فطلب منهم من يمثلهم في المفاوضة معه والحوار وليرد على ما زعمه وفد قريش . فقال جعفر أنا . فقال له تكلم فقدم جعفر بين يدي كلامه مقدمة تدل على حصافة عقله وأنه من الذين يعرفون أن ينزلوا الناس منازلهم ، فقال : إنك ملك لا يصلح عندك كثرة الكلام والظلم ، فبعد هذه المقدمة الوجيزة طلب جعفر من النجاشي أن يوجه إلى وفد قريش الأسئلة التالية :

١ - أهم عبيد أم أحرار ؟ .

٢ - هل أراقوا دماً فهربوا ؟ .

٣ - هل أخذوا أموال الناس فخرجوا بها ؟ .

فأجاب عمرو عن الأسئلة الثلاثة بالنفي أي لم يكونوا عبيداً ولا قتلة ولا سراقاً . فقال النجاشي ماذا تطلبون منهم إذاً ؟ قالوا عمرو : كنا وهم على دين واحد دين آبائنا فتركوا ذلك الدين واتبعوا غيره . فترى أن عمراً حصر نقطة الاختلاف بينهم في أنهم تركوا ما كان يعبد آباؤهم واتبعوا ملة أخرى جديدة ولا شيء غيرهما .

فسئل جعفر ما الدين الذي تركوه ؟ وما الدين الجديد الذي اتبعوه ؟ .

فبالإجابة على هذين السؤالين ينجلي الحق ويظهر ليزهق الباطل لأنه زهوق دائماً في النهاية والعاقبة للمتقين .

---

(١) قصة هجرة أصحاب النبي ﷺ إلى الحبشة أخرجها الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح ٣٠١ - ٣٠٢ / ١ من حديث أم سلمة رضي الله تعالى عنها .

فقال جعفر في شجاعة وثبات – كما عرفناه – أما الدين الذي كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان . ثم أخذ يفسره قائلاً : كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة ، وأما الدين الذي تحولنا إليه فهو دين الله – الإسلام – جاءنا به من الله رسول وكتاب مثل كتاب عيسى بن مريم موافقاً له .

فأثارت هذه العبارة الأخيرة في نفس النجاشي ما أثارت ! فقال تكلمت بأمر عظيم فعلى رسلك ، ثم أمر بضرب الناقوس – على عاداتهم – فاجتمع إليه كل قسيس وراهب ثم قال لهم أسألكم بالله الذي أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين يدي عيسى وبين القيامة نبياً مرسلاً ؟ فقالوا اللهم نعم ، قد بشرنا به عيسى فقال : « من آمن به فقد آمن بي ومن كفر به فقد كفر بي » ثم أخذ النجاشي يسأل جعفراً عما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام . وبم يأمرهم ؟ وعن أي شيء ينهاهم ؟ .

فأجاب جعفر بالتفصيل الآتي قائلاً : يقرأ علينا كتاب الله . ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأمر بحسن الجوار ، وبصلة الرحم وبر اليتيم ، وبعبادة الله وحده لا شريك له ، ثم أبدى النجاشي رغبته في سماع ما تيسر مما نزل على النبي محمد عليه الصلاة والسلام . فقرأ عليه جعفر شيئاً من القرآن الكريم ففاضت عين النجاشي وبعض أصحابه ففيهم نزل قوله تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ﴾ الآيات[1] ، قاله قتادة وغير واحد من المفسرين . ثم استزاد قائلاً : زدنا من هذا الكلام الطيب فقرأ عليه سورة الكهف كما تقول بعض الروايات وعمرو بن العاص جالس يترقب فرصة ليتمكن أن يقول كلمة تثير غضب النجاشي ، فلما أخذ جعفر يزيد النجاشي من ذلكم الكلام الطيب من هنا وهناك وعينه تفيض من الدمع ازداد غيظ عمرو فقال ثائراً ، إنهم يسبون عيسى وأمه . وكأن الله أراد أن يظهر الحق ولو بهذه الصورة على حد قوله تعالى :

﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم** ﴾[2] فجعل جعفر يقرأ سورة مريم كرد لما ادعاه عمرو ، ولما سمع النجاشي ما جاء في عيسى وأمه أخذ عوداً من الأرض فقال : ما زاد المسيح على ما يقول هؤلاء مثل هذا مشيراً إلى العود الذي بيده .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٨٣ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢١٦ .

فهذا يعني منه إعلاناً بإيمانه بالنبي العربي محمد عليه الصلاة والسلام بطريقة غير رسمية – طبعاً – فلما تناخر بعض بطارقته الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم قال لهم النجاشي : وإن نخرتم والله ، ثم قال للمهاجرين اذهبوا وأنتم آمنون بأرضي . من سبكم غرم فلا هوادة .

وتقول بعض روايات السيرة إنه قال : ما أحب أن لي دبر[1] من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم . ثم قال : ردوا عليهم هداياهم فلا حاجة لي فيها . ثم استطرد قائلاً : فوالله ما أخذ الله مني رشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه فخرج الوفد القرشي فاشلاً مردوداً عليه ما جاء به[2] ، هكذا أكرم الله النجاشي بالإسلام وهو في أرضه إذ بارك الله في تلك الرحلة الموفقة بأنها كانت لله وحده وما كان لله دام وأثمر .

هكذا دخل الإسلام القارة الأفريقية في تلك الظروف الحرجة في وقت مبكر من ظهور الإسلام ، في الوقت الذي كان يطارد فيه الإسلام في مهبطه ومكانه الأول . ذلك من فضل الله سبحانه .

* * *.

الدور الأول

وهذه الفترة تعتبر الدور الأول من الأدوار الثلاثة للعمل الإسلامي في أفريقيا وهو دور دخوله ووضع قدمه فيها ، وتبين مما تقدم أن الذين حملو الإسلام إلى أفريقيا في هذا الدور هم أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنهم الذين فهموا الإسلام كما جاء قبل أن يدخل فيه أي دخيل أو فكرة أجنبية أو رأي فاسد ، أخذوه من في رسول الله عليه الصلاة والسلام غضاً طرياً كما نزل فبلغوه كما فهموه بأمانة دونها كل الأمانات وبإخلاص يقف دونه كل إخلاص ، لذا صار لتبليغهم ذلك التأثير الذي عرفناه في نفس النجاشي وبعض أتباعه ممن أراد الله لهم الهداية ووفقهم . ولقد رأيناهم كيف تأثروا من سماع القرآن ، ثم علمنا أن النجاشي لم

(١) الدبر بلغة الحبشة : الجبل .

(٢) ، تفاصيل هذه الهجرة المباركة أوردها ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن محمد بن إسحاق وغيره من الأئمة أنظر البداية ٦٦ – ٧٩ / ٣ .

يتردد في إيمانه رسمياً عندما بلغه كتاب رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي يدعوه فيه إلى الإيمان به وبما جاء به . لأنه قد آمن قلبه قبل وصول الكتاب إليه عندما أخبر بما يدعو إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام لذا سمينا إيمانه أو إعلانه بإيمانه رسمياً لأنه في واقع الأمر مؤمن قبل ذلك ، كما لا يخفي . فيعد النجاشي أول ملك يؤمن برسول الله ودينه من ملوك الدنيا - فيما نعلم - كما تعد قارته الأفريقية أول قارة تطؤها تلكم الأقدام الطاهرة أقدام أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام وفيهم بعض آل بيته وأقاربه بل بعض بناته عليه الصلاة والسلام ، وشرفت بالإسلام . هكذا دخل الإسلام قارة أفريقيا باعتبار جزء مهم منها وهو الحبشة ، فإطلاق الكل وإرادة الجزء ليس وليد كلامي ولا هو من بدعتي بل هو أسلوب عربي معروف وسبيل مسلوك لا ينتطح حوله عنزان .

والذين لبوا دعوة الإسلام في هذا الدور فهموه حق فهمه لأن الدعاة كانوا من النخبة الممتازة لأن معلمهم الذي لقنهم الإسلام وأخذوا منه دينهم هو رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وليس بخاف على أحد ما للمعلم من الآثار الطيبة أو السيئة على تلاميذه فلا غرو إذاً أن يكونوا بذلك المستوى الممتاز في فهم الإسلام وتصوره ، وأن يكونوا بذلك المستوى الممتاز أيضاً في أسلوب الدعوة والتبليغ وعلو الهمة حتى يكون لدعوتهم ذلك التأثير وذلك القبول لدى الناس حتى صار النجاشي أخاً لهم بدعوتهم يستغفرون له ويصلون عليه يوم وفاته .

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه فخرج إلى المصلى فكبر أربع تكبيرات فقال : استغفروا لأخيكم[1] وذكر السهيلي : فكان موت النجاشي في رجب سنة تسع من الهجرة[2] ، ولما صلى عليه رُفِعَ إليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه

---

(١) أخرجه خ الجنائز (٤) (٦٤) مناقب الأنصار (٣٨) م : الجنائز ٦٣ ، ٦٤ ، د : الجنائز (٥٨) ث : الجنائز (٢٧) (٧٢) (٧٦) الإمام أحمد في سمنده ٢٨١ / ٢ وذلك من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

(٢) أخرج هذا الحديث ابن أبي حاتم في (التفسر من طريق ثابت ، والدارقطني في الافراد ، والبزار من طريق حميد كلاهما عن أنس قال الحافظ في الفتح ١١٨ / ٣ ولكن رفع السرير ثم رؤية النبي ﷺ له قال الحافظ في الفتح عن طريق الواقدي في أسبابه بغير إسناد عن ابن عباس ، ثم قال الحافظ : لابن=

بالمدينة . وتكلم المنافقون فقالوا : يصلي على علج مات بأرض الحبشة . قاتلهم الله أني يؤفكون ، لم يصل رسول الله عليه الصلاة والسلام على علج[1] قط وإنما صلى على من أكرمه الله بالإسلام حتى صار فرداً من أفراد أتباعه عليه الصلاة والسلام .

فتور الدعوة لعدم القيادة

وبعد وفاة النجاشي وقبل انتشار الإسلام في الجزيرة العربية مرت على القارة فترة غير قصيرة فترت فيها الدعوة الإسلامية لعدم القيادة ولزوال السلطة التي كانت تحمي الدعوة والدعاة معاً بوفاة النجاشي رحمه الله .

ولما بسط الإسلام سلطانه على معظم الدنيا ودخلت العرب في دين الله أفواجاً وفي عهد الخليفة الثالث بالتحديد عثمان بن عفان رضي الله عنه أخذت الدعوة الإسلامية تنتشر في القارة من جديد إذ أخذت الجيوش الإسلامية تزحف على شمال أفريقيا حتى فتحوا تونس في غزوة معروفة بغزوة العبادلة . إذ اشترك فيها سبعة من الصحابة اسم كل واحد منهم عبد الله . وهم :

١ – عبد الله بن أبي سرح .
٢ – عبد الله بن الزبير .
٣ – عبد الله بن عمر .
٤ – عبد الله بن عباس .
٥ – عبد الله بن جعفر .
٦ – عبد الله بن مسعود .
٧ – عبد الله بن عمرو بن العاص .

ثم لما استقر لمعاوية رضي الله عنه استأنفت الجيوش الإسلامية زحفها على شمال

= حبان من حديث عمران به حضين فقام وحفوا خلفه وهم لا يظنون إلا أن جنازته بين يديه ، أخرجه من طريق الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي قلابة عن أبي المهلب عنه ولأبي عوانة من طريق أبان وغيره غعن يحيى فصلينا خلفه ونحن لا نرى ألا أن الجنازة قدامنا . وقال البيهقي في الدلائل كان موت النجاشي في سنة ثماني من الهجرة الفتح ١٩١ / ٧ .

(١) كافر من الأعاجم .

أفريقيا حتى تم لهم النصر والفتح ، ودخل الإسلام شمال أفريقيا ثم غربها ، وحمل إليها عقيدة التوحيد الخالص ، العقيدة السليمة من شوائب الوثنية . يتضح مما تقدم أن دعاة الإسلام دخلوا القارة أحياناً بطريقة سلمية مفاوضية ودعوا الناس إلى الإسلام بأخلاقهم وسلوكهم ، كما اضطروا أحياناً إلى استعمال السيف والقوة كما رأينا في شمال أفريقيا ، وسواء كان هذا أو ذلك نستطيع أن نسمي هذا الدور الدور الأول للعمل الإسلامي في أفريقيا وهو دور دخوله في فترات متقطعة – كما رأينا .

* * *

الدور الثاني : « دور انتشار الإسلام »

إن القارة لم تحظ – كغيرها من القارات – بالدعوة الإسلامية المنظمة والشاملة بعد تلك الفترة الوجيزة التي تحدثنا عنها آنفاً وسميناها الدور الأول ، لذا نلاحظ أن انتشار الإسلام في هذا الدور الثاني لم يكن – في الغالب الكثير – على أيدي دعاة واعين وعلماء فاهمين يستطيعون أن يفرقوا بين الأصيل والدخيل ويميزوا بين الغث والسمين .

« الدعاة في هذا الدور »

والدعاة في هذا الدور صنفان اثنان :

أما في شرق أفريقيا فقد وجد تجار العرب من جنوب الجزيرة منافذ إلى الحبشة والسودان والصومال فدخلوا هذه المناطق لغرض التجارة حاملين مع تجارتهم الإسلام إليها . وطبيعي أن التاجر العادي غير الدارس للإسلام دون فهمه لأساليب التجارة وطرق تنمية الأموال وإن كان يعتز بانتسابه إلى الإسلام بل والدعوة إليه في حدود فهمه الضيق إلا أننا نجدهم قدْ حملو إلى المنطقة إسلاماً هزيلاً مرقعاً كل رقعة تخالف التي بجوارها وبينهما تنافر وتناقض . وربما سموا إسلاماً ما ليس بإسلام من تقاليدهم وعاداتهم ، لكن ذلك كله لم يكن لسوء قصد وإنما كان لسوء فهم لكن قصور علم لأنهم غير واعين ولأنهم عبروا البحر لأجل التجارة ، ولما دخلوا المنطقة وجدوا أنفسهم أحسن شيء في الباب – كما تقول بعض الاصطلاحات – فاشتغلوا بالدعوة

إلى الإسلام وهم حاطبوا ليل يأخذون ما تقع عليه أيديهم فيدفعونه إلى سكان القارة علماً منهم بأن الرجل الأفريقي الذي يعيش في تلك العصور سوف لا يرد ما يأتي به الرجل العربي ، بل سوف لا يناقشه ويسأله أصحيح ما يلقيه أو يمليه أم لا ؟ اعتقاداً منه أن الرجل العربي . لا يقول أو يقدم باسم الدين أو ينشر بين الناس إلا ما جاء به النبي الأمي العربي هذا هو اعتقاد الرجل الأفريقي في الرجل العربي وخصوصاً إذا كان الرجل العربي داعية إلى الإسلام فيعتقد فيه كل شيء دون العصمة ، وفي ظني الذي يشبه اليقين أن رجال جميع القارات غير العرب يشاركون الأفارقة في هذا الاعتقاد والتقدير المبالغ فيهما نحو الرجل العربي كما لاحظنا في بعض زياراتنا لبعض الجهات غير أفريقيا .

وانطلاقاً من هذا الاعتقاد والتقدير المبالغ فيهما ، قبل سكان المنطقة من التجار كل شيء أتوا به باسم الدين دون مراجعة أو مناقشة .

فلضعف البصيرة في التجار حملوا إلى المنطقة كل شيء باسم الإسلام ، ولحسن ظن السكان قبلوا منهم كل شيء . فانتشر الإسلام في القارة هزيلاً مدخولاً مرقعاً كما قلنا فيما تقدم . وهذا ما يملكونه (وفاقد الشيء لا يعطيه) .

وميزة هؤلاء الدعاة وهم التجار أنهم كانوا يتمتعون بحب الإسلام وحب الخير لسكان القارة . وكانوا حريصين أن يعلموا الناس كل ما علموه صواباً أو خطأً وليسوا باستغلاليين أو نفعيين . فجزاهم الله خير الجزاء على حسن نيتهم ومجهودهم .

هكذا نترك هذا الصنف من الدعاة وهم التجار . راجين لهم المثوبة من الله – ولننتقل إلى الحديث عن صنف آخر من الدعاة – في زعمهم – وهم المتصوفة .

وقد قام هؤلاء بالعمل باسم الإسلام في أفريقيا شرقاً وغرباً وشمالاً .

وقبل أن أخوض في الحديث عنهم ذكرني موقفهم وتصرفهم عنوان كتاب لبعض الكتاب المعاصرين « الإسلام المفترى عليه » ثم أقول يمكن أن نوجز عمل مشايخ الصوفية فنقول : إنهم دعوا إلى كل شيء غير الإسلام بالمفهوم الصحيح .

أما الإسلام النزيه الذي جاء به رسول الإسلام وسيد الأنام ﷺ فلا صلة لدعوتهم به ولعلي لا أشق عليكم أو لا أحرج أحداً لو استطردت حديثاً غير طويل لنعرف شيئاً عن دعوة المتصوفة لأن المشاع على ألسنة بعض الناس أن لمشايخ الصوفية

دوراً بارزاً وهاماً في ميدان الدعوة إلى الإسلام . ويزعمون أن الإسلام دخل بعض المناطق في أفريقيا وغيرها على أيديهم .

التحقيــق

الواقع أن لمشايخ الصوفية أعمالاً ومجهوداً ملموساً في القارة وأنهم دعوا الناس إلى شيء إلا أن ذلك الشيء غير الإسلام في حقيقته وجوهره وهم يعلمون في الغالب الكثير هذه الحقيقة من أنفسهم وإن كان يوجد فيهم من يجهلون هذه الحقيقة ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

يعرف تفاصيل ما أجملت كل من خالط القوم ، بل قد صرح بذلك بعض من تاب الله عليهم فتابوا وصرحوا بأنهم ليسوا على شيء قبل التوبة ، فنسأل الله لنا ولكم العافية . وأما بعض العبادات التي يؤدونها وفق تعاليم الإسلام وبعض الأوراد التي يترنمون بها في حضراتهم وتنطلي على السذج وما قد يتظاهرون به مما ظاهره الإسلام أمام العوام فكل ذلك ملعقة عسل في كوب من السم القاتل فاحضروها لعلكم تسلمون . وقديماً قيل (اسأل مجرباً ولا تسأل طبيباً) .

أهداف مشايخ الصوفية في دعوتهم

يهدف القوم في الغالب الكثير باسم الدعوة إلى الإسلام يهدفون إلى الأمور الآتية :

١ - تسخير العوام واستخدامهم في مصالحهم الخاصة بدعوى أنهم أهل الله وخاصته فيجب على الناس جميعاً أن يخضعوا لهم ويكونوا طوع أمرهم مهما كلفهم الأمر وإن لم يكونوا كذلك فهم مهددون بسلب إيمانهم وسوء الخاتمة .

وتفادياً لهذا الخطر الجسيم يبالغ عوام المسلمين في الخضوع لهم إلى حد العبادة وهذا أحد مفاهيم الدعوة إلى الإسلام عند القوم فما رأي القاريء الكريم ؟

وانطلاقاً من هذ المفهوم تقول قاعدة صوفية معروفة :

يجب على المريد أن يكون بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل ، مسلوب

الحرية والاختيار . فاقد الإرادة والحركة حتى حركة الضمير وحديث النفس لأن من صفات الشيخ معرفة ، ما في الضمائر ، ومن خرج على هذه القاعدة يكون عرضة لغضب الشيخ ومن يحلل عليه غضبه فقد هلك .

٢ – تزهيد الناس في علماء الشريعة وطلاب علم الكتاب والسنة بدعوى أنهم أهل الحقيقة والعلماء أهل الشريعة أو هم أهل الباطن والعلماء أهل الظاهر وعلوم الشريعة قشور غير نافعة ما لم يكن في داخلها اللب الذي عند الصوفية وهو ما يسمونه بالعلم بالباطن أو العلم اللداني . وهذا كما ترى محاربة سافرة لما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام من علم الكتاب والسنة ومحادة لله ولرسوله من حيث لا يشعرون أو من حيث يشعرون أحياناً .

٣ – أنهم يسعون مشمرين عن ساعد الجد للوصول إلى ما يسمونه بالحرية المطلقة وهي التحلل الكلي من جميع التكاليف وهو دين وحدة الوجود ويعدون بعض الملاحدة كابن عربي وابن الفارض من أقطابهم ويحاولون الوصول إلى ما وصلوا إليه من الزندقة والخروج على الكتاب والسنة ، ويلقبون هؤلاء الزنادقة بالألقاب الآتية :

الواصلون : العارفون بالله . الأقطاب ، وأخيراً الغوث الأعظم . ما أعظم الفرية ؟ وكأن الغوث لا يجمع في اصطلاح القوم ولا مشاحة في الاصطلاح .

وبعد : فهل يجوز – والحال كما وصفت – اعتبار مشائخ الصوفية من دعاة الإسلام ؟ كما يحلوا لبعضهم اعتبارهم من الدعاة ومن الممثلين للمسلمين لدى الأجانب كما يسميهم بعض المخدوعين بهم ؟ إن هذا الاعتبار والتمثيل قد شوه جمال الإسلام لدى غير المسلين وقضى على سماحته لأنهم أظهروا الإسلام بمظهر طقوس وثنية واستغلالية ومكنوا بذلك لأعداء الإسلام أن ينالوا من الإسلام إيما نيل . لهذا كله لا أبيح لنفسي ولا لمن يسمع نصيحتي القول بأنهم من دعاة الإسلام بل الذي يجب أن يقال : لبيان الواقع ولكشف الحقائق أنهم دعوا الناس إلى عبادة مشايخهم وأقطابهم وصرفوا الناس عن المفهوم الصحيح للإسلام وقد يقول قائل منهم إنهم قد أدخلوا كثيراً من الوثنيين في الإسلام .

الجواب حقاً أنهم أخرجوهم من الوثنية السافرة وأدخلوهم في الوثنية المقنعة بعد أن أطلقوا عليها اسم الإسلام لتقبل وتستساغ .

أما الإسلام بمفهومه الصحيح فهم في معزل عنه فضلاً عن أن يدخلوا غيرهم في صميمه وأنى لهم ذلك . إذ « فاقد الشيء لا يعطيه » .

ولا شك أن هذا التخبط نتيجة لإهمال دعاة الإسلام واجبهم وتقصيرهم في أداء واجب الدعوة الإسلامية كما يجب . لذا هم يتحملون تبعة ذلك كله لأنهم مع فهمهم وقدرتهم تركوا المجال لغيرهم حتى خلا الجو لمشايخ الصوفية ومن تبعهم بغير إحسان .

خلا لك الجو فبيض واصفري ونقري ما شئت أن تنقري

وخشية أن يقول قائل – ولو في نفسه – إن كل ما ذكرته من أوصاف القوم وأحوالهم نعتبره دعوى . وهل لديك دليل على ما زعمت ؟ خشية أن يرد هذا النوع من التعليق ، لنسمع معاً بيتين لبعض أقطابهم أحدهما لابن الفارض حيث زعم أنه اتحد مع الله بحيث لو صلى فإنما يصلي لنفسه فسجوده لنفسه وركوعه له وهكذا ، وذلك إذ يقول :

لها صلواتي بالمقام أقيمها واشهد فيها أنها لي صلت

والبيت من تائيته المشهورة التي يطرب مشايخ الصوفية عند قراءتها : فأنت ترى إنه يزعم أنه صار رباً وعبداً في وقت واحد ، عبداً يصلي وربًّا يُصلَّي له ، وقد صرح بهذا المعنى أحد رؤسائهم – أحسبه ابن عربي – إذ يقول :

الرب عبد والعبد رب فيا ليت شعري من المكلف

هذه هي المنزلة التي يشمر لها كل شيخ من مشايخ الصوفية كما يعرف ذلك كل من له اتصال بالقوم . وهل يمكن إدخال هذا المعنى في مفهوم الدعوة الإسلامية ؟!!

وأما البيت الثالث فقد قاله الكولخي الأفريقي وهو يدعو الناس إلى تقديس نفسه والغلو فيه إلى حد العبادة زاعماً أن محبته ورؤيته توجبان للمرء دخول الجنة ولا محالة حيث يقول :

ومن أحبني ومن رآني في جنة الخلد بلا بهتان

واكتفي بهذا النموذج من كلام القوم كشاهد وكدليل على ما ذكرت من شطحاتهم وما أوردت من أحوالهم وصفاتهم ، ومن أراد المزيد فعليه بكتب القوم وهي منشورة في مناطقها . والله المستعان .

ومن هذا الشرح الموجز نتبين أن الإسلام دخل القارة أول ما دخل بمفهومه الصحيح وخالطت بشاشته القلوب وذاقت حلاوته ، ثم بعد فترة غير قصيرة أخذ ينتشر على أيدي جماعة تتمتع بحب الإسلام وحب الخير والهداية للمسلمين ولكنها لم تهضم الإسلام ولم تفهمه حق فهمه وهم التجار .

ولما رأى مشايخ الصوفية خلو الميدان وتقاعس دعاة الحق عن واجبهم نزلوا الميدان ولقبوا أنفسهم بما سبق أن سمعناه من الألقاب الخداعة فنزلوا ميدان الدعوة إلى الإسلام ليتاجروا بالدين وليجعلوا الإسلام واجهة لدعوتهم الوثنية أو الإلحادية أحياناً على ما تقدم . فأفسدوها حتى صار أتباعهم ومريدوهم يخشونهم كخشية الله أو أشد خشية ويراقبونهم أشد من مراقبتهم لله ، هل هذا هو الدين ؟ وهل هذه هي الدعوة إلى الإسلام ؟ وأي إسلام هذا ؟ يا سبحان الله .

وللأسف الشديد هذا هو مفهوم الدين الإسلامي عند جمهور المسلمين الذين تلقوا الإسلام على أيدي مشايخ الطرق ولدي كثير من الذين يحسنون الظن بهم . والذي يؤسف له أكثر وأكثر أن يكون هذا موقف بعض علماء المسلمين الذين درسوا ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ولكنهم لم يرزقوا الفقه في الدين ، ومن يرد الله به خيراً يفقه في الدين[1] . والدراسة شيء والفقه شيء آخر . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وله الحمد والمنة وحده ربنا لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

تمكين التصوف لجراثيم الشيوعية

عندما دخلت الشيوعية كثيراً من الأقطار الإسلامية التي يزعم سكانها أنهم مؤمنون كيف كانت مقاومة إيمانهم لنار الشيوعية ؟ .

هل اطفأها إيمانهم ذلك حتى صارت برداً وسلاماً على سكان تلك الأقطار ؟

(١) أخرجه خ العلم وقد مضى تخريجه مرتين وذلك من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

أم المشاهد أن نار الشيوعية سرت في تلك القلوب سريان النار في القصب اليابس ؟ أو ليس المشاهد أن إيمان أولئك السكان المؤمنين ذاب أمام الشيوعية ذوبان الملح في الماء ؟ وأكلته الشيوعية كما تأكل النار الحطب ؟ هذا هو الواقع ولماذا ؟ لماذا لم نجد المقاومة من أولئك المؤمنين ؟ ولماذا هذه الهزيمة أمام الشيوعية ؟ وما السر في ذلك ؟ ونحن نعلم جميعاً أن الإيمان الصادق لا تقف أمامه الشبهات والشهوات بل لا يصادف شبهة أو شهوة أو ذنباً إلا أحرقه – كما يقول بعض أهل العلم – وهذا حال الصادق في إيمانه من علماء الشريعة الذين مصدر إيمانهم الوحي الإلٰهي – الكتاب والسنة .

فأين أتباع الصوفية وأشباههم في الجهل من مثل هذا الموقف ؟

أقول مستعيناً بالله ، إن الذي أستطيع أن أقوله : جواباً عن هذه الاستفهامات استنتاجاً من واقع الجمهور جمهور المسلمين هو أن الفكرة الشيوعية عندما جاءت إلى المنطقة وجدت بعض القلوب تطوف حول صنم المادة ، ووجدت قلوباً أخرى تطوف حول صنم الشهوات البهيمية ، كما وجدت قلوباً أخرى تطوف حول وثن التصوف متعلقة بأستار أضرحة المشايخ لائذة بها راكعة وساجدة أمام عظمة الشيخ أو المشايخ ناسية ربهم وخالقهم أجل وجدت الشيوعية تلك القلوب في هذه الأماكن القذرة – على الرغم من دعوى الإيمان ، فساقتها كلها من حول تلك المعبودات الرخيصة وجمعتها وذوبتها وقضت عليها ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وهذه القلوب هي التي كان إيمانها إيماناً تقليدياً ضحلاً ولم يبلغ درجة اليقين وهي قلوب جمهور المسلمين الذين انتسبوا إلى الإيمان على أيدي مشايخ الصوفية وأتباعهم وأشباههم في الجهل ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم ولم يذوقوا حلاوته ، ولا يخص هذا الموقف القارة التي نتحدث عنها ولكنه بلاء عام والله المستعان .

أما القلوب المؤمنة بالله المطمئنة في إيمانها والتي لم يجدوها حول تلك الأصنام والأوثان . بل لم يستطيعوا الوصول إليها لأنها كانت مع الله في عبادة الله ، في ذكر الله ، في بيت من بيوت الله ، وكانت مشغولة بالله عن غير الله في جنة الأنس بالله ، وقد أغمضت عينها عما سوى الله ، في تدبر كتاب الله تجول في مخلوقاته وآلائه ونعمائه لتثني على المنعم بها سبحانه .

وقد ابتعدت عن جيفة المادة وروث الشهوات وشرك الصوفية بل قد سمت همتها حتى كادت أن تكون مع الملائكة في طهارتهم وسموهم . هذه القلوب في واد ، والشيوعية في واد آخر . لا يجتمعان بل لو مرت الشيوعية بواديهم لأذابها إيمانهم وأخمدها ، وهذه القلوب هي التي بقيت في المنطقة اليوم مؤمنة بالله وبكتابه وبرسوله واليوم الآخر والله ولي التوفيق .

* * *

الدور الثالث والأخير

دور التصحيح

مما لا يختلف فيه اثنان فاهمان للإسلام حق فهمه أن مفهوم الإسلام بحاجة إلى التصحيح لدى كثير من المسلمين في قارة أفريقيا وغيرها من القارات ، ولعل إنشاء الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بهذا المستوى العالمي يعتبر عنواناً بارزاً في دور التصحيح – إن وفق المسؤولون فيها وأحسنوا التصرف في استغلالها في ميدان التصحيح – لأن تجمع أبناء المسلمين من أقطار الدنيا في هذه الجامعة الفتية ليدرسوا منهجاً موحداً في جو إسلامي كهذا ثم ليرجعوا إلى ديارنهم ليفقهوا قومهم . فهذا العمل بحق نوع من أنواع التصحيح إن صدق طلاب الجامعة وأخلصوا عملهم لله ونصحوا وأنصفوا وهو المتوقع منهم بإذن الله .

ولقد أدركت الجامعة الإسلامية وإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض حاجة القارة الأفريقية الماسة إلى هذا التصحيح وقدرتا ذلك كما يجب . فتقديراً منهما لتلك الحاجة قد اتفقتا على التعاون وتنسيق العمل التصحيحي فيما بينهما بأن تختار الجامعة الإسلامية من خريجيها من يحصل بهم المقصود فتقدمهم لرياسة إدارة البحوث العلمية بالرياض لتبعثهم إلى القارة شرقها وغربها ووسطها . وهو كما ترى تعاون إسلامي مشكور ومثمر بإذن الله إلا أنه لا يزال بحاجة إلى مزيد من التخطيط والتنظيم ، فنسأل الله تعالى مزيد التوفيق للمسئولين في كل من الجامعة وإدارة البحوث حتى يتم تنظيم هذا العمل الجليل أكثر من ذي قبل ليتحقق الغرض

الذي نظم التعاون من أجله على أحسن وجه وهو تجديد وتصحيح مفهوم الإسلام لدى جمهور المسلمين وإزالة تلك الرواسب الوثنية التي علقت بعقيدتهم والبدع التي شاعت في عباداتهم وفساد الأخلاق الذي ساد صفوفهم وإلحاد الدستور الذي استوردوه من بلاد أعدائهم واستبدلوا به كتاب ربهم وسنة نبيهم وإزالة تلك الوحشة التي خيمت على قلوبهم حتى فقدوا نعمة الأنس بالله والتوكل عليه والثقة به ، والالتجاء إليه والاكتفاء به ، هذه هي ميادين التجديد والتصحيح .

وإذا سمينا هذا الدور دور التصحيح فليس يعني ذلك الحط من قيمة الأعمال الجبارة التي يقوم بها الدعاة هناك لأن التصحيح الذي نعنيه لا يتم بجرة قلم أو بجعل حرف مكان حرف أو جملة مكان جملة أخرى . بل هو تصحيح يعني استئصال الجاهلية المزمنة ليحل الإسلام مكانها ، وتطهير القلوب من آثار الوثنية والبدع والخرافات القديمة ، حتى تحيا تلك القلوب بنور الإيمان والتوحيد الخالص ، وحتى تحل الأحكام الإسلامية العادلة مكان تلكم الأحكام الجائرة التي خلفها الاستعمار وورثها قوماً آخرين .

وعمل كهذا ليس بالأمر السهل بل هو عمل شاق وجهاد عظيم . رزقنا الله وإياهم الإخلاص فيه وابتغاء وجهه بنفع عباده وتعليمهم ما يجهلونه إنه عليم بذات الصدور .

* * *

« دعـــاة محليـــون »

هنا أمر هام أرى ضرورة التنويه به . وهو أن القارة الأفريقية قد حظيت بالدعاة المحليين المصلحين في فترات متقطعة – وأماكن مختلفة – عبر التاريخ الطويل من أهم هؤلاء الدعاة وأسبقهم زمناً وأشملهم دعوة ، السلطان المجاهد العالم السلفي الشيخ عثمان بن محمد المعروف بابن فودي الفلاتي .

ولد الداعية عثمان فودي سنة ١١٦٩ هـ وتوفي سنة ١٢٣٢ هـ وبدأ في العمل الإصلاحي والدعوة إلى الإسلام سنة ١١٨٨ هـ ، وقد دعا الناس إلى الإسلام

الصحيح الذي ابتعد عنه كثير من الناس ، وجاهد وقاتل في سبيل ذلك إذا دعت الحاجة إلى القتال : واتصل بالأمراء والعلماء التائهين عن الصواب ، دعاهم ليعودوا إلى الصواب وإلى فهم الإسلام وتصوره على حقيقته يوم جاء من عند الله عقيدة وعبادة وسياسة وخلقاً ، و لاتزال تلوح آثار دعوته في شمال نيجيريا ، وخصوصاً أمهات المدن التي كانت عواصم لدعوته ودعوة أبنائه وأحفاده من بعده مثل سكتو وزاريا وجص وغيرها ، من أراد أن يعرف الرجل : دعوته وأسلوب دعوته فعليه بقراءة بعض مؤلفاته ، ومن أهمها :

« سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان » وهو كتاب صغير الحجم لكنه جم العلم وكثير الفوائد ينبيء عن علم صاحبه وحرصه الشديد على هداية العباد مع ما يلاحظ من حزمه وصرامته وصراحته في بيان الحق .

ومن ذريته : الشهيد الإسلامي الحجاج أحمد بلو رئيس وزراء شمال نيجيريا الذي ختم الله له حياته بالدعوة إلى الإسلام . وقد اعتنق الإسلام على يده خلق كثير من الوثنيين والمسيحيين . وقد حضرنا أنا وزملائي أعضاء وفد الجامعة الإسلامية حملته العظيمة في التبشير بالإسلام في شمال نيجيريا عام ١٣٨٥ هـ وقد تحولت مناطق كثيرة مسيحية أو وثنية إلى مناطق إسلامية بحمد الله تعالى وكم من قرى مسيحية وأخرى وثنية كادت تصبح مسيحية أو وثنية فأمست إسلامية بدعوته ، وكم من كنائس نصرانية تحولت مساجد إسلامية بين عشية وضحاها وقد كانت الجرائد اليومية في نيجيريا تحمل إلى القراء أرقاماً خيالية للمسلمين الجدد كما كانت الإذاعة المحلية تبث أخباراً تثلج صدور المسلمين وتضيق عنها صدور الحاقدين من الصهاينة والنصارى الذين طواطأوا على تدبير تلك المؤامرة الأثيمة التي أدت إلى اغتيال الشهيد بعد أن قدم أمامه تلك الأعمال الجليلة ، فنسأل الله تعالى أن يتقبلها منه ويلحقه بالصالحين إنه لا يضيع أجر المحسنين .

٢ – الشيخ محمد عبد الله المالي المدني ، وقد عاش هذا الداعية في المدينة المنورة فترة من الزمن وتولى إمامة المسجد النبوي في أوائل عهد الملك عبد العزيز رحمه الله ثم سافر إلى الهند ثم صنعاء اليمن ثم دخل شرق أفريقيا من طريق الصومال والحبشة . وهي جولة علمية وتبليغية معاً إلى أن انتهى به المطاف إلى وطنه مالي . ليصدع بالحق معرضاً عن الجاهلين من مشائخ الصوفية وأصحاب الشعوذة وأرباب

التقليد الأعمى – المعتزلة المعطلة وأتباعهم فأخذ ينشر علم الكتاب والسنة وعقيدة سلف هذه الأمة الذين ينحصر كل خير في اتباعهم وهم أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام والتابعين لهم بإحسان وقد أحسن من قال :

وكل خير في اتباع من سلف ‏ ‏ ‏ ‏ وكل شر في ابتداع من خلف

وقد بدأ دعوته المباركة في شرقي مالي عام ١٣٥٧ هـ واستمر في دعوته وجهاده إلى أن توفي عام ١٣٧٣هـ رحمه الله – بعد أن ترك آثار دعوته ظاهرة وورث العلم والعقيدة السلفية عدداً لا يستهان به من طلاب العلم الذين ساروا بعده سيرته وصاروا خير خلف في الدعوة ومحاولة الإصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

٣ – الشيخ طاهر الجزائري – وقد عالجت دعوته جانباً هاماً هو جانب العقيدة وإصلاحها . وقد ألف في ذلك عدة رسائل نافعة بإذن الله ومن مؤلفاته :

(أ) الإيمـان .
(ب) الشرك ومظاهره .
(جـ) الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية .

وهو من العلماء الأبطال الذين شاركوا في ذلك الكفاح المرير ضد الفرنسيين في الجزائر الذي كتب الله له النجاح في النهاية .

هكذا يتضح لك أيها المستمع الكريم أن دراسة تاريخ القارة ودور الدعوة الإسلامية وتاريخها يجعل تلك العبارة المشهورة « مجاهيل أفريقيا » خرافة تاريخية لا تدل على الواقع والحقيقة الملموسة في القارة بل الواقع يكذبها كما لا يخفى .

وبعد : فأحسب أنني أعطيت القارىء الكريم صورة واضحة عن الدعوة الإسلامية في القارة عبر التاريخ أو – على الأقل – أثرت في نفسه شعور الاستطلاع ليدرس تاريخ القارة ودور الدعوة الإسلامية فيها وأسبقها إلى الإسلام وموقفها الكريم من دعاة الإسلام في صدر الإسلام وهم أصحاب رسول الله ﷺ ، أجل أرجو أني أعطيت القارىء تلك الصورة أو هذا المعنى للدعاة لأعود إلى الحديث عن الدعاة الذين هم في الميدان الآن وأتحدث عن بعض الشروط الضرورية لنجاح الدعوة بإذن الله في القارة الأفريقية وغيرها .

شـــروط الدعـــاة

إن نجاح الأعمال في الغالب الكثير يتوقف على نوعية العاملين ، لذا أرى من الضروري وضع شروط تحدد لنا نوعية الدعاة الذين نبعثهم إلى الميدان لندون تلك الشروط لدى الجهات المسئولة فتطبق عند انتخاب الدعاة واختيارهم وهي كالآتي :

(أ) يجب أن يكون الداعية ذا عقيدة راسخة وصادقة وكم منيت شعوب كثيرة بدعاة خالية قلوبهم عن العقيدة الإسلامية الصحيحة . وكم منيت تلك الشعوب بدعاة لم يتصوروا حقيقة الإسلام ولم يفهموه حق فهمه ، دعاة إلى حفلات الموالد . دعاة الرجبية والشعبانية . دعاة الأوراد الصوفية المبتدعة ، بل بدعاة إلى نفي صفات الله تعالى وتعطيلها بعد أن أثبتها الله لنفسه ، يفعلون ذلك بدعوى التنزيه ، بل من الدعاة من يدعو إلى التحلل والابتعاد عن الفضيلة لتحل محلها الرذيلة بدعوى الحرية والتطور . يدعون إلى كل ذلك باسم الإسلام إنه الإسلام المفترى عليه .

(ب) الفقه في الدين والبصيرة في أسلوب الدعوة استنتاجاً من قوله تعالى :

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾[1]

(ج) الحكمة والاتزان وعدم الطيش **﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾**[2] ، **﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾**[3] . والحكمة بأوجز عبارة وأدقها هي اللين في موضع اللين والشدة في موضع الشدة .

(د) تجنب المداهنة وهي من أخطر الصفات في الداعية ، وهي التودد والتملق للناس على حساب الدين بحيث يعجز في النهاية عن بيان الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراعاة لخواطر الجمهور . فيكون معه إذا صلح الناس صلح معهم وإذا فسدوا فسد معهم .

(هـ) الصبر والتحمل لأن علاج الأوضاع القائمة في الأقطار الإسلامية يحتاج زمناً طويلاً يقرب من طول عمر الجاهلية المزمنة أو أطول .

---

(١) سورة يوسف الآية : ١٠٨ . (٢) سورة النحل الآية : ١٢٥ . (٣) سورة البقرة الآية : ٢٦٩ .

وإذا ما طبقنا هذه الشروط أو ما يقاربها من الصفات في الدعاة الذين يعملون في هذا الدور – دور التصحيح – صرنا قريبين من درب النجاح في عملنا بإذن الله وإن كنا ندرك الحاجة الماسة إلى إعادة النظر في تنظيم عمل الدعوة بصفة عامة بل العمل الإسلامي من حيث هو لم يحظ بالتنظيم الدقيق بعد . علماً بأن العمل القليل المنظم خير وأكثر ثمرة من العمل الكثير غير المنظم كما لا يخفى .

عندما يرى المرء عمل المبشرين ودقة تنظيمهم لحركتهم التبشرية والتضحية التي يقدمونها أثناء القيام بعمل التبشير والصبر والتجلد منهم ، ثم يقارن ذلك بالفوضى والتخبط اللذين يسودان صفوف المنتسبين إلى الدعوة الإسلامية وعدم الجدية في عملهم ، بل يعتبر العمل الإسلامي عملاً ثانوياً إضافياً يقوم به الإنسان في أثناء فراغه من الأعمال الرسمية الجادة في نظره ، إذا قارن الإنسان هذه المقارنة يرى قوماً أهل باطل يجدون في الدعوة إلى باطلهم ويخلصون في دعوتهم ، بينما يرى أهل الحق يهملون حقهم ويتكاسلون ولا يتنافسون في سبيله والله المستعان .

وعلى الرغم من كثرة المراكز التي تحمل اسم الدعوة إلى الإسلام ، وعلى الرغم من كثرة من ينتسبون إلى الدعوة ويعيشون تحت عنوان الدعاة إلى الإسلام وكثرة ما يكتب ويذاع باسم الدعوة إلى الإسلام على الرغم من ذلك كله فإن الدعوة إلى الإسلام تأسيساً وتصحيحاً أو تجديداً لا تزال تشكو عدم الجدية من أصحابها في الغالب الكثير ، بل كثيراً ما تستغل كأسباب للمعيشة وكأسلوب للحياة أو الوصول إلى المناصب الدينية المرموقة التي لا يمكن الوصول إليها إلا باسم الدعوة إلى الإسلام حتى تكسب الثقة وتنال الشهرة على حسابها ، كما تشكو عدم الكفاءة العلمية والأسلوبية وقلة الحكمة وضعف الإخلاص من كثير من أصحابها والله المستعان .

وفي يقيني أن رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد تدرك هذه الحقائق ، ولعلها تحاول أن تخرج بالدعوة الإسلامية من هذا المأزق بأن تقوم بتوحيد مراكز الدعوة وأمانات الدعوة الإسلامية وتجند للمركز العام للدعوة خبراء ومخططين إسلاميين يعملون في المركز ، ثم تجند لميدان الدعوة المباشر رجالاً عرفوا بالعلم والحكمة والجدية والتحمس الذاتي للدعوة الإسلامية لا لكونها وظيفة تدر عليهم الرزق الواسع والمرتب الضخم وتكسبهم الجاه العريض والشهرة العالمية .

وأملنا قوى وآمال جميع المسلمين في الداخل والخارج في سماحة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بعد الله ليقوم سماحته بهذه المهمة الإسلامية الإصلاحية ليحقق الله على يده هذه الآمال لأنه صاحب هذه المهمة وهو أحق بها وأهلها والمسئول عنها على جميع المستويات حفظه الله ونفع المسلمين بعلمه وجهاده إنه خير مسئول .

سيرة الدعوة في القارة الأفريقية

تمكنت بتوفيق من الله من زيارة عديد من دول القارة وأكثرها في غرب أفريقيا ، والفضل في ذلك راجع – بعد الله – للجامعة الإسلامية إذ كنت عضواً في وفود الجامعة التي ترددت إل تلك الدول للزيارة الأخوية والدعوة والتوجيه والتوعية وللمساهمة مع الدعاة القائمين بالدعوة هناك .

وإذا قارنا بين زيارتنا لتلك الدول في سنة ١٣٧٥هـ وسنة ١٣٨٦هـ وبين زيارتنا في الصيف الماضي سنة ١٣٩٥هـ وجدنا ما يفرح القلب ويثلج الصدر من سيرة الدعوة الإسلامية في تلك الدول وتقدمها ، ولله الحمد والمنة .

والدول التي تمت لنا زيارتها هي :

١ – تشـاد .
٢ – الكاميرون .
٣ – نيجيريا .
٤ – داهومي .
٥ – توجـو .
٦ – النيجـر .
٧ – ساحل العاج .
٨ – فولتا العليا .
٩ – مـالي .
١٠ – سنغال .

١١ – ليبيريا .
١٢ – سيراليون .
١٣ – موريتانيا .
١٤ – غـانا .
١٥ – غينيـا .

وفي زيارتنا الأولى والثانية كنا نلاحظ في بعض تلك الدول المذكورة غربة شديدة يعانيها الدعاة والدعوة معاً . وكان وضعهم يشبه تقريباً وضع الصحابة يوم كانوا في دار الأرقم بن أبي الأرقم قبل إسلام عمر وحمزة رضي الله عنهما والدعوة في مهدها سرية . وخوف على النفس وخوف على الدعوة أن يقضي عليها – دعوة باسم الدعوة الوهابية ، ما أشبه الليلة بالبارحة .

وأما في زيارتنا الثالثة في الصيف الماضي . فقد أسلم عمر وحمزة معاً وسلمت الدعوة وزال الخوف وأمن الدعاة على أنفسهم وعلى دعوتهم بل جهروا بها بل بنوا مساجد للجمعة والجماعات وأسسوا مدارس وأنشأوا جمعيات تحت عنوان « الجمعية المحمدية » أو جمعية أهل السنة أو ما يقارب هذه الألفاظ على اختلاف بلدانهم .

ولقد لاحظنا في الدعاة السنيين روحاً عالية وعزيمة ماضية وروح الجهاد والتضحية مع ما ينقصهم من الإمكانيات المادية والثقافية ولكنهم في الواقع أنشط وأصدق في دعوتهم من كثير من الذين يملكون الإمكانيات الضخمة مادية وثقافية ، والله المستعان .

ولك أن تتساءل هنا وعَلَيَّ أن أجيبك . لك أن تسأل على يد من تم هذا التقدم الذي وصفته بالنسبة للدعاة السنيين ودعوتهم في بعض دول غرب أفريقيا ؟

الجواب : اشتركت عدة جهات في العمل المذكور .

أولاً : صغار طلبة العلم من سكان القارة الذين عاشوا في الحرمين الشريفين برهة من الزمن وتتلمذوا على بعض المدرسين في الحرمين ثم رجعوا إلى بلادهم فبلغوا

ما فهموه عملاً بقوله تعالى ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾[1] وقد عملوا بالقليل الذي علموه . زادنا الله وإياهم من العلم النافع .

ثانياً : الدعاة التابعون لرئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الذّين تعرفون عنهم الكثير ، ولست بحاجة إلى التعريف بهم .

ثالثاً : وفودِ الجامعة الإسلامية ووفود رئاسة إدارات البحوث العلمية التي تكررت زيارتها للمنطقة وقاموا بما أمكن لهم من التوعية والتوجيه والتعليم بواسطة المحاضرات والندوات العلمية ، والأمسيات الدينية ، والاتصالات الرسمية وغير الرسمية .

رابعاً : زيارة بعض الشخصيات السعودية الذين زاروا بعض تلك الدول بدعوة من الجهات الرسمية كزيارة إمام المسجد النبوي ، الشيخ عبد العزيز بن صالح الذي زار بعض تلك المناطق ، ولزيارته أثر فعال في باب التوعية والتوجيه ومحاربة البدع وبعض مظاهر الوثنية ..

خامساً : بعض حجاج القارة الذين تكررت زيارتهم للمملكة واستفادوا مما يسمعونه أثناء الحج من المدرسين في الحرمين الشريفين وندوات التوعية : وقد يتأخر بعضهم بعد أداء فريضة الحج لغرض الازدياد من العلم والمعرفة برهة من الزمن حسب ظروف النظام .

هذه الجهات الخمس هي التي تعاونت في تطوير الدعوة في المنطقة فيما نعلم وقد بارك الله في تعاونهم حتى وصلت الدعوة إلى الدرجة التي وصفناها من التقدم والظهور ، ولله الحمد والمنة ، فنسأل الله تعالى أن يوفق الجامعيين الأفارقة حتى يكملوا هذا البناء الذي أسسه إخوانهم الذين سبق أن وصفناهم إنه ولي التوفيق ليكتب لهم أجر المساهمة في هذا الخير وفي هذا الجهاد العظيم الذي من أجله تعلموا ومن أجله سيعملون إن شاء الله .

---

(١) سورة التغابن الآية : ١٦ .

دور الجامعيين الأفارقة

إذا تحدثت عن الدعوة الإسلامية في القارة الأفريقية عبر التاريخ الطويل اعتباراً من هجرة الصحابة رضوان الله عليهم إلى ذلك الجزء من القارة وهي الحبشة – إلى يوم الناس هذا لا أستطيع أن أغفل الحديث عن دور الجامعيين الأفارقة وهم خير سكان القارة لأنهم أهل العلم والمعرفة – فهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون – ؟

وقد يحملنا على التفاؤل لمستقبل القارة ، أن الجامعات الإسلامية وفي طليعتها جامعتنا هذه أخذت تخرج عدداً كبيراً من أبناء القارة في الوقت الذي يعتبر – بحق – خير وقت وأسعده وأبركه وأصلحه للعمل الإسلامي في القارة ، وهو الوقت الذي تحاول فيه شعوب المنطقة التخلص من آثار الاستعمار الغربي والشرقي معاً . لتربط علاقتها الوثيقة مع إخوة لها في الدين والعقيدة وهم الشعوب العربية والإسلامية ثم هو الوقت الذي أخذ فيه الوعي الإسلامي يتقدم في المنطقة بشكل ملموس كما لاحظنا في زياراتنا المتكررة .

وفي هذا الوقت الذي تتوفر فيه عوامل التشجيع على العمل الإسلامي أخذت جامعتنا تخرج أبناء القارة ليأخذوا أماكنهم في صفوف الإصلاح الإسلامي ، ويقدموا لقومهم خير ما يقدم المسلم لأخيه المسلم وهو العقيدة الصحيحة وتعميق الإيمان وإثباته ، والتوجيه الإسلامي العام الذي يشمل جوانب الحياة كلها ، إذ في إمكان الجامعيين أن يلعبوا في القارة دوراً لا يمكن لغيرهم أن يلعبه ، في إمكانهم أن يحاولوا – مستعينين بالله – تحويل القارة إلى قارة إسلامية خالصة بعد أن نفضت غبار الاستعمار عن وجهها لتثبت شخصيتها الأفريقية الإسلامية وسيادتها الذاتية ، لتصبح إسلامية في سياستها واقتصادها وأخلاقها وجميع جوانب حياتها .

ويرجى لعمل الجامعيين النتائج الإيجابية إذا صدقوا مع الله وأخلصوا العمل لله لأنه سبحانه هو الذي له الأمر كله وله الخلق كله وبيده الخير كله . ترجى لعملهم نتائج إيجابية إذا راقبوا الله ثم ضحوا في سبيل نصرة دينهم بكل ما يملكون من رخيص وغال وتركوا الاتكال والكسل والخلود إلى الراحة ليعيشوا حياة الأبطال المجاهدين حياة العلماء العاملين والدعاة المخلصين المصلحين .

إن العمل الإسلامي في القارة بحاجة إلى تخطيط يسبق العمل ذلك شأن كل عمل ترجى نتائجه ، وإلى دراسة طويلة وصامتة دون جعجعة أو ثرثرة أو استعمال بوق أو ضرب ناقوس .

وقصارى القول : إن القارة بحاجة إلى مجهود أبنائها المخلصين الذي يتم في هدوء تام وحكمة وروية إن القارة أحوج إليهم أكثر من حاجتها إلى غيرهم لأنهم الذين يعرفون من تقاليدها وعاداتها وأساليب حياتها ولغاتها الكثيرة ما لا يعرفها غيرهم ، لذا أعود فأقول : لا ينبغي للجامعيين الأفارقة أن ينسوا أماكنهم في الصفوف الأولى في ميدان العمل الإسلامي في القارة لأنهم أحق بها وهم أهلها وأصحابها ، ويستطيعون حل مشاكلها المزمنة سياسية أو اجتماعية تلك المشاكل التي خلفها الاستعمار الغربي وزاد من تعقيدها الاستعمار الشرقي الجديد في المنطقة التي تكمن في أقطار من القارة على حين غفلة من أهلها .

أيها الإخوة الجامعيون : الفرصة سانحة إن أحسنتم استغلالها والاستفادة منها لأن الشعوب الأفريقية أقبلت على الإسلام اليوم إقبالاً لا نعلم له نظيراً في التاريخ وأوضح دليل وأقربه على ما ذكرت ما جاء في مؤتمر « نواكشوط » الذي انعقد في أول هذا الشهر الجاري جمادي الأولى ، وبينما أنا أعد هذه المحاضرة وقعت في يدي جريدة المدينة المنورة العدد الصادر يوم الأربعاء السادس من هذا الشهر جمادي الأولى ١٣٩٦هـ وهي تحمل العنوان الآتي : « المؤتمر الأفريقي الإسلامي يبحث نشر الإسلام في أفريقيا » وفي الواقع : أن العنوان راعني كثيراً فأخذني لأقرأ ما كتبه مراسل الجريدة وهذا نصه : « كانت النقاط الرئيسية التي تم تناولها في اليوم الأول للمؤتمر الأفريقي الإسلامي الذي افتتح في (نواكشوط) هي : نشر الإسلام في أفريقيا ، وتعميم اللغة العربية والوحدة والتضامن » هـ . ولعل المراد بالوحدة والتضامن الوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي ، وهذه النقاط تصلح أن تكون ميادين لعمل الجامعيين لأنهم خير من يستغل مثل هذه الفرصة . والله ولي التوفيق .

* * *

الرسالة التاسعة

نظام الأسرة في الإسلام



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلاة الله وسلامه وبركاته على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد : تلقت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة دعوة كريمة من المجلس الأعلى لمسلمي كينيا بنيروبي للمشاركة في هذه الندوة الدينية المباركة – إن شاء الله .

فبادرت الجامعة فلبت الدعوة ، ثم طلبت إلّى الاشتراك في الندوة ممثلاً لها ببحث أقدمه فيها .

فلبيت الطلب طبعاً لأنه طلب لا يرد مثله . لأن في تلبية مثل هذا الطلب مساهمة في ميدان من ميادين الدعوة إلى الله ، والدعوة إلى الله من أهم أهداف الجامعة الإسلامية ، ومن أجلها أنشئت .

فها أنا إذا أتقدم بهذا البحث المتواضع[1] تحت عنوان :

« نظام الأسرة في الاسلام »

والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم إنه هير مسئول وأكرم معط ، فأقول مستعيناً بالله وحده ..

إن للدعوة الإسلامية مجالات متعددة . وأساليب مختلفة ، ومن أساليبها إقامة الندوات والمؤتمرات التي يلتقي فيها رجال الفكر الإسلامي وفقهاء المسلمين ليعالجوا فيها مشكلات الوقت ، ويردوا الشبهات التي تثار حول الإسلام وعقيدة المسلمين ، ويبينوا للناس أحكام الدين الإسلامي في جميع مجالات الحياة لمن يحتاجون إلى البيان – وما أكثر من يحتاجون – ليكون الناس على بينة من أمور دينهم ودنياهم ويكون ذلك على ضوء الكتاب والسنة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولا سبيل للخروج من ظلمات الجهل والجاهلية إلا بفقه الكتاب والسنة ، وتلك وظيفة رسل الله عليهم الصلاة والسلام من أولهم نوح عليه الصلاة

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في مدينة « كوسومو » في كينيا في (الندوة الدينية) التي أقامها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في كينيا .

والسلام إلى خاتمهم وإمامهم محمد عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

فيقول الله تعالى مخاطباً لنبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ومبيناً لوظيفته ووظيفة أتباعه ﴿ **يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً** ﴾ ..

في هذه الآي الثلاث من سورة الأحزاب بيان لوظيفة الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ، ووظيفة أتباعه .

وهي الدعوة إلى الله بإذنه وأمره وعلى بصيرة وعلم ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** ﴾ « يوسف آية ١٠٨ » .

وتكليف الله نبيه بهذه الدعوة العامة التي لا تخص قومه دون غيرهم – كما هو شأن دعوة الرسل من قبله – بل هي للناس كافة ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس** ﴾ « سبأ آية ٢٨ » .

وهذا التكليف له ولأتباعه يثبت له ثم لأتباعه أن يكونوا شهداء على الناس جميعاً .

وهذا يعني أن الرسالة المحمدية هي المهيمنة على جميع الأديان السابقة فدينه هو النظام الأخير الذي لا يسع أحداً من البشر إلا اتباعه ولا تجوز مخالفته .

وهو نظام رباني كامل ، لأن الله الذي خلق هذا الكائن الممتاز « الإنسان » لا يليق بحكمته أن يتركه هملاً دون أمر أو نهي أو توجيه ، ويسلمه للفوضى ليتخبط خبط عشواء ، يحلل ويحرم كما يهوي أو يشاء أو يعبد ما يريد ، كلا ، بل نظم له حياته وعلاقاته المتنوعة وأرسل رسله لهذا الغرض ذاته ، وأنزل عليهم كتبه ، وأرسل خاتم رُسلِهِ محمدٌ عليه الصلاة والسلام ، إذ لا نبي بعده وآخرُ كتبه القرآنُ الكريمُ إذ لا كتاب بعده وبيانُ ذلك الكتاب وتفسيره في السنة المطهرة ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ « النحل آية ٤٤ » .

وبهذا كله نظم الإسلام علاقة العبد بربه وخالقه بحيث يصبح عبداً له وحده يعبده دون غيره .. يعبده بعبادة منظمة مضبوطة بضوابط الشرع تولى القرآن تنظيمها جملة أو تفصيلاً ، وشرحتها السنة المطهرة وزداتها بياناً وتوضيحاً ، على اختلاف درجاتها

وشعبها الكثيرة ، إذ يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« الإيمان بضع وستون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان » .

وهذه الشعب كلها عبادات وطاعات ، على تفاوتها .

وجميع العبادات يجب أن تكون مقيدة بشريعة الله التي تؤخذ رأساً من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وخاضعة لأحكامه ، وسلوكُ العبْدِ هذا المسلكَ في جميع عباداته ومعاملاته وجميع تصرفاته هو الذي نعنيه بالعلاقة بين العبد وربه وهي العبودية الخالصة ، وحقيقتها إلا يفقد الربُ عبدَهُ ، حيث أمره ولا يَجِدَهُ حيث نَهَاهِ ، وإن هفا أحياناً وخالف أمر ربه بادر بالتوبة والرجوع إلى الصواب ، ليمحو أثر مخالفته وعصيانه بالتوبة والإنابة لأن التوبة تجبُّ ما قبلها ، ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ « النور آية ٣١ » .

هكذا نظم الإسلام – بالاختصار – علاقة العبد بربه وخالقه . فكما نظم هذه العلاقة على الوجه الذي ذكرنا ، كذلك اهتم الإسلام بتنظيم الأسرة .

وقد حث الإسلام على إنشاء مؤسسة الأسرة بتشريعه الزواج وحثه عليه مبيناً أن الزواج سكونٌ للنفس للطرفين وهدوءٌ لهما وراحة للجسد . وطمأنينة للروح وامتدادُ للحياة إلى آخر مطافها .

فلنستمع الآن إلى بعض الآيات القرآنية في هذه المعاني إذ يقول الله تعالى : وهو يحث عباده على الزواج : ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثُلَاثَ وَرُباعَ** ﴾ « النساء آية ٣ » .. ويقول : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ « الروم آية ٢١ » . وحيث يقول : ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾ « البقرة آية ١٨٧ » . ويقول : ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنَّى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله** ﴾

« البقرة آية ٢٢٣ » .

هكذا يتحدث القرآن عن مؤسسة الأسرة في عديد من الآيات ، وبأساليب مختلفة كما رأينا ، وكما نسمع مرة أخرى آية سورة النساء التي تبين أن طرفي هذه

المؤسسة خلقاً من نفس واحدة وكأنهما شطران لنفس واحدة فلا فضل لأحد الشطرين على الآخر في أصل الخلقة ومن حيث العنصر وإنما يحصل التفاضل بينهما بأمور خارجية ومقومات أخرى غير ذاتية وصفات مكتسبة إذ يقول الله تعالى في هذا المعني :

﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء** ﴾ « النساء آية ١ » . هكذا يحث الإسلام على إنشاء الأسرة لتكون امتداداً للحياة وراحة للطرفين .

أهداف الزواج في الإسلام

التشريع الإسلامي تشريع حكيم ، وله هدف ومغزى ..

فالله تعالى من أسمائه الحكيم لذا يجب أن نعتقد جازمين أنه تعالى حكيم في تشريعه كما هو حكيم في خلقه وصنعه .

فحكم تشريع الزواج تكمن في الأمور التالية :

أ – **غض البصر من الطرفين** : وقد اهتم الإسلام في قرآنه وسنة النبي الكريم ﷺ بهذا الأمر يقول الله تعالى : وهو يأمر الرجال والنساء معاً بغض البصر : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن** ﴾ .
« النور آية ٣٠ ، ٣١ » .

والتساهل في مسألة غض البصر يؤدي إلى الانزلاق الخلقي كما هو مشاهد في أكثر مدننا وعواصمنا الإسلامية – وللأسف الشديد ..

ب – **حفظ الفرج** : وقد تناولت الآيات التي تقدم ذكرها قريباً الأمر بحفظ الفرج مع الأمر بغض البصر ، ولعل الأول ينتج الثاني بمعنى أن غض البصر ينتج حفظ الفرج في الغالب الكثير لأن من تمكنت منه مراقبة الله تعالى فلازم غض بصره خوفاً من الله وحياءً منه سوف يحفظ فرجه عما حرمه الله عليه ولا يقع في الفاحشة .

وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام قوله : « العينان تزنيان وزناهما النظر والأذنان تزنيان وزناهما السماع»..إلى أن قال:«والفرج يصدّق ذلك أو يكذبه» ..

ج - **الحصول على النسل** : الذي هو لبنة في بناء المجتمع وسبب إكثار أتباع خاتم الأنبياء والمرسلين .

ويزيد الأمر وضوحاً الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله ابن مسعود والذي يخاطب فيه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام شباب المسلمين بذلك الأسلوب الرقيق ليرشدهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم إذ يقول عليه الصلاة والسلام :

« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » . وعند البيهقي من حديث أبي أمامة « تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم » .

وقد تقدمت بعض المعاني التي يمكن أن تعد من أهداف الزواج كالهدوء وراحة النفس مثلاً .

وقد يخطيء الذين يظنون أن الغرض من الزواج هو الحصول على اللذة والمتعة كيفما تيسرت ، وليس من وراء ذلك غرض آخر ، وهذا التصور الخاطيء قد أوقع كثيراً من الشباب في مهالك خطيرة وسقوط في الخلق والانحطاط ، مما جعل حياة عديد منهم في كثير من البلدان شبيهة بحياة الحيوانات التي ليس عليها قلم التكليف بل هم أضل سبيلاً وأسوأ حالاً .

من يتولى إدارة مؤسسة الأسرة ؟

إن الإسلام لم يهمل إدارة هذه المؤسسة وبيان من يرأسها ، أو من أولى الناس بتحمل مسئوليتها .

والذي يتضح من دراسة الإسلام أن الاختصاصات أو الصلاحيات موزعة بين الطرفين والواجبات محددة ، ولكل جانب خاص هو مسئول عنه :

فللرجل اختصاصات لا تشاركه فيه المرأة ولا تقوى على الاضطلاع بمهمتها وسياستها ، وللمرأة اختصاصات لا يصلح لها الرجل ولا يحسن القيام بها ..

فمحاولة أحد الطرفين التدخل في اختصاص الطرف الآخر يعرض المؤسسة

للارتباك والاضطراب ويسلمها للفوضي .

فلنستمع إلى بعض الآيات القرآنية وهي تنظم حياة الأسرة وتحدد المسئوليات فتعطي الرجل القوامة والإدارة حيث يقول عز وجل :

﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ « النساء آية ٣٤ » .

فالآية صريحة في إعطاء الرجل إدارة المؤسسة ، والقوامة عليها كما ترى و لم تهمل الآية بيان السبب ، بل بينت إذ يقول عز وجل : **﴿ بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾** ،ثم إنه مما لا نزاع فيه أن أي مؤسسة أو شركة إنما ينتخب لإدارتها من لدية دراية وخبرة وقوة على الإدارة وعلى الصبر على العمل وحنكة في سياسة طبيعة العمل ، ومؤسسة الأسرة من أهم المؤسسات وأخطرها على الإطلاق إذ بصلاحها يصلح المجتمع وبفسادها يفسد المجتمع لأنها هي التي تقدم للمجتمع أفراداً هم لبنات بناء المجتمع ، والبناء إنما يكتسب صفاته من مواد البناء قوة وضعفا .

لهذا كله حمَّل الإسلام الرجل هذه المهمة ، هي أمانة ثقيلة لأنه أليق بها وأقوى على أدائها والمرأة المنصفة تعترف بذلك .

يقول الأستاذ محمد الغزالي في كتاب : « حقوق الإنسان في الإسلام » :

« ولما كان الرجل بعيداً عن مشاغل الحيض والنفاس والحمل والرضاع ، كان أجلد على ملاقات الصعاب ومعاناة الحرف المختلفة ، وكان الضرب في الأرض ابتغاء الرزق ألصق به هو ومن ثم فقد كلفه الإسلام الإنفاق على زوجته وعلى قرابته الإناث الفقيرات » ا هـ .

ما ذكره الأستاذ الغزالي جانب مهم ومعقول لترشيح الرجل لهذه المهمة مهمة القوامة .

وهناك جوانب أخرى تبدو عند التأمل في بعض النواحي وهي كثيرة . نكتفي بهذه الإشارة اقتصاداً في الوقت .

مسئولية المرأة في الأسرة

إذا كان الرجل هو الذي كلف بمثل سياسة الأسرة الخارجية والاقتصادية على ما وصفنا فإن المرأة هي المسئولية عن إدارة الأسرة الداخلية تحفظ بيت زوجها في حضوره وغيابه . وتحفظ ماله . وتحفظ أولاده وعليها تنظيم المنزل إلى غير ذلك من الشئون المنزلية .

ولهذا كله تتمتع بكل احترام وتقدير من أفراد الأسرة طالما حافظت على مسئولياتها الداخلية و لم تتطلع إلى ما وراءها مما لا تستطيع القيام به من صلاحيات الرجل .

« الإسلام لم يظلم المرأة »

كثيراً ما نسمع تلكم الأصوات المنكرة التي تنادي بأن الإسلام هضم حقوق المرأة وظلمها و لم يعطها حريتها و لم يساو بينها وبين الرجل إلى آخر تلكم العبارات المترجمة عما يكتبه أعداء الإسلام ضد الإسلام .

في الواقع أن أصحاب هذه الدعوى هم أحد رجلين اثنين :

أما أحدهما : فجاهل ساذج سمع الناس قالوا قولة فاتبعهم بل صار لهم بوقاً يبلّغ ما يقولون ، وليس لديه علم يستند عليه فيما يقول ويذيع ، بل ليس له من الأمر شيء إلا البلاغ ، وهو يهرف بما لا يعرف .

وقد اغتر به كثير من الناس الذين لم يؤتوا من الفقه في الدين شيئاً ولا سيما النساء المثقفات بثقافة غير إسلامية أو الجاهلات المقلدات على غير هدى .

وهذا الصنف من الناس يضل ويضلل غيره لأنه جاهل وفي الوقت نفسه أنه يجهل جهله ، يصدق عليه قول القائل :

إذا كنت لا تدري بأنك لا تدري   فذاك إذاً جهل مضاف إلى جهل

وأما الآخر : فهو إنسان ماكر يمكر ويكيد للإسلام والمسلمين ويريد أن يفسد عليهم دينهم وأخلاقهم عن طريق فساد الأسرة متأثراً بأعداء الإسلام ومنفذاً لخططهم في محاربة الإسلام .

إن هذا وذاك هما اللذان يطلقان هذا الصوت المنكر في كل مكان لمحاولة التضليل ، وقد تأثرت به الكثيرات من المسلمات الجاهلات ظناً منهن بأن هذا النداء في صالحهن فضمت أصواتهن إلى ذلك الصوت .

فبذلك تصبح المرأة المسلمة المتأثرة بذلك النداء ظالمة لدينها وإسلامها متهمة إياه بأنه ظلمها ، ذلك الإسلام الذي رفع من شأنها لو كانت تعلم وتفقه – وأين الفقه لدى نسائنا إلا ما شاء الله – والله المستعان .

فعلى المرأة المسلمة المثقفة أن تدرس دينها لتعرف موقف الإسلام من المرأة وما لها من الكرامة في الإسلام ولا تتبع كل ناعق .

وفي الوقت نفسه عليها أن تطلع على ما في القوانين الأجنبية مثل القوانين الفرنسية وغيرها لتعلم موقف تلك القوانين[1] من المرأة ، ثم عليها أن تعرف كيف كانت المرأة قبل الإسلام حيث كانت من سقط المتاع فاقدة القيمة والكرامة وما أكرمها إلا الإسلام .

تتمتع المرأة في الإسلام بالحقوق المدنية مثل الرجل

للمرأة المسلمة حرية كاملة في الحقوق المدنية ، وهي مثل الرجل في هذه الحقوق .

فللمرأة المسلمة أن تبيع وتشتري وتهب وتقبل الهبة وتعير وتستعير وتتصرف في مالها ، ولها جميع التصرفات المالية مثل الرجل .

الحقوق الدينية للمرأة المسلمة

فالمرأة المسلمة تشرع لها جميع العبادات كالرجل فهي تصلي وتصوم وتزكي من مالها وتحج وتثاب على عباداتها وطاعتها مثل ما يثاب الرجل وليس أجرها دون أجر الرجل .

إلا أن الإسلام قد يخفف عن المرأة بعض العبادات تقديراً لظروفها الطارئة فمثلاً

(١) في القوانين الفرنسية في الأسرة يسمح للمرأة أن تتصرف مالها الخاص إلا بإذن زوجها وتنتسب إلى زوجها لا إلى أبيها .

يسمح للمرأة الحائض في ترك الصلاة ولا تؤمر بقضائها بعد الطهر لما في ذلك من المشقة والحرج ﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ « الحج آية ٧٨ » .

ولها أن تترك الصيام أيام عادتها ولكنها تقضي على السعة لعدم المشقة عليها في قضاء الصوم بخلاف الصلاة ، والنفساء تعامل بنفس المعاملة .

حرية الزواج للمرأة المسلمة

الإسلام يعطي المرأة حرية كاملة في الزواج ، فهي التي تختار الزوج الصالح لها قبل أن يكلفها وليها على من يختاره هو ، بل ليس له أن يزوجها إلا بإذنها الصريح بالنطق إذا كانت المرأة ثيباً لأنها قد جربت الرجال ولا تستحي أن تقول نعم أو لا .

وأما البكر فيكفي في إذنها السكوت حين الاستئذان فلابد من الاستئذان ولو زوجها أبوها في صغرها وقبل بلوغها فلها الخيار إذا بلغت بين إجازة ذلك الزواج أو رفضه .

هذا هو حكم الإسلام في الزواج حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « لا تنكح الأيم حتى تستأمر . ولا تنكح البكر حتى تستأذن وإذنها صماتها أي سكوتها » ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام رواه البخاري من حديث أبي هريرة .

إرث المرأة في الإسلام

وقد ركز دعاة المساواة على هذه النقطة فتمكنوا من تضليل الكثيرات من المسلمات الغافلات حيث زينوا لهن بأن الإسلام يفضل الرجل على المرأة فيعطيه في الميراث أكثر من النساء فيعطيه مثل حظ الأنثيين ولماذا ؟؟!! ..

وللإجابة على هذا السؤال أقول :

حقاً إن الإسلام يعطي الرجل نصيب امرأتين وهذا التفضيل في الميراث لا يترتب عليه تفضيل الرجل على المرأة في كل شيء كما سنرى قريباً إن شاء الله .

كما لا يلزم منه الحط من مكانة المرأة بل إنه عطاء عادل ومنصف .

بيان ذلك ما سبق أن ذكرنا من أن الإسلام يكلف الرجل وحده بالإنفاق على

الأسرة المكونة من الزوجة والأولاد بل وعلى كل محتاج من أقاربه ولم يكلف المرأة حتى بنفقة نفسها ولا نفقتها على زوجها ولو كانت هي أغنى من زوجها ، وأما قبل الزواج فنفقتها على أهلها .

فهل من الإنصاف أن تعطي المرأة المنفَق عليها مثل الذي ينفِقُ عليها ؟؟!!

أعتقد أن المرأة المسلمة المنصفة سوف تبادر بالجواب على هذا السؤال قبل الرجال قائلة : إن ذلك ليس من الإنصاف لو حصل .

بل الإنصاف ما فعله الإسلام وقد أنصف الرجل والمرأة معاً ولله الحمد والمنة .

سفر المرأة في الإسلام

النقطة الثانية من النقاط التي يركز عليها دعاة الحرية والمساواة مشكلة سفر المرأة يقولون : إن الإسلام لا يسمح لها بالسفر كما يسمح للرجل ولو في سفر أداء فريضة الحج ولماذا ؟؟!!

والعجيب من أمر هؤلاء أنهم كثيراً ما يقلبون الحقائق ليغالطوا الناس فيجعلون الإهانة كرامة والكرامة إهانة كما في هذه المسألة .

والمرأة المسلمة الجاهلة تسمع لكل ناعق لجهلها أمر دينها واستجابة للعاطفة أحياناً .

وفي الواقع أن الإسلام لم يمنع المرأة من السفر المباح إلا أنه قيد سفرها بقيد واحد ، وهذا القيد في الحقيقة إكرام لها وحفظ لشرفها لو كانوا يعلمون .

يشترط الإسلام لسفر المرأة وجود زوجها معها في السفر أو أحد أقاربها الذين تحرم عليهم تحريماً مؤبداً كأبيها وأخيها مثلاً ، لأن هؤلاء سوف يضحون بأنفسهم في سبيل المحافظة عليها وحفظ كرامتها ولا تصل الذئاب إليها إلا على أشلائهم .

كما يقومون بخدمتها في سفرها حيث تعجز عن الخدمة . وهل اشتراط الإسلام لسفر المرأة هذا الشرط يعتبر إهانة للمرأة أم هو إكرام لها ؟ إنها لإحدى الكُبَر !!

فلتعقل المرأة المسلمة الإجابة على هذا الاستفهام .

أما السفر من حيث هو فالإسلام لا يمانع فيه .

فالمرأة تسافر للحج ، وتسافر للتجارة ، وتسافر لزيارة أهلها وأقاربها وتسافر لطلب العلم ولغير ذلك من الأسباب طالما الشرط متوفر وهو وجود الزوج أو المَحْرَم معها .

هذا هو حكم الإسلام في سفر المرأة أيها المسلمون إذ يقول رسول الله ﷺ « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا ومعها رجل ذو مَحْرَمٍ عليها »[1] .

وللحديث ألفاظ كثير وروايات متعددة وكلها تدل على أن الإسلام يشترط في سفر المرأة وجود الزوج أو رجل ذي محرم عليها تحرم عليه تحريماً مؤبداً .

وهذا يعد إكراماً للمرأة المسلمة لو كانت تعلم ، وبالله التوفيق .

موقف الإسلام من التبرج والاختلاط والخلوة

إن موقف الإسلام واضح من هذه الجاهليات وهو موقف فطري ومعقول ، بل ومقبول لدى الأذواق السليمة ، والإسلام يشدد الإنكار على هذه الجاهليات ولا سيما جاهلية الخلوة إذ يقول رسول الهدى عليه الصلاة والسلام « ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان » ، « لا يخلون أحد بامرأة إلا مع ذي محرم »[2] .

هكذا يقول رسول الإسلام أيها المسلمون . وفي النهي عن جاهلية التبرج. يقول الله تعالى ﴿ **وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾ « الأحزاب آية ٣٣ » . ويقول مخاطباً لنبيه وخليله محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ **يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ « الأحزاب آية ٥٩ » . هكذا يأمر الإسلام المرأة المسلمة ابتداء من أمهات المؤمنين الطاهرات إلى يوم الناس هذا بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . يأمرها بالحشمة والحياء وعدم الاختلاط لأن الحياء شعبة من الإيمان وينهي عن هذه الجاهليات ويشدد الإنكار عليها لأنها ذرائع للفساد الخلقي الذي إذا أصيبت به المجتمعات ضاعت وذهبت ولقد صدق الشاعر

---

(١) البخاري ومسلم وأهل السنن .

(٢) وهو قطعة من حديث طويل : يراجع في خطبة عمر بن الخطاب بالجابية تحفة الأحوذي جـ٦ ص٣٨٤ .

حيث يقول :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هُمُوا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

موقف الإسلام من عمل المرأة

ولسنا نقول – كما يظن – أن المرأة لا تخرج من بيتها لمزاولة الأعمال ، كلا بل للمرأة المسلمة أن تعمل ولها مجالات واسعة في العمل . والقول بأن الإسلام يمنع المرأة عن العمل إساءة إلى الإسلام وسمعته كما أن القول : مجال عملها ضيق قول غير محرر فالمرأة المسلمة لها أن تزاول أعمالها دون محاولة أن تزاحم الرجال أو تختلط بهم أو تخلو بهم . للمرأة أن توظف مدرسة أو مديرة أو كاتبة في المدارس النسائية ولها أن تعمل طبيبة أو ممرضة أو كاتبة أو في أي عمل تجيده في المستشفيات الخاصة بالنساء إلى آخر الأعمال المناسبة لها .

أما المرأة التي تخرج من بيتها بدعوى أنها تريد أن تعمل – متبرجة – بزينتها ومتعطرة ومنكرة[1] مائلة مميلة وكأنها تعرض نفسها حين تتجول بين الرجال .

فموقف الإسلام منها أنه يشبهها بالمرأة الزانية لما أثبت عند الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

« والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا يعني زانية » ، قال الترمذي هذا حديث صحيح ولأبي هريرة مثله عند أبي داود والذي يبدو أن اللفظة يعني « زانية » من قول أبي موسى الأشعري تفسيراً لكذا وكذا والله أعلم .

وهذه المرأة مَثَلُها كَمَثَلِ طعامٍ شهي بذل صانعه في إعداده كل ما في وسعه ثم أخذه فجعله في قارعة الطريق وبجوار المستنقعات فرفع عنه الغطاء فهاجرت إليه الحشرات من كل مكان تستنشق ريحه فأخذ الذباب يحوم حوله فيسقط فيه أحياناً والناس ينظرون إليه مستقذرين وعابسين وجوههم .

وفي النهاية يصبح عشاء للكلاب إذا تغلبت على الحشرات ولابد أن تتغلب . هذا مثل المتبرجات المتجولات . فلتربأ المرأة المسلمة بنفسها وشرفها عن هذه المنزلة

---

(١) مستعملة ما يسمى بالمناكير في أظفارها .

المنحطة ولتسدل جلباب الحياء على وجهها كما أمرها ربها وذلك خير لها عند الله وأمام المجتمع .

ويريد الإسلام من وراء هذا كله المحافظة على الأسرة المسلمة لأن سلامتها تعني سلامة المجتمع كما أن فسادها فساد للمجتمع كله كما تقدم .

وقد حرص الإسلام على هذا المعنى كل الحرص وأنه لا يُغْفِلَ هذه المحافظة حتى في حال أداء بعض العبادات التي تؤدي في حال اجتماع الرجال والنساء في مكان واحد كالجمعة والعيدين مثلاً فقد نظم الإسلام كيف يتم هذا الاجتماع لأداء تلك العبادات .

يقول رسول الهدى عليه الصلاة والسلام وهو ينظم الصفوف :

« خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها »[1] .

ولعلمه ﷺ ما تثيره المرأة المتعطرة في صدور الرجال أمرها بقوله : « إذا خرجت المرأة إلى المسجد فلتغتسل من الطيب كما تغتسل من الجنابة »[2] .

وبعـد :

إن هذا الحديث والذي قبله يعتبران – بحق من أبرز أمثلة سد الذرائع كما ترى . والله الموفق .

إنهاء الحياة الزوجية

تنتهي الحياة الزوجية بأحد فراقين اثنين :

١ – فراق بالموت وهو أمر لا يملك كل من الطرفين تقديمه أو تأخيره فلذا نمسك عن الحديث عنه .

٢ – فراق بالطلاق وهو محل حديثنا : يعتبر الطلاق في نظر الإسلام مخرجاً مما قد يتفاقم بين الأزواج من الخلافات والنزاعات وهو بمثابة الكي في حل المشكلات الزوجية والكي آخر العلاج .

---

(١) رواه مسلم . (٢) رواه النسائي .

حيث يبدأ علاج المشكلات الزوجية على النحو التالي :

أ – الوعظ .. الوعظ الذي يتضمن النصح والتوجيه وبيان ما على الزوجة من حقوق الزوج كما يتعرض لبيان حقوق الزوجة على الزوج ويركز على بيان ما يترتب على تضييع حقوق الزوج وعصيانه .

ب – الهجران في الفراش .. الهجران الذي يجلب لها نوعاً من الوحشة وعدم الأنس ويدعو إلى التوبة والرجوع إلى الطاعة .

جـ – الضرب شريطة أن يكون ضرب تأديب وتخويف فقط لا ضرب انتقام يجرح الجلد أو يكسر العظم .

د – جلسة مفاوضة ومناقشة يشترك فيها حَكَمٌ من أهله وحكم من أهلها ، وإذا لم يُجْدِ شيء مما ذكر وضاق كل واحد منهما نفساً بالحياة الزوجية هنا يأتي الطلاق لإنقاذ الموقف بإنهاء تلك الحياة التي تحولت جحيماً لا تطاق بعد أن كانت مودة ورحمة وطمأنينة وراحة .

وهذه المراحل التي تسبق الطلاق – وربما تمنع الطلاق – بينتها سورة النساء في الآيتين التاليتين : إذا يقول ربنا عز من قائل :

﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً ﴾ . « النساء آية : ٣٤ » .

﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴾ . « النساء آية : ٣٥ » .

لماذا جعل الإسلام الطلاق في يد الرجل فقط ؟

وقد تبين مما تقدم أن مشروعية الطلاق أمر له أهميته في الموضوع إذا ثبت أنه العلاج الأخير في المشكلات الزوجية .

وبقي في المقام سؤال له وزنه إذا فهم جوابه حق الفهم وهو لماذا جعل الطلاق

في يد الرجل فقط ؟؟!! قبل أن يكون للمرأة فيه دور يذكر اللهم إلا ما كان من قبل الخلع وهو فراق تشترك فيه المحكمة الشرعية ولا تستقل به المرأة كما هو معروف .

الجواب على هذا السؤال أن يقال :

لما كان الرجل هو الغارم الذي عليه المهر وسائر النفقات جعل الطلاق في يده لأنه سوف لا يفرط في الحياة الزوجية التي غرم في تأسيسها بل سوف يكون أحرص ما يكون على بقاء مؤسسة الأسرة متمتعة بالهدوء والراحة كلما وجد إلى ذلك سبيلاً ولو جعل الطلاق في يد المرأة لرأينا الآتي :

رأينا رجلاً يؤسس ثم يؤثث فيحرص على النتائج المنتظرة من المؤسسة ثم رأينا امرأة – ناقصة العقل والتفكير تهدم المؤسسة وتبعثر الأثاث لأتفه الأسباب لأنها لم تغرم شيئاً عند تأسيس المؤسسة بل ربما رغبت عن هذه المؤسسة لتجرب غيرها .

وفي اعتقادي أن المرأة المسلمة المنصفة تصدقني فيما ذكرت قبل الرجل نفسه لأن بعض الوقائع من تصرفات بعض النساء تشهد لما قلنا في الوقت الذي ليس في يدها الطلاق . والله أعلم .

وبعد أيها الأخوة المسلمون فلنمثل إسلامنا بالعمل ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً لا بالقول فقط لأن الإسلام دين عمل وتطبيق فالمسلم معناه هو الإنسان المستسلم المنقاد لأوامر ربه وخالقه والمنفذ لأحكامه .

والقصد الحسن والنية الصادقة والعمل الصالح ومحاولة تطبيق الشريعة هذه المعاني هي محل نظر الرب من عبده إذ يقول رسول الهدى عليه الصلاة والسلام : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

أيها الأخوة إن لديكم الفرصة لتعملوا لدينكم وإسلامكم لأن قانون بلدكم يسمح لكم أن تخدموا دينكم بكل حرية فعليكم أن تدركوا أن هذه الحرية نعمة من نعم الله عليكم ، فعليكم أن تستغلوها بالعمل الجاد لنشر تعاليم إسلامكم .

والله معكم إن صدقتم في أعمالكم لأنه تعالى مع العاملين الصادقين يوفقهم ويهديهم .

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾[1] .
وصلى الله وسلم وبارك على رسول الهدى محمد وآله وصحبه .

* * *

(١) سورة العنكبوت : ٦٩

الرسالة العاشرة

الحُكمُ عَلَى الشيءِ فَرْعٌ عَن تَصَوُّره



المقـدمة

هذا المقال إنما يعني مناقشة لآراء وأفكار لصحفي تعرض في محاضرة له لحقائق لم يتصورها ، وتعرض فيها لبعض صفات الله تعالى بالنفي والإنكار وعدها من أنواع البدع .

والمقال جاء ليفند تلك المزاعم ويصحح تلك الأخطاء على ضوء الكتاب والسنة ، مع تقديم نصائح خاصة للمحاضر ونصائح عامة للدعاة إلى الله لتكون دعوتهم على بصيرة لئلا ينخدعوا بجعجعة المنحرفين الذين يلبسون على بعض السذج .

ثم يستطرد المقال في بيان حقيقة إسلام الخميني ويكشف عن بطلانه وذلك حتى لا ينخدع صغار طلبة العلم الذين قد (يستسمنون ذا ورم) بثورة الخميني المضللة التي سماها ثورة إسلامية زورا وبهتاناً وإنما هي ثورة جاهلية تتنافى وتعاليم الإسلام الرحيمة .

كل ذلك نصح للقارىء ورحمة به ، والله ولي التوفيق ، وصلى الله وسلم وبارك على من بعثه رحمة للعالمين محمد وآله وصحبه أجمعين ،،،

* * *

الحمد لله ، وصلاة الله وسلامه وبركاته على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه واتبع النور الذي أنزل معه واقتفى أثره .

وبعد : -

ففي بعض الأيام القريبة الماضية وردني شريط غريب يحمل محاضرة غريبة ، إنه من الكويت وإنه من إسماعيل الشطي رئيس تحرير مجلة المجتمع .

والمحاضرة المذكورة ألقيت أمام جمع غفير في مسجد جامع من مساجد مدينة الكويت - وقد تحدث فيها المحاضر (الشطي) عن نقاط كثيرة ومختلفة ، تحت عنوان (التطرف والتفرق) (فيما أحسب) . ويمكن حصر تلك النقاط في الآتي : -

١ - تحدث المحاضر عن تطرف الخوارج وتفرقهم ، وتطرف الشيعة وتفرقهم ، وبعض عاداتهم ، وقد أجاد في تلك النقاط ما شاء الله أن يجيد . فنشكره على ذلك .

٢ - استعرض المحاضر جماعة تعرف بجماعة الهجرة والتكفير ، وتحدث عنهم حديث من عاشرهم وخالطهم وخص من سماه رئيسهم (شكري) بالحديث ، وتحدث عن أفكاره الشاذة التي تدل على نوع خطير من أنواع الجهل ، وهو الجهل (المركب) ولم ينس الشطي - (جهيمان وأتباعه) - ولكنه تناقض في وصفه إذ جمع له بين الذم والمدح ، ووصفه بأنه مجتهد - وجهيمان لم يبلغ درجة الاجتهاد ولم يقاربها ، ولا (شكري) الذي قبله بل كلاهما أقرب إلى الجهل منهما إلى العلم ، ولكن (حبك للشيء يعمي ويصم) كما يقولون .

٣ - تحدث عن التقليد . ووصفه بأنه سنة قديمة ومعروفة لدى القرون الثلاثة المفضلة ، هذه النقطة من النقاط الكثيرة التي لم يوفق فيها أخونا الشطي . عفا الله عنه .

فننصح الأخ الشطي أن يدرس حياة الأئمة الأربعة وما نصحوا به تلامذتهم وأصحابهم ، ليجد أنهم كلهم نصحوا أصحابهم وتلامذتهم بعدم التقليد ، وأن يأخذوا من حيث أخذوا وأنهم بشر لا يوحي إليهم (يقولون اليوم قولاً ثم يرجعون

عنه غداً)[1] ، وأن الواجب اتباع هدي رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وأي طالب علم اطلع على قول إمام من الأئمة وعرف أنه مخالف لقول رسول الله عليه الصلاة والسلام فالواجب عليه أن يترك قول ذلك الإمام لقول رسول الله عليه الصلاة والسلام ، هذا ما كان عليه سلف هذه الأمة والقرون المفضلة ، ولا يعرفون للتعصب المذهبي معنى أبداً ولم يدر بخلدهم ، ولا يرون أحداً يجب اتباعه والتأسي به غير رسول الله عليه الصلاة والسلام .

والغريب من أمر الشطي أنه تناقض في هذه النقطة ، إذ سمعته غير مرة في محاضرته وهو يقول لا يرى التعصب المذهبي ولا يدعو إليه ، والتناقض صفة لازمة لكل من يخطب على غيره منبره أو يمد يده إلى مائدة لا تنالها يده القصيرة . وكان الواجب على الشطي إذا أراد أن يتحدث عن مثل هذه النقاط أن يرجع إلى الذين درسوا الإسلام بتوسع على أساس ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾[2]، ومنهم أولئك النخبة من خريجي كلية الشريعة وكلية الدعوة وأصول الدين ، وقد نفع الله بهم البلاد والعباد في جملتهم ولو لم يرض عنهم الشطي ، وبل يسخر منهم ، ومن التناقض الذي وقع فيه الأخ الشطي أن موضوع محاضرته (ذم التفرق والتطرف) ، فإذا هو يدعو إلى أسباب التفرق ، فيقع هو نفسه في التطرف وذلك :

(**أولاً**) ذكر الشطي في مقدمة محاضرته أن المراد بالمسلمين جماعة معينة وليس مراده جميع المسلمين .

وفي أثناء المحاضرة انتقد هذا المفهوم وذَمَّهُ عندما كان ، يتحدث عن شكري وأتباعه وجهيمان وأشياعه وتطرفهما ، وهذا نوع من التناقض ، لأن المفهوم الذي يذم إذا صدر من شكري وأمثاله يجب أن يذم إذا صدر من الشطي إن كان هناك إنصاف ، والإنصاف من الإيمان . ومن الإنصاف أن تجرباء شكري كما تجرباء الشطي سواء بسواء ، سلباً وإيجاباً .

(**ثانياً**) يدعو الشطي المسلمين إلى أن يتفرقوا أربع فرق بدعوى ، وجوب تقليد الأئمة الأربعة ، وفي الوقت نفسه يزعم أن السلفيين الذين يسميهم (اللامذهبيين) هم الذين يفرقون صفوف المسلمين وهذا تناقض مشروع لا يحتاج

---

(١) هذه العبارة منقولة عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله . (٢) سورة النحل: ٤٣ .

إلى شرح . سامحه الله ، وموقف السلفيين معروف ، ودعوتهم واضحة لا غموض فيها ، وهي تعني تجريد المتابعة لرسول الله ﷺ وأن مصدر التلقي يجب أن يكون موحداً لجميع المسلمين ، ألا وهو الوحي كتاباً وسنة ، مع احترام أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم والترحم عليهم والاعتراف بفضلهم ، لأن الله تعالى حفظ الشريعة على أيديهم بعلمهم وتعليمهم وجهادهم ودعوتهم إلى هدي رسول الله ﷺ ، وهم مجتهدون فيما لا نص فيه وإن أصابوا فلهم أجران ، أجر بذل المجهود وأجر الإصابة . وإن أخطأوا فلهم أجر واحد وهو أجر الاجتهاد ، لأنهم بمثابة الحكام والقضاة (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد) كما ثبت ذلك في السنة الصحيحة .

هذا موقف السلفين من الأئمة ، وتلكم دعوتهم واضحة لا لبس فيها ولا غموض ولا روغان . ومما يجدر التنبيه عليه هنا أن الأخ الشطي ليس وحيد دهره أو فريد عصره في دعوته إلى التقليد بل له سلف في دعوته هذه بشكل أفظع . إذ يدعي بعض المتأخرين من المؤلفين ، أن تقليد أحد الأئمة الأربعة واجب وجوباً ، في الوقت الذي لا يجوز تقليد غيرهم من الأئمة ، حيث يقول صاحب (جوهرة التوحيد) :

فواجب تقليد حبر منهم ○ كذا حكي القول بلفظ يفهم

هذا ما قاله الناظم ، وأما ما قاله الشارح – وهو إبراهيم البيجوري الشافعي – فهو أسوأ مما قاله الناظم ، إذ زاد الطين بلة وأبعد النجعة وركب الصعب وقال شططاً ، وأعلن بذلك كله عن سوء تصوره لمسألة التقليد ، حيث زعم أنه لا يجوز تقليد غير الأربعة ولو كان من أكابر الصحابة ، هكذا بالحرف الواحد .

وهذا الكلام لو حلل تحليلاً لا تجد له طعماً ولا ريحاً ، وهو كلام مرفوض شرعاً وغير مستساغ عقلاً ، وتوضيح ذلك كالآتي:

(أ) الوجوب حكم شرعي ، وهو ما شرعه الله وأمر به جازماً في كتابه أو فيما أوحي إلى رسول الله ﷺ لأن الله وحده هو المشرع ورسوله المصطفى هو المبلغ عنه شرعه سبحانه ، وقد اختاره الله لهذه المهمة ، مهمة التبليغ . وليس فيما بلغه رسول الله عليه الصلاة والسلام وجوب تقليد أحد الناس سلفاً وخلفاً . إذًا

بأي كتاب ، أو بأية سنة وجب تقليد أحد الأئمة الأربعة رحمهم الله في الوقت الذي لا يجوز تقليد غيرهم ولو كان المقلَّد أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم ؟!! .

(ب) كان يعيش في عصر التابعين أربعة من الأئمة ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في حقهم إنهم أئمة الدنيا في عصرهم وهم مالك بالحجاز والأوزاعي بالشام ، والثوري بالعراق ، والليث بن سعد بمصر .

وهنا سؤال يطرح نفسه ولا يمكن رده بحال وهو :

ما هو الدليل الشرعي الذي اختار الإمام مالكاً دون الأئمة الثلاثة الآخرين لهذا الوجوب؟!! . وما هو المسوغ العقلي لهذه التفرقة ؟!! .، ولا أظن أن أحداً يملك الجواب على هذا التساؤل .

والأئمة الأربعة في تصور البيجوري بمثابة رؤساء الأحزاب ، المتنافسين على الزعامة ولكل حزب دستوره وشروطه يجب على أتباعه التزامها ومن كان منتمياً إلى حزب مالك مثلاً لا يجوز له الانخراط في حزب الشافعي إلا بعد الاستقالة من حزب مالك . وهكذا دواليك إلى آخر الأحزاب .

ويشهد لما ذكرنا ذلك الجدال الذي يخوض فيه البيجوريون وهم يناقشون مسألة وجوب التقييد بمذهب معين أو جواز الانتقال من مذهب إلى مذهب .

قال إبراهيم البيجوري في جملة ما قاله : (قال بعضهم لا يجب تقليد واحد بعينه ، بل له أن يأخذ فيما يقع له بهذا المذهب تارة وبغيره أخرى ، فيجوز أن يصلي صلاة الظهر على مذهب الإمام الشافعي وصلاة العصر على مذهب الإمام مالك وهكذا) .

هل سمعتم أو قرأتم حديثاً شيقاً كهذا ؟!! هل صفة الصلاة عند الإمام الشافعي تختلف عن صفة الصلاة عند الإمام مالك رحمهما الله ؟ ، اللهم إلا إذا أراد مسألة وضع اليمني على اليسرى فوق الصدر علماً بأن حديث وضع اليمنى على اليسرى فوق الصدر قد رواه مالك في الموطأ ، فنستطيع أن نقول أن مذهبه هو القبض لا الإرسال ، والإرسال إنما هو مذهب بعض اتباعه كابن قاسم مثلاً ، وعلى فرض أن

الإمام مالكاً أرسل و لم يقبض ، يقال : إن الحجة فيما رواه لا فيما رآه . (وهذه قاعدة) تقال حتى في حق صحابي روى حديثاً وعمل بخلافه .

وعلى كل فإن تصور البيجوري وضع الأئمة في غاية الغرابة وليس أغرب منه إلا قول الشطي أن التقليد سنة ، وأن توحيد الأسماء والصفات بدعة كما تسمعون قريباً إن شاء الله .

وهذا المفهوم البيجوري هو الذي تمسك به بعض المثقفين من الأنصاف الذين لم يدرسوا الإسلام دراسة يفرقون بها بين السنة والبدعة وفي مقدمتهم مجموعة الشطي ، وقد طغت هذه البدعة – التعصب المذهبي – التي سماها الشطي سنة في فترة من فترات التاريخ ، بل في وقت قريب في عاصمة من عواصم المسلمين – دمشق – وفي مسجد عتيق من مساجدهم – المسجد الأموي – . حتى اتخذ فيه لكل مذهب مصلى يخصه على شكل محراب – على ما أخبرني بعض الثقات من أهل العلم – وإذا ما حان وقت صلاة من الصلوات الخمس تفرق الناس على هذه المحاريب الأربعة فيؤدي كل إمام مذهب الصلاة بأتباعه وأهل مذهبه في المحراب المخصص له .

قلت ولا تخلو الحال عقلاً عند أدائهم الصلاة من الآتي :

(أ) أن يحضر أئمة المذاهب الأربعة معاً في لحظة إقامة الصلاة فيشرعون في الصلاة معاً ، كل إمام في محرابه يصلي بقومه ، ومعنى ذلك أن تقام صلاة الجماعة في وقت واحد في مسجد واحد في أماكن متعددة والمصلون كلهم على دين واحد .

(ب) أو أن يصل الأئمة الأربعة إلى المسجد متفرقين لا مجتمعين بأن يحضر – مثلاً – إمام الحنابلة ، أو الشافعية في أول وقت صلاة الفجر فيبادر فيصلي بقومه في أول الوقت ثم يصلي المالكي وأخراً يأتي الحنفي وقد انتشر ضوء الفجر ليجد قومه جلوساً ينتظرون إذ لا يجوز لهم أن يصلوا خلف حنبلي أو مالكي أو شافعي فيصلي بهم على مذهبه . هذه هي القسمة العقلية .

وهنا يحق لي أن أقف وقفة أسأل القراء ، لو أن رجلاً أجنبياً (غير مسلم) يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً شاهد هذا الواقع الفوضوي ثم سئل عن انطباعاته فياترى ماذا يكون جوابه ؟ في تصوري يكون جوابه – إن كان واعياً – أن يقول : هذه أربع ملل في داخل ملة واحدة وهي ملة الإسلام .

وبعد :

فإنَّ هذه المهزلة وهذا التمزق في صفوف المسلمين على حساب التقليد ، وهذه الصورة المشوهة للإسلام ، هذه المعاني التي ينهي عنها الدعاة السلفيون الذين سماهم الشطي (اللامذهبيون) .

فليفهم الموضوع جيداً لئلا تنخدعوا بجعجعة دعاة التعصب هذا . وقد مر على المسجد الحرام واقع كهذا أو ما يشبه هذا الواقع تقريباً قبل العهد السعودي الذي يعتبر بحق عهد الإصلاح والتصحيح والدعوة إلى وحدة الصف ، وقد حضرت موسم حج سنة ١٣٦٩ هـ وشاهدت المقامات الأربعة للأئمة الأربعة موزعة في المسجد الحرام إلا أن المصلين يصلون خلف إمام واحد يقف أمام الكعبة كما هو الحال اليوم ولكن جاذبية التعصب كانت تجذب الحجاج وتوزعهم على هذه المقامات الأربعة للتجمع حولها والجلوس تحتها كل مجموعة تحت مقام إمام مذهبها أو في مكان قريب منه على الأقل إلى أن أزيلت تلك المقامات ، وبحق تعد إزالتها حسنة من حسنات الحكومة السعودية الموفقة التي قضت على كثير من أسباب تفرق المسلمين في الوقت الذي سعت ولا تزال تسعى في تقريب صفوف المسلمين ، بل في توحيد صفهم ، أثابها الله وتقبل منها ، ومن أمثلة ذلك هذه الجامعة الإسلامية العملاقة التي نعيش فيها الآن والتي استطاعت بتوفيق الله أن تجمع نخبة من شباب المسلمين من أقطار الدنيا على دراسة منهج موحد في الأحكام الفقهية ، فشاهدوا لأول مرة منهجاً جامعياً يدرس المذاهب الأربعة مع مناقشة أدلتها ، وترجيح ما يشهد له الدليل بحيث لا يكون فضل لمذهب على مذهب آخر إلا بموافقة الدليل من كتاب أو سنة ، كما شاهدوا لأول مرة عقيدة تؤخذ من الكتاب والسنة رأساً دون التفات إلى علم الكلام وفلسفته وتعقيداته .

(جـ) أما بالنسبة للخلفاء الراشدين فليس الأمر كما زعم البجيوري في تقليدهم ، حيث أن الأخذ بأقوال الخلفاء الراشدين وأفعالهم لا يعد تقليداً ، بل إن ذلك يعتبر سنة نبوية إذ يقول رسول الهدى ونبي الرحمة ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » الحديث .

ثم إن هذا الهذيان الذي تجدونه في حاشية البيجوري ، وأمثالها هو الذي يصفه الشطي بقوله : (إن التقليد سنة قديمة ومعروفة) .

هكذا ينخدع من لا يفرق بين التمرة والجمرة ، رزقنا الله وإياه وإياكم البصيرة في ديننا . وكأن الشطي يحسب أن كل ما كتب على ورق أصفر قديم مسوس أنه سنة قديمة وهذا من المفاهيم الحديثة المبتكرة عند الشطي وأمثاله .

٤ – زعم الشطي أن السلفيين لا ينكرون على الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله . بل همهم الوحيد توحيد الأسماء والصفات ، هذه من إحدي الكبر . وهي سخرية جريئة كما ترون .

٥ – زعم الشطي أن السلفيين لا يشجعون المجاهدين الأفغانيين ولا يتعاونون معهم ولا مع أمثالهم ، هكذا زعم الشطي .

وبعد : إن هذه النقطة هي والتي قبلها يبدو أنهما سيقتا لغرض معين ، لهذا نستحسن أن نقف عندهما وقفة غير قصيرة لنتساءل بعض التساؤل :

ماذا يعني الشيطي بهاتين النقطتين ؟ وإلى ما يهدف ؟ ولماذا هبط هذا الهبوط بمستواه ؟ وعلى حساب من ؟ .

والذي يبدو لي – والله أعلم – أن هدف الشطي وغرضه من هاتين النقطتين هو محاولة إثارة شعور المسلمين ضد الدعاة السلفيين وإفساد سمعتهم عالمياً ، وهو يعلم علم اليقين أن موقفه شبيه بموقف إخوة يوسف الذين اتهموا الذئب المسكين بأنه متورط في دم يوسف ، والذئب بريء ، ووقفوا من أخيهم ذلك الموقف المعروف وسببوا لوالدهم ذلك الحزن الطويل ، كل ذلك لغرض رخيص وهزيل وهو (أن يخلو لهم وجه أبيهم) .

ومثل هذه المحاولة الرخيصة كان المفروض أن يترفع عنها الشطي ولا يتورط فيها ولكن (قدر الله وما شاء فعل) والمحاولة تدل على أنه في تلك اللحظة غاب عن مراقبة الله تعالى فنسى أن الله مطلع على قصده ونيته وما تكنه نفسه ، وإلا لا تكاد تقع مثل هذه المحاولة ضد دعاة الإسلام المعروفين بغيرتهم الإسلامية من شخص لديه تقدير للمسئولية ولكن الغفلة عن الله تعمل عملها إذا تمكنت من المرء ، والله المستعان .

ثم إن الشطي يعلم أن السلفيين حريصون على تصحيح مفاهيم كثيرة للعوام

وأشباه العوام في باب العقيدة والعبادة وغيرهما ، ولا يدخرون وسعاً في ذلك ، نصحاً منهم لعباد الله ، والنصح واجب لأن من عرف الله حق المعرفة وسلمت عقيدته من التعلق بغير الله ، وآمن بأسمائه الحسنى وصفاته العليا دون إلحاد أو تحريف ، فحقق العبودية لله تعالى ، سهل عليه القيام بالواجبات والفرائض الأخرى في الإسلام ، لأنه قد وضع حجر الأساس لسيره إلى الله ومن لا فلا .

هذه دعوة السلفيين موجهة إلى جميع الناس حكاماً ومحكومين دون تفريق بين طائفة وأخرى أو جماعة وأخرى وهم يدعون الجميع إلى الإيمان الصحيح وإلى نفض ما علق بالإيمان والعقيدة من أتربة الجاهلية وغبارها لتقوى علاقتهم بربهم وخالقهم إلى التقيد بالإسلام ، بالإسلام وحده في جميع مجالات الحياة ، يرون أن التحاكم إلى غير ما أنزل الله هو نوع من عبادة غير الله وأن أولئك الذين سموا أنفسهم رجال التشريع الذين يحللون ويحرمون دون الرجوع إلى تحليل الشرع وتحريمه ، إنما هم طواغيت نصبوا أنفسهم أرباباً ومعبودين من دون الله ، كما قال الله تعالى في علماء أهل الكتاب وعبادتهم مع أتباعهم ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾[1] علماً بأنهم لم يركعوا لهم ولم يسجدوا ولكنهم اتبعوهم في التحليل والتحريم كما جاء ذلك في السنة الصحيحة ، ومن سموهم رجال التشريع يقومون بالوظيفة نفسها ، إذاً فالكل أرباب من دون الله ، كما لا يخفى ، فكيف يتهم دعاة هذه دعوتهم بعدم الاهتمام بشئون المجاهدين وأنهم لا ينكرون الحكم بغير ما أنزل الله؟! سامح الله الشطي .

ثم أخذ الشطي يتخبط خبط الناقة العشواء يصعد ويهبط ، ينفي ويثبت ، يدعي العلم ويعلن الجهل ، لغياب التصور الصحيح عنه في باب عظيم من أبواب العلم والمعرفة والإيمان وهو باب الأسماء والصفات ، الذي لا اجتهاد فيه ولا استحسان ، بل لا يتجاوز فيه الكتاب والسنة .

حقاً إن (الحكم على الشيء فرع من تصوره) وهذه الكلمة أصدق كلمة قالها المنطقيون أو من أصدق كلماتهم ، إذ تشهد لها في الجملة نصوص من الكتاب والسنة ، مثل قوله تعالى : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً** ﴾[2] .

---

(١) سورة التوبة : ٣١ .

(٢) سورة الإسراء : ٣٦ .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تقولون لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون** ﴾ « النحل ١١٦ » .

وقوله عليه الصلاة والسلام في آخر حديث طويل « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت » وفي رواية البخاري « أو ليصمت » رواه الجماعة .

وقد اشتط الشطي حين زعم أن توحيد الأسماء والصفات (بدعة) وهي مبالغة جريئة لم تقدر الله حق قدره ، وكأن الشطي يريد أن يأتي بما لم تأت به الأوائل ، ثم أراد أن يهدىء بعض النفوس التي قد تثور من هذا التعبير المتهور ، فبادر قائلاً : هذا قول (ابن حزم) ولا يدري الشطي (المسكين) أن ابن حزم ليس بحازم في بحث العقيدة كما هو حازم في الفقهيات ، مع ضرورة التحفظ في أدلته حتى في الفقهيات .

وبعد : هكذا ظهر الشطي على المجتمع في ذات ليلة ليجعل التقليد سنة معروفة عند القرون المفضلة كما تقدم ، ويجعل توحيد الأسماء والصفات بدعة وهو أصل من أصول الدين الذي يتوقف عليه معرفة الله تعالى التي هي غاية مطالب العباد ، وقد تعرف الله إلى عباده بأسمائه وصفاته وآلائه مع آياته الكونية .

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

حضرني وأنا أكتب هذه السطور كلام عظيم قاله إمام جليل هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، حيث يقول :

(وقد قال الناس : أكثر ما يفسد الدنيا نصف ١ – متكلم ٢ – نصف متفقه ٣ – نصف متطبب ٤ – نصف نحوي .

هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد البلدان ، وهذا يفسد الأبدان وهذا يفسد اللسان .

ما أصدق هذا الكلام لأنه كلام داعية مجرب ، وقد خالط الناس على اختلاف طبقاتهم وتفاوتهم في الفهم والإدارك ، ناظر العلماء فأفحمهم في كل باب من أبواب العلم والمعرفة كما سيأتي الحديث عنه ، وخاطب الأنصاف وخبرهم وعرف آفتهم

وضررهم على المجتمع في دنياهم ودينهم وعقيدتهم بل حتى أبدانهم وألسنتهم ولغتهم ، وقديماً قيل : (إسأل مجرباً ولا تسأل طبيباً) وطالب العلم الذي يستطيع إذا قرأ كلام عالم من العلماء أن يزن ما اطلع عليه وقرأه بميزان الكتاب والسنة ، وكان هدفه الوصول إلى الحق ونصرة الحق ودعوة الناس إلى الحق ، لا يقع في مثل هذا التناقض ، ولا يجرؤ على الله وعلى صفاته مثل هذه الجرأة ، لأن العلم يورث صاحبه مراقبة الله ومحاسبة النفس في كل ما يفعل أو يقول .

وقد خص الشطي – سامحه الله – صفة اليد (لله تعالى) بمزيد من الكلام بين سائر الصفات وبالغ في نفيها في الوقت الذي ينفي فيه علمه بتوحيد الأسماء والصفات عامة وصفة اليد خاصة ، وقال غير مرة في محاضرته (أنا لا أعلم هذا التوحيد) يعني توحيد الأسماء والصفات ، ثم أخذ يسأل الحضور سؤال استنكار وبأسلوب ساخر غير لائق بل يتنافى وتقدير الله حق قدره ، إذ يقول : (هل تعلمون أن لله يداً ، هل سمعتم من آبائكم أن لله يداً) يا سبحان الله ، ما أجرأ هذا المسكين على ربه (السميع العليم) ، نحن لا نختلف معه في أنه لا يعلم ، لكن يعلمْ إذا كان لا يعلم هو ؟ بل لماذا يسخر من العلماء ؟ هلا تواضع ليتعلم على خريجي كلية الشريعة ولديهم علم ومعرفة في هذا الباب وغيره ؟ وكيف استساغ الشطيّ أن يتحدث عن الله وعن صفاته بأسلوبه (اللامسئولية) ، هلا استحيا من الله وهو يتحدث عنه سبحانه بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير ؟ .

يحدثنا التاريخ أن رجلاً سأل الإمام مالكاً عن كيفية استوائه تعالى على عرشه حيث قال : ﴿ **الرحمن على العرش استوى**﴾[1] كيف استوى ؟ ، فاندهش الإمام مالك من هذا السؤال ، كيف يتجرأ على الله هذا العبد المسكين الذي يعجز عن معرفة كيفية بعض مخلوقاته تعالى ثم يسأل عن كيفية استواء الله تعالى على عرشه ، فأطرق مالك رأسه إلى أن تصبب عرقاً حياء من الله ، ثم رفع رأسه فقال : (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة) ثم أمر بإخراج السائل من مجلسه لأنه مبتدع ،هكذا سئل مالك وهكذا أجاب بعد تلك الحالة التي طرأت له.

ولو قارنا بين موقف صاحب مالك وأسلوبه في سؤاله وبين موقف الشطي وأسلوبه الساخر لوجدنا موقف الشطي أسوأ ، وأسلوبه أبعد من الحياء والأدب !!

(١) سورة طه : ٥ .

وإذا كنا قد تأكدنا أن آفة إسماعيل الشطي أنه لم يدرس هذا المبحث ، وليس لديه أدنى إلمام فيه فالواجب علينا أن نسعفه بهدية نرجو أن تكون مقبولة لديه وهي عبارة عن درس ، موجز في توحيد الأسماء والصفات ، فأرجوا أن يتقبلها بقبول حسن ويفرح بها لعل الله ينفعه بها إن خلصت النية وحسن القصد .

وإليك أيها الأخ المسلم ما يفتح الله علينا في السطور الآتية :

مبحث الأسماء والصفات

وقبل أن ندخل في صلب المبحث نؤكد أن مبحث هذا الباب توقيفي محض بمعنى أنه لا يخضع للاجتهاد ولا للقياس أو الاستحسان العقلي أو النفي والإثبات بالذوق والوجدان ، بل السبيل إليه الأدلة السمعية الخبرية ، وبعبارة أخرى (لا يتجاوز الكتاب والسنة في هذا الباب) وهذه العبارة التي تجدها بين قوسين منقولة عن إمام أهل السنة والجماعة ، الإمام أحمد بن حنبل . وأدلة الكتاب والسنة يقال لها سمعية ويقال لها خبرية ، ويقال لها نقلية ، أي الأدلة المسموعة عن الله أو عن رسوله ﷺ ، والتي أخبر الله بها عن نفسه أو أذن لرسوله فأخبر بها أو التي نقلت إلينا عن كتاب ربنا أو عن سنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

هذه الأدلة هي السبيل الوحيد في معرفة الأسماء والصفات ، والعقل السليم سوف لا يخالف النقل الصحيح ، وعلى هذا الأساس نبدأ معك أيها الأخ المسلم الحديث في صفات الله الواردة التي وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ ،إذ لا يصف الله أعلم بالله من الله ولا يصفه من خلقه أعلم بالله من رسوله عليه الصلاة والسلام

وقد وصف الله نفسه بالعلم والحلم والحكمة والعزة والسمع والبصر مثلا ، فعلينا أن نثبت هذه الصفات وغيرها من الصفات الواردة في كتاب ربنا إثباتاً لا يصل إلى حد التشبيه والتمثيل ، مع تنزيه الرب تعالى عن مشابهة مخلوقاته فيما أثبتناه له من الصفات تنزيها لا يصل بنا إلى حد التعطيل ، ويكون موقفاً إثباتاً بلا تشبيه وتنزيهاً بلا تعطيل على ضوء قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ يعني التنزيه وقوله : ﴿ **وهو السميع البصير** ﴾ يعني

(١) سورة الشورى : ١١ .

إثبات السمع والبصر على ما يليق بالله ، لا على ما يليق بالمخلوق .

وهكذا نقول في جميع صفات الله الواردة في الكتاب والسنة لا نتجاوزهما كما أسلفنا .

ومن الصفات ما ذكرنا من العلم والحلم والحكمة والعزة ، وما لم نذكره من الصفات الثابتة في القرآن والحديث .

ومما أثبت الله لنفسه في كتابه : اليد والوجه ، والمجيء لفصل القضاء يوم القيامة ، والاستواء على عرشه .

وموقفنا من هذه الصفات هو عين موقفنا من الصفات السالفة الذكر من السمع والبصر وغيرهما ، أي كما أثبتنا سمعاً وبصراً يليقان به لا كسمع المخلوقين وبصرهم .

كذلك نثبت له يداً تليق به لا كأيدي المخلوقين ، ووجهاً لا كوجوهم ، واستواء يليق به لا كاستواء المخلوق ، ومجيئاً يليق به لا مجيء المخلوق ، وإذا خطر لك خاطر وأنت تتلو الآيات الكريمة التي تتحدث عن هذه الصفات كقوله تعالى : ﴿ **ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديَّ** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **وجاء ربك والملك صفاً صفاً** ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾[4] أومررت وأنت تتصفح كتاباً من كتب الحديث ، بحديث صحيح يقول فيه الصادق الأمين محمد عليه من ربه أفضل الصلاة وأزكى التسليم : « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة إذا بقى الثلث الآخر من الليل » الحديث ، أو مررت بغيره من أحاديث الصفات التي قد تكون غريبة عليك فأول خطوة تخطوها أن تبحث عن صحة هذه الأحاديث إما بالمراجعة الفاحصة والواعية في المراجع المعتبرة أو بسؤال أهل العلم والفقه في الدين إذا كنت لا تقوى على المراجعة .

وإذا تأكدت من ثبوت النصوص لم يبق أمامك إلا أن تقول آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله وكفى ، هذه العبارة تروى عن الإمام الشافعي رحمه الله .

ثم إياك وإياك أن تخوض في صفات الله بالتأويل والتحريف أو بالتشبيه والتجسيم بل تثبتها على ضوء الآية السابقة ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[5] وقوله

(١) سورة ص : ٧٥ . (٢) سورة المائدة : ٦٤ .
(٣) سورة الفجر : ٢٢ . (٤) سورة طه:٥ (٥) سورة الشورى:١١

تعالى : ﴿ **هل تعلم له سمياً** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[2] لأن الصفات من باب واحد ولا يجوز التصرف في صفات الله بالعقل المحض على خلاف النصوص بإثبات بعضها وتأويل البعض الآخر كما فعلت الأشاعرة الكلابية ، حيث أثبتوا صفات الذات كالقدرة والإرادة والسمع والبصر وغيرها ، أثبتوها على ما يليق بالله دون تشبيه أو تجسيم ودون تحريف أو تعطيل ولكنهم ادعوا وجوب تأويل صفات الأفعال ، كالمجيء والنزول ، بدعوى أن إثباتها على ظاهرها يؤدي إلى التجسيم وهذا جهل يتوارثونه . فيقال لهم : كيف أثبتم السمع والبصر ؟ على ظاهرها أم على باطنها ؟ فيكون الجواب الصحيح : على ظاهرهما ولكن الظاهر الذي يليق بالله لا على الظاهر الذي يليق بالمخلوق . فيقال لهم : الكلام في بعض الصفات كالكلام في البعض الآخر يحتذي حذوه . فنحن نثبت لله الصفات السمعية من اليد وغيرها على ظاهرها الظاهر ، الذي يليق بالله لا على أساس أنها جوارح أو أعضاء ، لأن إيماننا بالله سبحانه إيمان إثبات وتسليم وكذلك يجب أن يكون إيماننا بصفات الله إيمان إثبات للصفات قبل الخوض فيها بالتحريف أو بالتأويل أو بالتشبيه بل نسلم لله فيما أثبته لنفسه ولا ننازعه ، ونسلم لرسوله الأمين فيما أثبته لربه سبحانه ولا ننازعه ولا نزيد عليه ، إذ سبق أن قررنا أنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ولا يصفه من خلقه أعلم بالله من رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وبعـد :

أكتفي بهذا المقدار من هديتيّ التي وعدتك أيها الأخ المسلم لأن خير الكلام ما قل ودل كما يقولون ، ثم أحب أن ألفت نظرك إلى الأمور الآتية :

(١) لعلك تستشكل وتسأل عن دليل تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام علماً بأني قد أدركت من محاضرتك بأنك مطمئن إلى قسمين من الأقسام الثلاثة ومستغرب القسم الثالث فقط الذي هو توحيد الأسماء والصفات الذي نحن بصدد الحديث عنه . وإجابة على سؤالكم المقدر ، أقول مستعيناً بالله وحده :

(أ) هناك نصوص تتحدث عن انفراد الله تعالى بالخلق والإيجاد ، والرزق والعطاء ، والمنع والضر ، وهو الذي يدبر الأمر من السماء والأرض وهو خالق كل

---

(١) سورة مريم: ٦٥ (٢) سورة الإخلاص: ٤

شيء إلى غير ذلك مما يدل على توحيد الله تعالى في ربوبيته وخالقيته ، ويسمى توحيد الربوبية ، ولم يتوقف أحد من بني آدم فيه ، بل هو معروف ومسلم به لدى جميع طبقات الناس حتى عند مشركي قريش ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولن الله** ﴾[1].

(ب) وهناك نصوص تتحدث وتحث على إفراد الله تعالى بالعبادة كما انفرد بخلق العباد وجميع المخلوقات ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له** ﴾[2] ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[3] ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[4] وغير ذلك من تلك النصوص الكثيرة التي تأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، لأن الشرك ظلم عظيم ، ويسمى هذا **النوع توحيد العبادة** ، هو محل المعركة قديماً وحديثاً ولم تضع الحرب أوزارها إلى الآن ولن تضع أبداً ، بل سوف يستمر الصراع بين الشرك والتوحيد وبين الإسلام والجاهلية بجميع صورها حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وتلك سنة الله التي لا تتغير ، وهي حقيقة يجهلها أو يتجاهلها كثير من الدعاة في هذا الوقت .

(جـ) وهناك نصوص أخرى كثيرة تتحدث وتخبر بأن الله تعالى سميع ، بصير ، عليم ، حليم ، عزيز ، حكيم ، له يدان مبسوطتان ، خلق آدم بيده ، وأنه مع خواص عباده ، معية خاصة ومع جميع خلقه بعلمه وتدبير أمورهم والاطلاع عليهم وهي معية عامة وغير ذلك من النصوص التي قد أوردنا بعضها فيما تقدم . فيجب إثبات هذه الصفات كما جاءت والإيمان بأن الله هو المتصف بها وحده ولا يشاركه غيره في حقائقها وأنها بمجرد الإضافة إليه تختص به كما تختص صفات المخلوقين بالإضافة إليهم وأن المشاركة اللفظية بين صفات الخالق وصفات المخلوقين لا يلزم منها المشاركة في حقائق الصفات ، وأن أسماء الله تعالى تدل على صفاته تعالى وليست أسماؤه جامدة كالأعلام الجامدة التي لا تدل على المعاني في الغالب إلى غير ذلك من مباحث هذا الباب العظيم الذي قد يسبب عدم تحقيقه اضطراباً في عقيدة المرء .

هذا هو توحيد الأسماء والصفات بإيجاز ليس بعده إيجاز فعليك به أنت وزملاؤك وعضوا عليه بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور من التحريف والإلحاد والتشبيه والتجسيم .

(٢) علمت من محاضرة الشطي التي حُمِلَتْ إليَّ بواسطة بعض الأشرطة بأنه

(١) سورة الزمر : ٣٨ (٢) سورة الأنعام : ١٦٢، ١٦٣ (٣) سورة النحل : ٣٦ (٤) سورة الذاريات : ٥٦

سخر من كتابين مهمين جداً في المبحث الذي نحن بصدده ، مبحث الأسماء والصفات بأسلوب غير لائق ، سامحه الله .

أحدهما : العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

ثانيهما : شرح العقيدة الطحاوية .

إن ذكره للكتابين بذلك الأسلوب دلنا على أنه ليس له اطلاع على ما في الكتابين ، وقديماً قيل : (من جهل شيئاً عاداه) وهذا موقف لا يليق بأمثاله ، بل من الإنصاف أن يطلع على ما في الكتابين ثم ينتقد إن كان هناك ما يوجب الانتقاد وإلا يصفهما بواقعهما إن استطاع أو يسكت ، والسكوت أستر وأسلم .

أما الكتاب الأول : (العقيدة الواسطية) فهو لشيخ الإسلام ابن تيمية كما أسلفنا ، قد كتبه بناء على طَلب ورده من (واسط) من بعض أهل الدين والخير الذي طلب منه أن يكتب له عقيدة فاستعفاه الشيخ ودله على بعض كتب بعض أهل العلم ، فأبى إلا أن يكتب له هو فكتب له هذه العقيدة في جلسة بعد صلاة العصر ، هكذا قال الشيخ نفسه كما حكي بعض من ترجم للشيخ[1] (صدق أو لا تصدق) ولا أظنه يجهل شيخ الإسلام ابن يتيمة حتى يحتاج إلى التعريف به وهو شمس الضحى يدركها حتى ضعيف البصر .

وأما الكتاب الثاني : (شرح العقيدة الطحاوية) فهو من أوسع الكتب في بابه ومرجع مهم ، وهذا الكتاب يدرس في كليات الجامعة الإسلامية وفي غيرها من بعض كليات الجامعات السعودية ، ومؤلفه أحد تلامذة الحافظ ابن كثير ، وقد أخفى اسمه لظروفه الخاصة التي كانت تحيط به وقت تأليفه للكتاب ، والكتاب عبارة عن مجموعة نقول من بعض كتب شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم ، ومن كلام أستاذه الحافظ ابن كثير ، مع ما يضيف إليه المؤلف من عنده .

والدرس الموجز الذي أهديته له ليجد في هذين الكتابين مدعماً بالأدلة النقلية والعقلية ، وإن وفقه الله واقتني الكتابين ودرسهما دراسة واعية مدة كافية فسوف يخرج على المجتمع بوجه آخر **وبأسلوب آخر وبلهجة** أخرى هادئة ، وليس ذلك على الله بعزيز لأنه على كل شيء قدير ، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن سبحانه

(١) هو الحافظ بن عبد الهادي في كتابه العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية .

(ج) أما قوله بأن الرسول عليه الصلاة والسلام حلف بغير الله تعالى فقال (أفلح وأبيه إن صدق) أو (دخل الجنة وأبيه إن صدق) فمن أفظع وأقبح ما نطق به لسانه في تلك الأمسية ، عفا الله عنه ، ولست أدري كيف خفيت عليه الأحاديث الكثيرة التي وردت في النهي عن الحلف بغير الله ؟ .

وفي بعض تلك الأحاديث التصريح بالنهي عن الحلف بالآباء وفي بعضها التصريح بأن الحلف بغير الله شرك ، وهي كثيرة تبلغ نحو أربعة أحاديث .

أعود فأقول : كيف لم يطلع على تلك الأحاديث أو على واحد منها ، وقد اطلع أو سمع الحديث الذي استدل به ؟ أو أنه اطلع عليها كله ولكنه اختار هذا الحديث لأنه وافق ما عنده أو وافق مألوفه ففرح به ؟ .

وهنا مسألة هامة جداً أستحسن أن أذكرها له ولأمثاله لعل الله ينفعه بمعرفتها . وهي : أن من عمل بنص من الكتاب أو من السنة لكونه وافق هواه ، فلا يعد عاملاً بذلك النص وإنما عمل بهواه بدليل أنه يسهل عليه مخالفته أو مخالفة نص آخر إذا خالف هواه فهو متبع لهواه في كلتا الحالتين ، ليس متبعاً للنص كما ترى ، وأخشى أن يكون ما نحن بصدده من هذ القبيل والله المستعان .

هذه قاعدة عامة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض كتبه فعليك بها ، ثم هناك بعض تلك الأحاديث التي نهى فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام عن الحلف بغير الله :

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » رواه مالك والبخاري ومسلم وأسحاب السنن .

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رجلاً يقول لا والكعبة فقال ابن عمر ، لا تحلف بغير الله فإني سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » رواه الترمذي وحسنه ورواه ابن حبان وصححه ورواه الحاكم فقال صحيح على شرط الشيخين وفي رواية الحاكم : سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : « كل يمين يحلف بدون الله شرك » .

(٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قل : « لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغير الله صادقاً » رواه الطبراني موقوفاً وقال المنذري رواته رواة الصحيح .

وقال بعض أهل العلم تعليقاً على هذا الأثر ، وذلك لأن الحلف بغير الله كفر أو شرك كما صرح به الحديث السابق ، والحلف بالله وهو كاذب معصية ولها كفارة ، وبين الأمرين فرق كما ترى .

(٤) وعن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « من حلف بالأمانة فليس منا) رواه أبو داود .

وهذه الأحاديث كما ترى صريحة الدلالة في عدم جواز القسم بغير الله . وأما حديث ابن عمر فصريح الدلالة على أن القسم بغير الله شرك .

ولتكون الفائدة أكمل أفيدكم بأن الحلف بغير الله من أنواع الشرك الأصغر الذي لا يخرج مرتكبه عن الملة إلا بضميمة معان أخرى . ويطلق عليه أهل العلم والفقه في الدين شرك دون شرك كما يقال كفر دون كفر وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .. ومعرفة هذه الأمور بالتفاصيل المذكورة في مواضعها مع أمثلتها أمر له أهميته ومن لم يعرف ذلك يغلب عليه التخبط والاضطراب كما رأيت .

والنوع الثاني : الشرك الأكبر الذي يخرج مرتكبه عن ملة الإسلام ، وحقيقته صرف نوع من أنواعه العبادة لغير الله تعالى أو بعبارة أخرى اتخاذ غير الله نداً ومعبوداً ، لأن هذا التصرف يتناف وكلمة والتوحيد (لا إله إلا الله) كما لا يخفى على طالب علم .

ومن أنواع العبادة الاستغاثة وهي دعاء المضطر لغير الله تقرباً ومن ذلك التشريع من التحريم والتحليل كما تقدم وأرجو أن تعتبر هذه القطعة ملحقاً للهدية وبالله التوفيق .

والبحث معروف في موضعه لدى طلاب العلم ، وهو باب هام جداً ومع ذلك قد يخفى على كثير من المنتسبين إلى العلم . والله المستعان .

وأما الحديث الذي فهم الشطي منه أن الرسول حلف بغير الله وحاشاه وهو

الذي نهى عنه كما علمت . فالحديث في صحيح مسلم ، وقد استشكل أهل العلم معناه ومراده ، وموقفهم من مثل هذه النصوص التي ظاهرها التعارض أن يوفقوا بينها بما لديهم من الفقه في الدين ، بالطريقة المعروفة عندهم في مادة (أصول الحديث) .

فالحديث الذي نحن بصدده صحيح ، والأحاديث التي خالفها صحيحة أيضاً ، فكيف التوفيق بينها وبينه ؟!! .

يجيب على هذا الاستشكال الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه (فتح الباري شرح صحيح البخاري) وقد قيل في حقه (لا هجرة بعد الفتح) تعبيراً عن مكانته ومنزلته العلمية .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

فإن قيل ما الجامع بين هذا وبين النهي عن الحلف بالآباء ، أجيب بأن ذلك كان :

(١) قبل النهي ، قلت : وعلى هذا القول يكون الحديث منسوخاً ومعرفة الناسخ والمنسوخ أمر له أهميته لدى طلاب العلم .

(٢) أو بأنها كلمة جارية على اللسان لا يقصد بها الحلف ، كما جرى على لسانهم (عقرى – حلقي) يقال ذلك للمرأة إذا كانت مؤذية أو مشئومة . أي عقرها الله وحلقها حلقاً ، هذا أصل المعنى وجعلوا بعد ذلك يطلقون هذه الألفاظ دون قصد للمعنى الأصلي .

(٣) أو فيه إضمار (اسم الله) كأنه قال – (ورب أبيه) – وهذا النوع من الإضمار أو الحذف معروف عند أهل اللغة ولا إشكال فيه هذه هي أوجه التوفيق التي ارتضاها الحافظ ابن حجر مع ذكره لأوجه أخرى لم يرتضيها[1] .

إسلام الخميني ليس بالإسلام

وأخيراً أدركت من مناقشة الشطي للمتطرفين من الخوارج والشيعة وفروعهما

(١) فتح الباري الجزء الأول ص ١٠٧ حديث رقم ٤٦ .

حرصه الشديد على الدعوة إلى ما يراه صالحاً ونافعاً كما هو حريص على إنكار ما يراه منكراً يجب إنكاره ، وعلى الرغم من ذلك فقد فاته – ولست أدري سبب ذلك – أن يوجه نصيحته وتوجيهاته إلى أولئك الذين تطرفوا تطرفاً متطرفاً – لو صح التعبير – والذين لو تركوا وما أرادوا ولم يؤخذ على أيديهم لأوقعوا عوام المسلمين وأشباه العوام من المثقفين السذج الذين لم يدرسوا الإسلام كما يجب في حيرة ولبس في مفهوم الإسلام ذاته لأنهم كثيراً ما يتحدثون عن الإسلام ومفهوم الإسلام وهم لا يفقهونه ، كما يتحدثون عن حقيقة الإسلام والجهاد في الإسلام وهم بحاجة إلى من يشرح لهم ما يريدون شرحه لغيرهم ، لأنهم من جملة الأنصاف الذين تحدثنا عنهم سابقاً ، وقد ينزلون أحياناً إلى الأرباع .

وعلى سبيل المثال أخذوا يتحدثون في الآونة الأخيرة عن الخميني وإسلامه ، وكثيراً ما يمجدون إسلامه . وإسلام الخميني ليس بإسلام في نظرنا ولا يلتقى مع إسلامنا الحق الذي أنزله الله في كتابه وفيما أوحي به خاتم رسله محمد عليه الصلاة والسلام ، لا يلتقي معه إلا في (اللفظ) فقط أما في حقيقته وجوهره ، أما في عقيدته وكثير من أحكامه فهو في واد والإسلام في واد آخر ، فلا يلتقيان كما قلت ، يدرك ذلك كل من درس الإسلام وفهمه جيداً ثم اطلع على ما جاء به الخميني من وحي أئمته وفهمه أيضاً . وتمجيد هذا الإسلام الوضعي وتحبيذه بل دعوة الناس إليه يعتبر في نظرنا تضليلاً للناس وإبعاداً لهم عن الإسلام الحق وتزييناً لهم بالباطل ، لأن الحق لا يتعدد كما هو معلوم . **﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾**(1) .

وإسلامنا الذي ندعو إليه هو الاستسلام لله بالطاعة ، وعبادته عبادة خالصة بعيدة عن شوائب الشرك وتجريد المتابعة لرسوله ﷺ ، وهذه المعاني معدومة أو ضعيفة في إسلام الخميني ، وإذا كان ذلك كذلك ، فتمجيد هذا الإسلام دعوة إلى الباطل ، وإبعاد للخلق عن الدين الحق ضرورة عدم اجتماع الشيء مع نقيضه .

ولو أخذنا نسوق أدلة مادية لا تقبل جدلاً لندلل على بطلان إسلام الخميني لاحتاج الأمر إلى تأليف كتاب مستقل بالموضوع ، فلنقتصر على ذكر ما لابد من ذكره ، فنوجز ذلك في الآتي :

(1) سورة آل عمران الآية : ٨٥ .

(١) إن الله اصطفى لتبليغ دينه إلى الناس نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام وختم به الرسالة ، فبلغ عليه الصلاة والسلام رسالة ربه كما أمر ﴿ **يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾[1] وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى – بعد أن أكمل الله لنا الدين وأتم لنا النعمة – ترك لأمته كتاب الله وسنته عليه الصلاة والسلام في أيدي رجال أمناء قد رضي الله لهم أن يكونوا خلفاءه من بعده على هذه الأمانة العظيمة ، فخلفوه فعلاً وحافظوا على الأمانة كما يجب ، وبلغوها لمن بعدهم بكل إخلاص وأمانة وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، وسماهم الرسول ﷺ (الخلفاء الراشدين المهديين من بعده) . وتعتبر أفعالم وأقوالهم (سنة متبعة) عند أهل السنة ، كما تقدم .

وهل تعلمون موقف الخميني من هؤلاء الراشدين ؟ يعتبر هؤلاء الخلفاء الراشدون في إسلام الخميني خونةً وكفاراً ، إذا استثنينا علياً وأولاده عند بعض أتباعه ، ويلقب أهل السنة أبا بكر وعمر (بالشيخين) وأما عند الروافض قوم الخميني فهما (صنما قريش) ، قاتل الله الروافض ومن يشايعهم .

وهل يعلم هؤلاء الروافض وشيعتهم ماذا يقول علي رضي الله عنه في أخيه أبي بكر الصديق رضي الله عنهم : (رضيك رسول الله لديننا وكيف لا نرضاك لدنيانا) . يعني إذا كان الرسول ﷺ قد قدمك لتصلي بالناس إماماً في حياته والصلاة عمود الدين فكيف لا نرضى أن تتولى شئون الخلافة فينا ؟ رضي الله عنهم جميعاً(*) .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٦٧ .

(*) **تعليق** : ما ذكره فضيلة صاحب المقال إنما هو رواية بالمعنى . ونص القصة التي فيا قول علي رضي الله عنه كالآتي : (وقال علي والزبير – ولعل ذلك بعد المعاتبة التي جرت بين أبي بكر وعليّ : ما غضبنا إلا أن أخرنا عن المشورة ، وإنا لنرى أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله (ﷺ) ، وإنه لصاحب الغار ، وثاني اثنين ، وإنا لنعرف له شرفه ومنه ، ولقد أمره رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو حيّ ، وذكر غير (ابن عقبة) أن أبا بكر قام في الناس بعد مبايعتهم إياه يقيلهم من بيعته ويستقيله ما تحمله من أمرهم .

كل ذلك يقولون له : والله لا نقيلك ولا نستقيلك ، وروي عن الحسن البصري عن عليّ رضي الله عنه قال : قدم رسول الله عليه الصلاة والسلام وأمر أبا بكر رضي الله عنه فصلى عنه بالناس ، وإني شاهد غير صائب ، صحيح غير مريض ، ولو شاء أن يقدمني لقدمني ، فرضينا لدنيانا من رضي الله ورسوله لديننا) – اهـ من مختصر سيرة الرسول ﷺ لمجدد القرن الثاني عشر محمد بن عبد الوهاب رحمه الله – ص ٤٠٨ (في ذكر سقيفة بني ساعدة) « المجلة » .

هذا موقف علي بن أبي طالب من أبي بكر الصديق رضي الله عنهم . بالاختصار ، أما الخميني ففي إسلامه لا يقبل أي حديث يأتي من طريق أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة ، اللهم إلا ما كان من طريق علي بن أبي طالب وأولاده عند بعضهم ، وأما عند بعض غلاة الروافض من قوم الخميني فلم يقف الأمر عند هذا الحد بل خطأوا جبريل عليه السلام أمين الله على وحيه (إذا لم تستح فاصنع ما شئت) حيث زعموا فيما – زعموا وما أكثر مزاعمهم – أن الوحي كان في الأصل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، إلا أن جبريل أخطأ فأتي به إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، فكان الواجب على الإمام علي أن يطالب بهذا الحق ، فحيث لم يطالب بحقه فقد ضاع الحق بسبب إهماله ، فهو كافر ، وبقية الصحابة كفار لأنهم لم يؤمنون بنبوة علي . وهذا الباطل المركب من القول والاعتقاد هو الذي ورطهم في رد أحاديث رسول الله ﷺ كلها ، بدعوى أنها كلها رواية قوم كفار .

وبعد : فهل بعد هذا الكفر من كفر ؟!! وهل لأحد أن يقول بعد هذا أن أصولنا وأصول الروافض واحدة ؟!! وإن فعل ذلك أحد فتلك مكابرة ومغالطة كما لا يخفي ، ومن أراد مزيد البحث في هذه النقطة فعليه مراجعة (مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة) للسيوطي ، والكتاب من مطبوعات الجامعة الإسلامية للتوزيع .

وهاك نص كلام الإمام السيوطي وهو يتحدث عن الرأي الفاسد الذي يرى عدم الاحتجاج بالسنة .

قال رحمه الله : (وأصل هذا الرأي الفاسد أن الزنادقة وطائفة من غلاة الرافضة ذهبوا إلى إنكار الاحتجاج بالسنة والاقتصار على القرآن ، وهم في ذلك مختلفوا المقاصد . فمنهم من كان يعتقد أن النبوة لعلي وأن جبريل عليه السلام أخطأ في نزوله إلى سيد المرسلين ﷺ ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، ومنهم من أقر للنبي ﷺ بالنبوة ولكن قال : إن الخلافة كانت حقاً لعلي فلما عدل بها الصحابة عنه إلى أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين قال هؤلاء المخذولون – لعنهم الله – كفروا حيث جاروا وعدلوا بالحق عن مستحقه وكفروا لعنهم الله علياً رضي الله عنه أيضاً لعدم طلبه حقه . فبنوا على ذلك رد الأحاديث كلها لأنها عندهم بزعمهم من رواية قوم كفار ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وهذه آراء ما كنت استحل حكايتها لولا ما دعت إليه الضرورة من بيان أصل هذا المذهب الفاسد الذي كان الناس في راحة

منه من أعصار[1] .

(٢) إن موقف الخميني وأتباعه من الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها ، معروف لدى طلاب العلم في قصة الإفك وهم لا يؤمنون ببراءتها ، وقد زعموا فيما زعموا أنها الشجرة الملعونة في القرآن . وموقفهم ذلك من الصديقة المبرأة يعتبر تكذيباً للآيات القرآنية التي نزلت من فوق سبع سموات في براءتها وبالثناء عليها رغم أنف الخميني وأنوف أتباعه من الآيات والحجج في طهران . وتكذيب كلام الله كفر لا يختلف فيه اثنان ولا ينتطح حوله كبشان ، كما يقولون .

(٣) يعتقد الخمينيون أن أئمتهم أفضل من الأنبياء والمرسلين حتى من أفضلهم وخاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام ومن الملائكةلا الكرام الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون ، هذا ما صرح به الخميني نفسه (في كتابه الحكومة الإسلامية) راجع الكتاب المذكور لتجد النص التالي : ص ٥٢ .

(الولاية التكوينية)

وثبوت الولاية والحاكمية للإمام (ع) لا تعني تجرده عن منزلته التي هي له عند الله ، ولا تجعله مثل من عداه من الحكام ، فإن للإمام مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون ، وإن من ضروريات مذهبنا أن لائمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل . وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث ، فإن الرسول الأعظم (ص) والأئمة (ع) كانوا قبل هذا العالم أنواراً فجعلهم الله بعرشه محدقين ، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله ، وقد قال جبريل - كما ورد في روايات المعارج -: لو دنوت أنملة لاحترقت وقد ورد عنهم (ع) : إن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل) ا هـ .

جرأة لا تقف عند حد وافتراء صارخ وكفر سافر ليس على وجهه غطاء .

(٤) إن ولاء آل البيت لا يتم في إسلام الخميني إلا بعداء بقية الصحابة وفي

---

(١) مفتاح الجنة للسيوطي ص ٣ ، ٤ طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة .

مقدمتهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . أما صدور أهل السنة فقد وسعت لمحبة جميع الصحابة من أهل البيت وغيرهم . ولله الحمد والمنة .

وبعد : فإن تمجيد إسلام الخميني والحالة ما ذكر يتنافى وواجب النصح لعامة المسلمين ، وتسمية حركته الفوضوية (ثورة إسلامية) نوع آخر من تضليل العوام وأشباه العوام ، لأن ذلك يوهم أن سبيل الوصول إلى الولاية في الإسلام يكون بطريقة ثورة مسلحة ومدمرة تأكل الأخضر واليابس وتقضي على البريئين قبل المجرمين . ولا ترى إلا الوصول إلى الكرسي بأي وسيلة على أساس (أن الغاية تبرر الوسيلة) وهو أسلوب المستغلين للفرص لحاجة في أنفسهم .

وأما سبيل الوصول إلى الولاية في إسلامنا إنما يكون بالشورى والتفاوض ، ثم الاختيار ، فإذا تم اختيار الوالي الصالح فتولى أمور المسلمين وجبت طاعته ما لم يأمر بمعصية الله ولا يجوز الخروج عليه ما لم يظهر كفراً بواحاً عليه دليل من الكتاب والسنة . هذا هو نظام الإسلام في أمر الولاية بالاختصار . ثم إن الإسلام ينهي عن الفساد في الأرض وعن تقتيل النساء والأطفال والشيوخ العاجزين حتى في الحروب التي بين المسلمين والكفار ما لم يحارب هؤلاء كغيرهم .

وإذا فتح المسلمون بلداً ما عنوة وخضع أهل البلد لأحكام الإسلام وأعطوا الذمة يحرم الإسلام دماء أهل الذمة وأموالهم . ولا يحقد الإسلام على ما قد يحصل من الأعداء في حالة الحرب ، بل يعفو ويصفح . والجميع يعرفون موقف رسول الله ﷺ من أهل مكة يوم الفتح . أما إسلام الخميني فيخالف هذه التعليمات الرحيمة كلها ، فيخرب ويدمر ويقتل النساء والأطفال والشيوخ وهم مسلمون في الجملة ، إذا خولف شيء من تعليميات الثورة المزعومة ونظامها .

وهؤلاء المتطرفون إذا قيل لهم لماذا هذا التضليل ؟ ولماذا هذا التمجيد العاطفي لإسلام الخميني ؟ ولماذا هذا التخبط ؟ قالوا : نحن نريد خلق مجتمع إسلامي عام لا يتخلف عنه أي فرد ينتمي إلى الإسلام ولو بالاسم . سنياً أو رافضياً . أو أو .

فمثلهم كمثل الذي دخل سوقاً غاصة بالناس رجالاً ونساءً ليدعوهم إلى الصلاة فجعل يناديهم قائلاً : أيها الناس إننا أنشأنا لكم مسجداً في غاية السعة فهلموا جميعاً لأداء الصلاة فيه ولا يتأخرن أحد وليأت كل واحد على ما هو عليه . المتوضيء

بوضوئه ، والمحدث بحدثه ، والجنب بجنابته ، بل حتى الحائض والنفساء لأننا لا نرد أحداً ، إذ قصدنا خلق مجتمع إسلامي عام شامل وكلنا إخوان مسلمون ، ولا داعي للتشدد لأن التشدد يفرق بين صفوف المسلمين ، وبينما هو يرفع عقيرته بهذا الهذيان فوجيء بداعية ناصح ممن رزق الفقه في الدين وهو يقول للناس : أيها الأخوة المسلمون حان وقت الصلاة فقوموا فتوضأوا ثم صلوا صلاتكم حيث ينادي لها ، فأخذ يعلمهم الطهارة وأنها شرط لصحة الصلاة فصاحب المجتمع المزعوم يستمع إليه بدهشة وهو يفكر ليستحضر الأسلوب الذي يستعمله ضد هذا الداعية . إنه فكر وقدر ثم صرخ صرخة شيطانية قائلاً : (أيها الأخوة المسلمون لا تسمعوا لهذا الكلام والغوا فيه لعلكم تتغلبون على هذا المتشدد وتسكتونه) إلى آخر تلك الصيحة اليائسة .

أيها القراء الكرام ، أنشدكم الله أي صاحبي السوق على الحق ؟!!

أما أحدهما فقد دعا الناس إلى أداء الصلاة بوضوء وبطهارة كاملة وبيّن للناس أن الطهارة شرط لصحة الصلاة ، وقد نصح . وأما الآخر فقد أوهم الناس أن المهم والمطلوب اجتماع الناس في صعيد واحد تحت اسم (المسلمين) فيؤدون الصلاة على ما هم عليه قائلاً :

لأننا نهينا عن التكلف ، والدين يسر ولم يجعل الله علينا في الدين من حرج ، يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا ، وهلم جرا إلى آخر تلك الفتوحات الجديدة .

هكذا أترك الحكم على صاحبيْ السوق للقراء وهم الحكم العدل إن شاء الله لأنهم من طلبة العلم في الجملة ، ولأن الحق أبلج والباطل لجلج فهما لا يتشابهان . وبالله التوفيق .

يا سبحان الله !

كم يخجل أو يحزن أن يتبع المرء هواه أو هوى جماعة معينة يريد إرضاءها فيسوق ما يشاء من الآيات والأحاديث محرفاً للنصوص ومحملاً لها ما لا تحمل من المعاني !! ، وهو نوع من السخرية بالنصوص وهو بالتالي دليل واضح على ضعف إيمان صاحب هذا التصرف لأنه لو كان يؤمن بالله حق الإيمان ويقدره سبحانه حق قدره ويحب

رسوله ﷺ حق المحبة ويقدره ، لما تجرأ على هذا النوع من الاستدلال والتحريف والتضليل .

والله نسأل وباتباع نبيه نتوسل ، أن يعصمنا من الانحراف والإلحاد ويمسكنا هدي نبيه حتى نلقاه ، إنه سميع قريب مجيب .

وبعد :

في نهاية هذه المناقشة وقد تبدو حادة أحياناً لبعض الناس ، أرى لزاماً على أن أوجه كلمة موجزة أرجو أن أكون فيها ناصحاً وصادقاً .

أوجه هذه الكلمة إلى أخواننا الدعاة في كل مكن وتحت أي عنوان طالما يدعون إلى الله جميعاً ويعملون لإظهار الحق والنصح لعامة المسلمين .

على كل داعية إذا كان ناصحاً لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم أن يسعى في أسباب توحيد صفوف الدعاة إلى الله بعيداً عن الأنانية وحب الزعامة وعشق المناصب ، كما يسعى في منع أسباب التحزبات التي تؤدي إلى الخلافات والنزاعات الداخلية فتعرقل سير الدعوة ، بل تؤدي إلى بلبلة العوام وأشباه العوام الذين يجهلون موقع الحق ، ولا يمكن بحال من الأحوال تحقيق الوحدة المنشودة والتي لابد منها لنجاح الدعوة إلا بأمرين اثنين :

(١) وحدة المصدر في معرفة (العقيدة الإسلامية) واعتماد ذلك المصدر وحده في بحث أي معنى من معاني العقيدة الإسلامية وعدم إغفاله ، وبذلك تسلم عقيدة المسلم من الزيف والإلحاد والضلال وهذا المصدر هو الوحي ، لا شيء ينافسه ، وأما العقل فلا يكون ، أساساً ولا يعطل ، هكذا بالاختصار .

نقول هذا القول استناداً إلى قوله عليه الصلاة والسلام « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي » ، وقوله عليه الصلاة والسلام « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، وإياكم ومحدثات الأمور » الحديث .

فالخروج على هذا المصدر في معرفة العقيدة وأحكام الشريعة والتماس الحق والهدى والفلاح في غيره ضلال بيّن لأن من سنة الله التي خلت في عباده أن من التمس

الهدى في غير كتابه فإن الله يضله ولا يهديه سبيلاً ، وقد ورد في هذا المعنى أثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يتحدث عن القرآن إذ يقول : (من التمس الهدى في غيره أضله الله) .

(٢) توحيد منهج العمل في سبيل الدعوة إلى الإسلام ولا يوجد منهج أمثل وأصلح ، بل لا يوجد منهج صالح غير منهج سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومن اقتفى أثرهم وعمل عملهم لأن واضع هذا المنهج هو رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والرغبة عن منهجه تتنافى والإيمان به قطعاً ، والذين نقلوه هم أولئك السادة الدين اختارهم الله لصحبة نبيه وأهَّلهم للخلافة عنه عليه الصلاة والسلام ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وإخوانهم رضوان الله عليهم .

فهل يوجد مسلم يعتقد عدم صلاحية هذا المنهج ؟!! .

ومن هنا نعلم أن بعض التصريحات التي يدلي بها بعض المفتونين بالغرب أو بالشرق وقوانينهم (بأن الإسلام ليس فيه ما يحل المشاكل المعاصرة) لا يفسر إلا بالكفر بالإسلام وبرسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ، ضرورة أنه لا يكون اليوم ديناً وهدى وصلاحاً وبرأ ما لم يكن كذلك في عصر الوحي ، وقد صدق الإمام مالك ، حيث يقول (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها) ، وكلنا نعلم أنما صلح أول هذه الأمة بالتمسك بهدي نبيهم دون تغيير أو تبديل ، لأن الله قد أكمل الدين وأتم النعمة على المسلمين قبل أن يقبض إليه نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام إذ يقول سبحانه ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ . (سورة المائدة : ٣)

وهؤلاء السادة الذين حملوا إلينا هذا الدين هم خير هذه الأمة بشهادة رسول الله لهم عليه الصلاة والسلام « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

ولو وافق الدعاة جميعاً للرجوع إلى هذا المنهج الأصيل والتقيد به في دعوتهم وعملوا به في أنفسهم أولا عقيدة وعبادة وسلوكاً ، لكان خيراً وبركة على الأمة ، ووقاية لهم من كل شر ، وقد صدق من قال :

(وكل خير في اتباع من السلف وكل شر في ابتداع من خلف)

ويوم أن تلتقي دعوة الدعاة عند هذين العنصرين بتوفيق الله ، يومئذ يتمتع المجتمع الإسلامي المعاصر ببركة اتباع السنة التي كان عليها سلف هذه الأمة لتغيير حياتهم وليعيشوا حياة غير هذه الحياة وليس ذلك على الله بعزيز .

والتاريخ خير شاهد لما قلت . ولست أتكلف لضرب الأمثلة لما ذكرت أكثر من أن أشير إشارة إلى تلك الدعوة الفتية والتي نستظل اليوم بظلها ونرى أثرها واضحاً في هذا البلد والتي جددت للناس دينهم وعقيدتهم في القرن الثاني عشر ، ناهجةً منهج السلف الصالح .

وقد هاجمت تلك الدعوة الجاهلية بألوانها وأشكالها في باب العقيدة والعبادة والأحكام ودعت إلى إخلاص العبادة لله وحده وتجريد المتابعة لرسول الله عليه الصلاة والسلام وأن يكون الحكم لله وحده في أرضه وبين عباده ، فعلت الدعوة كل ذلك دون التفات إلى ما يترتب على ذلك من عداء عالمي إيماناً من حملة تلك الدعوة بأن الله معهم وسوف يجعل العاقبة لهم ، لأن العاقبة للمتقين دائماً . بدأت الدعوة عملها في شرقي شبه الجزيرة ثم شملتها كلها حتى شع نورها على أنحاء العالم شرقاً وغرباً ، وقد هاجت الدنيا فقامت وقعدت وصرخت في وجه الدعوة الجديدة والمجددة زاعمة أنها جاءت بدين جديد يخالف دين الآباء .

وأصحاب الدعوة الجديدة لا يلتفتون إلى هذا الهيجان والصراخ بل هم ماضون في دعوتهم ، وكأني بهم وهم يقولون : (ليس كل من ينبح عليه الكلب لصاً) كما يقولون : وهذه الدعوة الشجاعة والفريدة في ذلك القرن وما بعده قد بارك الله فيها حتى قامت بها دولة إسلامية في قلب الجزيرة واتخذت القرآن دستوراً لها ، إيماناً منها بأنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ألا (وهي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله) مجدد القرن الثاني عشر . وذلك من بركات اتباع ذلك المنهج السلفي المبارك .

فعلى الدعاة الصالحين في الوقت الحاضر ، أن يحذوا حذو هذه الدعوة المباركة وأن يتأسوا بذلك الداعية في غيرته على دين الله وحرصه على نصح عباد الله ، وصبره فيما لاقاه في سبيل الدعوة إلى الله سبحانه وفي وضوحه وصراحته ، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير ما يجزي به المصلحين الصابرين .

أيها الدعاة سيروا على بركة الله في أداء واجب الدعوة لعباد الله مقتدين برسول الله ﷺ ومقتفين آثار أصحابه دون تبديل أو تغيير للخطة الأصلية ، اللهم إلا ما كان من أسلوب يتطلبه الوقت والمكان – والله المستعان – .

والخير أردت ، والنصح قصدت والله من وراء القصد .

وصلى الله وسلم وبارك على إمام الدعاة الصالحين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *



المحتـويات

* * *

رقم الإيداع ٩١٦٨ / ١٩٩٣ م

الترقيم الدولى
I.S.B.N. 977 - 5242 - 16 - 9



مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ ت : ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانىء الأندلسى ت : ٦١٨١٣٧